

بجته التأليف والترجمة والنشر

# تس سِلِيلَة دُرِّ بَرْقِیل

تأليف

توماس هاردي

وتعريب

فخری ابوالسعود

العدد الأول

عیون الأدب الغربی



بمَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالترجمة والنشر

# نَسِ سَلِيلَةَ دُرِّ بَرْفِیل

تأليف

توماس هاردي

وتعريب

فخری أبو السعود

العدد الأول

عیون الأدب الغربی

القاهرة  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر  
١٩٣٨



# توطئة

## توماس هاردى

حياته وأدبه

مبارة :

ولد توماس هاردى فى مقاطعة دورست سنة ١٨٤٠ ، وعمر ثمانية وثمانين عاما ، ومات سنة ١٩٢٨ ، فهو قد شب فى إبان العصر القكتورى ، وشهد تصرم ذلك العصر ، وشهد عهد ما قبل الحرب العالمية وما بعدها .

ونشأ هاردى ضعيف البنية محبا للعرلة ، وتلقى تعليمه فى المقاطعة التى ولد بها ، وكان فى صغره يكتب رسائل القرويات الأميات إلى أحبائهن ، فأكسبه ذلك بصرا بنفوس النساء جعله فيما بعد بيرع فى تصوير الشخصيات النسوية فى قصصه فوق براعته فى تصوير شخصيات الذكور ، شأنه فى ذلك كله شأن رتشارد سن أبى القصة الإنجليزية الحديثة .

وأنتم هاردى دراسته فى إحدى كليات لندن حيث أصبح مهندسا معماريا ، وكان ذا ميل شديد إلى المباني ، مشغوبا بطرازات الكنائس المتيقة ، وبمصطلحات الممار ، وبأوصاف المباني والكنائس تحفل بعض قصصه .

وبدا هاردى فى شبابه ينظم الشعر ، وكان المذهب السائد إذ ذاك مذهب تنيسون المرم بتنميق الديباجة وإحكام الأوصاف ، وكان شعر هاردى مناقضا لذلك تمام المناقضة فلم يلق نجاحا ، فهجر الشعر إلى القصة وما زال يمالجها حتى أصاب فيها نجاحا عظيما ، وذاعت شهرته وهو يناهز الثلاثين من عمره ، رغم أنه

كان شديد التسامى بموضوعه وأسلوبه لا يكتب إلا ما يسيغه خاصة المتعلمين ، ولا يلتقى بين العامة ورواجا ، وأدر عليه أدبه القصصى من المال ما مكنته من اعتزال العمل والرجوع إلى قريته حيث توفر على التأليف ، بعيداً عن زحام العصر هائئاً بجمال الطبيعة والسكون ، فأخرج عدداً عديداً من القصص والأفصيص ، أشهرها رواية تس سلية دربرثيل هذه ورواية يهود المغمور ، ثم هجر هاردى القصة وعاود الشعر على كبرة فأبدع فيه ووصف من أحوال الحب وحرارة العاطفة ما يعجز عنه الشبان في ريمان العمر ، حتى عد إمام الكتاب والشعراء معاً في عصره ، ومعظم النقاد يرفعونه إلى المرتبة الأولى بين القصصيين ، ويقصرون به عن مثلها بين الشعراء أما هو فكان يمتاز بشعره دون نثره .

وكان توماس هاردى كغيره من المتشائمين المنقبضين المرهق في الحس شديد الحذب على الطير والحيوان ، يحيط به في داره الريفية عدد منها بين أعصافير وكلاب ، فإذا نفق أحدها حفرو له مقبرة في حديقته ، وتزوج هاردى مرتين ، وقد كتبت امرأته الثانية تاريخ حياته بعد مماته .

### عصره :

وقد شب هاردى في عصر من أزمى عصور إنجلترا : وقد كالت حروبها ضد نابليون بالظفر ، وتوطدت لها سيادة البحار ، وصارت كلمتها الأولى في السياسة الدولية ، وكان الظفر بعد ذلك حليفها في حروب القرم والبور والحرب العظمى ، وكانت إنجلترا في رخاء مادي عظيم : لسبقها الدول في مضمار التطور الصناعي ، وكانت تجيش بشتى دعوات الإصلاح التي استتبعها ذلك التطور : من إصلاح في النظم الدستورية ، وتعميم للتعليم ، وتحسين لحالة العمال ، وهى أمور اشتغل بها أدياء ذلك العصر ، ومنهم دكنز وناكرى وتينيسون وبروننج وسونبرن وميريديث وكارليل وماتيو أرنولد ، وكلهم أدرك هاردى وبهم تأثر .

وكان عصر هاردى عصر تقدم في العلوم والاجتماعيات ، يتمثل في كتابات

دارون وهكسلي وسبنسر وجون ستوارت مل ، وكان لذلك التقدم العلمى أثره فى احتدام المشادة بين العلم والدين ، وظهر حركة إصلاحية دينية عرفت بحركة اكسفورد الجديدة .

وكان ذلك العصر عصر تجاوب شديد بين الأدب الإنجليزى والآداب الأوربية : كان كارليل وأرنولد يذيعان أدب الألسان ، وكان الأدب الفرنسى متمثلا فى كتابات رينان وتين وقصص زولا وموباسان يؤثر فى الأدب الإنجليزى ، ونالت قصص تولستوى رواجاً عظيماً فى إنجلترا حجب الأدباء فى الأدب الرومى ، وأثر إبسن القصصى الروجى فى القصة الإنجليزية فجعلها تنجى إلى مناقشة الشؤون الاجتماعية .

### تأثره بعصره :

تأثر هاردى بكل هاتيك العوامل المعاصرة التى تأثر الذى يهتبه له مزاجه النقبض وحسه المرهف وذكاؤه العظيم : تأثر بالحروب النابوليونية التى لم يكن صداها قد خفت فى الأذهان بعد ، فتناولها فى شتى قصائده ، وأورد ذكر الحروب والجنود فى كثير مما كتب ، وكان هاردى على إنسانيته الشاملة إنجليزياً وطنياً ، فنظم بعض الشعر فى حرب جنوب إفريقية ، والحرب العالمية ملؤها الحماسة القومية ، وإن كان بعيداً عن التعصب الدميم ، أو النزعة الاستعمارية التى كان يتصف بها معاصره كبلنج مثلاً .

أما الحياة العصرية الصاخبة التى تسيطر عليها السادة ويستخدم فيها المزاخرة التجارية والتسابق الصناعى ، فكان من شأنها أن تنفر نفس هاردى العيوف ، ومن ثم هجرها إلى القرية حالما استطاع ، ولم يشارك فى دعوات الإصلاح الاجتماعى ، وتحرير الأمم المجاهدة ، التى كان يشارك فيها معاصروه من الأدباء ، ولم يكن يمرض فى كتبه للمجتمع إلا لاسماً ، أو يشير إلى نقائصه إلا فى شمول واقتضاب .

على أن هاردى كان من أقطاب الثائرين على التزمت الكتورى فى الأخلاق وفى الأدب ، سبقه إلى ذلك ميريدىث وسويتيرن ، وتابعهما هاردى فجلب على نفسه غير قليل من حنق الجمهور ، بمعالجته مواضيع كموضوع رواية تس هذه ، ونمته إياها على غلاف الكتاب بالمرأة الطاهرة ، كما أنه من الثائرين على مدرسة تينسون فى الشعر التى كانت أغرقت فى النعومة اللفظية .

وتأثر هاردى بتقديم العلوم الحديثة كعلوم الأحياء والاجتماع والنفس : فرائت على كتابته دقة علمية ونزعة إلى التحليل النفسى ، وقد نشر دارون نظريته التى غيرت وجه العلم الحديث وهاردى يناهز العشرين من عمره ، وكان لكل ذلك أثره فى النظرة الواقعية التجريدية التى ينظر بها هاردى إلى العالم ، ورفضه كل عزاء أو إيمان أو رجاء ، وكان من عوامل نزوع هاردى إلى الواقعية أيضاً تأثره بالأدب الروسى فى شخص تولستوى ، والفرنسى فى شخص زولا وغيرها . وفضلا عن تأثره بتلك البيئة الفكرية المعاصرة ، تأثر هاردى بالتراث الأدبى الإنجليزى والتراث الإغريقى ، وكان معشوقه فى الأديين اسكليس وشكسبير وشلى ، فهو يتأثرهم فى مآسيه وأشعاره ، وإن كانت له فى هذه وفى تلك شخصيته الواضحة وطابعه الخاص .

### نظرة إلى الحياة :

تلك على الإجمال العوامل التى كونت نفسية هاردى وأدبه : حس مرهف ، وبنية ضعيفة ، وعصر زاخر ، ونهضة علمية ، وثورة فى الفكر والدين بدلت وجه العالم أمام أبناء عصره وزلزلت عقائد قرون ، وأدب أجنبى معاصر ، وتراث أدبى قديم حافل بأشئآت الصور وغرائب الأفكار ، وقد استوعب هاردى فى حياته الطويلة جانبا عظيما من كل هاتيك الثقافات ، وكان ذا بصر خاص بالتاريخ والآثار وتاريخ المسيحية ، وبدا أثر ذلك كله فى كتاباته ، مصبوغا بالصبغة القاتمة التى أجمه به إليها مزاجه : فقد كان هاردى متشائما شديد الإحساس بظلم القدر وفجائع

الحياة وعجز حيلة الإنسان في دولاب الوجود الدائر .

هذه هي الفكرة الغالبة الرائنة على قصص هاردى وأشعاره ، مأساة الوجود : أقدار عمياء باطشة ، ورغبات غريزية كائنة في نفوس البشر ، بل الأحياء جميعاً ، في التمتع بالحياة ، وتلك الأقدار تمصف بهذه الرغبات وتبددها وتمكسها على أصحابها ، لا عن عمد وقصد للنكاية ، بل عن عى وجهل وعدم مبالاة بتلك الرغبات أنجحاً أصابت أم خذلانا ، وتلك النفوس أنميا لقيت أم برحاء ، ومن ثم تكون الآلام وخيبة المساعي ووقوع الظلم بأقل الناس استحقاقاً له وفوت الفرص وامتناع الآمال ، ومن ثم أيضاً فجائع الفراق والموت والفناء الذى يأتى على كل الآمال والمساعي .

ولذا نرى هاردى في شعره وقصصه معاً دائماً يتفنن في اختراع مفجع المناظر والمواقف والأحداث : من تحول الحب وقسوته ، وسموم الغيرة وجناية الشهوة ، وحلول الشيب وزول البلى ونضوب الوفاء ، ويختار لكل تلك المواقف ما يناسبها من مناظر عابسة كالخة في الطبيعة الذابلة ، أو بين المقابر أو على فراش المحتضرين أو بين آثار الداهيين ، وينتقى لكل ذلك ما يلائمه ويؤديه من لفظ وعمر جاف باسر . وقد أثار هذا الأدب المنقبض العابس ثورة في الأفكار ونفورا في النفوس إبان انتشاره ، ورمى هاردى بالتشاؤم ، فرد في مقدمته لبعض كتبه يقول إنه ليس بالتشاؤم ، وإنما هو يصور الحياة على حقيقتها ، والواقع أنه يصور الحياة على حقيقتها ولكن في جانب واحد منها هو الجانب المؤسى ، ولعلنا نرى في آثاره فرحا إلا مخفوفاً بالشوائب وشيك الذهاب ، ولا ابتساماً إلا ابتسام السخر والإشفاق ، فلا يكاد القارئ لرواية تس مثلاً يذكر لها موقفاً ابتسمت فيه ابتسام غبطة وارتياح أو يذكر أنها تمتمت حتى في أسعد أيامها إلا تختما صريحا مشوباً بالفصص والحسرات .

شعره :

القارئ لشعر هاردى يشعر أنه شعر قصصى : فهو حافل بالأقاصيص المحكمة

النسج الموجزة العرض المفجعة المنزى على النحو السالف ذكره ، وأسلوبه الشعري شديد القسر خلو من كل تنميق ، يرمى فيه هاردى إلى إبراز المعنى فى أوجز لفظ وأشدّه ملاءمة للفكرة ، والفكرة عنده عادة عابسة كثيبة ، وهو يلتزم فى موضوعه جانب الحقيقة الواقعة لا يجاوزها إلى الخياليات والبطوليات ، بل هو أشد انقيادا للخيال الشعري وتجاوزا للحقيقة فى قصصه منه فى شعره ، ومن نماذج شعره الدالة على منزعه مقطوعة سماها « الصدفة » نظمها فى السادسة والعشرين يقول منها :

« لو أن إلها حاقا صاح بى من سمائه : ( أيها الشيء المتألم ! اعلم أن أساك لى غبطة ، وأن ما تخسر فى جبك أربحه فى بفضائى ! ) إذن لتجلدت لذلك وطويت النفس عليه ، ثم مت متدرا بالشعور بالظلم الذى لم أستأله ، مستشعرا بعض الراحة من علمى بأن كائنات أقوى منى قد ارتضى لى هذه الدموع التى أسفجها وقدرها على تقديرها ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فلم تتحطم السعادة ؟ ولم تذبذب خير الآمال التى نفرسها ؟ إنه القدر الآخرق يسد الطريق على الشمس والمطر ، والدهر يُلقى من رده بعد فرحة أنة ، وما كان ضر تلك القوى المتحركة الخرقاء لو نثرت النعم بدل الآلام فى طريق حياتى . »

فالسعادة فى هذه الحياة تتحطم ، وخير الآمال المغروسة تذبل ، لأن القدر الآخرق يججب عنها مستلزمات الحياة والنماء ، والدهر لاعب بالنرد يلقى من أصابه نعمة أو نقمة بغير حساب ، ويلج بالشاعر الحنق على هذه الأقدار العمياء ويود لو يعلم أن ما يصيب مساعيه من إخفاق إنما مرجعه إلى كائن شرير يعتمد نكابته . فلا يتاح له حتى التمرى بوجود ذلك الكائن والتأسى بالشعور بالظلم وإن لم يستطع للظلم دفعا ؛ نظم هاردى هذه المقطوعة فى ريمان الشباب ، ولكنها ظلت لسان حاله وجامع فلسفته فى بقية حياته وفى كل كتاباته .

## فصل :

نشأ هاردى فى عصر قد بلغت فيه القصة أوج تطورها ، وأصبحت أشد صور الأدب حظوة لدى القارئین ، ونبغ فى عصره من الأدباء من مارسوا القصة والشعر معاً ، مثل تاكرى وميريدىث ، وقد مارس هاردى تأليف القصص زهاء ربع قرن من الزمان ، أخرج فيه عدداً وفيراً من المآسى ، وكانت تس من أخريات ما كتب ، فهى ثمرة كل تلك التجربة الطويلة وأوج نضجه الفنى ، وإن كانت لا تمتاز عن سالفاتها بمذهب جديد فى الكتابة ، أو نظرة جديدة إلى الحياة وإنما تمتاز باتساع رقعتها وسموق بنائها ، وبعد مراميتها وإحكام صياغتها ، وقصصه كلها مهما اختلفت حوادث وشخصاً متباعدة فى تلك النظرة المتشائمة إلى مأساة الحياة .

فبطله هذه الرواية تس مثلاً ، فتاة كما يقول المؤلف طاهرة لا تريد إلا أن تتمتع بحياتها شأن كل الأحياء ، ولكن الظروف المحيطة بها حرب عليها : يلجئها فقر أبويها وإهمالها إلى احتراف عمل ، فما يزال بها مستخدمها حتى يفصلها أغرم ما تملك ، فإذا ما تماثلت من المقاييل النفسية والبدنية التى يفدحها به هذا الخطب وعولت على أن تحيا حياة ترهب إذا الصدقة تدفعها دفعاً إلى مقابلة سيد يبادلها الحب ويريدها على زواجه ، فتهم مراراً أن تخبره بماضيها الأليم فتخونها الزميمة والظروف ، حتى إذا ما أخبرته بمد الزواج هجرها وغادرها فى عوز ، وما يزال كدحها من أجل إخوتها الصغار حتى يلقى بها فى أحاييل مغربها الأول ، بعد أن يئست من عودة زوجها المحبوب ، فإذا عاد الزوج نادماً لاستلحاقها بلغ منها الحنق على مغوئها الذى أوهمها أن زوجها لن يعود ، واستدرجها بذلك إلى حثائه ، فتقتله وتؤخذ بجريمتها .

يمرض الكتاب هذه الأحداث فى سلسلة متتابعة الحلقات تستلزم السابقة منها اللاحقة ، فهى أحداث ينجم أحدها عن الآخر كما تتفاعل العناصر

الكيميائية التي لا مرد لتفاعلها ، وترى حتماً من الحتم على تلك الفتاة الطاهرة النفس الحسنة القصد ، أن تنحدر إلى لهوات الشقاء والشر والجريمة ، ثم يلفظها المجتمع اقتصاداً ، وجميع حوادث القصة مع ذلك عادية بسيطة لا خوارق فيها ولا أوابد في تحليلاتها النفسية .

ولا ينسى هاردي في مآسيه غير الآدميين من الأحياء ، ولا يفوته أن يصور فتك الأقدار العمياء القاسية بالحيوان والطير بل والحشرة : ففي أول روايتنا هذه وصف مقطوع لقتل الحصان « پرنس » ، وفي وسطها تصوير دام لمصارع الدراج المصيد ، وفي آخرها إشارة عاجلة إلى عنكبوت يرتد بين قسوة البرد والملاح الجوع .

ولولوع هاردي بتجسيم المول والفجيعة في رواياته ، يسلك بالقارى مسالك غريبة مشعرة بالرهبة لا يدري أين تنتهى به ، ويصف له طريقاً موحشاً كأن المؤلف نفسه لا يدري أين يؤدي ، ويصف له بناء غريباً ، وكأنه هو نفسه لا يدري لمن ذلك البناء وماذا يحوى من أسرار ، ويصف ضوضاء كأنه لا يدري مآناها ، وشبحاً قادماً في الطريق كأنه لا يعرفه ، ولا يعرف قصده أخيراً يريد أم شراً ، ثم هو على نزعة العلمية الدقيقة لا يتوانى عن استخدام الخرافات والأوهام التي يتداولها الريفيون ، ليثبث جواً من الرهبة في القصة ، وهو لا يكتفى بما يتكف حياة الأحياء من مآسى حتى يثبت روح الرهبة والفرع في الجماد : من قصر قديم منحوس ، أو مركبة كثيفة مشؤومة ، أو آلة بخارية سوداء تنعب في حقول لا تمهدا .

ومن وسائل هاردي التي يطرقها كثيراً ليصور عمى الأقدار وعبثها بمساعى الإنسان وعكسها مآربه عليه ، أنه ما يزال يفوت على أشخاص رواياته الفرص ، ويتيح لهم ما يريدون أو ما يصلح لهم ، ولكن بعد فوات وقته وضياع فرصته ، ويجعلهم يقدون العزم على الأمر مراراً ثم تخذلهم شجاعاتهم في اللحظة الرهيبة : انظر إلى تس مثلاً نحياتها سلسلة فرص ضائعة ، ومساع لا تتحقق إلا بعد فوات



الأوان ، وغزائهم تمقد ثم تنحل : فهي تلقى كلب الرجل الذى يصلح لها وترضاه لقاء عابراً فى أول القصة ، ولا يطارحها الحب إلا بعد أن يسبق السيف العذل ويبنى عليها ألك دربرثيل ، وهي تنهى خبر ماضيها إلى حبيبها فى رقعة فتخطه الرقعة ، وهي تزور والده شاكية مستعينة فتخطه ، ولا تبجى من رحلتها إلا الوقوع فى طريق ألك دربرثيل من جديد ، وهلم جرا .

تلك نظرة هاردى العامة إلى الحياة ، لا يخفف من وطأتها إلا ما تنسم به رواياته من روعة التصميم ، وجمال تصوير الطبيعة ، ودقة رسم الأشخاص ، وصدق النظرات النفسية والاجتماعية ، مما يجعل كل رواية منها قطعة من صميم المجتمع متحركة نابضة بالحياة .

وأبرع ما برع فيه هاردى وخدم به القصة روعة تصميم قصته : فقد كان هاردى يجمع اتساع الخيال إلى دقة الملاحظة ، في رسم رقعة رواياته واسعة شاملة ، ثم يركب فى داخلها كل دقيقة وكل تفصيل فى موضعه اللائق ، ترى القصة وكأنها البناء الشامخ المتناسق المتساند ، ولا غرو فقد كان هاردى مهندساً معمارياً يحذق وضع التصميم وتقسيم أجزائه .

فرواية تس مثلاً قطعة من الحياة لها معاهدها ومناظرها التى يتحرك فيها أشخاصها ، وتتوارر أحداثها بين ماض وحاضر ومستقبل ، وترى الأشخاص يتلاقون ويتفرقون ليمودوا فيلتقوا بعد زمن ، وكأن كلا منهم يعلم متى يظهر ، وماذا يقول ، ثم متى يختفى ويلوذ بالصمت ، وظهور الأشخاص من حين إلى آخر على هذا النحو ، وتكرر المناظر من آن إلى آن ، يربطان أطراف القصة ربطاً وثيقاً ، ويضيفان عليها حلة من الصدق والحياة .

انظر إلى إخوة تس أو أخوى كليلر ، أو أبويها أو أبويه ، أو رفيقاتها فى تلبويز ، كيف يظهر فى الوقت المناسب فيلقون ضياء على مختلف جوانب القصة . وانظر كيف يلتقى كليلر تس فى المرج الأخضر خارج مارلت فى أول القصة ، ثم يعود فى آخرها فيظهر فى نفس المرج بعد أن مضت أعوام وتعاقبت أحداث ،

وكيف تغيب تس عن دار أبيها ثم تعود فتظهر فيها ، وكيف يتحدث المؤلف عن مناظر الطبيعة وأعمال القرويين في حقولهم وأسواقهم فتجيش القصة بالحركة والحياة ، ثم يعود فيلتقط جبل سيرة بطلة الرواية حيث تركه ، ويسلك بحياتها مسلكا جديدا ، وهكذا تجول القصة في متسع مترام متجدد ، لا هو بالضيق ، ولا هو بالمشتت المناظر في غير ارتباط .

وهاردي حين ينتقل بحوادث قصته وأشخاصها في ذلك التسع المترامي بين وديان وقلاع ، وقرى وبلدان ، وجداول وغابات ، يصف كل منظر يقف به وصف خبير دقيق محب للطبيعة نافذ إلى أسرار جمالها ، يصفها في إقبالها وإدبارها ، في رضاها وغضبها ، ويصف أديمها وسماءها وضياءها ووحشها وطيورها وهوامها ، فلا ترى في قصصه رجالا ونساء يتعادثون بين جذرات أربعة ، بل ترى الطبيعة في رحبها ، والحياة في عجيجها وجيشانها ، والكون في بسطته وتناحيه ، وهو ينتقل بمناظر رواية تس من رُبى بلاكور الخضراء ووديانها الخصبية ، ومروج تلبوئيز المونعة وجداولها المتدفقة ، إلى هضاب فلنتكوم آش المفجرة المربدة ، التي تعصف فوقها الرياح وتغزوها زعازع القطب وأنواء الثلج والمطر ، متابعا في ذلك انتقال أحداث القصة من ربيع المسرات والغرام إلى شتاء العزلة والمهجرات والإدبار وخيبة الآمال .

كان هاردي ، شأن التشائمين المرهفي الحس ، يحب الطبيعة ويشغف بجبالها ويمشق صحبتها ، بقدر ما ينقم على ما فيها من مناظر القسوة ، وما في الوجود من أسباب الشقاء ، فأودع قصصه أوصافا طويلة متممة لمناظر الريف الإنجليزي ، في ذلك الجانب من إنجلترا الذي اختاره مسرحا لقصصه ودعاه وسكس ، وهو الإقليم الجنوبي الغربي من إنجلترا المحتوى على مقاطعة دورست والمقاطعات المحيطة بها ، وفيه تقع مدينة ونشستر عاصمة إنجلترا القديمة قبل لندن ، وبها تمثال الملك الفرد ، وفي ونشستر التي يدعوها هاردي ونشستر سيقت تس إلى خاتمتها ، وفي

بعض الطباعات الجيدة لمؤلفات هاردى خرائط لوسكس تبين بلادها والأسماء التى نحلها إياها هاردى .

أما أشخاص هاردى فأغلبهم من أبناء الريف بين متعلمين وجهال ، ومنهم من تثقفوا فى العاصمة ثم أووا إلى الريف شأن هاردى نفسه ، وكان هاردى مغرما كذلك بتصوير شخصيات رجال الدين ومناقشة آرائهم ، ولرجال الدين شأنهم فى الأدب الإنجليزى ومؤلفين ومؤلفا عنهم ، وقد سبق هاردى إلى تصويرهم فى القصة أحد أعلام القصة فى العصر الفكتورى وهو أنطونى ثرولوب ، ومما زاد هاردى التفانا إلى شأنهم اشتغال ذهنه دائما بالسائل الدينية وتاريخ الكنيسة وأن زوجه الأولى كانت ابنة قسيس ، وفى رواية تس ذكر ما لا يقل عن خمسة قسس : أبى كلير وأخويه وقس مارلت والقس ترنجيم ، فضلا عن ألك دربرفيل فى إبان نزعتة الدينية .

وهاردى يرسم صور أشخاصه واضحة جلية ، ثم يجعلهم يتحركون فى القصة ويتحدثون فتزيدهم أعمالهم وأحاديثهم وضوحا ، ثم يماودهم بعد حين وآخر فيزيد صورتهم توضيحا وتفصيلا ، كأنه المصور يماود لوحته فى الفينة بعد الفينة فيزيد فيها خطوطا وظلالا ، وهو يرسم الأشخاص الرئيسيين رسما شديدا البروز - وهم فى هذه الرواية تس وكلير وألك دربرفيل - ويرسم الآخرين رسما أقل وضوحا ، وإن كان يظل متميزا ممتعا ، وكانت هاردى ولا شك يؤسس صور أكثر أشخاصه على خلائق أشخاص عرفهم فى حياته ، شأنه فى ذلك شأن كل قصصى وإن كان طالما استاء وتأنف إذا عزا بعض النقاد شخصيات رواياته إلى شخصيات من عرف ، وقد صور نفسه فيما لا يقل عن ثلاث روايات من تأليفه ، ولا ريب أنه قد خلع على كلير بعض الصفات التى يمهدها فى نفسه ، والآراء التى يمتقدها . وكما كانت هاردى مشتغلا بمسائل الدين وتاريخ الكنيسة ، كان مشتغلا بالذهن بالأنساب العريقة ، وهى مسائل مرتبط بعضها ببعض ، لما كان بين الكنيسة والأمراء فى القرون الوسطى من صلات ، واحتفاظ رجال الدين

بتلك الأنساب في سجلات الكنيسة ، واحتواء أفنية الكنائس وأبهاؤها على قبور النبلاء الأقدمين ، وكان هاردى يعيش في إقليم مملوء بآثار الفرسان وذكريات العصور الوسطى وحكايات الأمر النبيلة ، من الترمنديين الذين صحبوا وليم الفاتح ، وكان هاردى نفسه ينحدر من إحدى تلك الأسر ، وكان يتمثل في تلك الأسر - التي ذهبت ريحها وأملق معظم سلالتها وارتدوا سوقة بعد أن كانوا أمراء - مصاير القوة والسيادة ، وسطوات الفناء ودوران رحي الزمن ، وكانت أسرة دربرفيل من تلك الأسرات العريقة ؛ ومنها تنحدر تس بطلة الرواية وقبورها ما تزال على ما تصف القصة .

وتعترض فصول روايات هاردى الجادة العابسة بوارق من الفكاهة تكفكف من غريب المأساة ، وإن كانت قليلة وكانت في بعض الأحيان كثيفة ، وهي فكاهة إن أضحكت القارئ فقلما يطرب لها أشخاص الرواية أنفسهم ، فوالدا تس في هذه الرواية مصدر فكاهة وإن كانت حزينة تبعث على الإشفاق ، وكذلك شخصية مستر كريك ونواده ، وبعض أعمال صواحب تس الثلاث وأحاديثهن ، وفيما عدا هذه اللامحات الفكاهية تسير القصة سيرها الرهيب نحو الخاتمة المؤسمة .

وعلى نزع هاردى العلمية الدقيقة في أوصافه وأفكاره ، لا تخلو قصصه من آثار الخيال البعيد ، الذي يغرب أحيانا فيدونو من المستحيل أو البعيد الاحتمال ، ومن أمثلة ذلك في هذه الرواية تخيله المنظر الذي اضطلمت فيه تس بتعميد ولدها المختصر ، ومن أمثلته أيضا وصفه كيف استظهرت آراء كلير دون أن تفقهها ، حتى أدتها إلى ألك دربرفيل تأدية كانت من أسباب ارتداده وآذت بها دون أن تعلم أو يعلم كلير ، فهاردى يضفي على أشخاصه أو حوادثه أحيانا ثوبا خياليا شعريا يدل على أن مؤلف القصة شاعر فضلا عن كونه قصصيا ، وهكذا كان هاردى قصصيا في شعره ، شاعرا في قصصه .

## فهرس

---

١	... ..	العذراء
٧٩	... ..	لم تعد عذراء
١٠٩	... ..	التلاقى
١٦٣	... ..	النتيجة
٢٣٩	... ..	المرأة تكفر
٣٣١	... ..	المهتدى
٣٨٩	... ..	الخاتمة



العذراء





في مساء يوم من أواخر مايو كان رجل في ضحوة العمر ، يسير من شاستن قاصدا بيته في قرية مارلُت ، من قرى الوادى المجاور السعى وادى بلاكور ، وكانت ساقاه تَحْمَلانه في اختلاج ، وكان اختلاج مشيته يميل به إلى اليسار قليلا ، بدل أن يسير في خط مستقيم ، وكان يهز رأسه من حين إلى آخر هزة قوية ، كأنه يوافق على فكرة ، وإن يكن في الحقيقة لا يفكر في أمر معين ، وكانت تتدلى من ذراعه سلة بيض فارغة ، وكان ظاهر قبعته مشعثا ، وقد بلى من حافها الموضع الذى يحسه إبهامه حين يريد أن يخلعها ، وسرعان ما لقيه قس يركب مهرة شهباء مفر شيطا ، وهو يغمغم بأغنية مبهمة .

قال صاحب السلة : « عم مساء » . فقال القس : « عم مساء ياسير چون » ، وواصل الرجل سيره ، ولكنه بعد خطوة أو اثنتين وقف والتفت قائلا : « ائذن لى ياسيدى أن أقول لك إنك حين تلاقينا يوم السوق الماضية على هذا الطريق وحيثك ؛ أجبتي : عم مساء ياسير چون ، كما فعلت الآن » ، قال القس : « أجل » ، قال : « ومرة أخرى قبل ذلك منذ نحو شهر » ، قال : « ربما » ، قال : « فاذا تقصد بتلقبى بالسير چون كل هذه المرات ، وما أنا إلا ذلك البائع البسيط ، جاك دريفيلد ؟ »

فاقترب القس بمطيته خطوة أو خطوتين وقال : « لم تكن تلك إلا من بدواتى » ، وتردد لحظة ثم عاد يقول : « إنما كان ذلك بناء على حقيقة كشفتها منذ عهد غير بعيد ، حين كنت أنقصى الأنساب من أجل تاريخ المقاطعة الجديد ، فأنا القس ترينجم الأثرى المقيم فى ستجيفت لين ، أحق أنك لا تدري أنك سليل أسرة دربرفيل العريقة النبيلة ، التى تنتمى إلى سير پاچن دربرفيل ، ذلك الفارس المشهور الذى وفد من زمرندية مع وليم الفاتح ، كما هو مرقوم فى سجل كنيسة باتل ؟ » ،

قال الرجل : « لم أسمع بهذا من قبل يا سيدي ! » ، قال : « بل هي الحقيقة ، ارفع ذنك قليلا كي أستبين صفحة وجهك ، أجل تلك أنف آل دربرفيل وتلك ذقهم — في حالة منحطة قليلا ؛ لقد كان جدك أحد فرسان اثني عشر آزرورالورد استريما فيلا الزمندی ، في فتحه جلامور جنشر ، وتولت فروع يتشكم الحكم في شتى بلدان انجلترا ، وقد ظهرت أسماؤهم في سجلات باب في عهد الملك ستيفن ؛ وكان أحدهم في عهد الملك جون من الغنى بحيث وهب فرسان هوسبتل ضيعة ، وفي حكم إدوارد الثاني دعى سلفك براين إلى وستمنستر ، ليحضر الجمع الكبير هناك ، وأقل نجمكم قليلا في أيام أولثر كرمول ، ولكن إلى حد ضئيل لا يمتد به ، وفي زمن شرل الثاني منحتم لقب فرسان البلوطة الملكية ، جزاء على إخلاصكم ، أجل : قد خلت أجيال تعاقب فيها سير جون بعد سير جون منكم ، ولو كانت ألقاب الفرسان تورث كما يورث لقب اللورد ، وكما كانت الحال فيها مضى ، حين كان الولد يخلف أباه في الفروسية ، لكنت اليوم سير جون » .

قال الرجل : « أحقا تقول ؟ » ، قال القس غتبا حديثه في لهجة الواثق وهو يضرب رجله بمخصرته : « بالاختصار ، ليس في انجلترا اليوم أثر لهذه الأسرة سواك » ، قال دريفيلد : « واعجبا ! أحقا ؟ ومع ذلك ما زلت أضرب في الأرض عاما بعد عام ، تتقاذفني فجأها كأني لا أمتاز عن أحقر أبناء هذه الأبرشية ! ومنذ كم خرجت أخبارى هذه إلى النور يا قسيس ترنجم ؟ » ، فأجاب القس إن تلك الأخبار كانت قد طمست إلى غاية ما يعلم ، ولم يكذب يبق أحد يحفظها على الإطلاق ، حتى بدأ هو أبحاثه ذات يوم من أيام الربيع الماضي ، إذ كان يتتبع تقليات تاريخ أسرة دربرفيل ، ولاحظ اسم دريفيلد مكتوبا على عرشته ، فأداه ذلك إلى الفحص عن أمر أبيه وجده ، حتى لم تبق عنده شبهة في الأمر ، قال : « وصممت في بادئ الأمر على عدم إزعاجك بخبر كهذا غير ذي بال ، ولكن نوازع المرء تغلبه على حكمته أحيانا ، وعنّي لي أن الأجل أن تكون على بينة من الأمر » .

قال الرجل : « الحق أنى سمعت مرة أومرتين ، أن أسرقى كانت أحسن حالا قبل قدومها إلى بلا كور ، بيد أنى لم أعرف ذلك اهتماما ، ظننا منى أن معنى ذلك أنه كان لنا فيما مضى حصانان ، على حين لنا اليوم حصان واحد ؛ وعندى فى الدار معلقة فضة قديمة ، وخاتم منقوش كذلك ، ولكن أى خطر لذلك ؟ . . . أإنى ونبلاء دربرفيل لمن لحم واحد ؟ لقد كان يقال إن أباجدى كان يطوى أسراراً ، ولم يكن يجب أن يفصح عن وطنه الأول ، والآن هل لى أن أسألك أين يتصاعد دخاننا اليوم ، أعنى أين نقيم ؟ »

قال : « أنتم لا تقيمون فى مكان على الإطلاق ؛ قد اندثرت أسرتكم النبيلة » ، قال : « وأأسفاه ! » ، قال : « أجل ، انقضى نسل الذى كور منكم كما تقول سجلات الأسر المملوءة بالآقاويل ، أى قد انحدرتم وانطوتم » ، قال : « فأين رقد ؟ » ، قال : « فى كنجزيير سبجربهل ، هناك صفوف متراصة منكم ، تحت الأقبية والسقوف الرخامية والنقوش » ، قال : « وأين قصور أسرتنا وأملأكمها ؟ » ، قال : « لا تملكون منها شيئاً » ، قال : « أحقا ؟ ولا نملك حتى حقولا ؟ » ، قال : « كلا ، على أنكم كنتم تحوزون من ذلك الشيء الكثير كما ذكرت لك ، فقد كانت أسرتكم متعددة الفروع ، وكان لكم بهذه المقاطعة وحدها عملة فى كنجزيير ، وأخرى فى شرتن ، وثالثة فى مليند ، وغيرها فى للسند ، وأخرى غيرها فى ولبرديج . »

قال : « وهل تعود لسالف عزنا يوما ؟ » ، قال : « هذا مالا علم لى به ا » ، فسكت دريفيلد وهلة ثم قال : « وماذا يخلق لى أن أفعله فى هذا الشأن ياسيدى ؟ » ، قال : « لا شيء ، لا شيء اللهم إلا أن تطهر نفسك بالتفكر فى سقوط الجبارة ، وليس يمدو الأمر حد الإمتاع للمؤرخ والنسابة ، وفى أكواخ هذه المقاطعة أسرات عديدة لعلها تضارع أسرتك طيب أعراق ، عم مساء » ، قال : « بل تعود معى فأسقيك قليلا من الجمعة احتفاء بهذا الأمر يا قسيس ترجم ، فى حان القطرة »

الصافية جمة جيدة ، وإن لم تضاه جمة حان روليفر ، قال : « لا ، شكرا ، لن أشرب هذا المساء ، وقد أصبت أنت كفايتك » .

هكذا ختم القس كلامه ، ومضى لوجهه وهو جازع لإفشائه تلك النبذة التاريخية العجيبة ، ولما ذهب مشى دريفيلد خطوات وهو في حلم عميق ، ثم جلس على الحشيش على جانب الطريق واضحا سلتة أمامه ، وبعد دقائق لاح على بعد فتي يسير في الاتجاه الذي كان يسير فيه دريفيلد ، ولما رآه الأخير رفع يده فحث الفتى خطاه ودنا منه ، فقال له : « دونك هذه السلة يا غلام فأني منفذك في غرض لي » ، فعبس الفتى النحيل وقال : « ومن أنت يا جون دريفيلد حتى تأمرني بما تشاء وتدعوني غلاما ؟ إنك لتعرف اسمي معرفتي اسمك ! » قال : « أحقا ؟ أحقا ؟ ذاك هو السر ! ذاك هو السر ؟ لتصدع بأمرى ولتؤد الرسالة التي أنا محملك مع ... اسمع يا فرد : لا ضير أن أصارحك أن السر هو أنني أتمنى إلى سلالة عريقة ، وقد كشفت ذلك اليوم » ، قال ذلك واستلقى باسطلا جسمه في أبهة بين أزهار الأقحوان ، ومثل الفتى أمامه يصعد البصر فيه من مفرقه إلى إخصه ، واستطرد الرجل في ضجته : « سير جون دريفيل ، ذاك اسمي إذا كان الفرسان لوردات ، وما هم إلا كذلك ، وخبري كله مذكور في التاريخ ، فهل تعرف يا غلام مكانا يدعى كنجزيير سبجربهل ؟ » .

قال : « أجل ، لقد حضرت هناك سوق جربهل » ، قال : « فاعلم أن تحت كنيسة تلك المدينة يرقد ... » ، فقال الآخر : « ليس المكان الذي أعنيه مدينة أو على الأقل لم يكن كذلك حين كنت هناك ؛ وإنما كان مكانا قبيحا منحوسا » ، قال : « دعك من المكان يا غلام ، فما ذاك موضوع حديثنا الساعة ، واعلم أن تحت كنيسة تلك الأبرشية يرقد أسلاف ، مئات مئات ، في دروعهم وجواهرهم ، في توابيت عظيمة من الرصاص ترن أطنانا على أطنان ، وليس في مقاطعة وسكس الجنوبية رجل يُبدل بما أدل به من هاجم شريفة مجيدة » ، قال : « عجبا ! » ، قال : الآن هاك السلة وامض إلى حان القطرة الصافية ، فمرهم أن يشخصوا إلى عربة

وجوادا في الحال ، لتحملني إلى داري ، وأن يجعلوا في العربة قليلا من النبيذ في قارورة صغيرة ، ويضيفوا ثمنها إلى حسابي ، فإذا فرغت من ذلك فأحمل السلة إلى داري ، وقل لامرأتى أن تكف عن الفسيل ، إذ لا حاجة بها إلى ذلك بعد اليوم وأن تنتظر قدومي كي أفضي إليها بما لدى » .

وقف الغلام مترددا ، فدفع دريفيلد يده في جيبه ، واستخرج شلنا من الشلنات النزرة الملازمة لجيبه ، وقال : « هاك أجر عمك يا ولد » ، فخير هذا من تقدر الغلام للموقف فقال : « سما يا سير جون وشكرا ، هل لي أن أؤدي لك خدمة أخرى يا سير جون ؟ » ، قال : « أخبر أهلي أنني أريد شواء تحمله لعشائي إذا وسمهم ، وإلا فلحم عزر ، فإن لم يكن هذا فبعض لحم خنزير » ، قال : « نعم يا سير جون » ، والتقط السلة ، ولم يكدهم بالمضى حتى تعالت ألحان موسيقى نحاسية آتية من صوب القرية ، فقال دريفيلد : « ما هذا ؟ أهذا من أجلى ؟ » ، قال الغلام : « هذا موكب نادى النساء يا سير جون ، وإنك لتعلم أن ابنتك من أعضائه » ، قال : « صدقت ، وما أنساني ذلك إلا تفكيرى فيها هو أعظم من الشؤون ! والآن انطلق إلى مارلت ، وأنفذ إلى تلك العربة ، ولعل أن أذهب بها فأفقد أحوال النادى » .

انطلق الغلام وبقى دريفيلد منتظرا مستلقيا على العشب في شمس الغروب ، ولم يعبر بشلك الجهة إنسان مدى حين ، وكانت أنغام الموسيقى الخافتة ، هي الأصوات الإنسية الوحيدة المترددة في نطاق التلال الزرقاء .

٢

كانت قرية مارلت تقع بين الشعاب الشمالية الشرقية لوادى بلا كور الجليل ؛ وهو إقليم مطوق ممزول ، لم يكد يطرقة إلى ذلك العهد سائح ولا مصور ، وإن لم يبعد عن لندن أكثر من أربع ساعات ، وخير وسيلة للتعرف بهذا الوادى أن تشارفه من رؤوس التلال المحيطة به — اللهم إلا فى أيام الجفاف فى الصيف ، أما الضرب فى مسالكه على غير هدى فى جو ردىء ، نغليق أن يثير نغمتك على طرائقه الضيقة المتلوية الموحلة .

هذا الجانب الخصيب الحمى ، الذى لا تصوح حقوله ولا تجف عيونه أبداً ، تحفه من الجنوب سلسلة من التلال الطباشيرية البارزة ، فإذا بلغ المسافر الآتى من الساحل أحد منحدراتها ، بعد أن يخطرت طريقه شمالا مسافة عشرين ميلا وسط المروج وحقول القمح ، تملكته الدهشة والنبطة : إذ يرى دونه إقليما منبسطا انبساط الخريطة ، منيرا كل المنايرة للإقليم الذى اجتازه ، وتنفرج التلال من خلفه ، وتتوهج الشمس على حقول متسمة اتساعا يبدى الإقليم كله لعين الناظر ، وتبدو الطرائق بيضاء وأسيجة الحقول منخفضة مستحجرة الأغصان والفضاء حائل اللون .

هنا فى الوادى يبدو العالم كأنه مخلوق على صورة أصغر وألطف : فالحقول من الصغر بحيث تبدو أسيجتها للناظر من ذلك الارتفاع ، كأنها شبكة من الخيوط الخضراء الضاربة إلى السواد ، منتشرة على المشب الأخضر الذى هو أقل كثافة ، والفضاء دون عين الناظر مشبع بالركود مشرب بالزرق ، أما الأفق فى زوقة البحر المتجسمة ، والبقاع الزروعة قليلة محدودة ، ولكن النظر على العموم منظر كتلة متسمة من الحشائش الخضراء والأشجار البانمة ، التى تكسو التلال والوديان الصغيرة الممتدة وسط الوادى الأكبر ، ذاك هو وادى بلا كور .

وللإقليم أهميته التاريخية بجانب فنتته الطبيعية . فقد كان الوادى فيما مضى يسمى غابة الظبي الأبيض ، نسبة إلى أسطورة عجيبة ترجع إلى حكم الملك هنرى الثالث ، فيها يقتل شخص يدعى توماس ديلايند ظبيا أبيض جميلا ، كان الملك قد طارده حتى أرققه ثم أبقى عليه ، فحمل القاتل غرامة فادحة ، وكان الإقليم فى ذلك العهد وإلى زمن ليس بالبعيد مغطى بالغابات الكثيفة ، ولا تزال بقاياها ترى فى جذوع البلوط وأكوام الأخشاب المتناثرة على سفوحه ، والأشجار المفرغة الجنوع التى تظلل الكثير من مراعيها ، ذهبت الغابات ولكن ما تزال بعض الماديات القديمة التى كانت تستظل بها باقية ، وإن كان كثير منها قد تخلف على حالة مختلفة أو مبهمة غير واضحة المغزى : فرقص أول مايو مثلا وهو تقليد قديم ، كان يمكن تبين أثره فى احتفال ذلك اليوم الذى ورد ذكره فيما تقدم ، وقد بدا فى صورة حفلة ناد ، أو موكب كما كان القوم يسمونه .

كانت تلك الحفلة فرصة غبطة لدى الفتيان والفتيات فى مارلت ، وإن غاب مغزاها عن المساهمين فى بهجتها ، ولم تكن طرافها تعود إلى الاحتفاظ بمادة المسير فى موكب والرقص كل عام ، قدما تعود إلى كون جميع الأعضاء من الإناث ، وكانت أمثال هذه الحفلات فى نوادى الرجال — على انقراضها تدريجا — أكثر حدوثا ، على حين أدى الخجل الذى هو طبيعة الجنس اللطيف ، أو السخر الذى نالهن به أقرباؤهن الذكور ، إلى حرمان نوادى النساء الباقية — إن يكن قد بقي منها غير النادى سالف الذكر — من تلك المتعة السامية والمظهر الجليل ، ولم يبق سوى نادى مارلت ناد يحافظ على ذلك الموسم المحلى ، وقد تأثر على عاداته مثاث السنين ، وما زال مثابرا ، وإن يكن لم يثمر ثمرة مادية ، فقد كان سبب ألفة بين النساء .

كانت جميع المشتركات فى الموكب يلبسن جلابيب بيضاء ، وذلك أثر من أيام الأزياء القديمة البهيجة ، أيام كان المرح ومايو لفظين مترادفين ، أيام لم تكن عادة النظر الطويل إلى المستقبل قد هيبت بالمواطف إلى مستوى واحد رتيب مملول ؛

وظهرون أول ما ظهرون في موكب سائر في الأبرشية اثنتين اثنتين ، ولما لعت الشمس على قاماتهن بين الأسبجة الخضراء وجبهات المنازل المكسوة بمسلق النبات ، تعارضت الحقيقة الواقعة والمثل الأعلى المنشود بمض التعارض : إذ أنه وإن كانت جميع السائرات يرتدين الثياب البيضاء ، لم تكن بينهما اثنتان متماثلتان بل كانت ثياب بعضهن ناصعة البياض ، وثياب أخريات تميل إلى الزرقة الشاحبة وثياب الطاعنات منهن في السن — التي كانت على الأرجح مطوية من سنين — ذات لون متغير كلون الجليف ، وزى كزى العهد الجورجى .

وفضلا عن تميز صاحبات الموكب بالثياب البيضاء ، كانت كل امرأة وفتاة تحمل في ينها قضيبا من الصفصاف مقشورا ، وفي اليسرى باقة أزهار بيضاء ، وكانت كل منهن قد تأقت في قشر ذلك القضيب وتديج تلك الباقة ، وكان في الموكب « نساء أنصاف » وأخريات مكتهلات ، فكان لشعورهن الفضية الرفيعة ووجوههن المجمدة التي أبحى عليها المم والدهر ؛ مظهر في ذلك الموقف الطروب يثير بمض الدهشة وكثيراً من الرحمة ، ولو دقق المرء النظر لرأى على كل وجه من وجوههن ، التي يرين عليها السهوم وترسم عليها آثار التجارب — وجوه أولئك اللاتي يدفنن إلى سنين القفرة من أسباب البهجة — منادح للاعتبار ودواعي للمقال ، أكثر مما يرى على وجوه زميلاتهن الصبيات ، ولكن عدن عن المجائر إلى أولئك اللاتي تضطرم حرارة الحياة دون مجاسدهن ، وتتدفق دفتها .

كانت جمهرة الجماعة من الفتيات ، وكانت رؤوسهن الفزيرة الشمور تمكس في الشمس شتى الألوان ، بين ذهبي وفاحم وعسلى ، ومنهن حسناء العينين وجميلة الأنف وأنيقة الفم والقوام ، ونذر منهن من اجتمع لها كل ذلك ، وكانت الصعوبة التي يمانينها في ضم شفاههن ، وعجزهن عن موازنة رؤوسهن ، وعن نحو آثار الاضطراب من ملاحظهن ، كان كل ذلك واضحاً يدل على أنهن حقاً ريفيات غير متمعدات . احتمال الأنظار المحدقة ؛ وكما كانت الشمس تدفئن جميعا كانت لكل منهن فكرة في باطن نفسها تصنحى في حرارتها : من حلم أو غرام أو ملهامة ، أو أمل بعيد



قاص ما يزال حيا رغم تفانيه رويدا رويدا ، كما تظل الآمال حية ، ومن ثم كن جميعا مغتبطات ، وكان بعضهن مبتهجات .

وأدى بهن الطاف إلى حان القطرة الصافية ، وإنهن لينمطن من الطريق الكبير ليمرن من بوابة صغيرة إلى المروج ، إذ قالت امرأة : « يا إلهي ! ذاك ياتس دريفيلد أبوك راكبا عربية إلى داركم ! » ، وعند ذلك التفت إحدى المساهات في الحفل ، وكانت فتاة جميلة حسنة الصورة ، وإن لم تفق الأخريات كثيرا ، بيد أن فها القاني وعينها الواسعتين البريثتين كانت تريد تكوينها ولونها دوعة ، وكانت تلبس في شعرها شريطا أحمر ، فكانت هي الوحيدة بين مرنديات البياض التي تستطيع أن تدل بتلك الحلية الواضحة ، وعند التفاتها كان دريفيلد يعبر الطريق في عجلة يمتلكها صاحب حان القطرة الصافية ، تقودها فتاة مجمدة الشعر مجدولة العضلات مشمرة عن ساعديها — تلك كانت خادم ذلك الحانوت المرحه ، التي انتهى بها قلبها بين الحرف إلى امتهان رياضة الخيل وسوقها .

وكان دريفيلد مضطجعا مغمض العينين في ترف ، يلوح بيده فوق رأسه ويرتم في هدوء : « لي قبو كبير به تشوى أسرتي في كنجزير ، ولي أجداد فرسان في توايت من الرصاص هناك ! » ، وعند ذلك غت أعضاء النادي عدا الفتاة المسماة تس ، التي اضطربت نفسها لدن رأت أباه يستهدف لسخريتهن بمحاقة مسلحه ، وقالت على عجل : « كل ما في الأمر أنه تمب ، وقد استأجر العربيه لأن حصاننا يستريح اليوم » ، فقالت رفيقاتها : « ما أشد غرارتك يا تس ! ما زراه إلا ثملا كمادته كل سوق ! هو هو ! » ، قالت : « كئي ! لن أمضى ممكن خطوة أخرى إن نبستن بكلمة سخر منه ! » ، وانتشر لون خديها حتى عم وجهها وجيدها ، وبعد وهلة اغرورقت عينها وانكسر بصرها إلى الأرض ، وأدركن أنهن قد آلنها فلم يزدن ، وعاد النظام إلى نصابه ، ولم تطاوع تس كبرياؤها على إعادة الالتفات ، لترى مقصد أبيها إن كان له مقصد على الإطلاق ، وهكذا واصلت سيرها مع الجماعة إلى الحظيرة ، حيث أعدت العدة للرقص على الخفصرة ،

وكانت قد استرجعت جأشها ولست جارتها بقضيها الصفصافي ، وأنشأت تتحدث كالعادة .

كانت تس دريفيلد في تلك المرحلة من حياتها إناء مليئا بالمواطف لم تمازجها التجربة ، وكانت لهجتها المحلية جلية على شفيتها رغم نشأتها في مدرسة القرية ، وكانت أظهر خواص تلك اللهجة طريقة نطق المقطع الذي يؤديه على وجه التقريب حرف « أر » ، وهو من أجزل المقاطع التي ينطق بها البشر ، ولم يكن ذلك الفم القاني المضموم المتعود التفوه بهذا المقطع على ذلك النحو ، قد اتخذ صورته النهائية بعد ، وكانت تس إذا فرغت من النطق بكلمة والتقت شفاتها ، دفعت السفلى وسط العليا إلى أعلى .

وكانت مازال تلوح على هيئتها مخايل من عهد الطفولة : فكنت وهي تسير اليوم في الموكب ، تستطيع رغم مظهر أنوثتها الجميلة المستوفزه ، أن تستشف سكتها الثانية عشرة من خديها ، أو سنها التاسعة ملتزمة في عينيها ، بل كانت سنها الخامسة تترأى على أقواس شفيتها من حين إلى آخر ؛ ولكن من يلحظون ذلك كانوا قليلين ، ومن يتدبرونه كانوا أقل عددا ، فربما رمقها نفر قليل من الناظرين — لا سيما من لا يعرفونها — وفتتهم نضارتها برهة ، وودوا لو نتاح لهم مقابلتها مرة أخرى ، ولكن جميع الناس تقريبا لم يكونوا يرونها إلا ريفية رشيقة المنظر .

لم ير أحد ولم يسمع بما كان من أمر دريفيلد ، في عجلة النصر التي كانت تقوده فيها تلك السائقة ، ودخل الموكب الساحة المدة وبدأ الرقص ، وإذا كان الجمع خاليًا من الرجال تراقصت الفتيات ، حتى كان موعد انتهاء أعمال اليوم ، فتنجم حول المكان سكان القرية الذكور ، وغيرهم من المتسكمين وعابري السبيل وبدأت عليهم الرغبة في المساهمة .

وكان بين أولئك النظارة ثلاثة شبان أرفع مرتبة من سوامم ، يعملون على

ظهروهم حقائب رحلة وفي أيديهم عصيا غلاظا ، وكان تشابه ملامحهم وتقارب أعمارهم يوحي بأنهم إخوة ، وكانت تلك هي الحقيقة ، وكان أحدهم يرتدى ربطة رقبة بيضاء ، وصدارا مرتفعا وقبعة رقيقة الحافة ، وهو لبوس القسس ؛ وكان يبدو على الثاني أنه طالب بإحدى الجامعات ؛ أما ثالثهم وأصغرهم فكان من الصمب الاستدلال من ملبسه على عمله ، بل كان مظهر البساطة والترسل المتمثل في عينيه وفي ثيابه ، يدل على أنه لم يختط طريقه في الحياة بمد ، إنما ينبي بأنه حارس للحياة بأكملها ، يستقبل ما تُلقِي به من فرصها وحقايقها ؛ وكان الإخوة الثلاثة يجيرون من يتحدث إليهم أنهم يقضون عطلة عيد النصر بالتجوال في وادي بلاكور ، متخذين طريقهم من شاستن في الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي . اعتمد ثلاثتهم على البوابة واستوخوا مغزى ذلك الرقص ، وأولئك النساء في الثياب البيضاء ، وكان يلوح على الأكرين أنهما لن يلبثا إلا هنيهة ، أما الثالث فاسترعى انتباهه أن يرى جما من الفتيات يرقصن بلا مراقصين ، نفلح حقييته ووضعا هي وعصاه على وشيع الحقل وفتح البوابة ، فسأله الأكبر : « ما عسالك فاعل يا اينجل ؟ قال : « أريد أن أدور معهم شوطا ، ألا تفعلان ؟ لن نضيع في ذلك كبير وقت » ، قال الأول : « كلا ، هذا جنون ! أراقص في العراء رهطا من الريفيات البلهاوات ! هب أن أحدا رأنا ! هلم بنا وإلا فلن نبليغ ستور كسل قبل الظلام ، وليس قبلها مكان نقضى الليلة فيه ، هذا إلى أنه لابد من قراءة باب آخر من ( تسفيه الشكوكية ) ، قبل أن نأوى ، مادمت قد تجشمت مؤونة إحضار الكتاب » .

قال الأصغر : « حسنا ، سألقى بك أنت وكثبرت بعد خمس دقائق ، فلا تنتظراني فاني أعدك يا فيليكس » ؛ فتركه أخواه على كرهه وانطلقا يحملان حقييته وعصاه ، ليكفياه مشقة حملهما في لحاقه بهما ، واندفع هو في الساحة ، ولم يكده يتوقف الرقص قليلا حتى تقدم من فتاتين أو ثلاث قريبات منه ، وقال في رشاقة وبراعة : « إن هذا لخطب جلل ، أين المراقصون ياسيداتي ؟ » ، فأجاب أجروهن :

« لم ينتهوا من أعمالهم بعد ، وسيأتون عما قليل ، فهل لك في الرقص ياسيدى حتى يحضروا ؟ » ، قال : « بلا شك ، ولكن ما فرد واحد وسط هذا الحفل ؟ » ، قالت : « خير من لا أحد ، فما أقبح أن تراقص المرأة إحدى بنات جنسها ، وجهها لوجه وقدما لقدم ، بلا عناق ولا جذاب ، والآن اختر وانتق » ، قالت أخرى أكثر حياء : « صه ياوقاح ! »

ولما رأى الفتى نفسه غير آجال فيهن بصره وحاول أن يميز بينهما ، ولكنه لجدّة الجمع على عينيه لم يستطع تمييزاً ، فتناول أقربهن إليه ، ولم تكن تلك هى مكلمته كما كانت تتوقع ، كلا ولا كانت تس دريفيلد : فلم تكن الأعراق وجماجم الأسلاف والسجلات المخلة ونخايل آل دررفيل ، قد توافت لمساعدة تس فى حياتها بعد ، حتى فى اجتذاب مراقص من فوق رؤوس أحقر الريفيات ، ذلك حظ الدم الزمى لم تساعده الدنانير الصكورية .

وأيا كان اسم الفتاة التى حظيت دون غيرها ، فإن اسمها لم يحفظ ولم يرو ولكن الجميع حسدها على أن كانت السابقة إلى التمتع بنعمة مراقبة رجل فى ذلك اليوم ، على أن الاقتصاد ما لبث أن دفع الشبان الذين كانوا معجبين بالباب إلى التهافت مجالا ، وسرعان ما انتشروا فى الحشد الراقص ، حتى لم تبق فتاة مهما ضؤل نصيبها من الجمال ، مضطرة إلى القيام بدور الرجل .

ولما دقت ساعة الكنيسة اتبته الطالب ، وقال ألا بد له من الذهاب ليلحق بصاحبيه ، وبينما هو يفتل خارجا من حلبة الرقص ، إذ أخذت عيناه تس دريفيلد وكانت عيناهما الواسعتان والحق يقال ، تبان نما ضئلا عن عذلهما إياه لعدم انتقائه إياها ، وأسف هو أيضاً لكونه لم يلاحظها ، نظراً لحياها وتأخرها عن أترابها ، وغادر الساحة وذلك الشمور فى نفسه ، ولشدة تأخره انطلق يعدو ملء رجليه صوب الغرب ، وسرعان ما اجتاز الوهدة وصعد فى التجد الذى وراءها ، ولم يكن قد أدرك أخويه بعد ، ولكنه تريت حتى يتنفس ، والتفت خلفه فرأى

أشباح الفتيات البيضاء ، وهن يتماوجن كما كن يتماوجن وهو بينهن ، وكأنما  
نسيته تمام النسيان .

نسيته إلا واحدة كأنها لم تنسه ، كان شخصها الأبيض واقفا بنجوة بجانب  
الوشيع ، وقد تبين من هيئتها أنها الحسناء التي لم يراقعها ، وعلى تفاهة الأمر  
أحس إحساساً غريزياً أن تجاوزه إليها قد آلمها ، وود لو كان تقدم إليها ، أو كان  
قد سألها اسمها ، وقد راعه خفرتها ولطافة روحها وجمال منظرها في ثوبها الأبيض  
الرقيق ، وخيل إليه أنه قد سلك مسلك غباء ، على أنه لم يكن يستطيع نقض  
ما أبرم ، فماود السير محث الخطى ، وطرده الموضوع من ذهنه .

٣

أما نس دوبيغيلد فلم تطرد الحادثة من مخيلتها بتلك السهولة ، بل ظلت مدة تراهدة في الرقص ، على وفرة من كانوا على استمداد لمراقبتها ، ولكن آه ! لم يكونوا يتحدثون بمثل رشاقة الشاب الغريب ! ولم تنفض عنها حزنها العارض وتلب دعوة مراقصها . حتى احتوت أشعة الشمس الفاربة شبح الفتى الممن في الذهاب فوق التل .

وظلت مع رفيقاتها حتى الفسق ، آخذة من الرقص بنصيب ، وكانت لتدفع الحياة في نفسها في سنها تلك تستمرى الرقص في حد ذاته ، وإن لم تدر بعد — إذ ترى « المذاب اللذيذ والمتعات المريرة والآلام السارة والأشجان المحيبة » — التي هي نصيب الفتيات اللواتي بكون الحب — إلى أى حد يمكن أن تمضي هي نفسها في تلك السبيل ، وكان تراحم الفتيان ونضالهم من أجل يدها في حفلات الرقص لا تحتيران إلا ابتسامها ، فإذا احتدوا زجرتهم .

ولعلها كانت تطيل المكث أكثر مما مكثت ، لولا أن عاودها تذكراً ما كان من مظهر أبيها على تلك الحالة السهجنة ، والقلق عليه ، فانسلت خارجة ومضت إلى طرف القرية حيث كوخ أبيها ؛ وسمعت وهي ما تزال على بعد من الكوخ أصواتاً توقيمية غير تلك التي خلفتها وراءها ، أصواتاً كانت تعرفها حق المعرفة . ولم تكن إلا سلسلة ضربات آتية من داخل المسكن ، ناشئة من تحريك منزهة على أرض صخرية تحريكاً عتيقاً ، يزامل تلك الحركة صوت أثوى يتغنى غناء جهيراً متداركاً بالأنشودة المحبوبة « البقرة المنقطة » ، « رأيتها ترقد في ذلك الحرج ، تعال يا حبيبي أخبرك بمكانها ! » ، وكان هن الهد والفناء بنقطمان معا برهة ، ويحل محل النغم صوت مرتفع أشد ارتفاع يصيح : « مرحى لعينيك الماسيتين ! وخديك الشمعيتين

وفك الكريزى ! ونغذيك المشهين نغذى كوييد ! وكل صغيرة من جسمك الجليل ! » ، ثم يعود الاهتزاز والإنشاد إلى شأنهما ، وتمضى أغنية « البقرة المنقطعة » كأول أمرها ؛ هكذا كانت تجري الأمور حين فتحت نس الباب ، ووقفت داخله على الحاصرة تتأمل النظر .

وعلى رغم ذلك النغم الطروب ، فقد أدخل النظر على نفس الفتاة أشد الغم : ذلك أنها جاءت من مباحج المعطة في الحقول — بشياها البيضاء ، وباقات الأزهار ، وقضبان الصفصاف ، والحركات الخاطفة فوق الخضرة ، والماطفة الرقيقة المفاجئة التى هزتها نحو الشاب الغريب — إلى هذا المشهد الأصفر الشاحب ذى الشمعة المفردة — ياله من نقلة ! أمضاها ما أحست من فرق ، وحز في نفسها ندم على أن لم تعد قبل ذلك لتساعد أمها في شؤون البيت ، بدل أن تطيل الهوى خارجه .

كانت أمها قائمة وسط جمع الأطفال كما تركتها ، منكبة على وعاء الفسيل كدأها كل يوم اثنين ، وكان الفسيل قد أرجى كالعادة حتى آخر الأسبوع ، وتذكرت نس والندم يقتل نفسها ، أن الثوب الأبيض الذى كانت ترتديه والذى تركت ذيوله بإهمالها تتلوث بخضرة العشب الرطب ، كان قد استخرج البارحة من ذلك الوعاء بعد أن غسلته أمها ثم كوته يديها .

وكانت مسز دريفيلد كماداتها واقفة بجوار الوعاء على رجل واحدة ، والأخرى مشغولة بدفع المنز السالف الذكر ، مهد أصغر صبيتها ، وكان المنز ، لطول عهده بالعمل ، وكثرة من أقل من أطفال على ذلك الأديم الصخرى ، قد بليت دعامته ، وغدا كلما اهتز دفع الطفل دفعا عنيفا من جانب إلى آخر ، كما يدفع النساج نوله ، وكانت مسز دريفيلد — وهى مدفوعة بحماسة أغنياتها — تظا زمبرك الأرجوحة بما بقى لها من قوة بعد عملها اليومى .

قالت الفتاة فى رفق : « أأهز الأرجوحة بدلا منك يا أمى ، أم تفضلين أن أدخل نوبى الجليل وأساعدك فى الفسل ؟ لقد كنت أظنك فرغت منذ طويل » ، ولم تكن

الأم حاققة على تس لإلقائها شؤون البيت على عاتقها طول تلك المدة ، والحق أنها قلما وبختها من أجل شيء من هذا القبيل ، إذ لم يكن يضيرها عدم مساعدة تس ، لأنها كانت تميل ميلا طبيعيا إلى التخلص من أعمالها بإرجائها ، وقد كانت الليلة أشد جورا منها في سائر أوقاتها ، وكانت في نظراتها أمارات سعادة وحلم وتأمل حارت الفتاة في تمليها .

قالت أمها حين فرغت من نغمتها الأخيرة : « يسرنى أنك قد عدت ، فإني أريد أن أذهب لاستدعاء أليك ، وأهم من هذا أني أريد أن أخبرك بحادث ستطريين له كثيرا يا صغيرتي ! » ؛ وكانت مسر دريقيلد تتكلم باللهجة العامية عادة ، أما ابنتها التي اجتازت الفرقة السادسة في المدرسة الحكومية تحت إشراف مدرسة متعلمة في لندن ، فكانت تتكلم بلهجتين : العامية في الدار ، والانجليزية السليمة في الخارج وعند مخاطبة ذوى المكانه .

قالت تس : « أو حدث شيء بعد خروجي ؟ » قالت الأم : « نعم ! » قالت تس : « أو كان لذلك علاقة بمسلك أبي الشائن في تلك العربة عصر اليوم ؟ لماذا فعل ما فعل ؟ لقد وددت لو ساخت في الأرض خزيا ! » قالت الأم : « لم يكن ذلك إلا جزءا من القصة ! لقد اتضح أننا أشرف أشراف هذه المقاطعة ، وأن نسبنا يرجع إلى ما قبل أوثر جر مبل ، إلى عهد الترك الكافرين ، وأن لنا تماثيل وأقبية ومشاعر وجماحم وأشياء أخرى لا يحصيها إلا الله ، وقد لقبنا بفرسان البلوطة في عهد القديس شل ، أما اسمنا الصحيح فهو دربر فيل ! ألا يملأ هذا قلبك غبطة ؟ لقد كان هذا سبب مجيء أليك في عربة ، ولم يكن السبب أنه كان سكران كما ظن الناس » .

قالت : « يسرنى ذلك ، فهل وراءه طائل ؟ » قالت الأم : « بغير شك ؟ فن المنتظر أن تنجم من هذا أمور جسيمة ، ومن المحقق أن زمرا من أقربائنا سيهرعون إلينا في عرباتهم ، حالا تذيع الحقيقة ؛ لقد عرف أبوك الأمر في عودته من



شاستن ، وأفضى إلى به . قالت تس فجأة : « أين أبي الآن ! » ، فأجابها أمها  
بحديث طويل لا علاقة له بسؤالها : « لقد زار الطبيب في شاستن اليوم ، ويظهر  
أن مرضه ليس بالسل ، بل هو شحم حول القلب كما قال الطبيب » وعقفت إبهامها  
المبتل وسبابتها على شكل دائرة غير كاملة ، وأشارت بالسبابة الأخرى واستطردت  
قائلة : « هكذا قال له الطبيب : في الوقت الحاضر قلبك محاط من جميع  
هذه الجهات ، وما تزال هذه المسافة مفتوحة ، فإذا انسدت هكذا ، »  
— وأغلقت إصبعيها مكونة دائرة كاملة — « ذهبت كالخيال يا مستر دريفيلد ،  
فأما عشت عشرة أعوام ، وإما قضيت نحبك في عشرة أشهر أو عشرة أيام » .

جزعت تس إذ سمعت أن أبها ربما غاب وراء السحابة الأبدية غيباً وشيكاً ،  
على رغم هذه العظيمة المفاجئة ! ثم عادت تسأل : « ولكن أين أبي ؟ » قالت أمها  
في لهجة استرضاء : « على رسلك ، لقد بلغ التأثير منه عقب سماعه مقالة القس ،  
فذهب المسكين إلى حانة روليفر منذ نصف ساعة ، ولا ريب أنه محتاج إلى تجديد  
نشاطه استعداداً لرحلة القد ، إذ لا بد أن يذهب بخلايا النحل مهما كان مجد  
أسلافه ؛ ويجب أن ينطلق بعد منتصف الليل بقليل لطول المسافة »

صاحت تس وقد اغرورقت عينها حزناً : « تجديد نشاطه ! يا إلهي ! إلى  
الحان يذهب لتجديد نشاطه ؟ ووافقته أنت على ذلك ؟ » ، وكان هياجها وتقرعها  
من الحدة بحيث لاحاً كأنهما يملآن الحجرة جميعاً ، ويرسمان الجزع على الأنث  
والشمعة والأطفال اللاعين ووجه أمها ، فقالت الأم متأففة : « أنا لم أوافق ،  
وقد كنت أرقب عودتك كي تظلي في الدار حتى أذهب لأسترجعه » ، قالت  
تس : « بل أذهب أنا » ، قالت : « لا يا تس ، لن تستطيعي استرجاعه » ، فلم  
تجادل تس إذ كانت تعرف مغزى اعتراض أمها ، وكانت مسر دريفيلد يكرها قد  
أعدت سترتها وقلنسوتها على كرمي بجانبها ، تأهباً لهذا الخروج المثنوى ، والتي  
كانت تتظاهر بالاضطرار إليه على كره منها ؛ ثم قالت لابنتها وهي تجفف يديها  
وتردى ثيابها : « خذي كتاب « المتنبى الكامل » إلى الدار الخارجية ، وهو

سفر ضخيم ملقى على المنضدة بجانب كوعها ، قد رث لكثرة ما دس في الجيوب حتى بلغت هوامشه حوافي السطور ، فالتقطته تس وانطلقت أمها .

وكانت تلك الرحلة في أثر زوجها الكسلان ما تزال من أحب متاعها وسط أعباء الأمومة ، فكان يسمدها أن تهتدى إليه عند خان روليقر ، وتجلس بجانبه هناك ساعة أو ساعتين متناسية هموم الأطفال ، وكأن هالة وضاء قد أشرقت على حياتها ، وكانت هموم الحياة وأشغالها تستحيل عند ذلك معاني وأشباحا لا تدرك إلا بالتأمل الطويل ، لاحقائق متحجرة حازبة تضنى الروح والجسم ؛ وكان ساعتئذ يلوح لها صبيتها وقد غابوا عن بصرها كأنهم جزء متمتع محبوب من حياتها ، كما كانت تلوح لها حوادث العمل اليومي سارة طريفة ، وكان يعاودها هناك نفس الشعور الذي كان يخالجها ، حين كانت تجلس في ذلك المكان عينه بجانب زوجها قبل اقترانهما زمن خطبتهما ، مفضية عن كل معاييه ، لا ترى فيه إلا مثالا أعلى للماشق

ألفت تس نفسها بمفردها مع الصغار ، فخرجت أولا إلى الدار الخارجية حيث وضعت كتاب التنبؤ بالحطوط بين الكلا ، وكانت أمها تخاف ذلك الكتاب العتيق وتتوجس منه توجسا عجيبا ، فكانت لا تبقيه تحت سقف البيت ليلا ، بل تحضره من موضعه كلما احتاجت إلى النظر فيه ؛ وكانت تفصل عقلية الأم وعقلية ابنتها هوة مداها مائتا عام : الأولى تمشي بركام من الخرافات والأوهام والأغاني الشعبية الموروثة ، والثانية بتعليمها المنظم الدقيق ذى المناهج المنقحة ، فكانتا إذا اجتمعتا واجتمع الصصران اليعقوبي والفكتوري .

وسألت تس نفسها وهي عائدة على المشي بين الأشجار ، ما عسى أن يكون السر الذي دفع أمها إلى النظر في ذلك الكتاب في هذا اليوم ، ورجحت أن يكون السر راجعا إلى النسب الذي كشف في ذلك النهار ، ولم يدربخلدها أن الأمر إنما كان يخصها ، على أنها انصرفت عن التفكير في ذلك ، واشتغلت برش الملابس التي جفت أثناء النهار بقطرات من الماء ، يصحبها أخوها إبراهيم الذي كان في

التاسعة من سنه ، وأختها إلايزا لوزا التي كانت في منتصف الثالثة عشرة ، وكانوا يدعونها لايزْ أَلُو ، أما الصغار فقد ناموا .

وكانت بين تس وبين من تليها من أخواتها فجوة من الزمن تزيد على أربع سنين ، إذ مات الأخوان اللذان كانا يعلّان تلك الفجوة الزمنية في طفولتهما ، فكانت تس لذلك تقوم بدور الأم حين تحتل بأشقائها ، وكان تصغر إبراهيم في السن اثنتان أخريان : هوب ومودستي ، وبعدها غلام في الثالثة ؛ ثم رضيع لم يُحوّل إلا منذ قريب .

كانت جميع هذه الأنفس الصغار ركابا في سفين دريفيلد معتمدين كل الاعتماد على تصرفات عميدَي الأسرة في حوائجهم ومسرّاتهم وصحتهم ، بل في وجودهم ذاته ، فإذا راق العميدان أن يندفعا في تيار المصاعب والماعطب ، والجوع والداء والعار والموت ، تبعهما أولئك الأسرى الستة الصغار — ستة مخلوقات لا تستطيع لنفسها نفعا ولا ضرا — لم يسألهم سائل قبل قدومهم أيحبون أن يقدموا إلى الحياة ، دع عنك القدوم إليها في هذه الأحوال العسيرة القائمة في مسكن دريفيلد المجهول المصير ؛ فلمعمرى كم يود المرء أن يعلم من أين امتنبط حجته ذلك الشاعر الذي تمد فلسفته اليوم عميقة جدية بالثقة ، كما يمد قصيده جزلا ممتعا ، حين يتحدث عن « خطة الطبيعة المقدسة » .

مضى الوقت ولما يمد الأب والأم ، وأرسلت تس بصرها من الباب وجات بفكرها في أنحاء مارلت ، وكانت القرية تغلق أعينها ، فكانت الشموع والمصابيح تطفأ في كل ناحية ، وكانت تس تتخيل مطفئها وأيديهم الممدودة ، وأيقنت أنه لابد بعد أن خرجت أمها في طلب أبيها ولم يعودا أن تخرج هي في طلب كليهما ، وقالت في نفسها إن رجلا عليلا مزمعا الرحيل قبل الساعة الأولى صباحا ، لا ينبغي أن يبقى في حان إلى هذه الساعة المتأخرة ، يحتفل بنسبه المريق .

قالت تس لأخيها الصغير : « إبراهيم ، البس قميصك واذهب إلى حان روليفر ، وانظر ما كان من أمر أبيك وأمك ، أيمكنك الخوف ؟ » . فوثب الغلام من مجلسه

فوراً واندفع إلى الباب وابتلمه الظلام ؛ ومر نصف ساعة ولم يؤب الأب ولا الأم ولا الغلام ، وكأنما الحان قد تصيد الغلام وارتهنه كما فعل بأبيه وأمه ؛ وأخيراً قالت تس في نفسها : « لا بد أن أذهب بنفسى » ، فأوت لا يزالو إلى فراشها ، وأقفلت الباب واتخذت سمتها على الطريق المظلم المتلوى المعوق عن الإسراع ، والذي كان قد اختط قبل أن يصبح كل شبر من الأرض ذا قيمة ، وأيام كانت الساعات ذوات المقرب الواحد تكفى لتوقيت اليوم .

٤

كان حان روليفر هو الحان الوحيد في ذلك الجانب من تلك القرية المستطيلة المتهمة . وكان لصاحبه حق بيع الخمر ، ولكن لم يكن لها حق إيواء الشارين ، فلم يكن به غير لوح طوله ذراعان في نصف ذراع ، قد شد بأسلاك إلى سياج الحديقة ليكون منضدة ، وعليه كان يضع عابرو السيل الظاء أقداهم ، وهم وقوف للشرب على قارعة الطريق ، ويلقون الثمال على الأرض المتربة على حال مستبشعة ، وهم يودون لو أتيح لهم الاستراحة في الداخل .

ذاك كان شأن عابري السيل الغرباء ، غير أن العملاء من أهل القرية كانوا يشعرون بنفس الرغبة ، وحيث تكون الرغبة تتفتق الحيلة ، ففي ذلك المساء كان نحو ستة أشخاص مجتمعين في غرفة نوم واسعة في الطابق الأعلى ، وقد أسدل على شباك الحجرة شال صوف كثيف كبير ، قد استفتت عنه حديثاً مسز روليفر صاحبة الحان ؛ جاء أولئك النفر من كهول الجانب القريب من القرية ، يتفنون الصفاء والنعيم في ملجئهم المهود ، ذلك أن حان القطرة الصافية المباح الجلوس فيه للشراب ، كان يقوم في الطرف الآخر من تلك القرية المبعثرة الأطراف ، وكان بعده يحول بين سكان هذا الطرف وبين الجلوس فيه ، بيد أن جودة الشراب كانت اعتباراً آخر أهم من ذلك ، ومن ثم قيل إن الشرب مع روليفر في ركن بأعلى مسكنها ، خير منه مع صاحب الحان الآخر في بيته الرحب .

كان عدد من الشارين يجلسون على ثلاثة جوانب من فراش عار ذى دعائم أربع . وكان رجلان آخران جالسين على تحت ، وآخر على صندوق كبير من البلوط ، واثنان آخران على منضدة الزينة ، وآخر على مقعد تلك المنضدة ، وهكذا كان كل واحد مستقراً في مكانه في اطمئنان ، وقد بلغت السعادة منهم جميعاً أن طفرت أرواحهم من أشباحهم وعمت حرارتها جو الحجرة ، وبدت الحجرة

وأثأها في صورة من الأبهة والترف ، وبدا الشال المعلق بالشباك كأنه الديباج الموشى ، وبدت مقابض التخت النحاسية كأنها كرات المسجد ، وبدت دعائم الفراش المزركشة شبهة بعمدان محراب سليمان .

إلى هذا المكان احتثت مسز دريفيلد خطاها بعد مفادرتها تس ، وفتحت الباب الخارجى واجتازت الردهة التى كان يحيم عليها الظلام ، ثم فتحت باب السلم بخفة اليد المدربة الخبيرة بمعالجة الزلاچ ، أما الدرج فصعدته متأنية لشدة تعرجه ، حتى ارتفع وجهها فى الضوء الذى كان يشع فوق آخر درجة ، فقابلتها نظرات جميع المحتشدين فى المندع ، وحالاً سمعت صاحبة الحان وقع قدميها قالت بذلاقة الغلام الذى يردد الوصايا الدينية التى تتلى عليه يوم التعميد ، وعيناها مشدودتان إلى الدرج : « وقد دعوتكم يا رفاق للاحتفاء بهذا اليوم على نفقتى » ، ثم عادت تقول : « أوه ! هذه أنت يا مسز دريفيلد ! كم أفزعتنى ! لقد خفت أن يكون الصاعد عينا أرسلته الحكومة » .

ورحبت بقية الجماعة بمسز دريفيلد بنظراتهم وهزات رؤوسهم ، ثم التفتوا إلى مجلس زوجها وكان يغمغم فى غيبوبة : « أنا قريع من هنا ومن هناك ! ولأسرق قبو عظيم فى كنتجزير سبجرينهل ، وجماجم لا تناصيها جماجم فى وسكس ! » ، فهمست إليه زوجته فى حبور : « دعنى أخبرك بمشروع عظيم يتعلق بهذا الأمر قد خطر لى ! جون ! ألا ترانى ؟ » ، قالت هذا ودفمته ، أما هو فظل ناظرآ إليها كأنما ينظر من زجاج شباك ، واسترسل فى ترنمه ، فصاحت به صاحبة الحان : « صه ! لا ترفع صوتك بالغناء يا هذا ، فلربما مر بعض عمال الحكومة فسحب رخصتى » .

قالت لها مسز دريفيلد : « هل أنباك بما كان ؟ » ، قالت : « نعم ، بعض الشيء ، أظنن وراء هذا مالا ؟ » ، أجابت مسز دريفيلد فى رزاة : « هذا هو السر ، وقرابة النبلاء على أى حال شيء جميل ، وإن لم تركب العربات الفخمة التى يركبون » ، ثم خفضت صوتها هامسة إلى زوجها : « لقد كنت أفكر منذ جئتنى

بأنباتك في سيدة كبيرة غنية ، تسكن قرب ترتريج عند طرف مقاطعة تشيس ، تدعى دربرفيل « ، قال سير جون : « ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ » ، فأعادت عليه قولها واستطردت : « لا بد أن تلك السيدة تمت إلينا بالقربي ، ورأيي أن ترسل إليها تس لتطلب إليها الاعتراف بتلك القربي » ، قال : « ذاك حق وقد أذكرتي ، وقد غاب ذلك عن القس ترنجيم ، على أن تلك المرأة ليست بجانبنا شيئاً مذكوراً ، إن هي إلا ثمرة فرع صغير راجع إلى أيام الملك زمان » .

ولم يلاحظ أحدهما وهما منهما مكان في درس هذا المشروع ، أن إبراهيم الصغير قد ظهر في الحجرة وقام ينتظر الفرصة ليخاطبهما في العودة ، واستطردت مسز دريفيلد : « إنها ثرية ، ولا بد أنها ستمطف على الفتاة وفي ذلك خير ، ولست أدري ما يمنع فرعى أسرة واحدة أن يتوصلا » ، فأطل إبراهيم من خلف دعائم الفراش وقال في حماسة : « أجل : لا بد أن نطالب بالاعتراف بالقربي ! ولنذهب لزيارتها حين تقيم معها تس ، ولنركبن عربتها ولنلبسن ثياب النبلاء السوداء ! » ، فصاحت به أمه : « ماذا أتى بك إلى هنا يا ولد ؟ وما هذا الهراء الذي تهذي به ؟ اذهب فالعب على السلم حتى يفرغ والدك مما هما فيه ! » ، ثم استطردت في حديثها تقول : « يجب أن تذهب تس إلى قريبتنا تلك ، ولا ريب أنها ستكسب قلب المرأة ، والأرجح أن الأمر سينتهي بزواجهما من فتى نبيل ، إنى لو اتقتة مما أقول » .

قال : « كيف ؟ » ، قالت : « لقد كشفت عن حظها في كتاب التنبي » ، فانكشف عما حدثتك به ! وليتك رأيت جمال منظرها هذا النهار : لقد كان جلدها غصا كأجسام البوقات » ، قال : « وما رأى الفتاة في الذهاب ؟ » ، قالت : « لم أفأتمهما بعد ولا هي تعلم بوجود قريبتنا النبيلة ، ولكن الأمر المحقق أن ذلك سيؤدي بها إلى زواج في عليقة القوم ، ولن تمنع هي في الزواج » ، قال : « إن تس غريبة الأطوار » ، قالت : « ولكنها لينة القياد في النهاية ، فدعها لي » .  
كان حديثهما خاصا ، ولكن تطاير مجمله إلى الجالسين ، الذين أدركوا

أن آل دريفيلد قد غدا لهم من مهام الأمور ما لا يحيط به الدهاء ، وأن تس ابنتهما الكبرى الحسنة على أبواب مستقبل باهر ، فهمس أحد أولئك المخمورين : « إن تس لثمة عظيمة ، كما حدثت نفسى اليوم حين رأيتها فى زينتها تسير مع الأخريات ، ولكن يبنى لجوان دريفيلد أن تحذر من أن تلقى السم فى الدسم » ولم يجبه أحد ، واتسع نطاق الحديث وسرعان ما سمع خفق أقدام تعبر الردهة السفلى ، فاندراً لسان صاحبة الحان بعبارتها التى أعدتها للقاء الواعلين ، قالت : « وقد دعوتكم يارفاقى للاحتفاء بهذا اليوم على نفقتى » ، ولكن سرعان ما تبينت وجه تس .

كان من المحزن أن ترى طلمة تس المشرقة فى ذلك الجو الموبوء بأبخرة الكحول ، التى لا يناسب إلا الوجوه المفضضة للسنة ، وقد أحست أمها ذاتها بذلك ، ورمقت تس أمها وأبأها رمقة تقريع لعلها لم تكن فى حاجة إليها ، فإنهما لم يكادا يريانها حتى انتفضا قائمين ، وتجرجرا ما بقى من ثمالة كأسيهما ، وهبطا الدرج خلفها ، وشيعتهم مسز روليفر بقولها : « حذار الضجيج يا سادة ، وإلا خسرت رخصتى واستدعيت للتحقيق ، وتوالت على التابع ، عموا مساء » .

ساروا إلى المنزل وتس تتأبط إحدى ذراعى أبيها ، وأمها تتأبط ذراعه الأخرى ، ولم يكن قد أسرف فى الشراب أو تناول منه ربع ما يتناول المدمن قبل ذهابه إلى الكنيسة يوم الأحد ، ثم لا يبدى أدنى اضطراب فى استقباله المحراب أو فى ركوعه ، ولكن ضعف بنية سير چون كان يرد صغار آتامه جبلاً رواسى ، فلما بلغ الهواء النقى اشتد اختلاجه ، حتى صار يميل بصاحبتيه يمينا كأنما يقصد لندن ، ويساراً كأنه ييم باث ، فكان من ذلك منظر مضحك كثيراً ما تراه حين ترى أسرة مدلجة عائدة إلى دارها ، وهو مع ذلك من الناظر المضحكات المبكيات إذا فكرت فيه ؛ وأبدت المرأتان غاية الشجاعة فى إخفاء هذا التدفع والتخبط عن دريفيلد نفسه وهو مسيه ، وعن إبرم ، وعن نفسيهما ، حتى قارب



جمعهم الدار ، وإذا عميد الدار ينفجر منشداً نغمته الأولى ، كأنما يعزى نفسه عن حقارة مثواه .

قال مترنماً : « لأسرتى ... قبو فى كنجز بير ! » ، فصاحت به زوجته : « صه يا أحق . فما كانت أسرتك هى الأسرة العظيمة الوحيدة فيما مضى ، اذكر آل أنكيتل وآل هورسنى وآل ترنجيم أنفسهم ، لقد هبطوا كما هبطت ، وإن كان أبأؤك أجد من آبائهم ، أما أنا فلا أنتى إلى أسرة عريقة ، والحمد لله ، وليس فى ذلك ما يشين ! » ، قال : « على رسلك ، فأنى حين أتدبر طباعك يرجع لدى أن قومك هبطوا شراً مما هبطنا ، وأنهم كانوا جميعاً ملوكاً وملكات حيناً من الدهر » ؛ وغبرت تس مجرى الحديث إلى ما هو أهم لديها من أعرافها ، قالت : « أخشى ألا يستطيع أبى الانطلاق بتلك الخلايا غداً مبكراً » : قال أبوها : « أنا ؟ سأكون فى أطيب حال بعد ساعة أو ساعتين » .

كانت الساعة الحادية عشرة قبل أن يأوى الجميع إلى فراشهم ، وكانت الساعة الثانية صباحاً آخر موعد لانطلاق الرجل بالخلايا ، إذا أريد إيصالها إلى التجار فى كستر بروج قبل قيام سوق الأحد ، فقد كان الطريق إليها رديئاً ، والمسافة بين العشرين والثلاثين ميلاً ، وكان الحصان والعربة بطيئين غاية البطء ، وفى منتصف الساعة الثانية دخلت الأم حجرة النوم الكبيرة ، حيث تنام تس وجميع الأطفال فانفتحت لدخولها عينا تس الكبيرتان ، وقالت لها أمها : « المسكين عاجز عن النهوض » ، جلست تس فى فراشها وذهنها مشتبته فى غيبوبة بين الأحلام وبين هذا الخبر ، ثم استطردت الأم فى حديثها : « ولكن لا بد من ذهاب أحداً ، لقد تأخرنا فى بيع الخلايا وسينتهى موسم جمع النحل عما قريب ، فإذا انتظرنا سوق الأسبوع القادم انقطع الطلب وكسدت الخلايا فى أيدينا » .

بدت الحيرة والعجز على مسز دريفيلد ثم قالت : « لعل أحد أولئك الشبان الذين كانوا يتلفون على مراقصتك أمس يتبرع بالذهاب ! » ، فاعترضت تس فى إباء : « كلا ! لا أسمع بهذا أبداً ! أو رضى أن يذيع سبب ذلك فى الناس ؟

واخجلناه ! الأجدد أن أذهب أنا ورافقتي إبرهم لإيناسى فى الطريق ؟ وبعد  
لأى وافقت الأم ، وأزعج إبرهم الصغير من سباته فى أحد أركان الغرفة ،  
وأمر بارتداء ثيابه وعقله ما زال فى عالم آخر ، وكانت تس قد ارتدت ثيابها ،  
وأوقد الشقيقان فانوساً ومشيا إلى السقيفة ، وكانت العربى المضعضة محملة بالخلايا  
وجذبت الفتاة الحصان « برنس » ، الذى لم يكن أقل من العربى تضعضاً ؛ فتلفت  
هذا المخلوق المسكين فى الظلام ، ونظر إلى الفانوس وإلى الآدميين ، كأنه لا يصدق  
أنه يراد على الخروج والعمل فى تلك الساعة التى يهجع فيها كل مخلوق ويستريح .  
وضع الشقيقان عدداً من أعقاب الشموع فى الفانوس وعلقاه فى جانب العربى  
وقادا الحصان إلى الأمام سائرين بحذاء كتفيه فى أول الطريق المرتفع ، كيلا يرهقا  
ذلك الحيوان الضعيف ؛ ولكى يسريا عن نفسيهما قدر ما يستطيعان ، اتخذا من  
الفانوس صباحاً صناعياً ، وتناولوا شيئاً من الخبز والزبد وتجاوزا الأحاديث وما زال  
الصباح الحقيقى بعيداً ، وكان إبرهم قد سار هذه المسافة فى نصف غيوبة ، حتى  
إذا ما استعاد كامل يقظته انطلق يتحدث عن الأشكال الغريبة التى تتشكل بها  
الأجسام المختلفة فى عرض الفضاء ، من شجرة تلوح كأنها نمر مزجر يثب من  
غيله ، وأخرى تبدو كراش مارد .

واجتازا بلدة ستوركمل الصغيرة ، وكان السكون والكرى يخيمان على  
سقفها البنية من الكلا الرمادى اللون ، وعند ذلك صعدا فى أرض مرتفعة  
وشمخت عن جانبيهما ربى وسكس الجنوبية ، وابتداء من ذلك الموضع إلى مدى بعيد  
أصبح الطريق مستويًا مبدأً أمامهما ، فركبا فى مقدمة العربى واسترسل إبرهم فى  
الأفكار ، وبعد صمت قال فى لهجة من يمهّد لحديث : « تس ! » ، قالت : « نعم  
يا إبرهم » ، قال : « ألم تغتبطى لصيرورتنا فى النبلاء ؟ » قالت : « لم أغتبط  
كثيراً » .

قال : « أفلا يسرك أنك ستزوجين نبيلًا ؟ » فرفعت إليه وجهها قائلة :  
« ماذا ؟ » . قال : « ألا يسرك أن قريبتنا العظيمة ستساعدك على زواج نبيل ؟ »

قالت « أنا ؟ قريبتنا العظيمة ؟ ليس لنا قريبات عظيمات فمن أدخل هذا في وهمك ؟ » قال : « لقد سمعتهما يتحدثان بذلك في حان روليفر ، حين ذهبت للبحث عن أبي ، ففي ترتدج سيدة غنية تمت إلينا ، وقد قالت أُمى إنك إن طلبت إلى تلك السيدة أن تستلحقك ، أتاح لك فرصة الزواج ببيل » .

لاذت أخته بصمت عميق ، واسترسلت في التفكير ، ومضى إبرهم في حديثه مجرد التلذذ بالتفوه وإن لم يصغ إليه أحد ، فلم يكرهه شرود لبأخته ، وأسند ظهره إلى الخلالا ورفع وجهه إلى السماء ، وجعل يتحدث عن النجوم ، وكانت النجوم دائبة في مداراتها وسط قبابها الظلماء الشاهقة ، غير عابثة بذينك الجرمين الإنسانيين الضئيلين ، وتساءل عن بعد تلك السواطع ، وهل الإله كائن خلفها ؟ ولكنه كان يعود من حين إلى آخر بثرثرته الصبانية إلى الموضوع الذى كان أشد تملكا لـبه من عجائب الخليفة ، فتساءل فإذا أثرت تس زواجها نبيلًا ، أبصير لديها من المال ما يكفي لشراء منظار مكبر ، يدنى إليها النجوم دون قرية تتلكوم توت ؟

ضافت تس ذرعا بتجديد هذا الموضوع الذى اختمر في عقول الأسرة جميعًا ، فصاحت به : « دعك من هذا الآن ! » ، قال إبرهم : « أقلت يا تس إن النجوم دُنًا آخر ؟ » ، قالت : « نعم » ، قال : « كدنيانا ؟ » ، قالت : « لا أدرى ، وإن كان يخيل إلى ذلك ، فهي أحيانًا تبدو كالتفاح الذى على شجرتنا ، معظمه صحيح غض وبعضه فاسد » ، قال : « وعلى أى النوعين نحيا ؟ على صحيحه أو على فاسده ؟ » ، قالت : « على فاسده » ، قال : « ليتنا وقمنا على صحيحة من بين تلك الصحيحات الكثيرات ! » ، قالت : « أجل » ، قال ملتفتًا إليها وقد راعه التفكير فيما أفضت إليه به : « أحقا تقولين يا تس ؟ ماذا كان يحدث لو وقمنا على صحيحة ؟ » ، قالت : « إذن لما عانى أبوك السعال واختلال المشية ، ولما أفرط في الشراب حتى عجز عن القيام بهذه الرحلة ، ولما انهيمت أمك دائمًا في التفسير دون أن تنجزه » ، قال : « ولكنك أنت سيدة غنية من بادية الأمر ، دون حاجة إلى

زواج نبيل لكي تحوزى الفنى » ، قالت : « مه يا غلام ، مه ولا تعد لهذا الحديث » .  
ترك إبراهيم لأفكاره فسرعان ما غلبه التماس ، ولم تكن تس حاذقة بسوق  
الخليل ، ولكنها رأت أن في مقدورها أن تستقل بقيادة العربى رداً من الزمن ،  
ليصيب إبراهيم حظاً من النوم ، ومهدت له عشا أمام الخلايا لا يخشى وقوعه منه ،  
وأخذت العنان في يديها ومضت العربى تتدفع ، ولم تكن بها حاجة إلى الانتباه  
إلى برنس ، فقد كان أضعف من أن يطلب منه مجهود أكبر مما يبذل ، وإذا  
ألفت نفسها بلا سمر استسلمت لتأملاتها مسندة ظهرها إلى الخلايا ، واختلطت  
مواكب الأشجار والأسوار المارة فى صمت عن جانبيها بأوهامها وأحلامها ،  
وأصبح تنفس الرياح من حين إلى آخر كأنه تنهد روح هائلة حزينة ، تختلط بالعالم  
فى الفضاء ، وبالتاريخ فى الزمان .

ثم راحت تتأمل فى حوادث حياتها المشتجرة ، فتبين لها غرور دعوى أبيها ،  
وبدا لها الخطيب النبيل الكامن لها فى وهم أمها ، وكأنه يهزأ بها ويضحك من  
فقرها ومن أجدادها الفرسان المكفنين ، وتضخمت الأمور كلها فى حدسها ،  
وغفلت عن الوقت حتى أزعمتها رجة مفاجئة ، فأفاقت وإذا هى أيضاً قد كانت  
نائمة ، وكانا قد قطعا مسافة طويلة وهى فى غشيتها ، وكانت العربى قد وقفت ،  
وانبعثت من الأمام أنه مبهم لم تسمع لها تس مثيلاً من قبل ، ثم صيحة تقول :  
« ريه ! » ، وكان الفانوس الدل من جانب العربى قد انطلقاً ، ولكن كان فانوس  
آخر يسطع فى وجهها أشد توهجاً من فانوسها ، وكان قد حدث حادث فظيع ،  
إذ علقت شكيمة الحصان بشئ معترض فى الطريق .

قفزت تس إلى الأرض على دهش ، وإذا هى تكتشف الحقيقة المريرة : فقد  
كانت تلك الأنة قد انبعثت من حصان أبيها المسكين ، وذلك أن عربى بريد الصباح  
ذات العجلتين الصامتتين ، كانت تمرد فى الطريق الضيق كالسهم على عادتها ،  
فاضطدمت بعربى تس غير المضادة ، واخترقت إحدى ذراعى العربى المدينتين  
صدر « برنس » المنكود كأنها السيف ، فأخذ الدم يتدفق من جرحه كالسيل

منهمرا على الأرض ، فاندفعت تس في يأس تسد الجرح بكلتا راحتيها ، فلم يجدها ذلك إلا أن لطخها رشاش الدم القاني من فرعها إلى ذيلها ، ووقفت تنظر ولا تستطيع للصية دفعا ، ووقف پرنس كذلك في موضعه متمسكا ما استطاع وأخيراً ارتعى جسما هامداً .

وفي هذه الأثناء كان سائق عربة البريد قد لحق بتس ، وراح يحجر جسم پرنس الحار ويخلع شكيمته ، ولكن الحيوان كان قد قضى ، فلما أدرك الرجل أن لم تعد ثمة حيلة ناجعة ، عاد إلى حيوانه الذي لم يعصب بضير ، وقال : « لقد كنت تسيرين على الجانب الخطأ من الطريق ، والآن يجب على أن أنطلق بحقائب البريد ، فليس لك ما تفعلين سوى أن تمكثي هنا بجانب أحمالك ، وأنا مرسل إليك من عينك بأسرع ما أستطيع ، وقد جاء الصباح وليس ثمة ما يخافين » ، وركب وانطلق وتس جامدة في مكانها .

وشحب وجه الأفق ، ونفضت الأطيوار عن نفسها النوم ، وشرعت تسسقى في أغصانها ، وبدا يياض كل الأشياء البيضاء في الطريق ، وبدا يياض بشرة تس أسطح ، وبدأت بركة الدم المنبسطة أمامها تتجمد ويحول لونها ، وانعكست عليها عند بزوغ الشمس شتى الألوان المنشورية<sup>(١)</sup> ، وقد تمدد الحصان بجانبها متخشباً جامداً ، منفتح العينين نصف انفتاح ، بعجب الرأى لصغر جرحه الذي تدفق منه معين حياته كلها .

قالت الفتاة وهي تمحق في ذلك المنظر : « هذا ما جئت يداى أنا وحدى ، أنا المولومة لا ملوم غيرى ، كيف يحيا والدى بمد الآن ؟ » ، وهزت أخاها ونادته ، وكانت ما يزال في سباته رغم وقوع تلك الفاجعة ، وصاحت به : « لقد هلك پرنس ولن نستطيع المضى بأحمانا » ، ولما أدرك الغلام كل ما حدث تغضن جبينه الصغير تغضن وجه الشيخ الهيم ؛ ومضت الفتاة تنحى على نفسها : « لقد كنت أرقص وأضحك أمس ! يا لحماقتي ! » ، فغمغم إبراهيم من خلال عبراته : « إنما

(١) المنشورية : التي تنكسر من منشور بلورى يوضع في ضوء متوهج .

حدث ما حدث لأننا نحيا على كوكب فاسد ، أليس الأمر كذلك يا تس ؟ » ،  
وانتظرا صامتين مدة خيل إليهما أنها دهر طويل ، وأخيراً صمما صوتاً وأبصرا  
شبحاً مقبلاً ، فعلما أن سائق عربة البريد قد بر بوعده ، ووافاهما عامل في بعض  
المزارع القريبة من ستور كسل ، بحصان قوى أخذ مكان پرنس ، وانطلقت العربة  
إلى كستر برج .

وشهد أصيل ذلك اليوم العربة الفارغة تعود إلى نفس تلك البقعة ، وكان  
پرنس ما يزال مجتهداً في حفرته منذ الصباح ، وما تزال آثار بركة الدم تلوح في  
عرض الطريق ، وإن خدشتها وقشرتها العربات المارة ، فحملت بقيته العربة التي  
كان يجرها من قبل ، وعادت به مسافة أميال ثمانية أو تسعة إلى مارلت ، وحوافره  
في الهواء وأحذيتها تلمع في الشمس الفاربة ؛ ووصلت تس إلى دارها مبكرة ،  
ولم تدر كيف تنهى الخبىر الفاجع إلى والديها ، ثم حل عقدة لسانها أن  
تبينت في وجهيهما أنها على علم بالخسارة ، وإن لم ينقص ذلك من تأنيبها نفسها  
على إهمالها .

على أن نزعته التهاون التي كانت تسود تلك الأسرة قد هونت الخسارة ، فبدت  
لهم أيسر مما تبدو لقوم مجدين عاملين ، رغم أنها هنا تجلب الدمار ، وفي الأسرة الأخرى  
المجدة لا تسبب إلا صعوبة طارئة ، ومن ثم لم يلج في نظرات أبوى تس لألح من  
ذلك الغضب المحتدم ، الذي كانت تلقاه لو كان أبواها أحرص على مستقبلها . ولم  
يعنف أحدٌ تس ، قدر ما عنفت تس نفسها .

ولما لم يسوّم الدباغ وتاجر اللحوم الميتة بقايا پرنس بأكثر من دراهم معدودة ،  
لهزاله وضموره ، نهض دريفيلد يقول في كبرياء وحمية : « كلا ! لن نبيع جسمه :  
فإننا آل دربرفيل حين كنا فرساناً ، لم نكن نبيع لحوم حيادنا لتكون طعاماً للقطط ،  
فليضن القوم بدراهمهم ! لقد خدمنى جوادى في حياته ، ولن أتخلى عنه بعد مماته »  
وفي الند اجتهد في حفر مقبرة للحصان ، اجتهداً لم يجتهد منذ شهور ، في إنتاج  
محصول يموّد نفعه على أسرته ، فلما فرغ جعل هو وزوجه حول عنق الحصان

جبلًا جذباه به إلى الحفرة ، وأبناؤها يسرون من خلفه مشيعين ، وكان إبراهيم ولا يزالون ينتجان ، وهو يموّدي يولولان من لوعتهما ولولة تردد صداها الجدران ، ولما سقط پرنس تجمهروا حول قبره . لقد انتزع منهم كافل قوتهم فنا عسائم صانعون ؟

تساءل إبراهيم بين الزفرات : « هل ذهب إلى الجنة ؟ » ، ثم أخذ درييفيلد يهيل التراب ، فتجدد عويل الجمع إلا تس ، فقد كان وجهها جافًا شاحبًا كأنها تحس أنها قاتلة .

٥

اضطربت التجارة الصغيرة التي كان عمادها الحصان ، ولاح شبح العسر ، بل شبح الإملاق مقبلا ، ولم يكن دريفيلد على شيء من العزيمة ، نعم كان ينهض للعمل أحيانا ، ولكن نهوضه لم يكن دائما يوافق وقت الحاجة ، وحتى حين كان يفعل لم يكن يثابر على الجهد لعدم تعود العمل المنتظم ؛ أما تس التي كانت تحس أنها هي التي زجت والديها في ذلك الموقف الضنك ، فكانت تفكر فيما تستطيع أن تفعل لتخرجهما منه ، وعند ذلك تقدمت أمها بمشروعها .

قالت : « يجب يا تس أن نلبس لكل حالة لبوسها ، ولم أرنا أحوج إلى الانتفاع بشرف محتدك منا اليوم ، وليس لنا إلا الفزع إلى أصدقائنا ، ألا تعلمين أن في أرباض تشيس سيدة غنية من أسرة دربرفيل ، لا بد أنها تحت إلينا برحم ؟ ينبغي أن تذهبي إليها وتسألها أن تستلحقك ، وتطلبي إليها إنقاذنا من مصاعبنا » . قالت تس : « لا أحب أن أفعل هذا ، وإذا صح أن تلك السيدة موجودة فيجب أن تقنع بمودتها ولا نطمع في نوالها » ، قالت أمها : « بل يمكنك أن تستخدمها في أي أغراضك شئت يا عزيزتي ، وفضلا عن ذلك فإن وراء هذا الأمر ما لا علم لك به ، وقد تناهت إلى علمي أشياء ووعيتها » .

حمل تس شعورها المرهق بالضرر الذي جلبته ، على الأكثرات بسؤل أمها أكثرا لعلها لم تكن تكثره لولا ذاك ، بيد أنها لم تدري كيف تفرح أمها بمغامرة كانت تراها هي غير محققة الجدوى ، ولعل أمها قد بحثت واستقصت وعلمت أن تلك السيدة كانت على غاية من كرم الخلائق وطيبة القلب ، ولكن كبرياء تس كانت تملأ نفسها أسمى حين تتصور قيامها بدور القرية الفقيرة ، فقالت في صوت منخفض : « أنا أؤثر أن أبحث عن عمل » ، وعندها التفتت الأم إلى زوجها الجالس في المؤخرة وقالت : « الأمر إليك يا دريفيلد ، فإذا أشرت بوجوب ذهابها حق عليها الذهاب »



فقال الرجل مهينا : « لست أرضى لبنى أن يذهبوا ليتطفلوا على الغريباء ، فأنا عميد أشرف فروع الأسرة ، ويجب أن أرمي كرامة مقامى » .

رأت تس أن الحجاج التى اعتذر بها أبوها عن عدم ذهابها أقبح من ذهابها ، فقالت على مضض : « ما دمت أنا يا أمى قاتلة الحصان ، فواجبى أن أعمل عملا ما ، ولا ضير فى زيارة السيدة ، على أن تدعى لى أمر طلب معونتها ، وأقلنى عن فكرة بجئها لى عن زوج ، فعلى فكرة حمقاء » ، قال أبوها فى شتم : « أجدت ياتس ! » وقالت أمها : « من أنباك أنى أفكر فى ذاك ؟ » . قالت : « يخيل لى أنها فكرة تحترم فى رأسك يا أمى ، على أنى سأذهب » .

وفى الغد نهضت مبكرة ، وسارت إلى شاستن القائمة على مرتفع من الأرض ، وهناك استقلت عربة كانت تدرع كل أسبوع المسافة من شاستن شرقا إلى مقاطعة تشيس مارة قرب ترترج ، وهى الأبرشية التى كانت تقيم فيها مسز دربرفيل ، تلك السيدة المخوفة بالأسرار والألغاز ؛ وكان طريقها فى ذلك الصباح المشهود يجرى فى الشعاب الشمالية الشرقية من الوادى الذى ولدت فيه وترعرعت ، وكان وادى بلاكمور فى نظرها هو الدنيا ، وسكانه هم شعوب العالم .

وطالما أشرفت عليه فى أيام طفولتها المستطلعة ، من بوابات حقول مارلت وأسيجتها ، وما زال أكثر ما كان يلوح لها إذ ذاك سرا منلقا ، يبدو لها اليوم سرا منلقا ، وكانت ترى كل يوم من شباك نخدعها أبرجا وقرى وقصورا شاحبة وترى فوق ذلك قرية شاستن فى عليائها وجلالها ، ونوافذها تسطح كالصاييح فى ضوء الطفل ، ولعلها لم تطل تلك البقاع أبدا ، ولم تكن تعرف معرفة مستيقنة إلا جزءا محدودا من الوادى ذاته أو أرباضه ، وقلما طرقت ما ند عن تخومه ، وكانت تعرف أشباح جميع التلال المحيطة بها معرفتها وجوه أقربائها ، أما ما وراء ذلك فكان علمها به مقصورا على ما تلقته فى مدرسة القرية ، حيث كانت تحتل مكانا مقدما على زميلاتها عند مغادرتها إياها ، قبل هذا التاريخ بعام أو عامين .

وكانت فى تلك الأيام الأولى محببة إلى بنات جنسها المقاربات لها سنا ، وكان

من المؤلف رؤيتها تسير بين بنتين مائلتين لها عمرًا ، وهن عائدات من المدرسة جنبًا إلى جنب ؛ كانت تس تتوسط الآخرين في ميدع رخيص قرنفلي دقيق الرقشة من دونه رداء حائل اللون ، تحملها ساقان رفيمتان طويلتان يغطيها جورب ضيق تبدو فيه عند الركبتين خروق صفار كأنها درجات السلم ، قد أحدثتها كثرة الركوع على جوانب الطرق والشواطئ ، في طلب الأعشاب وغرائب المعادن ، وكان شعرها في ذلك المهد رمادي اللون مسترسلًا إلى خصرها ، وكانت تعتمد بكلتا ذراعيها على صاحبتيها .

ولما ترعرت تس وأدركت حقيقة ما حولها ، نعتت على أمها ما قد ينقعه المؤمن بمذهب مالنس — النادى بضبط النسل — لإقدامها بلا روية على إنتاج ذلك العدد العديد من صغار الإخوة والأخوات ، الذين تقتضى تربيتهم وإطعامهم جسيم المشاق ؛ أما أمها فكانت تتمتع بعقيلة الطفل السعيد ، ولم تكن الأم نفسها إلا فردًا من مجموع من الأشقاء والشقيقات ، الذين يرقبون عطف الأقدار ، ولم تكن بكبراهم ؛ على أن تس كانت تفيض رفقًا بأولئك الصغار .

ولحديها عليهم أصبحت بعد مغادرتها المدرسة تعمل أحيانًا في المزارع المجاورة في تجفيف الكلال أو حصاد المحصول ، أو في الحليب وصنع الزبد ، وكانت تفضل العملين الآخرين على ما عداها ، وكانت قد حذقتهما حين كان لأبيها بقر ، وبرعت فيهما خلفه يدها ؛ وجعل كل يوم يلقي على كتفيها الصغيرتين أعباء جديدة من أعباء الأسرة ، فكان من الطبيعي أن تقوم هي بالسفارة لأسرة دريفيلد في قصر دربرثيل ، ولا ريب أن آل دريفيلد بإيفادها قد أظهروا خير ما عندهم .

نزلت تس من العربة عند ترتديج كروس ، وصعدت على قدميها تلا مؤديا إلى مقاطعة تشيس ، التي أخبروها أن مسكن مسز دربرثيل — المسمى سلويس — قائم على تخومها ؛ ولم يكن هذا المسكن كدور أشرف الريف المهددة المحاطة بالحقول والروج ، يتمهدها فلاح ناظم ينتر منه المالك دخلا يقوم بمحاجته وحاجة أسرته ، بل كان أعظم من ذلك وأكبر ، كان قصرًا ريفيًا معدًا للتمتع وحدها ،

لا تحيط به ذراع واحدة من الأرض التي يقتضى استغلالها المتاعب ، إلا ما تقتضيه المرافق الضرورية ، وإلا مزرعة صغيرة أنيقة تشرف عليها ربة القصر ، ويتمهدها أحد أتباعها .

كان المسكن المبني من الحجارة الحمراء أول شيء لاح لعيني تس ، تنظيه الخضرة الدائمة إلى سقوفه المائلة على جوانبه ، فظننت أول وهلة أن ذاك هو القصر ذاته ، حتى مررت وقد عرتها قشعريرة من باب جانبي صغير ، وسارت قدما حتى بلغت موضعا ينعرج عنده الممشى ، وإذ ذاك بدا لها المسكن الحقيقي واضحا جليا ، وكان حديث البناء جدا ، لونه أحمر فاقع كالنزل الأول الذى كان أحمره يتميز فى اخضرار النبات تميز الأضداد ، وكان القصر يقوم كزهرة الجرينيم الحمراء الزاهية وسط الألوان المحدقة به والتي تقل عنه زهاء ، وقد نمت على مدى خلف ركن منه غابة جليلة المنظر ، هى إحدى الغابات القليلة الباقية فى إنجلترا من أعرق الأزمان ، والتي ما تزال تقوم فيها أشجار البلوط نامية عليها فروع الميسلثو التي كان يعبدها أجداد الكلت ، وأشجار السرو التي لم تفرسها يد إنسان ، ما تزال كما كانت أيام كانت تقطع فروعها لتتخذ منها أقواس القتال ؛ كانت هذه الغابة فى مرمى بصر الناظر من القصر ، وإن كانت واقعة خارج أملاك ربه .

كانت مظاهر الرخاء والثراء والازدهار والدعة بادية على ذلك الثوى ، وكانت تحيط به فدادين مترامية قد انتشرت فيها البيوت الزجاجية منحدره على تلك التلال حتى سفوحها المغطاة بالأحراج ، وكان كل شيء يبدو جديدا لامعا كآخر عملة أصدرتها دار سك النقود ، وكانت الاصطبلات فاخرة تبدو عليها أبهة الكنائس الفخمة ، تحيط بها الأشجار دائمة الاخضرار ، مجهزة بأحدث المعدات ، وكانت تقوم فى وسط المرج القسيح خيمة مزر كشة بابها يواجه تس .

وقفت الفتاة الساذجة على حافة الممشى المغطى بالحصى ، تمحلق فيما ترى مأخوذة متوجسة ، وكانت قدماها قد حملتاها إلى ذلك الموضع قبل أن تدرك أين هى ، وإذها هى ترى كل شيء على عكس ما توقعت ، قالت فى غراتها : « لقد كنت أحسبنا

أسرة قديمة ، ولكن كل هذا جديد ! » ، وودت لو أنها لم توافق بتلك المجلة على مشروع أنها ، ولو أنها طلبت العون من قوم هم أدنى إليها وأشبه بها .  
كان آل دربرفيل ، أو ستوك دربرفيل كما كانوا يتسمون أولا ، مالمكو كل هذا ، أسرة يندر وجود مثلها في ذلك الجانب العتيق من الريف ، وقد صدق القس ترنجم حين قال إن صاحبنا الأهوج المشية جون دريفيلد ، هو المثل الوحيد لآل دربرفيل الأقدمين في تلك الأصقاع ، ولم يكن ليعدو الصواب لو قال إن أسرة ستوك دربرفيل لا يتون إلى آل دربرفيل القدماء بأدنى صلة ، على أن تلك الأسرة الجديدة كانت غصنا صالحا كل الصلاحية ليطمع به اللقب القديم ، الذي كان في حاجة حازية إلى التطعيم والتجديد .

كان الشيخ سايمن ستوك المتوفى حديثا قد جمع مالا حلالا من التجارة — أو من الربا كما يقول أناس — في الشمال ، ثم عول على استيطان الريف في جنوب إنجلترا بعيدا عن موطن تجارته ، وعندها عن له أن يتخذ اسما جديدا يسدل حجابا على التاجر القديم ، ويكون أنبل من اسمه الأول السوق ، فانطلق إلى المتحف البريطاني يقلب صفحات الكتب المكرسة لأسماء الأسرات البائدة والغمورة ، والسائرة إلى الاندثار ، والتي أدركها النمار ، في ذلك الجانب من إنجلترا الذي اختاره مستقرا ومقاما ، فراقه من بينها اسم دربرفيل ، فألحقه باسمه واسم ذريته من بعده ، على أنه لم يكن بالسرف المتهور ، بل اتبع سبيل القصد والاعتدال في اختراع الأنساب الشريفة والمصاهرات ، فلم يدخل في نسبه المتحل لبقا يجوز حد العقول .

كانت قس المسكينة ووالدها يجهلون هذا الالتحال ، فكان جهلهم به وبالا عليهم ، بل كان مثل هذا الأمر فوق ما يتصورون : إذ كانوا يعتقدون في سذاجة أن جمال الوجه هبة من هبات الحظ ، أما اللقب العريق فلا يكون إلا منحة من منح الطبيعة .

وبينا تس مترددة تردد من يتأهب للقفز في اليم ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى

برز شخص من باب الخيمة المظلم المثلث الشكل ، وكان شابا طويلا يدخن ، وكان لونه مشربا بالسمره ، وكانت شفتاه غليظتين وإن كانتا حمراوين ناعمتين ، يملوها شارب أسود مجسم مدبب معقوف ، وإن لم تعد سنه ثلاثا أو أربعين وعشرين ، ورغم مظهر الجهالة الذي كان يملوه ، كان وجهه وعيناه الجريئتان البراقتان تنم عن القوة . قال وهو يدنو منها : « ماذا تريدان يا حسناؤى ؟ » ، ولما رأى حيرتها قال : « لا تبالي بي ، أنا مستر دربرفيل ، أإليى تريدان أم أمى ؟ » .

كان مظهر الشاب يبين ما توقعته تس أن تراه فيمن ينتمى إلى أسرته ، أسرة دربرفيل ، وأخلف ظنها هنا أشد مما أخلفه مظهر القصر والضيعة ، إذ كانت من قبل تتخيل وجها مكهلا وقورا تمثل غضونه سمات دربرفيل وذكرياتهم أسمى تمثيل ، وتبدو كأنها رمز هيروغليفي لتاريخ أسرته وتاريخ إنجلترا ، على أنها تجللت لما هي فيه إذ لم يكن منه مخرج ، وقالت : « لقد جئت لزيارة أمك يا سيدى » ، فأجابها ممثل تلك الأسرة الدعية ، فقد كان ذلك مستر ألك الابن الوحيد للرجل المتوفى حديثا : « آسف إذ لا سبيل لزيارتها لأنها عليله ، ألا أقوم لك مقامها ؟ ما المهمة التي جئت فيها ؟ » ، قالت : « لم آت في مهمة بل ... لست أدري ! » ، قال : « اللزومة جئت إذن ؟ » قالت : « كلا ! أنا إن أخبرتك اعتقدت ... » .

واشتد عند ذلك إحساسها بسخافة مهمتها ، حتى أنها رغم رهبتها إياه وخرج موقفها لم تتألك أن افترت شفتاها الورديتان ابتساما ، فاشتد لذلك إبتهاج الرجل الأسمر ، وقالت متلثمسة : « إنها مسألة فى متعهى الحماقة ، ولن أستطيع الإفضاء بها إليك ! » ، قال مترققا : « لا ضير عليك ، أنا أحب الحماقات ، فحاولى مرة أخرى يا عزيزتى » ، قالت : « أمرتنى أمى — بل كنت أريد أن أفعل ذلك من تلقاء نفسى — ولكنى لم أدرك أن الأمور ستجرى على هذا النحو — لقد جئت يا سيدى لأخبركم أننا أبناء أسرة واحدة » ، قال : « ها ! أقرباء فقراء ! » ، قالت : « نعم » ، قال : « من آل ستوك ؟ » قالت : « لا ، من آل دربرفيل » ، قال « نعم ، نعم ، دربرفيل ، ذلك ما كنت أعنى » .

قالت ، « لقد فسد اسمنا حتى صار دريفيلد ، ولكن لدينا براهين شتى على أننا نسل دربرفيل : فعلماء الآثار يقولون بذلك ، و ... لدينا خاتم قديم يحمل رسم أسد يشب على درع ومن فوقه حصن ، ولدينا ملعقة فضية قديمة جدا شديدة التنعيم والاستدارة ، وعليها نقش نفس الحصن ، على أنها بالية ، ولذلك تستعملها أُمى فى قلب الحساء » ، قال فى لهجة رقيقة : « الحصن الفضى والأسد الوائب شعارى دون ريب » ، قالت : « ومن ثم رأت أُمى أن تتعارف ، لأننا فقدنا حصاننا فى حادثة أليمة ، ولأننا أعرق فروع الأسرة » ، قال : « لقد كَرُمْتَ أُمك وأحسنْتَ صنماً » ، وكان ينظر إليها وهو يخاطبها نظرة احمر لها وجهها خجلا ، واستطرد : « أنت إذن يا حسناتى قد جئت لزيارتنا زيارة ود وقربى ! » قالت متلثمثة وعابودها الشعور بالحرج : « هو كما تقول » ، قال : « لا ضير فى ذلك ، أين تسكنون ؟ » . فأجابته عن سؤاله بإيجاز ، وأخبرته ردا على أسئلة أخرى أنها ستستقل فى عودتها نفس العربة التى أتت بها ، فقال : « لن تعود العربة مارة بترنترج كروس إلا بعد زمن ليس بالقصير ، فهل لك يا ابنة عمى فى التمشى فى الضيعة لنقضى الوقت ؟ » وكانت تسرير اختصار زيارتها بقدر إمكانها ، ولكنه ألحف حتى وافقت ، فطاف بها بين المروج وأحواض الزهر والمنابت الصناعية ، ومن ثم إلى حديقة الفاكهة والخضروات . وهناك سألها : « أحب الشليك ، قالت : « نعم فى أوانه » ، قال : « هذا أوانه هنا » ، وراح دربرفيل يجمع لها أشناتاً منه ويناو لها إياها وهو منحن ، ثم انتقى لها جملة صالحة من النوع المعروف بالملكة البريطانية ونهض واقفاً وأدناها من فها فقالت : « لا ، لا » ، وسارعت فخالَتْ بأناملها بين يده وبين شفيتها ، فقال : « يا للحماقة ! » وألح حتى فرجت شفيتها على كرهه والتقمها .

ومضى وقت وهما فى طوافهما على غير قصد ؛ وتسنا كل بين الرضى والإباء كل ما يقدم لها دربرفيل ، فلما امتلأت أُنم لها سلها الصغيرة بالفاكهة . ثم سارا إلى شجيرات الورد فقطف ورودا دفهما إليها لتضعها فى صدرها فأطاعت

وهي في شبه حلم ، ولما استحال أن تثبت في صدرها أكثر مما تثبت تولى بنفسه رشتي وردة أو وردتين في قبعها ، وملأ سلتها بورود أخرى فعل السخى السرف ثم نظر إلى ساعته وقال : « الآن تستطيعين أن تتناولي شيئاً من الطعام ، وبعدها يكون الوقت قد حان لانصرافك ، إذا كنت تريدين استقلال العرب إلى شاستن ، تعالى انظر ما أستطيع أن أقدم لك » .

وعاد بها إلى المروج وأدخلها الخيمة وغاب عنها برهة ، ثم عاد يحمل مسلة فيها غداء خفيف وضعه أمامها بنفسه ، إذ لم يكن يريد على ما يظهر أن يعكر حضور الخدم عليه هذه المتعة الخلوية ، وقال : « أيضاً يترك تدخينى ؟ » ، قالت : « كلا ، كلا يا سيدى » ، وراح يراقب مضمها الجميل والصوت الذى كانت تحدثه في ذلك دون وعي ، من خلال غمام الدخان التى كانت منتشرة في الخيمة .

ولم تدر تس دريفيلد ، وهي ترسل بصرها في سذاجة إلى الورود التى في صدرها ، أن وراء غيابة الدخان كان يجلس منبع الشر في درامة عيشها ، والشعاع الأحمر الدموى في طيف حياتها ؛ وكانت لتس ميزة عادت عليها الآن حرباً ، وكانت هي سبب حلقه ألك دربرفيل فيها . تلك كمال نموها وبهجة منظرها ، حتى كانت تبدو امرأة ناضجة قبل أن تكون كذلك ، وكانت قد ورثت تلك الظاهرة من أمها ، دون أن ترث معها الصفة التى هي دليل عليها ، وقد شغلت تلك الظاهرة بالها أحياناً ، حتى قالت لها أترابها إنها عيب تصلحه الأيام .

فرغت من طعامها على عجل ونهضت قائلة : « الآن أنطلق » ، ورافقها في المشي حتى غاب القصر عن نظريهما ، وقال : « وماذا يسمونك ؟ » قالت : « تس دريفيلد ، من مارلت » ، قال : « وقد فقد أهلك حصانهم ؟ » قالت : « أنا . . . قتلته » ، واغرورت عينها وهي تصف مصرع برنس وقالت : « ولست أدري ما عساي أصنع من أجل أبي تمويضاله ! » قال : « لعل أنا أستطيع أن أصنع شيئاً ، فلا بد أن أرى تستطيع أن تجد لك عملاً ، ولكن اسمي يا تس : لا تهذى باسم دربرفيل ، وتحدثي عن دريفيلد فقط » ، قالت في كبرياء

« ولست أطمح إلى خير منه » ، ولما بلغنا منعطف المشى حيث لاحظت لنظرهما الأشجار المحيطة بالسكن الخارجى ، مال عليها بوجهه ، لحظة واحدة ، كأنما ... ولكن لا : لقد لاذ بالحكمة وتركها تمضى .

هكذا بدأ الأمر ، ولو أنها أدركت مغزى هذا اللقاء ، لتساءلت لم قدر لها أن تقابل الرجل الخطأ فى ذلك اليوم وتصبو إليها نفسه ، بدل أن تقابل الرجل المنشود فى جميع صفاته — إلى غاية ما تستطيع الطبيعة تهيئته من الصفات المنشودة — أما الرجل الوحيد من تعرف ، الذى تكتمل فيه تلك الصفات ، فلم تكن تس فى مخيلته إلا شبحا عابرا نصف منسى .

وهكذا رسمت للأشياء فى هذه الدنيا خطة صحيحة ، لكنها تنفذ تنفيذا فاسدا ومن ثم قلما يلبى المدعو دعوة داعيه ، وقلما يأتى الرجل الجدير بالحب ساعة الشعور بالحب ، وقلما تقول الطبيعة لأحد أبنائها المساكين : « انظر » حين يكون النظر مؤديا إلى العمل السعيد ، أو تجيب سائلها : « أين ؟ » بقولها : « هنا » ، حتى تكون لعبة الاختفاء والبحث قد آمنت ثقيلة مرهقة .

ولعل لنا أن نتساءل : أإذا بلغت الإنسانية أوج رقيها ، يصلح هذه الأخطاء والفارقات الزمنية شعور باطنى ألطف حساسية من شعورنا اليوم ، ومجتمع أوثق وشائج من هذا الذى تتخبط فيه ؟ على أن هذا الكمال ليس من السهل تصور إمكانه ، بله التنبؤ به ، وكفى أن نقول إنه فى القصة التى نحن بصددنا كما فى ملايين من الأحوال غيرها ، لم يتلاق نصفا الكمل الكمال فى الوقت المناسب ، بل ظل نصف مفقودا منفردا يضرب فى الأرض وهو فى غيابة من الجهل والغفلة ، حتى فات الأوان ، وكان فى إبطائه فساد الأمور ، والمخاوف وخيبة الآمال ، والصدمات والكوارث وأعاجيب الحداث .

لما عاد دربرفيل إلى الخيمة جلس على كرسى مستقبلا ظهره ، واسترسل فى التفكير ووجهه يبرق سرورا ، ثم انفجر مقهقهقا قهقهة عالية : « يا للعجب ! يا للغرابة ! ها ها ها ! وإيا لها من فتاة شهية ! »



٦

هبطت تس إلى ترندرج كروس ، وانتظرت العربية المائدة من مقاطعة تشيس إلى شاستن ، وكانت شاردة اللب فلم تع ما قال لها الرابكون وهي تدلف في العربية ، وإن تكن أجابهم ، وانطلقت العربية وبصر تس متجه إلى باطن نفسها لا إلى ما حولها ، وعاد أحد الركاب يخاطبها بلهجة أشد إلخافا مما قاله الآخرون ، قال : « يا لله ! أنت باقية من الزهر ! أنى لك هذه الورود في مستهل يونيه ؟ » وعندها تنهت إلى منظرها الذي أدهشهم ، إذ كان صدرها محلى بالورود ، وقبعتها محملة بالورود ، وسلتها مفعمة بالورد والشليك ، فاحمر وجهها خجلا وقالت إن الورود هدية قدمت إليها ، ولما انصرفت عنها الأبصار زعت من قبعتها أشد الورود بروزا ، ووضعتها في السلة وغطتها بمنديلها ، ثم عادت إلى أفكارها ، وبيناهي تطرق وخزتها شوكة وردة في صدرها ، وكانت تس كسائر القرويين في بلاكمور مفعمة الخيلة بالخرافة والطيرة ، فتشاءمت من ذلك ، وكان ذلك أول ما تشاءمت منه في يومها . وزلت من العربية عند شاستن ، وكان عليها أن تسير أميالا هابطة من تلك البلدة المرتفعة إلى مارلت ، وكانت أمها قد أشارت عليها بقضاء الليل هناك في دار إحدى معارفهم إذا أدركها التعب ، وذلك ما فعلته تس ، فلم تعد إلى أهلها إلا بعد ظهر اليوم التالي ؛ وحالما دخلت الدار أدركت من نظرة أمها الناطقة بالظفر أن شيئا حدث في غيابها ، قالت أمها : « نعم ، نعم ، أنا أعلم كل ما هنالك ! لقد تنبت لك بالنجاح وها قد صحت نبؤتي ! » قالت تس : « في غيابي ؟ كيف صحت نبؤتك ؟ » وأجالت المرأة نظرها في ابنتها مبتهجة مسرورة ، واستمرت في مازحها : « هكذا كسبتهم ! » قالت تس : « أنى علمت يا أمي ؟ » قالت : « أناني كتاب » ، وعندها تذكرت تس أن كان هناك متسع من الوقت لوصول كتاب ، قالت أمها : « إنهم يقولون — مسز دربرفيل تقول — إنها تريد أن تعهد إليك بدجاج لها تسلي

بتريته ، وليس ذلك إلا تخايلا منها على ضمك إليها دون إثارة أطعك ، إنها ستستلحقك لا ريب .

قالت تس : « ولكنى لم أقابلها » ، قالت أمها : « ألم تقابلي أحدا ؟ » قالت : « قابلت ابنها » ، قالت : « وهل أقر قرابتك ؟ » قالت : « كل ما كان منه أن دعاني بـابنة العم » ، قالت أمها : « هذا ما توقعت ! » وصاحت يعملها : « چاكي ! لقد دعاها ابنة عمه ! لا ريب أنه فاتح أمه في أمرك ، وهما هي ذى تريدك بجانها » ، قالت تس وهي في ريب : « ولكنى لا أحسن تربية الدجاج » ، قالت : « إذا لم تحسنها فمن يحسنها إذن ؟ إن من يولد في حرفة يتقنها أضعاف ما يتقنها من يتلقنها ، وفضلا عن ذلك فما هو إلا عمل ملفق لك كيلا تشعرى أنك مدينة لهم يير » ، قالت تس متأملة : « لست أعتقد أنه يجدر بى الذهاب ، من كتب تلك الرسالة ؟ هل لى أن أنظر فيها ؟ » قالت : « كتبها مسز دربرفيل ، وهما كها » .

كانت الرسالة مكتوبة بضمير النائب ، وخواها إخطار مسز دربيفيلد أن تلك السيدة بحاجة إلى ابنتها لتتعهد حظيرة دجاجها ، وأنها إن اختارت المحيى أعدت لها حجرة مريحة ، فإذا رضوا عنها منحوها أجراً سخيا ، قالت تس : « عجبا ! أهذا كل ما هنالك ! » قالت أمها : « ليس لك أن تنتظري منها أن تأخذك في ذراعيها توا وتماقتك وتقبلك » ، قالت تس وهي ترى يبصرها من النافذة : « أوثر أن أبقى هنا مع أبى ومعلك » ، قالت : « ولم ؟ » قالت : « لا أحب أن أخبرك لم ، بل أنا لا أدري لم »

وبعد أسبوع عادت تس إلى دارها مساء ، بعد بحث مخفق عن عمل بسيط في الجيرة القريبة ، وكانت تريد ادخار بعض المال في الصيف لشراء حصان ؛ ولم تكد تظا العتبة حتى اندفع أحد الصبية إليها قائلا : « لقد كان السيد هنا ! » وسارعت أمها إلى تفصيل الخبر ، والابتسام يطفر من جميع أجزاء جسمها ، فذكرت كيف أن ابن مسز دربرفيل عرج على دارهم ممطيا جوادا ، إذ انفق مروره

على مقربة من مارلت ، وتساءل باسم أمه هل تس تنوى القدوم لتشهد دجاجها ، إذ كان الغلام القائم بذلك قد أبدى عدم كفاية ، قالت : « وقد قال مستر دربرفيل إنك لا بد أن تكونى فتاة طيبة جدا ، إذا كان باطنك كظاهرك ، وإنك تستحقين زنتك ذهباً ، وهو الحق يقال شديد الاهتمام بأمرك » .

وبدا الانشراح على تس وهلة ، إذ رأت نفسها قد نالت تقدير ذلك الغريب على حين كان ظنها بنفسها قد ساء كثيراً ، فتمتمت : « كرم منه أن يظن بى ذلك ولو أنى أعلم كيف تكون الحياة هناك لتذهب بلا تردد » ، قالت أمها : « ما أجل منظره ! » قالت تس فى فتور : « أنا لا أراه كذلك » ، قالت : « على كل حال ها هى الفرصة سانحة لك ، فإما نعم وإما لا ؛ ما كان أجل خاتمة الماسى ! » قال لبرهم متحمساً من مجلسه عند الشباك : « أجل ، أنا أيضاً رأيته ، وقد لمع حين رفع يده إلى شاربه ؛ لماذا يا أمى كان قريتنا العظيم يكثر من رفع يده إلى شاربه ؟ » قالت أمه وعليها سياء إعجاب الأمهات : « أصغوا إلى هذا الغلام ! » وغنم سير چون وهو فى كرسية فى غيبوبة : « ربما أراد إظهار خاتمة الماسى » ، وقالت تس وهى خارجة : « سأندبر الأمر » .

قالت المرأة لبعملها : « لقد ظفرت بقلوب الفرع الأصفر من فروع أسرتنا ظفراً سريعاً ، ومن الحق ألا تتابع انتصارها » ، قال : « لست أحب أن يفارق أبنائى منزلى . بل ينبى أن يأتى الآخرون إلى بيتى ما دمت عميد الأسرة » قالت امربأه الحقاء تسترضيه : « ولكن دعها تذهب يا چاكى ، لقد استرعت انتباه الرجل على ماترى ، وقد دعاها بابنة المم ! والأرجح أنه سيتزوجها ويلحقها ببطقة النبلاء ، فتمود كما كان آباؤها » ، وكان چون دريفلد يملك من الثروة ما لا يملك من الصحة أو النشاط ، فأشبع هذا الفرض غروره وقال موافقاً : « لعل هذا هو ما بنويه مستر دربرفيل ، ولعله يفكر فى تحسين دمه بالامتزاج بالفرع القديم ، باللخبثة تس ! أحقا زارتهم وهى تبيت هذا الفرض ! » .

وكانت تس فى هذه الأثناء تتمشى بين نبات عنب الدئب فى الحديقة ، فوق قبر پرنس ، فلما كرت راجمة تابعت أمها حملها قائلة : « علام عولت ؟ » قالت تس : « ليتنى كنت رأيت مسز دربرفيل » ، قالت : « يجدر بك أن تبقي فى الأمر وعندها ترينها كما تريدن » ، وسعل أبوها فى جلسته وأجاب تس متململة : « لست أدري ماذا أقول ! الأمر إليكم ، فأنا التى قتلت الحصان ويلوح أن واجبي أن أشتري سواء ، ولكن . . . ولكنى غير مريحة إلى وجود مسز دربرفيل هناك ! » .

وكان الصبية ، بعد وفاة الحصان قد اتخذوا فكرة انصواء تس إلى أقربائهم الأغنياء علالتهم ، فبدأوا يضجون لرفضها الذهاب ، وراحوا يتكلمون بها ويعنفونها على تردددها ، وففروا أفواهم معولين : « تس لا . . . تريد الذهاب . . . ب . . . لتصبح . . . سيدة . . . شريفة . . . بل تقول . . . إنها لا . . . تريد ! ولن نشترى حصانا جيلا ، ولن نملك النقود الذهبية الكثيرة ، لنشترى اللعب ! ولن تبدو تس جميلة فى أحسن لبوسها بعد الآن ! » ، وضمت أمهم صوتها إلى النغمة ، واحتجت بكثرة أعبائها المنزلية ، التى كانت هى ببقاؤها وتسويها تجعلها تبدو أشق مما هى فى الحقيقة ، وظل أبوها وحده محتفظا بالحياء ، وأخيراً قالت تس : « سأذهب » .

وعندها لم تستطع أمها كتمان تصورهما للزواج المقبل الذى أثارته فى مخيلتها موافقة ابنتها ، قالت : « بخ بخ ! هذه فرصة سميدة لفتاة جميلة مثلك ! » فابتسمت تس فى غيظ وقالت : « أوجو أن تكون هذه فرصة لا كتناسب شيء من النقود أما فيما خلا ذلك فلا أراها فرصة لشيء ما ، وأولى لك ألا تترضى فى الجيرة بمثل هذا المراء » ، ولم تجبها أمها ولم تمدحها بما طلبت ، فقد كانت ممثلة زهوا بعد ما سمعت من قول الزائر ، وكانت تريد أن تثرثر طويلا .

وهكذا بت فى الأمر ، وكتبت الفتاة تقول إنها مستعدة للمسير فى أى يوم تطلب فيه ، وجاءها الرد المباشر بأن مسز دربرفيل قد سرها قبول الفتاة ، وأن

عربة صغيرة سترسل لإحضارها هي ومتاعها من رأس الوادى بعد الغد ؛ وكان  
خط مسز دربرفيل يبدو شديد الشبه بخط الرجال ، وقالت مسز دريفيلد متعجبة :  
« عربة صغيرة ؟ أما كان الأولى أن يرسلوا مركبة نفخة لابنة رحيم ؟ »

أصبحت تس بعد أن بتت فى الأمر أقل قلقا وشرود ذهن ، وقد وطدت  
العزم على شراء حصان جديد لأبيها من وراء ذلك العمل الذى تسير إليه مكرهة  
وكانت من قبل قد رغبت فى أن تكون معلمة فى مدرسة القرية ، ولكن يظهر  
أن الأقدار شاءت غير ذلك ، ولما كانت أعقل من أمها فإنها لم تطمع وهلة فى  
تحقق آمال أمها فى ذلك الزواج ، ولقد كانت الأم الحقاء تنتقى لابنتها الأزواج  
من عام ميلادها .

٧

استيقظت تس في صبيحة يوم رحيلها قبل الفجر ، في آخر لحظات الظلام ، ولم يزل المرج صامتا ، إلا طأطأ واحداً يتفرد بصوت خالص متنبئاً تنبؤ الواثق بالوقت ، معلناً أنه هو وحده على الأقل يعرفه ، بينما الطيور الأخرى ملتزمة الصمت ، كأنها مقتنعة اقتناعاً واثقاً من جانبها بأن ذلك الطائر مخطيء ؛ وظلت تس في مخدعها محزوم متاعها حتى حان أنان الفطور ، فنزلت مرتدية ثيابها العادية التي تلبسها في أيام الأسبوع ، أما ثياب يوم الأحد فقد طوتها بعناية ووضعتها في صندوقها ، فقالت أمها متعجبة : «أنذهيين للقاء أهليك في هذه الثياب الساذجة؟» قالت تس : «إنما أنا ذاهبة للعمل !» قالت : «نعم نعم» ؛ ثم أسرت إليها : «طبعاً ستتظاهرين بذلك بادىء الأمر ، ولكن يخلق بك بعد ذلك أن تظهرى بأحسن مظهر» ، قالت تس مستسلمة : «حسناً أنت لا ريب أخبر منى» ، ولترضى أمها وضعت نفسها في يديها قائلة : «اصننى بى ما شئت يا أمى» .

فسرت مسز درفيلد بهذا الانقياد أشد السرور ، وجاءت بطست كبير وغسلت شعر تس غسلًا شديدًا ، حتى أنه لسا جف ومشط بدا في ضعف حجمه العادى ، وربطته بشريط قرنفلى أعرض مما كان يربط به عادة ، ثم ألبستها الثوب الأبيض الذى كانت تلبسه يوم الموسم ، فكان مظهره الفخم مضافا إلى كبر مظهر شعرها داعية إلى ظهور جسمها النأى بمظهر أسن من حقيقة أمرها ، حتى كادت تظن امرأة ولم تسكد تعدو أن تكون طفلة ، قالت تس : «إن فى كعب جوربى خرقا !» قالت أمها : «لا تبالي خروق الجوارب فإنها لا تُفصح ، وخين كنت أنا فتاة كنت لا أبالي — ما دمت مرتدية قبعة جميلة — أن أسير بلا جوارب !» وبلغ من إعجاب المرأة بمجال ابنتها أن ارتدت القهقرى كما يرتد المثال عن تمثاله ، لتأمل عملها الفن فى مجموعته ، وصاحت : «يجب أن ترى نفسك ، إنك

لأجل منظرا مما كنت في ذلك اليوم » ، وإذ كانت المرأة صغيرة لا تبدى إلا جزءا صغيرا من شخص تس ، علقَت أمها معطفا أسود خارج زجاج النافذة ، حتى صارت تنعكس عليه الصور ، كما هي عادة القرويين حين يَترَبِّنون ؟ وبعد ذلك نزلت إلى زوجها وقالت له وهي تظفر فرحا : « أصغ إلى يا دريفيلد ! لن يمالك الرجل نفسه عن الهيام بها ، ولكن مهما فعلت فلا تقاَصح تس في تعلقه بها ، ولا في هذه الفرصة المتفتحة أمامها ، فإنها فتاة شاذة الأطوار ، وربما دفعها مقالك إلى النفور منه أو العدول عن الذهاب بتانا ، وإذا مضى كل شيء على ما يرام ، فلن أتوانى من مكافأة قس ستجفيت لين على ما أتانا به من نبا ، رءاه الله من شيخ كريم ! » .

على أنه حين دنت ساعة رحيل الفتاة ، بعد أن خبت نشوة الارتداء ، ساورت جوان دريفيلد بعض المخاوف ، ودفعها إلى مسابرة الفتاة حتى الموضع الذى عنده يتناهى الوادى ، وتبدأ المرتفعات السريعة الانحدار المؤدية إلى العالم الخارجى ، وعند قمة تلك المرتفعات كانت تس ستلاقى العربة التى بعث بها آل ستوك دربرفيل ، وكان صندوقها قد أرسل إلى تلك القمة مع غلام على عجلة صغيرة ولما رأى الأطفال أنهم تلبس قبعها ضجوا في طلب مرافقها ، وقال أحدهم : « أريد أن أرافق سيسى قليلا في طريقها ، ما دامت ذاهبة لتتزوج قربينا النبيل وترتدى فاخر الثياب » ، فاحمر وجه تس والتفتت قائلة : « صه ! لا أريد أن أسمع هذا المرء ثانية ! كيف رضيت يا أمى أن تدخل هذا المرء في رؤوسهم ؟ » قالت أمها مهددة : « إنما هى ذاهبة لخدمة أقرابائنا الأغنياء ، لتساعدنا على ادخار المال لشراء حصان » .

قالت تس بصوت متهدج : « وداعا يا أبى » . قال سير جون رافعا رأسه عن صدره ، متبها من غفوة التى كان فيها من جراء إفراطه قليلا في الشراب ذلك الصباح احتفاء بالحادث : « وداعا يا بنيتى ، وعشمى أن فتاى ستروقه قريته الحسنة ، وأخبريه يا تس أنى مستعد — إذ قد تدهورنا وذللتنا بعد عر — أن

أيمه اللقب بثمان غير باهظ » ، فصاحت ليدى دريفيلد : « يجب ألا يقل عن ألف جنيه ! » واستطرد الرجل : « أخبريه أني أقبل ألفا ، بل يبدو لي أني أقبل أقل من ذلك ، فإنه سيشفرف اللقب أكثر مما يشرفه فقير ضعيف مثلي ، فأخبريه أني أقبل مائة ، بيد أني لا أتشبث بالصفاثر ، فأخبريه أني أرضى بخمسين ، بل بمشرين ، نعم عشرون جنيهها هي الحد الأدنى ، فإن شرف الأسرة شيء لا يستهان به ، ولن أقبل إن نقصها درهما واحدا ! » .

كانت عينا تس مغرورقتين وصوتها محتبسا ، فلم تستطع البوح بما يخامرها من شعور ، فانفلتت خارجة على عجل ، وسارت جميع الأخوات وأمن ، تحف بتس بنت من كل جانب ممسكة بيدها ، وهما تنظران إليها من حين إلى آخر ، تتأملانها كأنها شخص سيأتي عما قريب بالمظالم ، وأنها في أثرها ومعها صغرى الشقيقات وزمهرتهن تؤلف صورة للجمال البريء الساذج الغافل ؛ حتى بلغن سفح المرتفعات تبدو من ورائها أشباح مساكن شاستن ، ولم يكن يبدو في الطريق الممتد على رؤوس المرتفعات إلا الغلام الذي تقدمهن بالمتاع ، جالسا على مقابض العجلة التي كانت تحوى كل ما كانت تملك تس من حطام الدنيا .

قالت مسز دريفيلد : « فلنتنظر هنا قليلا حتى تأتي العربة ، ها هي قادمة من بعد » ، وكانت العربة قد ظهرت بشفة من خلف مرتفع قريب ووقفت خلف الغلام . وقررت الأم والشقيقات أن يمدن أدراجهن ، فودعن تس وداعا عاجلا وصعدت في المرتفع ، ورأين شخصها الأبيض يذلف إلى العربة ، وكان متاعها قد وضع فيها ، ولكن قبل أن تصل إليها اندفعت عربة أخرى من خلال أشجار على ذلك المرتفع ، وانمطفت في منمرج الطريق هناك ، وصرت بعربة المتاع متجاوزة إياها إلى تس فوقفت بجانبها ، فرفعت الفتاة بصرها مشدوهة .

ولاحظت أنها أن العربة الثانية لم تكن حقيرة المنظر كالأولى ، بل كانت حركبة نفخة لا معة الطلاء مجهزة أحسن تجهيز ، وكان السائق شابا في الثالثة أو



الرابعة والعشرين ، يدخن سيجارا بين شفثيه ، لابسا قبعة رشيقة وسترة داكنة وسراويل مماثلة للسترة في اللون ، وغطاء رقبته بيضاء وبنيقة ناشفة ، وقفاز ركوب رماديا ؛ وبالاختصار كان هو هو الرجل الطير المستوفز ، الذى زار جوان منذ أسبوع أو أسبوعين يطلب جوابها فى شأن تس ؛ فصفت مسز دريفيلد يديها كالطفل ، ثم أطرقت ثم اشرأت ثانية تحمق ؛ أغيب عنها مغزى ما ترى ؟ وتساءل أصغر الصبية : « أذاك قريينا النبيل الذى سيجعل سسى نبيلة ؟ »

أما تس فكانت ترى فى ثوبها الموصلى جامدة مترددة أمام تلك المركبة الضخمة التى كان صاحبها يخاطبها ، قد توجست خوفا ، وكانت تؤثر العربية الصغيرة ، بيد أن الشاب رجل وجعل يحثها على الركوب ، فدارت بعينها ونظرت إلى أهلها فى أسفل التل ، وعندها أحست بضرورة البت ، ولعلها تذكرت مصرع برنس فصعدت فجأة ، وجلس بجوارها ، وضرب الجواد بسوطه ، وسرعان ما خلفا العربية الصغيرة حاملة الصندوق وراءهما ، وتواريا خلف كتف التل .

ولم تكد تس تتوارى عن الأنظار ، وتنتهى تلك الدراما الزائفة ، حتى اغرورقت عيون الصغار وقالت صغراهن : « ليت المسكينة تس لم تذهب لتصير نبيلة ! » وانخفض جانبها شفثيتها وانخرطت باكية ، وسرت عدوى هذه النظرة الجديدة إلى الأمر ، فصنعت الثانية صنيع الأولى . وتبعمتا الثالثة ، وتعالى عويل الثلاث ، واغرورقت عينا مسز دريفيلد أيضا وهى راجعة أدراجها ، ولكنها لم تبلغ القرية حتى لاذت بالاستسلام إلى رحمة الأقدار .

بيد أنها نهدت فى فراشها فى تلك الليلة ، فلما سألتها زوجها ما بها قالت : « لست أدرى ، إنما يخيل لى أن الخير كان فى بقاء تس لا فى ذهابها » ، قال : « أما كان يجدر بك أن تفكرى فى ذلك من قبل ؟ » قالت : « إنما على كل حال فرصة للفتاة . . . بيد أنه لو عاد الأمر إلى يدي لما أطلقها حتى أستوثق من

سلامة طوية الشاب ، وحده عليها حذب القريب على قرينته « . قال سير جون وهو يخط : « أجل كان يحسن أن تفعل ذلك » ، وكانت جوان تحسن انتحال المماذير لنفسها ، فقالت : « إنها تنتمى إلى أعراقهم ، وواجبها أن تبلغ غايتها منهم إذا أتقنت لعب دورها ، وإذا لم يبين بها عاجلا فهو فاعل بعد حين ، لأنه يضطرم شغفا بها ما في ذلك شك لدى عيني » ، قال : « كيف تحسن لعب دورها ؟ بدمها الدرر فيل ؟ » قالت : « لا يا أبله ، بوجهها — كما فعلت أنا » .

٨

انطلق ألك دربرفيل بالعربة على متن التل الأول مسرعا ، وهو يثرثر مطريا ملاحظة تس ، فتصاعد بهما الطريق حتى انبسط من دونهما سهل رحب مترام الأكناف ، خلفهما الوادى الأخضر الذى ولدت فيه ، وأمامهما شعب أغبر لا تعرف عنه إلا القليل الذى شهدته فى رحلتها السابقة إلى ترندرج ، ثم أشرفا على منحدر يهبط عليه الطريق مستقيما مدى ميل ؛ وكانت تس منذ مصرع حصان أبيها ، رغم شجاعتها الطبيعية ، تفزع كلما ركبت عربة وتهلع كلما اختل سير العربة أدنى اختلال ، وقد روعها الآن ما رأت من اندفاع صاحبها ، فقالت وهى تحنى قلقها : « لعلك تنوى التريث فى الهبوط ؟ » .

فالتفت إليها دربرفيل ، وابتسم لها ابتسامة بطيئة ، وسيجارته بين ناجذيه ، وقال بعد أن دفع الدخان من فيه مرة أو مرتين : « عجبا يا تس .. ! أفئاة شجاعة متوثبة مثلك تطلب ذلك ؟ إن من عادتي أن أترك للجواد العنان فى الهبوط ، وهو عمل عديم النظير فى إنعاش الروح » ، قالت : « أحتم أن تفعل ذلك الآن ؟ » ، قال هازأ رأسه : « ليت الأمر إلى أنا وحدى ، إنما يجب أن تحسبى حساب شخص آخر ، حساب تب ، وهى عنيذة غريبة الأطوار » ، قالت : « حساب من ؟ » قال : « حساب هذه المهرة ، ألم تريها تلتفت إلى منذ هنيئة التفاتة حنق ؟ » قالت فى فتور : « لا تحاول إفزاعى ياسيدى » ، قال : « لست أحاول إفزاعك ، ولكن الحقيقة أنه لا يستطيع رياضة هذه المهرة إنسان سوى ، إذا كنت أنا نفسى أستطيع رياضتها » ، قالت : « ولم تستبقها ؟ » ، قال : « هذا مالا أدريه ، ولعله قدر محتوم على ؛ لقد قتلت تب رجلا ، وكادت تقتلنى أنا عقب شرائها ، وعندها هممت أن أقضى عليها ، وما تزال صعبة المراس ، وقلما يأمن المرء على حياته وراءها ! » .

وبدا المهبوط ، وكانت المهرة تعلم جيد العلم أى عمل يراد منها ، فانطلقت دون أن تحتاج إلى حافظ من ورائها ، وانحدرت المركبة ، وعجلاتها تطن طنين النحلة ، وهى تهتز يمنة ويسرة ، مائلة المحور على خط سيرها ، وشخص المهرة أمام بصريهما يعلو ويهبط من ارتفاع الأرض وانخفاضها ، وكانت تبدو إحدى العجلات أحيانا مرتفعة عن الأرض وتظل كذلك مدى أذرع ، وأحيانا ترى بالحصى متطيراً فوق الشجر على جانبي الطريق ، وتارة ينبعث الشرر من حوافر المهرة يكسف ضوء النهار ؛ وكانا كلما اندفعا إلى الأمام امتد الطريق المستقيم أمام بصريهما ، وانفتح جانباه كأنهما شقا عصا مشدوخة ، ومرق كل جانب منهما عن كتفيهما ، وكانت الريح تشق طريقها في ثياب تس الرقيقة ضاربة في لهما ، وتطير شعرها المغسول ورائها ، وكانت موطنه النفس على ألا تبدى فرعا ، بيد أنها قبضت على ذراع دربرفيل المسكة باللجام .

فصاح بها : « خلى ذراعى وإلا قذفت بنا العربة ، وتعلقى بخصرى » ، ففعلت حتى بلغا القرار ، فقالت ووجهها يتقد : « حمداً لله ، وصلت سالمة رغم خرقك ! » قال : « ويلك ياتس ، تسيننى ! » قالت : « بل أقول الحقيقة » ، قال : « لا يجمل أن تقبضى ذراعيك عن خصرى غير شاكرة حالب تبلغين الأمان » ، وكانت قد تعلقت بخصره كارهة وعلى غير وعى ، وسواء لديها إن كان رجلاً أو امرأة أو عصاً أو حجراً ، فلما ثابت إلى نفسها جلست صامتة لا تجيب ، حتى بلغا قمة منحدر ثان فقال : « والآن فلنعد الكرة ! » قالت : « لا ، لا ، شيئاً من الحكمة ! » قال : « ولكن المرء إذا وجد نفسه على بقعة من أعلى بقاع المقاطعة ، فلا بد له من المهبوط ثانياً » .

وأرخى العنان وانطلقا مرة أخرى ، والتفت إليها والعربة تتخبط بهما ، قائلاً فى سخرية وخبت : « دونك خصرى مرة أخرى يا حسنائى » قالت وهى تبتسك وتتجلد فى موضعها دون أن تمسه : « هيهات ! » قال : « دعينى أضع قبلة على ذلك النعم القانى ، أو لا فعلى ذلك انخد اللهب ، أكف ، أقسم لك بشرفى أنى

أُكف ! » ، وبلغت الدهشة من تس منهاها ، وزادت انقباضاً عنه واعتزالاً في موضعها ، فغفر المهر من جديد فزادت تس قلقلة في مجلسها ، حتى عيل صبرها ، فحدقت فيه بعينها الكبيرتين كأنهما عينا وحش ، وقالت : « ألا يرضيك ما عدا ذلك ؟ » قال : « كلا يا عزيزتي تس » ، قالت وهي تلهث ، وقد نال منها الإعياء : « هلم إذن ، لست أدري ، لست أبالي » وكفكف العنان وهم أن يطبع على خدها تحيته ولكنها نفرت منه حياء دون أن تبالك ، وكانت يدها مغلولتين في توجيه اللجام ، فلم يستطع لحركتها ردًا .

واحتدم غيظاً وتلكته سورة العناد فقال : « ويل لك ! لا كسرن عنقينا معاً أهكذا تحشين من بعد ما وعدت أيتها السويجرة ؟ » ، قالت : « هاك ! لن أحاول الإفلات هذه المرة ما دمت مصرّاً ، بيد أنى كنت أتوقع أن تحسن إلى وتدفع عني ، فعل القريب ! » قال : « خليني من ذكر القرابة وهلمى ! » قالت وترقرقت دمة كبيرة في عيناها ، واختلج جانباً فيها وهي تعالج البكاء : « ولكنى لا أحب أن يقبلني أحد ياسيدي ، ولو علمت بهذا لما جئت ! » لكنه أصر ولم يقبل شفاعته فاستسلمت حتى طبع على خدها قبلة الظفر ؛ ولم يكده يفعل حتى احمر وجهها خجلاً ومسحت الموضع الذى لسته شفتاه من خدها ، ففعلت كل ذلك بحركة طبيعية جرحت كبرياءه فقال : « ما أشد حساسيتك ياربية الكوخ ! » .

ولم تجب تس على قوله ذاك الذى لم تفهم مغزاه ، إذ لم تظن إلى الإهانة التى وجهتها إليه عن غير قصد بمسحها أثر شفتيه ؛ وقد حث القبلة من خدها — إذا كان مثل ذلك العمل مستطاعاً متصوراً — وأحست إحساساً مبهماً بأنه مغيظ ، فشخصت يبصرها إلى الأمام ؛ وتقدمت العربية حتى دانت لمبرى داون وونجربن فراعها إلا أن ترى منحدرأ جديداً لا بد من هبوطه ، وعاد يقول وما زال صوته متهدجا من الحنق وقد زفع السوط من جديد : « لتندمن على ما جنيت ، إلا أن توافقي طائفة على أن أقبلك ، ثم لا مسح ولا منديل » ، فتهدت قائلة : « سماً ياسيدي ! آه : دعنى ألتقط قبعتي ! » .

وكانت قبعتها قد طارت في الطريق ، لأنها حتى على متن المرتفع كأنها مندفعين بسرعة ليست بالقليلة ، فأوقف دربرفيل العربية وقال إنه سيحضر القبعة ، ولكن تس كانت أسرع منه إلى النزول من جانبها ، وعادت أدراجها فالتقطت القبعة ؛ قال مرسلًا بصره فوق العربية يتأملها : « قسما لأنت أملح بدونها ، لو كان ذلك مستطاعا ! والآن هلمى اصعدى ! ما بالك ؟ » ، وكانت تس قد لبست قبعتها ولكنها لم تتحرك من موضعها ، وقالت وقد اشتد توردها وبجلت نظرة التحدي في عينيها : « هيات ! » قال : « ماذا ؟ ألا تصعدين بجانبى ! » قالت : كلا ، بل أسير » ، قال : « إن ينننا وبين ترتدج خمسة أميال أو ستة » ، قالت : « لتسكن عشرات الأميال ، والعربية الصغيرة على كل حال آتية في أثرنا » ، قال : « ما أخبثك من جارية ! أصدقيني : ألم تتعمدى إسقاط تلك القبعة ؟ أقسم لقد فعلت ؟ » فالتزمت الصمت فزاد يقينا .

فانطلق يكيل لها السباب واللعنات جزاء خدعتها ، ثم فاجأها بإدارة العربية ليحصرها بينها وبين الأشجار ، ولكنه رأى استحالة ذلك إلا أن يلحق بها أذى وأهابت به تس ناظرة من قمة السياج الذى كانت قد لازت به : « أما تستحي أن تفوه بذلك البذاء ؟ إني لأمقتك وأبجك ! ولأرجعن إلى أمى ! » وتفشعت سحابة غضبه أمام غضبها فقال مقهقهة : « هذا ما يزيدنى حبا لك ، تعالى وليكن بيننا سلام ، وأقسم لك بشرفى لا أعيد الكرة دون رضاك » ، ولكنها تأبت وإن لم تمنع في مسأيرته إياها بالعربية ، وهكذا تقدما بطيئين إلى ترتدج ، وكان يبدو عليه الحنق والأسف معاً من أن إلى آخر ، حين يرى ما ألجأها إليه بسوء مسلكه . ولو شاءت لصدقت بمينه ولم يمسهاسو ، ولكنه قد أضاع ثقها به ؛ وواصلت سيرها مفكرة كأنما تتدبر إن كان الأولى أن تعود أدراجها ، ولكن بدا لها أن من التناقض والحنق — بعد أن بقت في أمرها — أن تنقض ما أبرمت لأسباب نافهة ، ولم تدرك كيف تواجه أبويها وكيف تسترجع صندوقها ، وكيف تهجر مشروع إنهاض أسرتهما ؛ وإنها لفي ذلك إذ تراءت مداخن قصر سلووس ، وفي ركنين كئنين على جانبه الأيمن حظيرة الدجاج والكوخ ، اللذان ارتبط بهما مستقبل تس .

٩

كان مركز مجتمع الدجاج الذي عُيِّنَتْ تس فيه مُشرفة ومتمهدة ، وممرضة وطبيبة وصديقة ، كوخاً قائماً وسط حظيرة كانت فيما مضى حديقة ، ثم صارت اليوم أرضاً تربة مهتمة ، وكان الكوخ منطوقاً بالبلاب ، وكان البلاب متكاثراً حول المدخنة أيضاً فبدت كأنها برج خرب ؛ وكانت الحجرات السفلى مباحة للدجاج يحظر فيها خطرة السيد المالك ، كأنه هو بانها ، وكأنها لم بينها مالكو هذه البقعة الفقراء الأولون ، الذين يرقدون اليوم في مدفن الكنيسة ، ثم آلت الضيعة إلى أميرة دربرفيل فأحالوا المسكن حظيرة للدجاج ، وقد آلم ذلك أبناء البناء الأولين ، الذين كانوا يتعلقون بذلك المسكن تعلقاً شديداً ، ويعلمون أنه كلف أسلافهم كثيراً ، ويدكرون أنه توورث فيهم أمداً طويلاً ، وكانوا في تقمهم يقولون : « لقد كان يصلح لسكنى المؤمنين في عهد آبائنا » .

وكانت الحجرات التي طالما رددت صراخ الأطفال الرضع ، تردد الآن ديب الكتنا كيت الناشئة ، وقد احتلت مرافق الدجاج المواضع التي كانت تقوم فيها مقاعد المزارعين الوقورين ، وامتلأ الموقد الذي كان قدماً يتوهج ، بخلايا النحل مقلوقة ببيض فيها الدجاج ؛ أما خارج الكوخ فقد مزق الدجاج أحواض الزراعة — التي تأنق المزارعون السالفون في تخطيطها — شرمزق ، وكان يحيط بالحديقة المحدقة بالكوخ سور ليس له إلا باب واحد .

انهمكت تس في صبيحة اليوم التالي في تنظيف المكان وترتيبه ، بمهارة ابنة الفروجي ، وإذا باب السور يفتح ودخلت خادم بيضاء القلنسوة واليدع آتية من القصر ، وقالت : « مسز دربرفيل تطلب الدجاج كمادتها » ، ثم لاحظت أن تس لم تفقه ، فقالت : « مسز دربرفيل طاعنة في السن ، وهي عمياء » ، قالت تس : « عمياء ! » وقبل أن تفيق من دهشتها أشارت إليها الخادم فحملت تحت ذراعيها

دجاجتين من أحسن الدجاج المبرجى ، وحملت الأخرى اثنتين ، وقادت خطى تس إلى القصر ، وكان القصر رائعا نفا ، ولكن كان على مقربة من مدخله ريش يتطاير ، وعلى العشب مراقدا للدجاج ، فكان ذلك دليلا على أن بعض الساكنيه الأشراف يعطف على المعجوات .

كانت ربة القصر جالسة على كرسي كبير ، وعليها أغطية وظهرها إلى اليمين ، وكانت امرأة شطاء تناهر الستين ، تردى قلنسوة فضفاضة ، وكان وجهها سهل الخلق يدل على أنها لم تفقد بصرها إلا منذ حين ، بعد أن جهدت جهدها لاستبقائه حتى يئست ، ولم تكن لها تلك السياء الجلادة التي يتسم بها من يولدون عميا أو يذهب بصرهم في حداثهم ، وتقدمت إليها تس بالدجاجتين كل واحدة منهما قابضة في إحدى ذراعيها ، وقالت السيدة إذ شمعت بخطى جديدة الوقع : « آه ! أنت الفتاة التي جاءت لتتعهد طيورى ؟ أرجو أن تنال برك ، وقد أخبرنى تايى أنك نعم المتعده ، والآن على بها ، آه ! هذه سئرت ، ولكنى لا أراها اليوم نشيطة كمادتها ، فلعلها قد أفزعها أن يدا جديدة تعدها ، وكذلك أذى « فينا » ، أجل كلتاها فزعتان ، أليس الأمر كذلك يا عزيزتى ؟ بيد أنهما ستألفانك عما قليل » .

وكانت السيدة تشير إلى الفتاتين وهى تسكلم ، فتضعان الطيور فى حجرها واحدة فواحدة ، فكانت تتحسس كلا منها من الرأس إلى الذيل ، فاحصة مناقيرها وأعرافها وأجنحتها ومخالبها ، وكانت تتعرف كل واحدة بمجرد لمسها ، وتذكر كل ريشة مقصوفة أو ملوثة ، وبجس حواصلها تعلم إن كانت قد طعمت ، وهل أفرط أو فرط فى إطعامها ، وكانت كل هذه الآراء التى تتعاقب فى فكرها تبدو فى خلجات وجهها ، وأخيرا أعيدت الطيور الأربعة إلى مستقرها ؛ ثم كررت العملية حتى استعرضت السيدة كل طيورها المدلة ، بين مبرجى وبنتاى وكوشينى إلى غيرها من أنواع كانت فاشية فى تلك الأيام ، وقلما أخطأت فى معرفة واحدة من زائراتها أولئك ، حالما وضعت فى حجرها .



ذكر ذلك النظر تس بمنظر تنصير المراهقين في الكنيسة : فكان مسز دربرفيل الأسقف ، وكأن الدجاج الغلمان يقدمون إليه ، وكأنها هي والخادم القسيسان اللذان يحضراهم ؛ ولما انتهت المراسم سألت مسز دربرفيل تس نجاة وهي تمرج معارف وجهها وتلوها : « أحسنين الصغير ؟ » قالت : « الصغير يامولآي ؟ » قالت : « نعم : أحسنين صغير الألمان ؟ » وكانت تس تجيد الصغير كما تجيده غيرها من الرقيقات ، وإن لم يكن ذلك مما تحب أن تفخر به أمام عليّة الناس ، على أنها لم يسمها إلا الجواب إثباتاً .

قالت : « أريدك إذن أن تصفري لطيور الدغناس المفردة ، فإنني وقد حرمت رؤيتها أحب سماعها ، ونحن نعلمها الأغاريد بتلك الوسيلة ، وقد كان عندي غلام يحسن ذلك ولكنه ذهب — أرشدنيها إلى الأقفاص يا إليزابث — ولتبدئي من الغد وإلا نسيت الطيور ما تعلمته ، فقد أهملت أياماً ، قالت إليزابث : « لقد صفر لها مسز دربرفيل اليوم يا سيدتي » ، قالت السيدة وقد تقبض وجهها وتغضن كراهية ونفوراً : « أو قد فعل ؟ قبحاً له ! » ولم ترد .

هكذا انتهت مقابلة تس لقريبتها الوهومة ، وأعيدت الطيور إلى مقرها ، ولم تدهش تس كثيراً لمسلك مسز دربرفيل حيالها : فإنها لم تتوقع سوى ذلك منذ رأت ضخامة القصر ، ولكنها لم يدر بخلدائها وهلة أن السيدة لم تسمع قط بأمر القرابة المزعومة ؛ وخيل إلى تس أن الوداد لم يكن متصلاً بين الأم وابنها ، وقد وهمت في هذا أيضاً : فلم تكن مسز دربرفيل أول أم أحبت ابنها بالرغم منها ، وأعزته غير مختارة .

ورغم ذلك البدء غير الحميد ، فإن تس حين أشرقت عليها شمس الصباح التالي شعرت بالغبطة لجدة مقرها الحديث وللحرية التي تتمتع بها فيه ، وكانت تتوق إلى اختبار مهارتها في العمل الذي طلب منها ولم تكن تتوقعه من قبل ، كي تستوثق من قدرتها على الاحتفاظ بمرکزها ، وحالها وجدت نفسها وحيدة في الحديقة المسورة ، جلست على أحد مرأقد الدجاج ، وجمعت عزمها وضمت شفيتها تاهباً

للمعمل الذى لم تراوله منذ زمان ، فإذا هى قد فقدت مقدرتها السابقة ، ولم ينطلق من فيها إلا هواء أجوف لا لحن فيه يستبان ، وأعدت الكرة مراراً دون جدوى ، وهى تعجب كيف فقدت تلك القدرة التى وهبتها الطبيعة من تلقاء نفسها ، حتى نهتها حركة فى فروع اللباب التى كانت تغطى السور ، كما كانت تكسو الكوخ ، فنظرت فإذا قافز يقفز من أعلى السور إلى أرض الحديقة ، وإذا هو ألك دربرفيل . وكانت لم تره منذ قارها يوم قدوسها إلى مسكن البستاني حيث نزلت .

صاح : « أقسمت ما أبدعت الطبيعة ولا الفن أجل منك ، تس يا ابنة العم » — وكان فى قوله يا ابنة العم رنين سخرية — « لقد كنت أراقبك من فوق الحائط ، فى جلستك القلقة ، وأنت ترمين ذلك الثغر الأحمر المليح ، تريد أن تصفرى ، وتنفخين المرة تلو الأخرى ، وتلعنين بينك وبين نفسك ، دون أن تستطيعي إخراج لحن واحد ، أفبحزنك كثيراً ألا تستطيعي الصغير ؟ » قالت : « ربما أحزنتي ذلك ولكنى لم ألحن » ، قال : « لقد أدركت لماذا تحاولين : من أجل تلك الطيور ، إن أى تريد أن تواصلى تعليمها الموسيقى ، ما أقصاها ! كأن رعاية هذا الدجاج وهذه الديكة ليست عملاً كافياً لأية فتاة ؟ لو كنت مكانك لرفضت رفضاً باتاً » .

قالت تس : « ولكنها تشدد فى وجوب استعدادى والبدء من اليوم » ، قال : « أحقا ؟ إذن أعطيك درساً أو درسين » ، قالت وهى تنسل إلى الباب : « كلا ، لن تفعل » ، قال : « يا للحاجة ! أنا لن أمسك ، انظري : سأقف على هذا الجانب من السور السلكى ، ولك أن تقفى على جانبه الآخر ، وبذلك تكونين فى مأمن تام ، والآن انظري : إنك تضمين شفثيك ضماً عنيفاً ، وإنما هكذا يكون الصغير » ، وشفع القول بالمعمل فصفر شطراً من أغنية : « نحى هاتين الشفثين عني » ، على أن تس لم تظن إلى تليجه ، ثم قال : « الآن حاولى » ، وكانت لا تريد التبسط معه ، فظلت جامدة كالتمثال ، ولكنه ألح حتى اضطرت — طلباً

للخلاص منه — أن تزم شفتيها كما رسم لها لإخراج الحن ، ثم غلبها الضحك ، ثم احمر وجهها حقاً على ضحكها ، فقال مشجماً : « حاولي ثانية » .

وجمت كل عزمها وتجلبت بكل وقارها ، وجربت مرة أخرى ، وإذا هي تخرج في النهاية صوتاً صحيحاً جلياً ، وغلبها فرحها بالنجاح فاستعت حدقتهاها وابتسمت في وجهه بالرغم منها ، وقال : « هكذا هكذا ! لقد وضعتك على الدرب وسوف تتقدمين تقدماً رائماً ، وقد وعدت ألا أدانيك ، ورغم هذا المنظر المغري الذي لم يتحجج بمثله إنسان سابر بوعدى ؛ تس : هل تظنين أن أى مخلوقة عجيبة ؟ » قالت : « لست أعرف كثيراً من أمرها بعد يا سيدي » ، قال : « سيتضح لك أنها كذلك ، ولا بد أن تكون كذلك ما دامت تأمرك بتعلم الصغير من أجل أطيافها ؛ أنا غير متمتع برضاها في الوقت الحاضر ، أما أنت فستالين عطفها إذا أحسنت معاملة دواجنها ، والآن عمى صباحاً ، وإذا اعترضتك صعوبة وطلبت المعونة ، فلا حاجة لتجشك إلى عاملنا بل اتقني أنا » .

هكذا تبوأَت تس مكانها من هذه الكورة ، وكانت تجارب اليوم الأول مثلاً لتجارب الأيام الكثيرة التالية ، واستطاع ألك دربرقيل أن يستعيد فقها بخلاف الأحاديث ، وبدعوتهما وهو يمزح بابتة العم حين يخلوان ، حتى ذهب حياؤها الأول منه ؛ على أنه لم يستطع أن يفرس في نفسها شعوراً يبعث حياء جديداً من ضرب آخر ، بيد أنها كانت أطوع له مما كانت تكون لو كانت علاقتها مجرد معرفة ، وذلك لاعتمادها بالرغم منها على أمه ، أو بالأحرى لاعتمادها عليه إذ كانت أمه عاجزة .

وسرعان ما تبين لها — بعد أن استردت مقدرتها على الصغير — أن الصغير لطيفور مسز دربرقيل ليس بالعمل الشاق ، فقد كانت ثقفت عن أمها ألحاناً كثيرة تلائم تلك الطيور ، وأصبح صغيرها يجانب الأقفاص كل صباح أدعى إلى الارتياح من محاولتها الأولى تلك في الحديقة ، فكانت وهي في مأمن من إلحاح الشاب

وإرهاقه ، تجمع شفيتها وتدينهما من القضببات ، وتصفر صغيراً رخياً للطيور المصيخة المنتبهة .

وكانت مسر دربرقيل تنام في فراش ضخم مغطى بستائر الديباج الدمشقي ، وكانت الطيور الفريدة تحتل نفس الغرفة ، حيث كان يسمح لها بالطيران حرة ساعات من النهار ، فكانت تترك على الأثاث والأغطية نقطا بيضاء دقيقة ؛ وكانت تس مرة واقفة عند النافذة المصفوفة حولها الأقفاص ، تعطى دروسها كالمتاد ، نغيل إليها أنها تسمع حفيفا خلف الفراش ، ولم تكن السيدة المعجوز حاضرة ، فالتفتت تس فلاح لها أن طرفي حذاء بيرزان من تحت ذيول الستائر ، وعند ذلك اضطرب صغيرها ، حتى أن التسمع — إذا كان هناك متسمع — تنبه إلى ارتيابها في أمره ؛ وبعد ذلك أصبحت تس تفتش الستائر كل صباح ، ولكنها لم تعثر قط فيها على أحد ، وكان ألك دربرقيل على ما يظهر قد أفلح عن حيلته في مباغتتها على ذلك النحو .

١٠

لكل قرية سننها وخصائصها ولوازمها ، بل لكل قرية أحياناً معايير للأخلاق خاصة ، وكان من خصائص ترتدج وأرباضها تبذل بعض فتيانها ، وكأثما كان ذلك التبذل رمزاً لأخلاق رب قصر سلوبس ، وكان من خصائصها أيضاً أو من مساوئها الشنيعه إدمان الشراب ، وكان عدم جدوى الادخار هو موضوع المحادثة المحبب في تلك الناحية ، فكان الفلاحون في ثيابهم الخشنة يتكثفون على محاربتهم أو مناجلتهم ، ويتمتعون بعمق كبار الرياضيين في الحساب ، كي يثبتوا أن الجمل الذي يمنحه مجلس الأبرشية للفلسين الماطلين أقوم بحاجات الرجل إذا أسن ، من أى مال يستطيع ادخاره من أجره طول حياته .

وكانت كبرى متعات أولئك الفلاسفة أن يذهبوا مساء كل سبت عقب الفراغ من العمل ، إلى تشيس ، وهى بلدة سوق متهدمة على مدى ميل أو ميلين ، ويعودوا مبكرين صباح الأحد ليقضوا النهار فى النوم ، يتخلصون من الأثر المسك للضم الذى تركه فيهم المشروبات القوية ، التى تباع لهم على أنها جمعة ، فى تلك الحانات التى كانت حقة مستقلة ، وهى اليوم حكر فى يد واحدة .

وظلت تس زمنا طويلا لا تنخرط فى هذه الرحلات الأسبوعية ، ثم وافقت . أخيراً على الذهاب تحت إلحاح التزوجات اللوانى لم يكن يكبرنها كثيراً ، إذ كان أهل تلك الجهة يكررون بالزواج ، لأن أجر أحدهم وهو فى الحادية والعشرين يظل هو هو حين يبلغ الأربعين ؛ وقد سرت تس من رحلتها الأولى سروراً لم توقعه إذ سرت إليها عدوى الجبور الذى كان طامياً على الأخريات ، بعد قضائها الأيام الطوال فى عملها المل فى تمهد الدواجن ، فأعادت الذهاب مرة بعد أخرى ، وإذ كانت رشيقة ممتعة ، وكانت إذ ذاك فى المرحلة الدقيقة بين الطفولة والأنوثة الكاملة فقد كان منظرها يجذب نظرات المتسكمين فى طرق تشيس ، ولذلك أصبحت حتى .

حين تذهب بمفردها إلى تلك البلدة ، تبحث في عودتها عن بعض صوحيباتها ،  
تطلب بمرافقتهن الأُنس والأمان في الطريق .

واستمر ذلك شهراً أو شهرين ، حتى جاء سبت في سبتمبر اجتمع فيه السوق  
الأسبوعية والسوق الموسمية ، واحتفاء بهذه المناسبة راح الحجاج إلى تشيس يشربون  
ضعف ما يشربون عادة في الحانات ؛ وتأخرت تس في الذهاب حتى فرغت من  
عملها ، ولذا وصلت صوحيباتها إلى البلدة قبلها بزمان طويل ، وكان المساء جميلاً  
قَبيل الغروب ، حين تصطرع الأشعة الصفراء والظلال الزرقاء في خطوط شعرية ،  
ويصبح الجو ذاته منظرًا جميلاً دون حاجة إلى الأجسام المتحجرة ، اللهم إلا  
ما يتراقص فيه من هوام مجنحة لاتمد ؛ في هذا الضوء الخافت اتخذت تس طريقها  
ولم تعلم باتفاق السوقين حتى بلغت البلدة وكان الليل قد أرخى سدوله ، وسرعان  
ما فرغت من شراء حاجاتها المحدودة ، وعندها بدأت كمادتها تبحث عن بعض  
صوحيباتها .

ولم تهتد إليهن في بادئ الأمر ، وقيل لها إنهن قد ذهبن ليساهمن في رقص  
في دار رجل يتجر في الكلا والوقود ، بينه وبين أصحاب الضيعة التي يعملن بها  
تعامل ، وكان يسكن في جانب متطرف من القرية ، وبينما هي تهدي إلى تلك الدار  
وقعت عينها على مستر دربرفيل واقفاً على منعطف طريق ؛ قال : « ماذا ؟ أحسنائي ؟  
أأنت هنا في هذه الساعة المتأخرة ! » فأخبرته أنها إنما تنتظر رفيقاتها في الطريق  
ومضت عنه فصاح بها من خلفها : « سأراك ثانية » .

ولما قاربت الدار سمعت ألحان موسيقى رقص منبعثة من الجانب الخلفي منها ،  
ولكنها لم تسمع الرقص ذاته ، وكان ذلك أمراً عجباً في مثل تلك الأحياء الوضيعة  
حيث يطنى وقع أقدام الراقصين عادة على نغمات الموسيقى ؛ وكان الباب مفتوحاً  
فاستطاعت أن ترسل بصرها إلى الحديقة الخلفية إلى مدى ما يمكنها الضوء الخافت ،  
ودقت فلم يجبها أحد ، فاجتازت المسكن إلى البناء الخلفي حيث كانت الموسيقى  
التي اجتذبتها ، وكان ذلك بناء مصمماً عديم النوافذ يستخدم في خزن الحبوب ،

وكان بابه مفتوحاً ينبعث منه وهج أصفر غائم ، حسبته تس بادئ الأمر دخاناً  
ينعكس عليه الضوء ، ولكنها حين قاربته وجدته سحابة من الغبار ، تضيئه  
الشموع داخل البناء .

وتقدمت ونظرت في الداخل ، فرأت أشباحاً غامضة تعدو على وقع الموسيقى ،  
وكان خفوت وقع أرجل القوم راجعاً إلى غياب أقدامهم في التبن المتخلف عن  
الجوب ، وكان ذلك التبن يتطاير من خفق أقدامهم فينشر ذلك الضباب الذي  
يلف المنظر جميعه ، وقد امتزج ذلك الضباب الكريه الرائحة بمرق الراقصين  
وحرارتهم ، امتزجاً كأنما تلاحق فيه النبات والإنسان ، والقيثارات الضعيفة  
ترسل أنغامها الواهية ، فكان بين وهنها وبين حماسة الراقصين تباين عجيب ،  
وكانوا يسعلون أثناء رقصهم ، ويضحكون خلال سعالهم ، وكانت أشباحهم تبدو  
وكأنها عفاريت القاب تمناق عرائسه ؛ وفي فترات السكون كان يأتي زوج منهم  
إلى الباب يتنسمان الهواء الطلق ، فتبدو عند ذلك ملامحهما جلية ، وتبين تس  
— مكان أولئك العفاريت والعرائس وأنصاف الآلهة — وجوه جيرانها وجاراتها  
فتمعجب من تحول أبناء ترتدج هذا التحول الهائل في ثلاث ساعات قصار .

وجلست زمرة من أنصاف الآلهة على بعض المقاعد والآلات هناك ، وعرف  
أحدهم تس فقال يفصل لها الأمر : « فتياتنا لا يرين من اللائق الرقص في حان  
زهرة الزنبق ، إذ لا يرضين أن يعلم الجميع أى شاب تهواه كل منهن ، وفضلا عن  
ذلك فإن الحان ينلق أحيانا في الساعة التي فيها تنشط مفاصلهم للرقص ، ومن  
ثم نؤثر الجحى إلى هنا ونرسل من يتنازع لنا الأثرية » ؛ قالت تس في قلق :  
« ولكن متى يعود بعضكم ؟ » قال : « عما قليل ، فلم تبق إلا رقصة واحدة » ،  
فاستظرت حتى انتهت الرقصة ، وفكر بعض الحضور في الانصراف ، ولكن غيرهم  
أبى وبدأت رقصة أخرى ، وقالت تس في نفسها : إن تلك الرقصة هي الأخيرة ،  
ولكن أعقبها ثلاثة فاشتد قلقها ، بيد أنها وقد استظرت كل هذا الوقت لم تر  
عيدا عن البقاء ، فقد كانت الطرق غاصة بالشذاذ لمناسبة السوق الكبرى ، وكانت

تس لا تخشى الأخطار التي تعرف كنهما ، ولكنها تخشى الأخطار المجهولة الذي ، ولو أنها كانت على مقربة من مارلت ما اشتد جزعها .

قال لها فتى متصبب الوجه عرقا ، قد دفع قبمته إلى الوراء حتى بدت حاقها حول رأسه كهالة القديسين ، وهو يسمل : « لا تجزعي يا جاري ، علام التمعجل ؟ إن غدا والحمد لله يوم الأحد ، وفي الكنيسة نستطيع أن نعوض ما فاتنا من النوم ، هل لك في مراقبتي ؟ » ولم تكن تسكره الرقص ولكنها لم تكن لترقص في هذا المكان ؛ واحتدت حركة الرقص ، وجعل المازفون وهم جلوس خلف عمود الضباب المتوهج ، يخالفون بين أنفاسهم بالضرب على مؤخرة الأوتار بدل مقدمتها ، أو بالمزف يظهر القوس بدل بطلها ، ولم يكن الراقصون يبالون شيئا من ذلك ، بل ظلت أشباحهم مندفة تدور .

ولم يكونوا يغيرون مراقبهم إذا كانوا مراقبين إلى من يراقصون ، وإنما كان التغير معناه أن أحد المتراقصين لم يرجع إلى مراقبه ، أما الآن فكان كل قد اهدى إلى من يروقه ، وعند ذلك سبحوا في عالم من النشوة والأحلام ، ارتدت الماطقة فيه هي الحقيقة المتحجرة في هذا الكون ، وارتدت المادة عقبه دخيلة تعترض الطريق وتمنع الراقص من الاندفاع والالتفاف حيث شاء .

ثم سمعت فجأة خفقة ثقيلة ، فقد سقط متراقصان وظلا في مكانهما ركاما ، ولم يستطع الزوجان اللذان تلاوها التوقف فوقما عليهما ، وثارت حول الساقطين غمامة من الفبار صفري وسط الكبرى التي كانت تغطي الحجرة ، وبدا فيها خليط من الأيدي والأرجل المشتجرة ، وصاحت امرأة من ذلك الركام البشري : « سننال جزاءك على هذا يا صاح متى رجعنا إلى النار ! » وكانت تلك مراقصة الرجل الذي سبب الحادث كله بغدامته وهوجه ، وكانت زوجته قد بنى بها حديثا ، ولم يكن تراقص الزوجين أمرا غريبا في ترتدج مادام بينهما أنارة من حب ، لا ولا كان ذلك بالغريب في أخريات حياتهم ، غافة أن يراقص أحدهما شخصا آخر يكون إليه أميل .



وتعالت ضحكة من خلف تس في ظلام الحديقة ، ممتزجة بالتهقعة التي انتشرت في الحجرة فالتفتت فرأت شعلة سيجارة ، وإذا ألك دربرئيل قائم هناك وحده ، وأشار إليها فشت إليه على كره ، فقال : « ماذا تصنعين هنا يا حسنائي ؟ » ، وكان الجهد بالغاً منها مبالغته بعد يومها الطويل ورحلتها ، فباحث إليه بأشجانها وأخبرته أنها كانت تنتظر منذ رآها كي تصطحب بعض القافلين ، ثم قالت : « ولكن يظهر أنهم لن ينتهوا أبداً وقد عيل صبرى » ، قال : « لا حاجة بك إلى الصبر ، ليس مى الليلة إلا جواد مسرج ، ولكن تعالى إلى حان زهرة الزنبق أكثر عربة وأحلك إلى المنزل » ، وأصاب مقاله من نفسها موقعاً حسناً ، ولكنها لم تكن قد تغلبت بعد على سوء ظنها به ، فأثرت أن تعود سائرة مع صويحباتها مهما تأخرن فقالت إنها تشكره ولكن لا تريد تجسيمه مشقة ذلك ، وإنها قد وعدت بانتظارهن فقال : « حسناً يا فتاتي المستقلة ، اصنعي ماشئت ، والآن لا حاجة بي إلى الإسراع ، يا لله ! ما أشد انهما كهن ! » .

ولم يكن قد خطا في النور ، ولكن بعضهم لمح ، فدعاهم الشهور بوجوده إلى التوقف والتساؤل عن الوقت ، ولم يكذب وقد سيجاراً جديداً وينصرف ، حتى بدأ أهل ترتريج يجمعون أنفسهم من بين الآخرين الآتين من مزارع أخرى ، وتهاوا للانصراف جماعة ، والتفتوا سلاتهم وعيابهم ، وبعد نصف ساعة — حين دقت ربماً بعد الحادية عشرة — كانوا ينقلون خطاهم في الطريق الضيق الذي يصعد المرتفع ، يقصدون ديارهم ، وكانت مسيرة ثلاثة أميال على طريق أبيض جاف ، قد زاده قمر تلك الليلة يياضاً .

سارت تس في الجمع تحادث هذا مرة وتلك أخرى ، ومرعان ما لاحظت أن هواء الليل البليل يطوح بعض الرجال بمنة ويسرة ، وكانوا قد أفرطوا في الشراب وكان بعض من أفرطن في الشراب يترنح كذلك ، ومن أولئك امرأة وقاح ، تدعى كاردارتش ، تنبذ أحياناً بملكة القفوس ، وكانت إلى عهد قريب محظية دربرئيل ، وأختها ننسى المدعوة بملكة الساس ، تشبهها لها بملكات أوراق اللعب ، والفتاة

المتروحة حديثاً التي سقطت في الرقص ؛ على أنه وإن كان منظر القوم إذ ذاك يلوح لعمى الرأى المادى قبيحاً مستردلاً ، فقد كان الأمر في نظرهم على عكس ذلك : كانوا يتابعون سيرهم ، وهم يشعرون أنهم مخلقون في عالم من الأفكار العميقة ، وقد تمازجوا هم والطبيعة في كل واحد متلائم الأجزاء متآلف سعيد ، وأنهم يماننون القمر والنجوم المشرفة عليهم سموا ، وأن القمر والنجوم تماثلهم حرارة .

وكانت تس قد خبرت من مثل هذه الأحوال في دار أبيها ، ما نفص عليها الجبور الذى كانت بدأت تشعر به في رحلتها القمراء ، حين رأت ما رأت من اختلال مشياتهم ؛ بيد أنها لما تقدم من أسباب لم ترمق من مراقبة الجمع ، وكانوا قد ساروا في الطريق العامة مشتتين ، أما الآن فبلغوا بوابة حقل ، ولاقت المتقدمة أمامهم صعوبة في فتحها حتى تلاحق بها الباقون ، وكانت هذه المتقدمة في الطليعة هي ملكة القووس ، وكانت تحمل سقفا فيه مشتريات الأسبوع : بين بقول لأمرها وأقشعة لنفسها إلى غير هذا وذاك ، وكان السقف كبيراً قليلاً ، فحملته على رأسها حيث جثم في توازن خطر ، وسارت ويدها في خاصرتها .

وقال لها أحدهم فجأة : « ما هذا الذى يزحف على ظهرك يا كار ؟ » ، فنظر الجميع إليها ، وكانت ترتدى ثوباً قطنياً خفيفاً رخيصاً ، وكان يتدلى من قدامها جبل يصل إلى مادن خصرها كضفيرة الصينى ، وقال آخر : « هذا شعرها قد انتشر » ولم يكن ذلك حقاً ، إنما كان سائل يجرى من سقفاها ويلتصع كأنه ثعبان في أشعة القمر الباردة الساكنة ، وقالت امرأة أنفذ بصراً : « هذا عصير قصب » وأصاب فتقد كانت جدة كار المعجوز السكىنة مغرمة بالحلوى ، وكانت تجنى من خلاياها هي نفسها عسلاً كثيراً ، ولكن غسل القصب كان منية روحها الكبرى ، وقد أرادت كار أن تحمل إليها مفاجأة سارة .

وتماثل الضحكات لدى مرأى ظهر كار ، فاشتد حقن الملكة السمراء ، فاندفعت تتخلص من المادة المشوهة بأقرب الوسائل ، دون أن تلجأ إلى مساعدة الساخرين منها ، وهزلت في الحقل الذى كانوا على وشك اجتيازه ، واستلقت على

العشب وجعلت تمسح ثوبها ما استطاعت بالتمرغ ويمر نفسها بمرقعها على العشب ، فاشتد دوى القهقهة حتى عجز بعض القوم عن التماسك من فرط الضحك ، فتملقوا بالبوابة والأعمدة ، واعتمدوا على عكازاتهم ؛ وكانت بطلتنا قد احتفظت حتى الساعة بسكونها ، ولكنها لم تنأ لك الآن أن تشارك الباقي .

وكان ذلك من سوء ظالمها من شتى الوجوه : فإن الملكة السمراء حالما سمعت صوت تس الخصب الرزين وسط أصوات العمال ، بلغ منها الحنق والحسد حد الجنون ، فانتفضت قائمة وصرخت في وجه الفتاة التي كانت تشنؤها : « كيف تجسرين على الضحك مني يا صبية ؟ » قالت تس معتدرة ، وما زال الضحك يغالبها : « لم أملك الضحك مع الضاحكين » ، قالت : « أنت شديدة الزهول لأنك اليوم أدنى إليه من سواك ، ولكن مهلا يا هذه ثم مهلا ، إني لأعلى قدرا من اثنتين من طرازك ، هاك ! » وما راع تس إلا أن انطلقت الملكة السمراء تشق جيب ثوبها — وكان يسر المرأة أن تتخلص منه بعد أن سخر منه القوم — حتى أبدت جيدها البض وكنفها وذراعيها لضوء القمر ، فلاححت أعضاؤها تلك في ضوئه لامعة جميلة كأنها تمثال إغريقي ، ثم استدارتها وامتلاؤها عن امرأة ريفية شهوانية ؛ وتصدت لتس جامعة قبضتها .

قالت تس في أنفة : « لن أقاتلك ، ولو كنت أعلم أنكم هكذا لما تدليت حتى رافقت غوغاءكم » ، فجر هذا الحكم الممعم على رأس تس الجليل سخط الآخرين ، ولا سيما سخط ملكة الناس ، التي كانت بينها وبين دربرفيل فيما مضى نفس العلاقة التي تشاع عن الملكة السمراء ، فأحدثت مع أختها على العدو المشترك وانمازت إليهما نساء أخريات في حماسة هوجاء ، لعلهن لم يكن يظهرهن لولا النساء العاصف الذي قضينه ؛ ولما رأى الأزواج والمأشوقون أن تس تندحر في حرب غير متعادلة ، حاولوا نشر السلام بالإنحياز إلى جانبها ، فلم يزد ذلك المهارة إلا احتداما .

وبلغ النعيط والحجل من تس ، فلم تعد تبالي وحشة الطريق وتأخر الوقت ، وإنما صار هما الانفصال عن الرهط بأسرع ما تستطيع ، وكانت موقنة أن خيارهم سيندمون في الند ، وكانوا جميعاً قد دخلوا في الحقل ، وكانت تتباطأ كي تندفع مبتعدة عنهم ، وإذا فارس يخرج في صمت من ركن السياج الذي يحجب الطريق ، وأطل عليهم ألك دبرفيل قائلاً : « ويل لكم ، ما هذا الصخب ! » ، ولم يستطع القوم التفوه بجواب ، ولم يكن هو يبنى جواباً ، وكان قد سمع أصواتهم من بعد فاقرب حتى سمع ما يكفيه ، وكانت تس واقفة منفردة قرب البوابة ، قال إليها قائلاً : « افقرى خلني ، نغادر رهط القطط الصاخبة ، في طرفة عين . »

واشتد إحساسها بحرج موقفها حتى كاد ينفى عليها ، وما كانت لتقابل هذه المساعدة الممنوحة والمرافقة للمروضة في أى وقت آخر بغير الرض ، كما رفضتها من قبل مراراً ، وما كان خوفها الوحدة ليدفعها على قبولها ، ولكن الدعوة جاءت في تلك البرهة العصيبة حين اجتمع في نفسها الخوف والنقمة على مخاصمها ورأت أن قفزة واحدة تحول تينك العاطفتين إلى نصر على أولئك الخصوم ، فاستسلمت لنزوتها ، وتسلفت البوابة ووضعت قدمها فوق قدمه ، وتماحلت حتى جلست في سرجه من خلفه ، وقبل أن يبي أولئك المربدون ما حدث ، غاب شخصاهما في غبش الظلام .

ونسيت ملكة الفؤوس السائل الذي يلوث رداءها ، ووقفت بجانب ملكة المس والمرأة المتزوجة حديثاً المترنحة ثملاً ، وقد شخصت أبصارهن جميعاً إلى حيث تخافت صوت حوافر الجواد ، وقال رجل لم يلاحظ ما حدث : « إلام تنظرون ؟ » فضحكت كار : « هو هو هو ! » وضحكت العروس المترنحة ، وهي تتحامل على ذراع زوجها المتيه : « هي هي هي ! » ، وضحكت أم كار : « هيو هيو هيو ! » ، ومسحت شاربها وقالت متبهكة : « لقد استجارت من الرضاء بالنار ! » .

وواصل السير سادتنا أبناء الهواء الطلق ، الذين لم يكن حتى الإفراط في  
المسكرات يضر بهم ضرراً مقيماً ، وكان يتحرك معهم حول هامة خيال كل منهم  
دائرة ساطعة من ضوء القمر المشعشع على بساط الندى ، ولم يكن منهم من يرى  
سوى هالته ، التي كانت لا تفارق خيال الرأس مهما هوم الرأس وتطوح ، بل  
تلازمه وتجمله ، حتى كاد الترنخ يبدو جزءاً من الإشعاع ، وكادت الأبنجرة  
المتصاعدة مع أنفاسهم تبدو كأنها جزء من ضباب الليل ، وبدأ لهم كأن المنظر  
المحيط بهم وضوء القمر وروح الطبيعة ، تتألف جميعها مع روح الخمر .

٩٩

خب الجواد بالراكبين حيناً دون أن يتكلم ، وكانت تس متعلقة بالشاب ، وما تزال تلهث من نشوة الظفر ، وإن كانت نفسها مضطربة لأشياء أخرى ، ولا حظت أن ذلك الجواد لم يكن هو الجواد الجرح الذي يركبه أحيانا ، وارتاحت لذلك ، وإن كان مركبها قلقا رغم تشبها بصاحبها ، فرجته أن يكفكف من سرعة الجواد ففعل ، وبعد قليل قال : « ما أبرع ما فعلناه ! » قالت : « أجل ويجب أن أكون شاكرة لك ذلك » ، قال : « وهل أنت شاكرة فعلا ؟ » ؛ فلم تجب ، قال : « تس : لماذا تكرهين أن أقبلك ؟ » قالت : « لأنى .. لأنى لا أحبك » قال : « وأنت أنت ؟ » قالت : « إني أحتق عليك أحيانا ! » قال : « آه ! هذا ما كنت أخشاه » .

على أنه لم يؤله هذا الاعتراف ، فقد كان أى شيء خيرا لديه من التزمت ، قال : « لم لم تجربيني حين كنت أحثقك ؟ » قالت : « أنت تدري جيدا : لأنى لا أستطيع لنفسى هنا دفعا » ، قال : « هل ضايقتك كثيرا بمغازلتك ؟ » قالت : « أحيانا » ، قال : « كم مرة ؟ » قالت : « أنت تعلم مثلاً أعلم ، مرارا أكثر مما يجب » ، قال : « في كل مرة حاولت ؟ » فلم تجب .

واستطرد الجواد يخب خبياً هيناً ، حتى انتشر ضباب خفيف منير كانت أهدابه مسفة طول السماء ، وهبط حتى لفهما ، وبدأ كأنه يفت في كبذ ضوء القمر ويجعله أيسر اختراقاً مما يكون في الجو الصاحي ، ولعل هذا ، أو لعل شرود ذهنها أو لعل مغالبة النعاس إياها ، جعلها تنفل عن مجاوزتهما منذ زمان موضع انسلاخ الطريق الصغير المؤدى إلى ترتديج ، عن الطريق العام ، وأن قائدها لم يركب طريق ترتديج ، وكانت متعبة مكدودة ، فقد استيقظت في الخامسة من صباح كل يوم من أيام ذلك الأسبوع ، وكانت تعمل على قدم وساق طوال كل يوم ، وفي

مساء ذلك اليوم كانت قد ذرعت المسافة إلى تيشيس ، وانتظرت جيرانها ثلاث ساعات دون طعام ولا شراب ، إذ كانت ترقب انصرافهم من حين إلى حين ، وبعدما سارت ميلا في طريق العودة ، وأزعجها ذلك الشجار ، وكأنا يتقدمان على مهل حتى بلغت الساعة الواحدة .

ولم يغلبها النعاس إلا مرة واحدة مأل فيها رأسها عليه ، وعندما أوقف دربرفيل الجواد وسحب رجله من الركاب ، ودار بجسمه في سرجه وأجال ذراعه حول خصرها ليمتعا من السقوط ، فالتبته في الحال كاللدافع عن نفسه ، وتمسكها ذلك الميل الذي كان يذفمها فجأة إلى الاقتصاص من النير ، فدفعته عن نفسها دفعة خفيفة ، فكاد يفقد توازنه في مجلسه الحرج ويقع على الطريق ، وكان الجواد لحسن حظه أهدأ جياده روعا على شدة بأسه ، وعندما صاح : « هذا جحود شنيع ، إنما أردت أن أحميك من السقوط ولم أبفك يسوء » .

ففكرت برهة في ارتياب ، حتى بدا لها أنه ربما كان صادقا ، فندمت وقالت : « صفحا يا سيدي » ، فانفجر صائحا : « لن أصفح عنك حتى تبدى ثقتك بي ، يا لله ! من أنا حتى تدفعني بنية مثلك ؟ ثلاثة أشهر كاملة عبثت فيها بشعوري وصددت عني وتجاهلتي ، ولن أصبر على هذا بعد اليوم ! » قالت : « سأرحل عنك غدا يا سيدي » ، قال : « لا ، لن ترحلي عني غدا ، إنني أسألك مرة أخرى : أمستعدة أنت أن تبدى ثقتك بي بتركي أطوقك بذراعي ؟ اسمي : نحن الآن في خلاء لا يسمنا أحد ، وكلانا يعرف صاحبه تمام المعرفة ، وأنت تعلمين علم اليقين أنني أحبك وأراك أجمل نساء الأرض ، وأنت حقا كذلك ، أفليس لي أن أعاملك معاملة الحب ؟ » .

فتنهدت تنهد ضيق وإباء ، وتعللت في مجلسها وأرسلت بصرها بعيدا ، وتمتعت : « لست أدري . . . ليتني . . . كيف أحبيب نعم أولا ، بينما . . . » ، فبت هو في الأمر بتطويقها كما يحب ، ولم تمانه تس واستطردا حتى تنبته إلى أنهما قد قطعا شطرا طويلا من الزمن ، أطول جدا مما تستغرقه الرحلة القصيرة .

من تشيس ، حتى مع خطرة الحصان الرقيقة تلك ، وتنهت إلى أنهما لم يعودا بعد على الطريق الصلب ، بل في ممشى صغير ، فصاحت : « أين نحن ؟ » قال : « نخترق غابة » ، قالت : « غابة ؟ أية غابة ؟ هل حدنا عن الطريق ؟ » قال : « هذا جانب من مقاطعة تشيس ، وهذه أقدم غابات أنجلترا ، والليلة جميلة ، فلم لا نطيل رحلتنا قليلا ؟ » .

قالت تس بين اللطافة والذعر : « يالك من خائن ! » وتخلصت من ذراعه بفتح أنامله واحدة بعد الأخرى ، مستهدفة في ذلك للسقوط ، واستطردت : « أبعد أن وضعت فيك كل هذه الثقة ، وجاملتك لأرضيك لما بدا لي أنى أسأت إليك بدفعك عني ! أرجوك أن تدعني أترجل وأعود إلى الدار » . قال : « لن تستطيعي العودة يا سيدتي ولو كان الجو صحواً : فنحن على مدى أميال من ترتدرج إذا كان لا بد أن أخبرك ، وفي هذا الضباب المتكاثف ربما طوقت ساعات بين هذه الأشجار بلا طائل » ، قالت بلهجة رجاء واسترضاء : « بالرغم من كل هذا أرجوك أن تدعني أترجل ، لست أبالي أين نكون ، إنما أرجوك أن تركني أترجل ، أرجوك يا سيدى ! » .

قال : « أما إذا لا بد فإني تاركك على شرط واحد : فإني وقد أتيت بك إلى هذا المكان المنقطع ، أعد نفسي مسؤولاً عن إعادتك سليمة إلى الدار ، مهما كان رأيك في ، أما عودتك إلى ترتدرج بلا مساعدة فستحيلة : فإني والحق يقال لا أعلم أنا نفسي أين انتهينا ، وسط هذا الضباب الذى يحجب كل شيء ، فإذا وعدت بالانتظار حتى أجوس خلال الأشجار أبحث عن منزل أو طريق لأستيقن من مكاننا تركتك تترجلين هنا ، وحين أعود أخبرك بمجلية الأمر ، فإن أصررت حينئذ على العودة مشياً فذاك ، وإن شئت ركبت » .

وقبلت شرطه وانزلت إلى الجانب الأدنى ، ولكنه اختطف قبلة عجلى وهى تهبط ، ثم قفز في الجانب الآخر ، وقالت : « أينبنى أن آخذ بننان الجواد ؟ » قال وهو يربت الجواد اللاهث : « لا ، لقد قام من العمل بما يكفيه الليلة » ، وأدار



رأس الجواد فى الأشجار وربطه بنفسه ، ومهد لها أريكة أو عشا فى ركام الأوراق الجافة وقال : « والآن اجلسى هنا ، هذه الأوراق لم تتند بعد ، ويكفى أن تراقبى الجواد » . ومضى عنها خطوات ولكنه عاد قائلاً : « على فكرة يا تس لأنيك اليوم حصان جديد ، قد أعطاه إياه بعض الناس » ، قالت : « بعض الناس ؟ أنت ! » فوافق بهز رأسه ، قالت : « ما أكرمك ! » . ولكنها شعرت بحرج موقفها إذ اضطرت إلى شكره فى ذلك الموقف ، قال : « وللأطفال لعب كثيرة فغمغمت وقد اشتد اضطرابها : « لم أكن . . . أعلم . . . أنك ترسل إليهم شيئاً أكاد أود لو لم تفعل ، نعم أكاد أود لو لم تفعل » قال : « لم يا عزيزتى ؟ » قالت : « هذا يخرجنى كثيراً » ، قال : « تيسى ! ألا تحملين لى الآن ولو ذرة قليلة من الحب ؟ » قالت على مضض : « أنا سأكره ، ولكن . . . » .

وحز فى نفسها إدراكها أن هيامه بها هو الذى أدى إلى تلك النتيجة ، فأنحدرت من عينها دمة فآخرى ثم أجهشت بالبكاء ، قال : « لا تنبكي أيتها العزيزة اجلسى هنا حتى أعود » ، فأطاعت وجلست فى الأوراق التى كومتها ، وأخذتها قشعيرة ضئيلة فقال : « أتشعرين بالبرد ؟ » قالت : « قليلاً ما » ، فلمسها بأصابعه ففاست أصابعه فيها غوصها فى زغب الطير ، قال : « أليس عليك إلا ذلك الثوب الموصلى الرقيق ؟ كيف هذا ؟ » قالت : « هذا خير ثيابى الصيفية ، وقد كان يكفينى فى خروجى ، ولم أكن أعلم أنى سأركب وأن الليل سيدركنى » ، قال : ليالى سبتمبر باردة ، والآن ما ذا أستطيع أن أصنع ؟ » .

وخلع معطفاً خفيفاً وضعه حولها فى رفق وقال : « هكذا ، الآن ستشعرين بالدفء ، فلتسترىحى قليلاً وسأعود بلا إبطاء » ، وزر المعطف حول كتفها ، وغاب فى أنسجة الأبنجرة التى كانت قد نشرت أسدانها بين الأشجار ، وكانت تسمع حفيف الأشجار وهو يصعد المتحدر المجاور ، ثم تضاعف ذلك الحفيف حتى كأنه وقع خطى طائر يتوثب ، ثم ثلاثى ، وغرب القمر نغفت الضوء الشاحب ، واختفى شخص تس وغاب فكرها فى الأفكار والأحلام .

وكان ألك دربرفيل قد صعد المنحدر ليستيقن من موقعه ، فقد كان حقا في شك : إذ كان قد أطلق العنان لجواده على غير هدى زهاء الساعة ، ينعطف في كل طريق يطيل مرافقته تس ، معيراً شخصها المتألق في ضوء القمر انتباهاً لم يعره معالم الطريق ؛ ولم يتمجل في بحثه إذ كان يعلم أن الجواد المرهق في حاجة إلى الراحة ، وهبط الوادى المجاور فوجد نفسه عند سياج طريق عام كان على علم به ، وبذلك فرغ من أمر الهدى إلى موضعها الحالى ، فداد أدرجه ، ولكن القمر كان قد توارى تماماً وغاب المكان في ظلام حالك ، وإن كان الصباح قد بات غير بعيد ، فتقدم ماداً ذراعيه كيلا يصادم الأغصان ، ولاح له أن الاهتداء إلى النقطة التى بدأ منها بات محالاً .

فراح يضرب في الغابة حتى سمع حركة ضئيلة صادرة من الجواد على كسب ، ولس قدمه كم معطفه فقال : « تس » ! فلم يسمع جواباً ، ولم يتبين في الظلام المعتكر إلا سديماً أبيض عند قدميه ، يمثل الشبح المتدثر بالرداء الوصلى ، الذى تركه على الأوراق الجافة ، فانحنى فسمع تنفساً رقيقاً منتظماً ، فثنا وازداد انحناء حتى أحس بحرارة أنفاسها على وجهه ، وكانت تنام نوماً عميقاً وما تزال على أهدابها دموع مترققة .

وكان الظلام والسكون يسودان حولهما ، وتشمخ فوقهما أشجار السرو والبلوط ، في أغصانها صغار الطير تستمتع بأخريات سباتها ، وتنسل من حولهما الأرانب البرية متوثبة ؛ ولكن قد يتساءل المتسائلون : « أين كان ملاك تس الحارس ؟ أين كانت العناية التى كانت تؤمن بها إيماناً ساذجاً ؟ » لعلها كانت — كذلك الإله الذى تحدث عنه إيلشع ساخرًا — تَسْمَرُ ، أو تطارد أحداً ، أو كانت على سفر ، أو كانت نائمة لا يبنى أن ترعج .

لماذا يُقدَّر لهذا الأديم الأثوى الجميل الحساس حسامية الخيتومور ، والذى لم يكد يختلف بعد عن الثلج الغفل ، أن يخط عليه ذلك الأثر الغليظ ؟ ولماذا يستأثر الغليظ بالريق ، والرجل الخطأ بالمرأة ، والمرأة الخطأ بالرجل ؟ هذا ما عجزت فلسفة

آلاف السنين عن تبريره لشعورنا الطبيعي بالمنطق والمعقول ، ولربما تبين المرء في هذه الكارثة التي نحن بصدها عقاباً مستحقاً : إذ لا شك أن بعض أجداد تس دربرفيل ، وهم عائدون في حلق الحديد من بعض الفزوات ، قد جنوا على ريفيات عصرهم هذه الجناية أو أشد منها قسوة ، بيد أنه وإن جاز في عرف الآلهة أن تضيف أوزار الآباء على الأبناء فإن ذلك مما تشمئز منه طبيعة الرجل العادى ، ولا عزاء لنا فيه عن هذا الأمر .

لقد كان ذلك قضاء مكتوباً ، كما يقول قوم تس في تلك الأنحاء كل يوم بلا ملال ، وذلك أفدح ما فى المصاب ؛ ومن هذا اليوم انفرجت هوة سحيفة بين شخصية بطلتنا فى مستقبل أيامها ، وبين نفسها يوم خرجت من باب دار أمها لتجرب حظها فى حظيرة دجاج ترتدج .



لم تعد عذراء



## ١٢

كانت السلة ثقيلة والميثة كبيرة ، ولكنها استطردت في طريقها كأنها لا تحفل بمبئها السادى ، وكانت تقف بغتة من حين لآخر بجانب بوابة حقل أو عمود لتسترخ ، ثم تعود فترفع متاعها في ذراعاها الفتول ، ونمضى في طريقها .

كان ذلك صباح يوم أحد في أواخر أكتوبر ، وقد مضت أربعة أشهر على قدوم تس دريفيلد إلى ترتردج ، ومضت أسابيع قلائل على رحلتها الليلية الراكبة في منطقة تشيس ، ولم يكن قد مضى وقت طويل على بزوغ الفجر ، وكان الشماع الأصفر المنتشر على الأفق وراءها يضيء المرتفع الذى تيممه ، والذى كان حاجزا يدور حول الوادى الذى كانت تعيش فيه أخيراً عيشة اغتراب ؛ وكان عليها أن تتجاز ذلك الحاجز لتعود إلى مسقط رأسها ، وكان الانحدار بطيئاً على هذا الجانب وكانت التربة والناسظر مغايرة لمقابلتها في وادى بلاكفور ، بل كان يختلف أهل الواديين بعض الاختلاف في أخلاقهم ولهجاتهم ، رغم تأثير السكة الحديدية التى تربطهما وتخلط أبناءهما ، ومن ثم كان يخيل إلى تس وهى مقيمة في ترتردج أنها بعيدة نازحة عن قربتها الأصلية ، وإن لم تبعد عنها عشرين ميلاً ، وكان مزارعو الجانب الآخر يتجرون شمالاً وغرباً ، ويسافرون ويخطبون ويتزوجون في الشمال والغرب ، وإلى الشمال والغرب يتجهون بأفكارهم ، أما مزارعو هذا الجانب فكان نشاطهم وانتباههم موجّهين إلى الشرق والجنوب .

كان هذا المنحدر هو نفسه الذى هبطه دربرثيل وإياها ، هبوطه الجنونى في ذلك اليوم من يولييه ، وصعدت تس ما بقى أمامها من طولها بلا تريث حتى أوفت على قته ، فأرسلت بصرها في ذلك العالم الأخضر المألوف الممتد وراءه ، وكان ما يزال في غيابة خفيفة من الضباب ، وكان دائماً يبدو جميلاً من هذا اليفاع ، وقد بدا لتس اليوم جميلاً خيفاً مما ؛ فإنها منذ ألفت عليه النظرة الأخيرة تملت أن

الثماين تفح حيث تصدح الصياح ، وغير هذا الدرس نظرتها إلى الحياة طرا ؛ لقد كانت تلك الفتاة الجامدة في مكانها هذا مثقلة بالهموم ، بلا ريب فتاة جديدة غير تلك الساذجة التي كانت تعيش في بيت أبيها .

ودارت تنظر وراءها وإذا هي ترى عربة ذات عجلتين تصعد الطريق الطويل الأبيض الذي تسلكته منذ وهلة ، وبجانب العربة رجل يُلبحُ إليها بيده لئلا تنظر ، فأطاعت بلا تردد ولا تفكير ، وبعد دقائق كان الرجل والجواد واقفين بجوارها ، وقال دربرفيل مؤنبا وهو يلهث : « لماذا انسلت هكذا واليوم يوم الأحد وكل الناس في فرشهم ؟ لقد اكتشفت عمك صدفة ، فبُخت أعدو وراءك كالمجنون ، انظري إلى المهرة ! لماذا تذهبين هكذا ؟ إنك لتعلمين أن أحدا لن يقف في سبيلك وما كانت بك حاجة إلى إجهاد نفسك هكذا بالمشي ، وإرهاقها بهذا العبء الثقيل ! وما جئت إلا لأحكمك في العربة بقية طريقك ، إذا أصررت على عدم العودة » ، قالت : « أجل أنا مصرة على عدم العودة ! » قال : « هذا ما ظننت ! هاتي متاعك إذن ودعيني أعينك على بقية الطريق »

فوضعت متاعها في العربة في غير مبالاة ، وجلست في العربة وجلس بجوارها ولم تعد تخافه الآن ، وكان سبب وثوقها به موضع بليتها ، وأوقد دربرفيل سيجارا ولم يتبادلا في الطريق إلا حديثا مشتتا فاترا حول الأشياء العادية التي مرا بها ، وكان قد نسي تماما محاولته تقبيلها يوم كانا يذرعان نفس الطريق في الاتجاه المضاد في أوائل الصيف ، أما هي فلم تنس ، وجلست بجواره كأنها عروس الأطفال تجيب على ملاحظاته بألفاظ مبتورة ، وبعد خمسة أميال أشرفا على الأحراج التي تقوم خلفها مارلت ، وعند ذلك ارتسمت على وجهها الجامد آثار من عاطفة ، وانحدرت من عينها دمة أو دمتان .

قال : « لماذا تبكين ؟ » ، فغمغمت : « إنما تذكري أنني ولدت هناك » ، قال : « وما في ذلك ؟ لا بد لكل إنسان أن يولد في مكان ما ! » قالت : « ليتني لم أُولد ، لا هناك ولا في مكان آخر » ، قال : « يا للحق ! إذا كنت لم تريد



الحجىء إلى ترتدج فلم جئت ؟ » فلم تجب فاستطرد : « لم تجيئى حبا فى ، هذا يقين » قالت : « أجل ، هو اليقين : فلو أنى ذهبت لحبك ، لو أنى أحبيتك مخلصه يوما ما ، ولو كنت أحبك اليوم ، لما أوسعت نفسى ذما وبغضا على ضعفى ، كما أفعل الآن ! لقد عبثت بلبى برهة ، هذا كل ما هنالك » ، فهز كتفيه واستطردت : « لم أفطن إلى مرادك حتى فات الأوان » ؛ قال : « هذا ما نقوله كل امرأة » ، فصاحت فى وجهه وقد اتقدت عيناها إذ تنهت غريمها الراكدة ، التى سوف يصل سعيها فى مقبل الأيام : « كيف تجرؤ على هذا القول ؟ لقد هممت أن أقذف بك من هذه العربىة ! ألم يخطر لك قط أن ما نقوله كل النساء قد تصدق فيه بعض النساء ؟ » .

قال ضاحكا : « حسنا ، أنا آسف إذ آلتك ، لقد أسأت الصنيع ، أنا مقر بذلك » ، ثم استطرد فى رنة صريرة : « بيد أنه لا حاجة بك أن تظلى دائما أبداً تجهيننى بذلك ، وأنا مستعد أن أبذل آخر درهم فى يدى من أجلك ، وإنك لتعلمين جيداً أنك فى غير حاجة إلى العمل فى الحقول أو معامل الألبان بعد اليوم ، وأنك تستطيعين أن تلبسى أبهى ما يلبس ، بدل هذه الثياب الجافية التى تصرين على الظهور بها ، كأنت لا تستطيعين شراء شريط من غير ما تكسب يداك » . فارتفعت شفتها وإن لم يكن الاحتقار من طبيعة نفسها الوداعة وسجيته المطلقة ، وقالت : « قلت لك ، وما زلت أقول إنى لن أقبل منك شيئا ، هذا محال ، وإلا كنت خليلتك وهذا ما آباه » .

قال : « يخيل إلى من يرى لهجتك أنك أميرة ، فضلا عن انحدارك من نسل دربرفيل ، ها ! ها ! اسمى يا عزيزتى تس : ليس لدى ما أقول لك بعد هذا ، وأكبر ظنى أنى رجل فاسد لا خير فيه ، لقد ولدت فاسداً ، وعشت فاسداً ، وسأموت فاسداً على ما أرى ، ولكنى لن أسمى إليك ثانية يا تس ، وإذا ألبأتك ظروف صعبة فى طلب المعونة فاكتبى إلى سطرأ واحداً بأنك توا ما تطلين ، وربما لم يجدبى فى ترتدج فإنى شاخص إلى لندن حيناً ، إذ لا طاقة لى باحتمال تلك المعجوز ، ولكن كل الرسائل تحول إلى » .

فقلت : أنا لا أريد أن أمضى في عربتك أكثر من ذلك . فوقفا تحت الحرج ، وهبط دبر فيل وحملها بين ذراعيه فأثرلها ، ثم أنزل متاعها بجانبها ، وانحنى إليه انحناء بسيطة وهي تحديق في عينيه قليلا ، ثم همت أن تحمل متاعها وتعضي فقال : « أهكذا تركينى وتعصين يا عزيزتى ؟ نشدتك ! » قالت في غير مبالاة : « كما تشاء ، انظر كيف ملكت قيادى ياسيدى ! » والتفتت إليه ورفعت وجهها إلى وجهه ، ولبثت كذلك كأنها دمية رخامية حتى طبع على خدها قبلة بين الإهمال كأنها يؤدى واجبا ، وبين الإقبال كأن لهفته القديمة لم تذهب بعد ، وكانت عيناها مرسلتين إلى الأشجار البعيدة ، كأنها لا تلمى ما يصنع .

قال : « والآن على الجانب الآخر بحق الود القديم » ، فادارت وجهها بنفس الاستسلام ، كما يدير الإنسان وجهه إجابة لطلب المصور أو الحلاق ، وقبل الخلد الآخر ، فلمست شفتاه جلدًا ناعماً رطباً بارداً كعبدان البوص النامية حولها في الحقول ، ثم قال : « أنت لا تنيلينى فك ولا تبادلينى تقبيلًا بتقبيل ، أنت لا تفعلين ذلك راضية أبداً ، أنت لن تحبينى أبداً على ما أرى » ، قالت : « ذلك ما قلته مراراً وهو الحق ، أنا لم أحبك قط حبا صادقا ولا أخالنى أفعل ذلك يوما » ثم أضافت في رنة حزينة : « لعل أكذوبة واحدة أفترىها في هذا الأمر الآن تنفعنى مالا ينفعنى شيء آخر ، ولكن ما بقى في نفسى من الشرف على قلته بمنعنى أن أفعل ، ولو أحبتك لكان أولى لى أن أخبرك ، ولارتقت كل الخير من إخبارك بذلك ، ولكنى لا أحبك » .

فزفر كأن الموقف قد ثقلت وطأته على قلبه ، أو على ضميره . أو على كبريائه ، وقال : « أنت تغالين في التشاؤم ياتس ، وليس من سبب يدعونى إلى تمليقك الآن ولكن تيق أن لاداعى لهذا الحزن كله ، إنك لتزرين جمالا بكل امرأة في هذه الربوع نبيلة كانت أو وضيفة ، أقول هذا لك قول رجل عملى يرجو لك الخير ، فإذا كنت حكيمة أظهرت هذا الجمال للعالم قبل ذبوله . . . ومع هذا كله ألا تمودين مى ياتس ؟ قسا لى لا أكره أن أدعك تذهبين على هذا الوجه ! » قالت : « أبداً !

أبداء ! لقد أزمعت أمري بعد أن رأيت ما كان يجدر بي أن أراه من قبل ،  
لن أعود » ، قال : « إذن وداعا يا من كنت ابنة عمي أربعة أشهر » .

وعاد إلى مجلسه بخفة وأصلح العنان ، وسرعان ما غاب في الأشجار ، ولم ترسل  
تس بصرها خلفه ، بل انعطفت توا في الطريق الضيقة المتعطفة ، وكان الوقت  
ما يزال مبكرا ، ورغم أن الشمس كانت قد ارتفعت عن الجبال ، فإن أشعتها  
الضئيلة الفاترة كانت ما تزال تدرك بالعين دون الحس ، وكان الطريق مقفرا ،  
ولاح لها أن اكتوبر الحزين ، وهي نفسها — وهي أشد حزنا — هما وحدهما  
اللذان يعبران ذلك المر .

على أنها ما لبثت أن سمعت خطي رجل وراءها ، ولسرعة مشيته لحق بها  
وحياها قبل أن تشعر بدنوه ، وكان يبدو عليه أنه بعض أصحاب الحرف ، وكان  
يحمل في يده وعاء فيه طلاء أحمر ، واستأذنها بلهجة الجد في أن يحمل عنها السلة  
فأذنت له وسارا معا ، وقال في جوار : « هذا وقت مبكر في صبيحة يوم الأحد »  
قالت : « نعم » ، قال : « وأكثر الناس يرتاحون الساعة من عملهم الأسبوعي »  
فوافقت على هذا أيضا ، قال : « أما أنا فعملى اليوم أهم من كل ما أعمل طوال  
الأسبوع » ، قالت : « أحقا ؟ » قال : « أنا طوال الأسبوع أعمل لرضا الإنسان  
واليوم أعمل لرضا الله ، أليس هذا أهم من ذلك ؟ وعلى عمل أؤديه هنا عند هذا  
المدخل » .

والثفت إلى فرجة في جانب الطريق مفضية إلى المراعى وقال : « أرجوك أن  
تنتظريني وهلة ولن أبطئ » ، وكانت سلتها في يده فلم يسمها إلا الانتظار .  
ووضع سلتها والوعاء الصفيحي ، وأثار الطلاء بفرجونه ، وراح يرسم حروفا كبيرة  
مربعة على وسطى الموارض الخشبية التي تكوّن المدخل ، واضمأ شولة بعد كل  
كلمة ، كأنما يبنى للقارى أن يتمهل حتى تنفذ كل كلمة في فؤاده ، حتى فرغ  
من هذه الآية من الإنجيل : « إن ، عقابك ، ما يزال ، ينتظرك » .

وسطمت هذه الكلمات الجراء وسط النظر الطبيعي الهادئ ، وألوان الأشجار

الشاحبة الحائلة ، وزرقة الأفق وزرقة عوارض المدخل المتأكلة ، وبدت كأنها تنطق بنفسها في صوت عال يدوي به الفضاء ؛ وربما سخر بعض الناس من تلك العقائد البالية التي أدت غرض الإنسان في أيامها ثم غبر عهدها ، ولكن هذه الكلمات اخترمت نفس تس مدخلة عليها شعوراً فظيماً بالخطيئة ، وخيل إليها أن هذا الرجل واقف على قصة حياتها الحديثة ، مع أنه كان غريباً لا يعرفها بتاتا ، ولما انتهى التقط سلتها وواصل سيرهما وهي ما تزال مأخوذة .

قالت في صوت مضمض : « أتؤمن بما تكتب ؟ » ، قال : « بذلك النص ؟ إيمانى بوجودى ! » قالت : « فإن لم تكن خطيئة الرء من صنعه ؟ » ، قال وهو يهز رأسه : « لا أستطيع الإفتاء في هذا الموضوع المشكل ، لقد ذرعت مئات الأميال في الصيف الفائت ، أرسم هذه النصوص على كل حائط وبوابة ومدخل حقل في طول الإقليم وعرضه ، أما تطبيقها فأتركه لقارئها » ، قالت : « أنا أعدتها نصوصاً فظيعة ، ساحقة ، مهلكة ! » ، قال في صوت رزين : « هذا هو المراد منها ! ليتك قرأت أشد نصوصى حرارة ، وهي التي أخص بها مساكن السفلة والثغور البحرية ! إنك لو قرأتها لتلوت ألساً ! أما هذا فنص ملائم للأقاليم الزراعية ؛ ها ! ذاك حائط غفل بجانب ذلك البيدر ، فلأنتش عليه نصاً يصلح للشواب المغريات مثيلتك ، هل لك في انتظارى ؟ » .

قالت : « لا » وأخذت سلتها وانطلقت ، وبعد قليل التفتت فرأت الحائط قد بدأ يعلن حروفاً نارية مشابهة للأولى ، غريبة المنظر عليها سياء الكراهية ، كأنما أحزنها أنها تراد على أداء عمل لم تألفه ، واحمر وجهه تس فجأة حين قرأت ما كتب وأدركت بقية الجملة التي لم يفرغ منها بعد : « ولا تقربوا . . . » .

ورآها صاحبها المرح تنظر ، فأوقف فرجونه وصاح : « إذا طلبت المشورة في هذه المسائل الخطيرة ، فإن رجلاً ورعاً عالمنا سيعطى اليوم في الأبرشية التي أنت شاخصة إليها ، واسمه مستر كبير من امنستر ، أنا لا أدين بمذهبه الآن ، ولكنه رجل صالح يخطب كأبلغ خطيب أعرفه ، وهو الذي أثار بنفسى ما بها اليوم » ،

ولكن تس لم تجب ، بل تابعت سيرها وقلبها يدق وعيناها إلى الأرض ، ولما غاض احمرار وجهها تتممت : « هيهات ! ما أحسب الله قد قال هذه الأشياء ! » .  
وتصاعد خيط من الدخان من بيت أبيها ، فانقبضت نفسها لمراءه ، ولما بلغت الدار ورأت ما بداخلها ازدادت غما وانقباضاً : كانت أمها قد نزلت من الطابق الأعلى منذ هنيهة ، وكانت توقد حطباً تحت الوعاء المحتوى على الفطور ، فشت إلى ابنتها بحية ، وكان أبوها والصبية ما يزالون في الطابق العلوى ، وكان أبوها يمنع نفسه حق التأخر في الفراش نصف ساعة صباح الأحد ؛ وقالت أمها وهي تقبلها في دهشة : « يا لله ! عزيزتى تس ! كيف أنت ؟ لقد فاجأتنى من حيث لا أشعر ! أأنت عائدة إلينا من أجل الزواج ؟ » قالت : « لا ، لم أعد من أجل ذلك يا أمى »  
قالت : « فى عطلة إذن ؟ » قالت : « نعم فى عطلة ، فى عطلة طويلة » ، قالت : « كيف ؟ ألا ينوى ابن عمك أن يصنع الصنيع المرجو ؟ » قالت : « ليس بابن عمى ولن يتزوجنى » .

تحدثت فيها أمها وقالت : « تعالى خبرينى بكل ما هنالك » ، فسارت إليها تس ووضعت وجهها على عنق أمها وأخبرتها ، فقالت أمها : « ولم تحمله على زواجك بعد هذا ؟ لقد كان فى وسع أية امرأة أن تحمله على الزواج بعد هذا ! »  
قالت : « ربما كان ذلك صحيحاً » ، قالت أمها وكادت تنفجر باكياً من فرط الغيظ : « لو استطعت ذلك لعدت إلينا بقصة عجاب ؛ من كان يظن أن الأمر ينتهى إلى هذا بعد كل تلك الأحاديث التى كانت تأتينا عنكما ؟ هلا فكرت فى عمل شئ نافع لأسرتك بدل التفكير فى نفسك فقط ؟ أنظرى كيف أجندى مضطرة إلى العمل للتواصل كالأمة ، وانظرى إلى أليك المسكين وقد أكل الداء حشاشته ؛ لقد كنت وطيدة الأمل فى نتيجة هذا الأمر ! ما كان أجلكما يوم انطلقتما فى العربية سوياً منذ أربعة شهور ! أنظرى ماذا أهدى إلينا ، وكنا نمزوكل هذه الهدايا إلى صلة الرحم ، أما إذ لم نكن أقباءه فلا بد أن الدافع كان شغفه بك ، ومع ذلك لم تحمله على زواجك ! » .

آتحمّل ألك دربرفيل على زواجها ؟ زواجها هى نفسها ؟ ! إنه لم يذكر الزواج مرة واحدة ، وهبه فعل ! لم تكن تس على يقين أن حرصها على سمعتها يدفعها إلى القبول ؟ أما أمها المسكينة فلم تكن تدرى شعور تس نحوه ، ولعل ذلك الشعور كان غريباً فى مثل تلك الظروف ، ولعله كان من سوء الحظ أن تحمل ذلك الشعور ، ولكن تلك كانت الحقيقة ، وكان ذلك — كما قالت تس من قبل — سبب حقتها على نفسها .

هى لم تحيه يوماً من الأيام حباً خالصاً ، ولم تك تحمل له اليوم حباً ما ، إنما كانت ترهبه وتجنفل منه ، وقد استغل عجزها وقلة ناصرها أمامه أمر استغلال ، حتى وقعت فى يده ، وأغماها برهة ما كان يبدى نحوها من مجاملة وحرارة شعور ثم ارتدت بشتة محتقرة وتعافه ، وولت منه فراراً — هذا كل ما هنالك ؟ ولم تكن تكن تكرهه حق الكراهية ، إنما كان أهون عليها من التراب الساقى ، ولم تكن تحب أن تزوجه حتى لا تقاذ اسمها .

قالت أمها : « كان ينبغي أن تكونى أحرص ما دمت لم تريدى حمله على اتخاذك حليمة ! » قالت الفتاة وقد بلغ منها المص وكاد قلبها يتفطر : « أماء ! رحماك يا أماء ! كيف ينتظر من مثلى أن تعرف ؟ لقد كنت طفلة يوم غادرت هذه الدار منذ أربعة أشهر ، فلماذا لم تنبهينى إلى ما فى جنس الذكور من خطر ؟ لماذا لم تحذرينى ؟ إن بنات الأثرياء ليعرفن موطن الخطر الذى يتق ، لأنهن يقرأن القصص التى تبصرهن بتلك الفخاخ ، أما أنا فلم يتح لى مثل ذلك التلميم ، ولم تساعدننى ، أنت . » ففترت سورة أمها وقالت : « كنت أخشى إن نهيتك إلى هيامه بك وما قد يجبر إليه ، أن تهيبه وتحاميه فتضيع عليك فرصتك » ، ومسحت عينها بميدعها وقالت : « على كل حال ليس لنا إلا أن نقبل الأمر على علانه ، فما هى إلا سنة الطبيعة وإرادة الله . »

١٣

ذاع خبر عودة تس من قصر أقرانها الموهومين — إن لم يكن من الإصراف  
قولنا : « ذاع » حين نتحدث عن ميل مربع واحد — وزار تس بعد الظهر  
رهط من فتيات مارلت من صوحيباتها وزميلاتها في الدراسة ، يرتدين أنفوشيابهن  
مكوية منشأة ، كما يخلق بزائرات فتاة قد كللت بالظفر والمكينة الاجتماعية — وكان  
ذلك ظنهن — وجلسن حولها يرمقنها بنظرات الاستطلاع ، فقد كانت شهرة  
قربها المزعوم وابن عمها الحادى والثلاثين مستر دربرفيل الذى شغف بها حبا ،  
قد بدأت تنتشر خارج ترتدرج ، وعرف عنه أنه شاب خلاب جرى محط  
لقلوب العذارى ، فخلع ذلك على مكانة تس الموهومة روعة وجاذبية ، لم تكن لتتألمها  
لو كانت مكانتها أبعد عن مواطن الخطر .

واشتد اهتمامهن وتعجبهن ، حتى همست إحداهن وقد اشتغلت عنهن تس :  
« ما أملحها وما أملح ذلك الثوب على جسدها ! لابد أنه هدية منه تكلفت ثمنها  
غاليا » ، وكانت تس تحضر آنية الشاي من دولاب فى ركن الغرفة ، فلم تسمع  
ما قيل . ولو سمعته لبددت وهم صواحبها ، أما أمها فسمعت ، وكان غرورها  
الأحمق قد حرم التعلل بأمل زواج عاجل ، فراحت تتعلل ما استطاعت بما شاع  
من أمر الغرام ، فسررها ما سمعت ، رغم أن ذلك النصر المحدود الوشيك الذهب قد  
دُفِعَ ثمنه غاليا من مكانة ابنتها الاجتماعية ، وكان ما يزال يساور المرأة أمل زواج  
الشاب بابنتها ، ودعتها حرارة اغتباطها بإعجابهن إلى دعوتهن للبقاء حتى  
يتناولن الشاي .

وأنفشت ثرثرتهن وضحكتهن وتليحاتهن الحسنة المقاصد ، ولا سيما لمحات  
الحسد التى تراءت بينهن ، روح تس أيضا ، وتعمر النساء ، وقد سرت إليها  
عدوى جهورهن ، وزايل عيائها وجوم التماثيل التى كان يرين عليه ، وبدأت تروح

وتنفذ في خطواتها المرحية المستوفزة القديمة ، وبدأت في أبداع فنتها ، وكان يذهب بها أحيانا فتجيب أسئلتهن بلهجة الترفع ، كأنها تشعر أن تجاربها في عالم الغزل جديرة بالحسد ، ولكنها لم تكن قط كما يقول روبرت ساوث « متممة بدمارها » فسرعان ما كان يزايها ذلك الوهم كلعج البرق ، ويمادها المنطق المتحجر ساخرا من ضعفها القصير المدى وتنجم أمامها بشاعة ذلك الغرور المؤقت ، فترد إلى مظهر السكون وعدم المبالاة .

وتلا ذلك في فجر اليوم التالي قنوط مطبق ، حين مضى يوم الأحد الذي تُرْتَدَى فيه أحسن الثياب ، وأعقبه يوم الاثنين ، وقد غابت الزائرات الطروبات ، وأفاقت وحدها في فراشها القديم ، وما يزال إخوتها الصغار البراءة يتنفسون حولها في سكون ، ورأت أمام ناظرها مكان الجبور والبهجة والاهتمام الذي أنارته عودتها ، طريقا طويلا وعمر المرتق عليها أن تتوكل فيه بلا معين ، ولا عاطف مؤاس ، ففدحها الخطب وودت لو تدفن نفسها حية .

ومرت أسابيع ، واستردت تس نشاطها حتى صارت تظهر للناس صبيحة كل أحد ، حين ينبغي الذهاب إلى الكنيسة ، وكانت تحب الإصغاء إلى النشيد الكنسي على علاقته وإلى الزامير ، وتحب المشاركة في « ترتيلة الصباح » ، وكانت قد ورثت ذلك الحب الدفين للموسيقى عن أمها التي كانت لا تمل ترديد الأغاني الشعبية ، وكان ذلك الحب يمكن لأبسط الألحان من نفسها حتى ليكاد يخلع قلبها من صدرها أحيانا ؛ وكانت لأسباب تتجنب عيون الناس ما استطاعت وتتحاشى مجاملات الشبان ، ولهذا كانت تخرج قبل ابتداء قرع النواقيس ، وتتخذ مجلسها في المؤخرة تحت الشرفات ، بجانب الآلات والمهملات ونمش الكنيسة ، حيث لم يكن يجلس إلا الكهول والعجائز .

وكان أبناء الأبرشية يدخلون بعد ذلك مثنى وثلاث ، ويجلسون في صفوف ويسجدون وهلة كأنهم يصلون وما هم بمصلين ، ثم يرفعون رؤوسهم ويجولون بأبصارهم . فلما بدأ الإنشاد سرها أن تسمع لحن لنجدون ، أحب الألحان إليها



وإن لم تعرف اسمه ، وكانت تود كل الود لو عرفته ، وكانت تمجّب في نفسها من براعة الملحن الإلهية الغريبة ، إذ يستطيع من قبره أن يثير في فتاة مثلها عواطف شعر بها هو أول مرة ، وهي التي لم تسمع باسمه ، ولن تهتدى يوما إلى شخصيته ؛ وبدأت الصلاة ، وعاد الرجال الذين كانوا يدورون بأبصارهم فنظروا إلى الأمام ، وبعد حين لحظها بعضهم فجعلوا يتهايمسون ، وعرفت موضوع تهامسهم ، واشتد لذلك غمها ، وودت لو تستطيع الانقطاع عن الكنيسة .

وصارت تلتزم بخدعها الذي تشارك فيه بعض إخوتها ، ومن تحت سقفه الصغير المصنوع من الكلا ، كانت ترسل بصرها ترأب الرياح والتلوج والأمطار وغروب الشمس في لآلئها وتتابع البدور ، وبلغ من اعتكافها أن ظن بعض الناس أنها ارتحلت ؛ وكانت لا تنهض للرياضة إلا بعد هبوط الظلام . وفي الغابات كانت تشعر أقل ما تشعر بالوحدة ، وكانت تميز أدق التميز تلك اللحظة في المساء ، التي فيها يتعادل الضوء والظلام ، ويتداخل النهار والليل ، ويتركان العقل في طلاقة تامة ، وفي تلك اللحظة تتضاءل أمامها مأساة الحياة إلى أضال ما ترى ، ولم تكن تس تهرب الظلام ، وإنما كان ههما منصرفا إلى تجنب الأنام ، ذلك المجموع البغيض المسمى بالبشر ، الذي يبدو هائلا في كله ، حقيرا مستحقا للرثاء إذا نظرت إلى كل وحدة من وحدته .

وكانت خطرتها الهادئة بين تلك النجود والوهاد الوحشة ، مماثلة للعناصر التي تتحرك فيها ، وأصبح شخصها الدالف المتعطف جزءا من المنظر المحيط متما له ؛ وكان خيالها الجلوح يبالغ في تصور مظاهر الطبيعة التجلية حولها ، حتى تلوح كأنها أجزاء من قصة حياتها ، بل أصبحت فعلا أجزاء من حياتها ، فإنما الحياة ظاهرة سيكلوجية ، وما دامت تلك الأشياء تلوح كذلك فهي كذلك ، فكانت تس تتمثل في خفقات الرياح في منتصف الليل وهي تتناوح بين لحاء أغصان الشتاء وبراعمها المحسكة الأكام ، ظواهر تقريع مرير ، وكان اليوم المطير دليل حزن على ضعفها ، دائم مقيم في نفس كأن سام لم يكن يخيل إليها أنه هو إليه

طفولتها ، ولم تكن تدرى مَنْ هو  
ولكن شد ما خدع تس وهمُّها وعذبها ، حين خلق حولها هذا العالم  
المؤلف من أطوار التقاليد ، المأهول بالأشباح والأصوات المعادية لها ، وشخص  
الفضيلة الساخطة عليها ، وروعت نفسها بكل ذلك بغير داع : فلقد كانت تلك  
الأخيلة — لا تس نفسها — هي المناقضة لسنة الطبيعة ، وكانت وهي تسير بين  
المصافير الناعمة في وكنائنها ، أو ترقب الأرانب المستبقة حول أحجارها في ليلة  
قراء ، أو تقف تحت غصن عميل بالأطيار ، تعد نفسها شخص الجريمة يتطفل في  
مغانى الطهارة ، ولكنها بذلك كانت تقيم الفروق حيث لا فروق ، وتعد نفسها  
شاذة وهي جزء من القاعدة ؛ لقد أرغمت على خرق قانون اجتماعي ، لا قانون  
معترف به في ذلك الوسط الذي تعد نفسها بدعة فيه .

١٤

أشرقت شمس أغسطس وسط الضباب ، وهجمت أشعتها الحارة على أبخرة الليل الكثيفة ، فتضاءلت وتقسمت مرقاً كقطع الفرو لائذة بأطراف الوديان والأحراج ، تنتظر حتى تجف وتتلاشى ، وقد بدت الشمس من خلال ذلك الضباب كأنها روح عجيب نافذ النظرة ، فكان مظهرها ذاك مضافاً إلى إقفار المكان من بنى الإنسان ، يوحى بالسرى في عبادة الأقدمين لها ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن البشر لم يدينوا بدين أصح من عبادتها : فقد كان ذلك الكوكب الساطع يلوح كأنه مخلوق سمح الوجه ذهبي الشعر رقيق النظرة إلى الطلعة ، يطل في فتوة الشباب وعزمته على أرض تفيض حباً له وتظلماً إليه .

وبعد قليل نفذ ضياء الشمس من ثقب مصاريع المساكن ، وامتد في خطوط كأنها الأسياخ المتوهجة بالحرارة على الدواليب والصوانات وغيرها من الأثاث ، ونبه الحاصدين الذين لم يستيقظوا بعد ، وبدت الأشياء حمراء لامعة في ذلك الصباح ، وكان أشدها لمعاناً ذراعان خشيتان عريضتان مطليتان ، ترتفعان من جانب حقل قمح أصفر على كثب من قرية مارلت ، وكانت هاتان الذراعان ، وأخريان دونهما ، تؤلف جميعها الصليب المفرطح الدوار في آلة حصاد ، قد استحضرت إلى الحقل البارحة استعداداً لعمل اليوم ، وقد زاد شعاع الشمس طلاء الذراعين الظاهرتين انقداً حتى لاحتا كأنهما غمستا في نار سائلة .

وكان الحقل قد « افتتح » : أى شُق باليد حول محيطه طريق عرضه بضعة أقدام وسط القمح ، لتمر فيه الخيول والعربة أول مرة ، وظهر في المشى جمان أحدهما مؤلف من الرجال والغلمان ، والآخر من النساء ، وقد سقطت ظلال الوشيع الشرقى على منتصف الوشيع الغربى ، فكانت رؤوس الجمعيين تتمتع بشروق الشمس . وأقدامهم ماتزال في الفجر ، ثم غادروا المشى مارين بين الممودين

الحجرين القاعين عن جانبي أقرب بوابة ، وسرعان ما تصاعدت من الداخل طقطقة كقطقة الجنادب في موسم لقاحها ، وبدأت الآلة تتحرك ، وظهرت من فوق البوابة ثلاثة خيول مقرونة بعضها إلى بعض ، وتلك الآلة العتيقة سالفة الذكر ، وقد جلس سائق فوق الخيول المجتهدة في الجبر ، وجلس شخص آخر في مقعد الآلة ، وتقدم الموكب على جانبي الحقل وذراعا الآلة تدوران في ببطء ، حتى غابت وراء التل ، وبعد قليل تعالت على الجانب الآخر من الحقل بنفس السرعة ، وكان أول ما لاح منها النجم النحاسي اللامع في جبين الحصان المتقدم ، ثم الذراعان اللامعتان ، ثم بقية الآلة .

وكما دارت الآلة اتسع المشى وغطى بالعيدان المجذوة ، وتضاءلت مساحة سيقان القمح القاعة بمرور الوقت ، وتقهرت الأرانب والثعابين والفيران والجردان إلى الداخل كأنما تأوى إلى حصن ، غير دارية بقصر مدة ملجئها وبالنهاية التي تنتظرها بعد قليل ، وتضال مأواها حتى ضاق بها ، وتكدست فيه بين أعداء وأصدقاء ، حتى سقطت آخر عيدان القمح تحت أسنان الآلة الماضية ، وعندها أنحى الحُصَّاد على تلك المخلوقات بالمصي والأحجار حتى أفنوها عن آخرها .

تركت الآلة الحاصدة المحصول وراءها في أكوام صغيرة ، كل كومة منها تصلح لأن تكون حزمة ، وعليها أكب الحاصدون بأيديهم ، وكان معظمهم من النساء ، وكان الرجال يرتدون قمصاناً وسراويلات تجتمعها حول أوساطهم أحزمة من الجلد ، فلم يبق للزرين الخلفيين من كل سراويل فائدة إلا أن يلتصقا في ضوء الشمس كلما تحرك لابس السراويل ، كأنهما عينا في وسط ظهره ، أما بنات الجنس الآخر فكان أمم شائناً وأمتع منظرأ ، شأن المرأة حين تندمج في مظاهر الطبيعة بدل أن تظهر بينها مجرد ظهور ، كما هي الحال غالباً ، فالرجل في الحقل يبدو شخصية قائمة فيه ، أما المرأة فتبدو جزءاً منه ، قد فقدت استقلال شخصيتها وتشربت روح النظر المحيط بها ، ومزجت نفسها به .

وكان النساء — أو بالأحرى الفتيات ، فقد كان معظمهن صغاراً — يرتدين

قلنسوات من القطن ذوات أهداب فضفاضة تحجب الشمس ؛ وقفازات تحمى أيديهن من شفرات السيقان المجدوذة ، وكانت إحداهن تلبس سترة ذات لون قرنفلى شاحب ، وأخرى ترتدى جلبابا ضيق الأكمام لبني اللون ، وثالثة ترتدى قميصا فى احمرار أذرع الآلة الحاصدة ، وكانت أخريات أسن من أولئك يرتدين الثوب السايغ الخشن الرمادى التقليدى ، الذى هو أصلح الأثواب للعمل فى الحقل ، وإن كانت الفتيات الناشئات قد أخذن يهجرنه .

وفى هذا الصباح كانت العين ترتد عفوا إلى الفتاة ذات السترة القرنفلية الشاحبة ، إذ كانت أعدل الجميع قدا ، وألينهن مهزا ؛ ولكنها كانت قد شدت قلنسوتها على جبينها حتى لم يعد يرى شئ من وجهها حين تنحنى ، وإن كان من الممكن التنبؤ بلون وجهها بالنظر إلى خصلات من شعرها الأسود الرمادى ممتدة من تحت حافة قلنسوتها ، ولعل من أسباب طموح العين إليها أنها لا تحاول اجتذابها ، وإن تلفتت الأخريات حولهن من حين إلى آخر .

وظلت تنحنى وتقوم فى حركة رتيبة كسير الساعة ، تستخرج من آخر كومة هيئت ملء يمتاها من السنابل ، وتضرب قمعا براحتها لتسوى رؤوسها ، ثم تنحنى مليا ، وتتقدم ضامة العيدان بكتلتا يديها إلى ركبتيها ، وتدفع يراها ذات القفاز تحت الحزمة لتقابل اليمنى على الجانب الآخر ، معانقة القمح معانقة الحب ، وتجمع أطراف الحزمة وتجلس عليها وهى تربطها ، وتدفع أذيلها إلى أسفل كلما عبث بها النسيم ، وكان جزء من ذراعها يبدو عاريا بين جلد القفاز الخشن وبين كمها ناعما رقيقا ، وكلما تقدم النهار ارتسعت عليه الخدوش وبض منه الدم ؛ وكانت تعتدل قائمة من حين إلى آخر لتسترخ وتصلح من مبدعها وقلنسوتها ، وعندها يرى الناظر وجه فتاة مليحة يضاويا ذا عيتين سوداوين تحف به خصلات من الشعر الأسود سبطة تملق بكل شئ تقع عليه ، وكان خداهما أشد شحوبا ، وشفتاهما الجراوان أرق وأسنانها أكثر تناسقا مما يشاهد فى بنات الريف .

تلك كانت تس دريفيلد أودربرفيل ، قد تنيرت قليلا ، تعيش فى هذه المرحلة

من حياتها كالغريبة في هذه الأرض ، وإن لم تكن في أرض الغربة ، فقد عولت بعد اعتزال طويل على أن تشارك في العمل في حقول قريبها ، وكان قد حل أحفل المواسم بالعمل ، ولم يكن في الدار عمل تعمله هو أعود بالريح من الحصاد في الحقول .

وكانت حركات الأخريات مقاربة لحركات تس ، فكان إذا فرغت كل واحدة من حزمها تقاربن تقارب الراقصات في رقصة جمعية ، ووضعت كل حزمها مسندة إلى حزم الأخريات ، حتى يتكون من كل عشر حزمات أو ثنتي عشرة كوم ، وذهبن فأفطرن ثم عدن ، ولما اقتربت الساعة الحادية عشرة كان من اليسير على من يراقب تس من أم أن يرى أنها ترفع مقلتها في حزن من آن إلى آخر نحوه التل ، وإن لم تتوقف عن عملها ، ولما حلت تلك الساعة بدا على الحقل المغطى بالحصيد رهط من الصبيان المتراوحين سنا بين السادسة والرابعة عشرة ، وعندها احمر وجهها قليلا ومع ذلك تابعت عملها .

وكانت كبرى الجمع القبل بنتاً ترتدى شالا مثلثا يتجرجر طرفه على الميدان ، وكانت تحمل في ذراعها شيئا بدا أولا كأنه عروس لها ، ثم تبين أخيرا أنه رضيع في أثواب فضفاضة ، وكان صبي منهم يحمل طعاما ؛ وكف الحاصدون عن العمل ومالوا إلى طعامهم وجلسوا بجانب أحد الأكوام ، وانكبوا على الأكل وانهمك الرجال في است فراغ دن وأجالوا القدح فيما بينهم ، وكانت تس دريفيلد من أواخر من أمسكوا عن العمل ، وجلست عند طرف الكوم مشيخة بوجهها قليلا عن رفاقها ، ولما جلست حمل القدح رجل ذو قبعة مصنوعة من جلد أرنب ومنديل أحمر معلق بحزامه ، ومدته من فوق الكوم إلى تس لتشرب فأبت ، وحالما بسط غذاؤها أمامها دعت كبرى أخواتها وحملت عنها الطفل ، ففرحت البنت بخلصها من عبثها وانطلقت تلعب مع بقية الصغار عند كوم آخر ، وفكت تس جيب جلبابها بسرعة عجبية ولكن في جأش رابط ، وبدأت ترضع الطفل وقد احمر وجهها .

وتأدب الرجال القرييون منها فأداروا وجوههم إلى الجانب الآخر من الحقل

وبدا بعضهم يدخن ، وراح أحدهم وهو غائب الدهن ساهم النظرة يربت الدن الذى غاض معينه ، وانهمك النساء جميعاً ما عدا تس فى الحديث ، ورحن يصلحن من غداثرهن ؛ ولما امتلأ الطفل أجلسه أمه الشابة فى حجرها ، وشخصت يبصرها إلى بعد وجعلت تدهده فى فتور كاد أن يكون بفضاً ، ثم أكتب عليه فجأة توسمه تقبيلاً كأنما لا تستطيع إقلاعاً ، وبكى الطفل من هجمتها التى كانت تجمع جماعاً عجيباً بين الحب والاحتقار ، وقالت ذات القميص الأحمر : « إنها لمشغوفة بذلك الطفل وإن زعمت أنها تمقته ، وأنها تود لو كانت وإياه فى بطن قبر » .

قالت أخرى : « ستكف عن ذلك الزعم عما قليل ، فإن المرء ليوطن نفسه على مثل ذلك الأمر على كرا الأيام ، حتى تألفه ألفة عجيبة » ، قالت صاحبها : « لقد كان سبب مجيء هذا الطفل إلى الوجود شيئاً آخر غير الإغراء : فقد سمع بعض السابلة فى إحدى ليالى السنة الماضية نحيباً فى غابة تشيس ، ولو عرج منهم مرج إلى ذلك الموضع لحل يعض الناس نكال شديد » ، وقالت الأخرى : « سيان إن كان الإغراء أو غيره هو السبب ، فمن المؤلم المفجع أن أصابها ذلك دون غيرها ، ولكن مثل هذا الخطب لا يصيب عادة سوى المليحة ، أما الدميئات فهن فى حرز حرز ، أليس ذلك حقاً يا (جنى) ؟ » . والتفتت إلى امرأة بين الجالسات لم تظلم إذ نسبتها إلى الدمامة .

كان الخطب مؤلماً مفاجئاً حقاً ، ولم يكن أحد يشعر بغير ذلك — حتى العدو — حين ينظر إلى تس فى جلستها تلك ، وإلى فمها المتفتح كالزهرة وعينيها الواسعتين الوادعتين ، اللتين لا هما سوداوان ولا هما رماديتان ولا بنفسجيتان ، بل تجمعان هاتيك الظلال جميعاً وغير هاتيك ، ترى جميعاً إذا حلق المرء فى مقلتيها ، إذ يرى ضوءاً خلف ضوء وظلا وراء ظل ، حول إنسانين لا قرار لهما ؛ لقد كانت مثال المرأة الكاملة لولا شبهة من غفلة موروثه عن أسلافها .

وكانت — لدهشتها هى نفسها — قد أجمعت رأيها وخرجت إلى الحقل هذا الأسبوع لأول مرة منذ شهر ، وكان ضوء الرشد قد أشرق على نفسها بعد أن

عذبت قلبها وحرقتة بنيران الندم الذى تتفنن العزلة فى إصلاء أبنائها سعيه ، وأحست أنها تحسن صنماً إذا هى عاودت العمل المثير ، لتشعر مرة أخرى بلذة الاعتماد على النفس أيا كان ثمنها ، وأحست أن الماضى قد ذهب بهتانه ولم يعد حاضراً ، وسيختم الزمان على نتائج أية كانت ، وستمضى عما قليل تلك النتائج وتعود كأن لم تكن ، ويحين حصادها هى نفسها ثم تنسى ، على حين ما تزال الأشجار خضراء كالعهد بها ، والشاهد المحيطة بها لم تحب بهجتها لحزنها ، ولا ذوت نضرتها لآلامها .

ولو درت لعلت من بادية الأمر أن فكرة احتفال العالم بحالتها الراحنة ، وهى الفكرة التى أذاقتها الهوان والمضض ، لم تكن إلا وهماً ، فإنه لم يكن هناك سواها من يمددها وجوداً أو يراها عبرة أو يعتبرها كلا من العواطف والأحاسيس ، وما كانت تس فى بال جميع الناس إلا خطرة عابرة ، حتى صواحبتها لم تكن هى فى أخلادهن إلا فكرة تتردد ، فإذا هى جرعت نفسها القصص صباح مساء لم يزدوا على قولهم : « إنها لتهرق نفسها » ، وإذا أبدت بشاشة وتناست الآلام وتملت بحاسن الضوء والأزهار وسعدت بوليدها ، لم تكن إلا هذه الخطرة فى أذهانهم : « إنها لتضطلع بخطبها » .

ثم لو أنها كانت تعيش فى جزيرة جدياء أتراها كانت تأمى لما نابها ؟ هيئات ! أو لو أنها فطرت على تلك الصورة أما بلا زواج ، كل خبرتها بالحياة أنها والددة طفل غير مسمى ، أكانت تقتط لحالتها تلك ؟ كلا ! إنها كانت تسلم بها فى هدوء ، وترى فيها منادح للسرور ؛ لقد كان أكثر آلامها راجعاً إلى نظرتها التقليدية ، لا إلى شعورها الفطرى ؛ على أنه أيا كان منطق تس ، فقد أوحى إليها أن تحتفى بلبسها كسالف عهدها وتدخل إلى الحقول ، وكانت الحاجة شديدة إذ ذاك إلى الأيدي الحاصدة ، وكان ذلك الوحي الذى أوحى إليها هو سر رباطة جأشها وكبريائها ومقابلتها نظرات الناس أحياناً فى سكون والطفل بين ذراعيها .

نهض الرجال وتغطوا وأطفأوا بيناتهم ، وكانت الخيول قد خلعت عنها شكائهم



فأعيد شدها إلى الآلة القرمزية ، وكانت تس قد ازدردت طعامها على عجل وأشارت إلى أختها فاستردت منها الرضيع ، وزرت جلبابها ولبست قفازها الجلدى ، ثم انحنت تبحر حزمة جديدة ؛ واستمر العمل على ذلك النوال إلى المساء ، وظلت تس مع الآخرين إلى الفسق ، ثم ركب الجميع عربية كبيرة عائدين ، يصحبهم القمر منداح الصفحة شاحب الوجه ، وكان قد صعد من الأرض إلى الجانب الشرق ، فكان وجهه يحكى الحالة الذهبية المحيطة بصورة قديمة العهد بالية من صور قديسي تسكانية .

وأنشأت الفتيات ينشدن الأناشيد ، ويدين عطفهن على تس واغتنباطهن لمعادتها الظهور ، وإن كان الحبث يغلبهن أحياناً فيغنين أغنية العذراء التى ذهبت إلى الغابة الخضراء الجميلة وعادت على حال متغيرة ؛ وفى الحياة من المحاسن ما يقابل المساوى ، ومن العزاء ما يهون المصاب ، فإن تكن حادثة تس قد صيرتها مثلة اجتماعية فإنها جعلتها فى عيون الكثيرات أحب شخصيات القرية وزادتها ملاطفاتهم انصرافاً عن التفكير فى نفسها ، وسرت إليها عدوى مرحهن فكادت أن تماثلهن مرحاً .

بيد أنها وقد بدأت تبرأ من أحزانها ما لبثت أن ابتليت بأحزان جديدة ، منشؤها فى هذه المرة طبيعتها الفطورية لا تقيدها بعرف اجتماعى ، فإنها علمت ساعة وصولها إلى الدار أن وليدها قد انتابه مرض شديد داهم منذ الظهيرة ؛ ولم يكن مثل هذا الأمر مستبعداً ، لما كان عليه الوليد من وهن وضآلة ، على أن النبأ صدمها ، ونسيت الأم الفتاة الإثم الاجتماعى الذى اقترفه الطفل بمجيئه إلى هذه الدنيا ، وأصبح هم فؤادها أن تستبق ذلك الإثم باستبقاء حياة الطفل ، ولكن سرعان ما بدا أن ساعة خلاص ذلك الروح رهين اللحم أقرب مما صورت لها أبشع مخاوفها ، ولما أدركت ذلك غشيتها لجة من النعم ، لم يكن كل مرجعها إلى مجرد فقد ابنها ، بل وإلى علمها بأنه لم يعمد .

كانت تس قد هوت إلى تلك الحالة النفسية التى تستقبل فيها الإحراق

مستسلمة إذا لزم إحراقها جزاء ما جنت يداها ، وكانت كسائر فتيات القرية جيدة البصر بالإنجيل ، قد وعت قصص «أحولاح» و «أحولياح» ووعت مفزاها ، ولكن الأمر اتخذ شكلا آخر حين أصبح يتعلق بابنها المميز وأدركت أنه سيموت بلا أمل في النعيم ؛ وكان موعد النوم قد حان ، ولكنها اندفعت نازلة وسألت أمن الممكن إحضار قسيس ، ولكن أباهما كان قد عاد في تلك اللحظة من معاقرته الأسبوعية في حان روليفر ، وكان شعوره بنبل محتده على أشده ، وإحساسه بالعار الذي ألحقته تس بذلك المحتد على أئمه ؛ فأعلن أنه لن يدخل في بيته قسيسا يتدخل في شؤونه في ذلك الوقت الذي يجب فيه كتمان تلك الشؤون غاية الكتمان بسبب فضيحتها ، وأقفل الباب وجعل مفتاحه في جيبه .

وأوى الجميع إلى مضاجعهم ، وحاولت تس أن تصنع صنيعهم وهي على أشد المضض ، ولكنها كانت تنبته من ساعة لأخرى ، وعند منتصف الليل وجدت الطفل ما زال في حالة سيئة ، وكان لا شك في سياق الموت ، وإن سار إليه في سكون بلا تألم ، فتململت في ضجعتها ؛ ودقت الساعة الواحدة ، تلك الساعة التي يخرج فيها الوهم عن كل حدود العقل ، وتترأى الاحتمالات المنفصلة كأنها الحقائق المتحجرة ، وتصورت تس ابنها محصوراً في أقصى أطراف جهنم الشمالية جزاء جريرته المزدوجة : عدم شرعية مولده وعدم تعميده ، وتصورت كبير الزبانية يطعنه بعود ذي ثلاث شعب ، كذلك الذي كانوا يستعملونه في إحماء الفرن يوم يخبزون ، وراحت تضيف إلى تلك الصورة تفاصيل أخرى عديدة عجبية من التعذيب يلقيها الصغار أحياناً في هذه البلاد المسيحية ، وبلغ من فعل هذه الخيالات البشعة في نفسها ، والسكون غيم على الدار ، أن بلل عرقها بجسدها واهترت أعمدة الفراش من ضربات قلبها .

واشتد تنفس الطفل صعوبة ، وازداد عناء الأم تربيحاً ، ولم يعد إيساعها إياه تقبيلاً يجديها ، ولم تعد تطيق البقاء في الفراش فراحت تذرع الغرفة في هياج ، وصاحت : « رحماك يا رحمن ! رحماك بطفلي المسكين ! صب على رأسي ما شئت

من غضبك ولكن رحمة بالولد ! » ، واستندت إلى الصوان برهة طويلة تغمغم بتوسلات مبهمة ، ثم اعتدلت قائمة وهي تقول : « آه ! لعل من المستطاع إيقاظ الوليد ! لعل الأجدد أن أفعل ! » ، وكانت تتكلم بنبرة يكاد منها وجهها يضيء الظلام المحيط بها .

وأضاءت شمعة ومشت إلى فراش ثان وثالث ، حيث كان الصغار يرقدون وجذبت منضدة الزينة حتى صارت تستطيع القيام بينها وبين الحائط ، وصبت قليلا من الماء من إبريق وأشارت إليهم أن يركعوا حولها ويجمعوا أيديهم بمضها إلى بعض وأصابعهم رأسية ، وظلوا في هيتهم تلك ، وهم مرتاعون لحالها ولم يكادوا يفيقون من سباتهم بعد ، وعيونهم تزداد تفتحاً واتساعاً ، وأخرجت الطفل من السرير — طفل الطفلة ! — وكان من الضالة والنخافة بحيث لا يكاد يبنى أن تسمى منجسته أما ، ووقفت معتدلة ، وهو على ذراعها بجانب الطست ، وحملت أختها بجانبها الكتاب المقدس مفتوحاً أمامها ، كما يحملها الكاتب في الكنيسة أمام القس ، وشرعت الفتاة تعمد ابنها .

وبدت قائمتها رائعة بطولها تملأ العين ، وهي مائلة في جلاب نومها الطويل الأبيض ، وقد استرسلت على ظهرها إلى خصرها ضفيرة سوداء أنيثة ، وقد رفق ضوء الشمعة الضئيل بجسمها وملاحمها ، فلم يظهر عيوبها التي كان ضوء الشمس يظهرها ، من خدوش عيدان القمح على معصمها وتور عينها ، وقد بدا أثر حماسها لما هي فيه على وجهها الذي كان سبب بلواها ، فزاده جمالا وكساء عظيمة كعظمة الملكات ، وكان الصغار راكمين حولها وعيونهم مرتقة بالكري حمراء مختلجة الجفون ، يرقبون أعمالها بدهشة ساكنة ، يمنعا تفرأ أوصالهم أن ترد دهشة صاحبة متحركة .

قالت أشد الصبية دهشة : « أحقا ستمدينه ياتس ؟ » فأجابت الأم الفتاة في وقار أن نعم ، قالت : « وما يكون اسمه ؟ » ولم تكن تس قد فكرت في ذلك ، ولكن خطر لها ، وهي ماضية في مراسيم العمد ، اسم وارد في بعض عبارات سفر

التكوين ، فنطقت به قائلة : « أعمدك يا ندم باسم الأب والابن وروح القدس » ورشت الماء وساد السكون ، ثم قالت : « قولوا آمين » ، فأطاعت الأصوات الصغيرة وانطلقت معا تقول : « آمين ! » واستطردت تس : « . . نحن نستقبل هذا الطفل . . . » إلى أن قالت : « ونسمه بعلامة الصليب » ، وعند ذلك غمست يدها في الطست ورسمت في حماسة صليبا كبيرا على الطفل بسبابتها ، ومضت تتلو العبارات المألوفة ، من كفاحه الإثم والدنيا والشيطان ، وصيرورته مجاهدا أميناً وخادماً إلى منتهى حياته ، حتى بلغت أنشودة الرب ، والصبية يرددونها خلفها بأصوات ضئيلة رتيبة كأصوات البموض ، حتى بلغوا الخاتمة فرفعوا أصواتهم عما كين صوت كاتب الكنيسة قائلين : « آمين ! » ثم لاذوا بالصمت .

ثم انطلقت أختهم وهي وطيدة الثقة بصحة هذه الشعائر تتلو آيات الحمد التي تعقبها ، ساكبة إياها من صميم قواها ، متفوهة بها في جراءة ونشوة ظفر ، بتلك النغمة المشجية التي كانت ترين على صوتها حين تتكلم من جماع روحها ، والتي لن ينساعا من عرفوها ، وقد كادت لحرارة إيمانها ترتد إلى آفة ، وتوهج وجهها نوراً وعلت كلا خديها نقطة حمراء ، وبرق ضوء الشمعة الضئيل في حدقتها كالساق ، وجعل الصبية يتطلعون إليها وهم يزدادون لها تبجيلا ، ولم تعد بهم رغبة في مساءلتها في شيء ، ولم يعودوا يرون فيها سسى المعهودة ، بل كائنا هائلا رائعا ساميا ، وشخصية إلهية لا يماثلونها هم في شيء .

وقدر لحمة « ندم » المسكين أن تكون قصيرة المدى قليلة الحظ من المجد ؛ ولعل ذلك كان من حسن حظه وقد بدأ الحياة على نحو ما بدأ ، فلفظ ذلك الجندي الضعيف نفسه الأخير عند بزوغ الفجر ، ولما هب الصبية الباكون أجهشوا بالبكاء وضرعوا إلى سسى أن تتخذ ولداً آخر جيلا ؛ ولما لم تس هدوؤها الذي نزل عليها منذ تعميدها الطفل ، ولما أشرق عليها النهار رأت أن خوفها على روحه أثناء الليل كان مبالغاً فيه ، وسواء أصابت التعليل أم أخطأت فإنها لم تعد تأسى على شيء ، محدثة نفسها بأنه إذا لم تقبل منها محاولتها لتقريب الطفل إلى العناية

السموية ، فإنها لن تندم على فقدها — هي وابنها — جنة يذادان عنها مثل ذلك الفرق البسيط .

وهكذا مضى « ندم » غير المرغوب فيه ، المخلوق المتطفل والمهبة الحفيرة التي مسخت بها الطبيعة الفاجرة التي لا ترى العرف الاجتماعي ، والطريد الذي لم يعرف من الزمن السرمدي إلا أياماً معدودات ولم يسمع بوجود الأعوام والقرون ، وكان داخل الدار له هو الكون ، وتقلبات الأسبوع الجوية هي المناخ ، وعهد الرضاع هو الوجود الإنساني ، وعزلة امتصاص الثدي هي المعرفة البشرية كلها .

وأطالت تس التفكير في أمر ذلك التعميد ، وساءلت نفسها : أكاف هو لدفن الطفل في مدافن المؤمنين ، ولم يكن ليفتيها في ذلك إلا القس ، وكان حديث القدوم إلى القرية فهو لا يعرفها ، فذهبت إلى داره ذات مساء ، ووقفت ببابه لا تجرؤ على الدخول ، وكادت تقلع عما اتت لولا صادفته آيياً إلى منزله ، ولم تر بأساً في الصراحة تحت لثام الظلام ، فقالت : « لي إليك سؤال ياسيدي » ، فأعارها سمعه فقصت عليه خبر مرض الطفل وقيامها بتعميده ، وأضافت في لهفة : « والآن ياسيدي خبرني : أيقوم هذا مقام تعميدك إياه ؟ » ووجد الرجل نفسه في موقف الصانع الذي يرى عملاء قد أدوا لأنفسهم في غير مهارة عملاً كان ينبغي أن يستدعي هو للقيام به ، قال إلى الإجابة سلباً ، بيد أن سياء النبل المرتسمة على وجه الفتاة والنبرة الرقيقة الغريبة المتجلية في صوتها ، تضافرتا على إثارة عواطفه الشريفة ، أو بالأحرى ما بقي له من تلك العواطف بعد محاولته مدى عشر سنين أن يغرس الإيمان المصطنع فوق الشك الحقيقي .

واعترك الرجل والحبر في نفسه حتى انتصر الأول ، قال : « نعم يا بني ، يقوم مقامه ، ليس هناك فرق » ، قالت في لهفة : « إذن تدفنه كما يدفن المسيحيون ؟ » فشعر القس بخرج موقفه ، وكان لما سمع بمرض الطفل قد ذهب بوازع من نفسه إلى الدار بعد هبوط الظلام بيني القيام بالمراسيم ، فرفضت خدماته ، ولما كان لا يعلم أن الرضا إنما جاء من أبي تس لا منها ، فإنه لم يستطع

الآن قبول الاعتذار بالحاجة الحازبة ، الذى اعتذرت به عن تعويد الطفل على ذلك النحو .

قال : « هذه مسألة أخرى » ، قالت متلهفة : « مسألة أخرى ؟ لماذا ؟ »  
قال : « لم أكن أتردد فى دفته كما تبغين لو أن الأمر متوقف عليك وعلى وحدنا  
ولكن أسباباً تحول دون ذلك » ، قالت : « افعلها مرة واحدة يا سيدى ! »  
قال : « أوكد لك أنى لا أستطيع » ، قالت وهى تشد على يده : « سيدى ! » فجذب  
يده هازاً رأسه ، فصاحت متفجرة : « إذن أنا لا أحبك ولن آتى إلى كنيسةك  
أبداً » ، قال : « لا تهورى هكذا » ، قالت : « لعل رفضك لن يضره ؟ أليس  
ذلك شيئاً ؟ ناشدتك الله ألا تخاطبنى خطاب القديس للآمنة بل خطابك أنت لى  
أنا — يالى من شقية ! » . وليس فى طوق الإنسان العادى أن يقول كيف وفق  
القديس بين جوابه وبين الآراء الصارمة التى يجب عليه أن يتظاهر بالتمسك بها فى  
مثل هذه الأمور ، وإن كان فى الطوق عنده ، فقد بلغ من تأثره أن أجاب فى هذه  
المرة بمثل جوابه فى المرة السابقة : « لن يضره شيئاً ، ليس هناك فرق »

ومن ثم حمل الطفل تلك الليلة إلى مدفن الكنيسة فى صندوق صغير مغطى  
بشال خلق ، وأعطى الحفار شلناً وقدر جعة ، ودفن الطفل على ضوء فانوس فى  
ذلك الركن الأغبر الذى أعده الله وأنمى فيه الأشواك وجعله مثابة للأطفال غير  
المعدين ولدمى الخمر والمتحجرين ، وغيرهم ممن يعدم العرف ملمونين .

على أن تس رغم قبح ذلك الموضع الذى يرقد فيه ابنها ، قد صنعت صلياً من  
الخشب وغشته بالأزهار ، وتسلفت إلى المدفن خفية ذات مساء ورشقتة عند رأس  
القبر ، وجعلت عند القدم باقة من نفس الأزهار فى وعاء فيه ماء لتبقى الأزهار  
نضيرة ؛ وهل كان بأس فى أن يرى العابر منقوشاً على الوعاء كلمتى « مربي  
كيلول » ؟ أما عين الأم المتطلعة إلى ما هو أسمى فلم تكن ترى تينك الكلمتين .

يقول رودجر أستشتم : بالتجربة نصل إلى طريق قصيرة بعد رحلة طويلة .. ولكن تلك الرحلة كثيراً ما تردنا عاجزين عن متابعة المسير ، وماذا تكون فائدة التجربة عند ذلك ؟ لقد كانت رحلة تس دريفيلد من هذا الضرب المعجز الموبق ، فقد عرفت في النهاية ما يجب عمله ، ولكن منذ الذي يقبل منها اليوم عملاً ؟ ولو أنها قبل ذهابها إلى بيت دربرفيل ألهمت الحزم في اتباع حكم وأمثال مأثورة تعرفها هي ويعرفها غيرها من الناس ، لما خدعت قط عن نفسها ، ولكن لم يكن في مقدور تس — ولا هو في مقدور إنسان — إدراك كل ما في المواعظ الذهبية من عمق ، وما زال في الإمكان الاستفادة منها ، ولقد كان يحق لها — ولكثيرات غيرها — أن تضم صوتها إلى صوت القديس أوغسطين حين قال يخاطب ربه : « لقد أشرت علينا باتباع طريق خير مما سمحت لنا باتباعه »

قضت تس شهور الشتاء في دار أبيها ، تتعهد الدجاج والديكة الرومية والإوز ، أو تصنع لآخوتها وأخواتها ملابس من فاخر الأبراد التي كان دربرفيل أعطاها فنحتها جانباً في ازدراء ، ولم ترض لنفسها أن تسأله عوناً ؛ ولكنها كانت كثيراً ما تتوقف عن عملها وتشبك يديها خلف رأسها وتستسلم للأفكار ، وراحت تنظر نظرة فلسفية إلى التواريخ وهي تتعاقب على مدار السنة ، من ليلة مصابها الأكبر في ترتدج في غابة تشيس الظلماء ، إلى ميلاد الطفل وموته ، إلى ميلادها هي نفسها ، إلى غير هاتيك من أيام معدودة لديها لحادث اقترنت به .

ولمّا لتتنظر إلى مثالها البديع في المرأة عصر أحد الأيام ، إذ تذكرت يوماً هو أهم لديها من جميع أولئك : يوم وفاتها الذي فيه تغيض كل هاتيك المحاسن ، ذلك اليوم المراوغ المتوارى بين ثنایا العام ، لا ينهبها بنامة أو إجماعة كلما عبرته في أطواء كل حول يحول ، فأين هو ؟ وما بالها لا تأخذها قشعريرة كلما قابلت ذلك اليوم

القار القاسى ؟ وخطر لها قول جرى تيلر إن معارفها سيقولون يوماً : « هذا هو اليوم الذى مات فيه تس » ، ولا يرون فى ذلك عجباً ، لم تكن تدرى وذلك يوم انطاؤها الأبدى أين موضعه من الشهر والأسبوع والفصل والعام .

هكذا تحولت تس طفرة من طفلة ساذجة إلى امرأة محنكة ، وأصبحت أمارات التفكير تلوح على وجهها ، ورنه الحزن تبين فى ضوئها أحياناً ، وازدادت عيناها سعة وتعبيراً ، وما كان أجدر أن تدعى إذ ذاك امرأة ناضجة : فقد أضحي مظهرها ممججاً رائئماً ، وروحها روح امرأة قصرت عن إفسادها وضضعها تجارب العام أو العامين المنصرمين ، ولقد كانت تلك التجارب دروساً حافلة ، وإن كانت نظرة الناس إليها غير ذلك .

وكانت قد احتجزت منذ حين حتى كاد أمرها ينسى ، ولم يكن قد ذاع من قبل كل الديوع ، ولكنها تبينت استحالة المقام فى بلد شهد إخفاق محاولة قومها التعلق بأسرة دربرفيل الفنية ، ولم تعد تستسيغ المقام به حتى تمر أعوام طوال تعفى على شديد شعورها بذلك ؛ بيد أن تس كانت ما تزال بعد هاتيك الكوارث تحس ثورة الحياة فى نفسها ، ورأت أنها ربما رزقت السعادة فى ركن من الأرض غير مقرون بالذكريات ، وعولت على أن يحو الماضى بكل ما فيه ، بالرحلة عن مسقط رأسها .

تقول الحكمة السائرة : « ما فقد مرة فُقد أبداً » ، فهل يصدق هذا على العذرة ؟ بذلك كانت تس تتساءل ، وكانت تحدث نفسها أنها تستطيع أن تكذب تلك الكلمة السائرة بإسدال الحجاب على الماضى ، وتقول فى نفسها إن العذرة لن تستثنى من قاعدة التجدد السائدة بين الأحياء والنبات المضوى ؛ وظلت تس زمناً تتحين الفرصة لبدء حياتها بدهاً جديداً ، حتى أتى الربيع أجمل منه فى سابق الأعوام ، وكانت حركة التفتح تسمع فى البراعم ، فحرك نفس تس كما حرك سائر الوحش ، وجعلها تتوق إلى الرحيل .

وأخيراً أنها كتاب من صديقة لأماها قديمة ، صبيحة يوم من أيام مايو ،



وكانت تس قد كاتبها مستخبرة منذ زمان ، وكان خوى الكتاب أن صاحب مصنع ألبان على بعد أميال في الجنوب محتاج إلى حالبة ماهرة أثناء أشهر الصيف ولم يكن المكان بعيداً البعد الذي كانت تس توده ، ولكنها رأت أن بعده كاف إذ كان محيط حياتها ومجتمعها صغيراً ، فالأميال في نظر أولئك الذين يحبون حياة ضيقة تعادل درجات الطول والعرض الجغرافية ، والأبرشيات تضاهي المقاطعات والمقاطعات تلوح كالآيالات والممالك .

وكانت تس موطننة النفس على ألا تكون في حياتها المستقبلية أحلام وقصور هوائية تبني على نسب دربرفيل ، وعلى أن تكون تس الحالبة لا غير ، وكانت أمها تعلم غريمتها تلك علم اليقين وإن لم تتفاحاً في الأمر ، ومن ثم لم تعد أمها لذكر الأحساب والأعراق ، ومع ذلك فقد سر تس — وكذلك تناقض الإنسان — أن المكان الجديد على مقربة من مقاطعة أسلافها ، فإن أسلافها الشرفاء لم يكونوا من أهل بلا كور كما كانت أمها .

كانت مزرعة « تلبوتيز » تقوم على كذب من إحدى الضياع التي كان يملكها آل دربرفيل قديماً ، على مقربة من مدافن أجداد تس الفقاه وجداها ، فكان في مقدور تس أن تنظر إلى تلك المدافن وتذكر أن آل دربرفيل قد سقطوا كما سقطت بابل من قبل ، وتذكر بجانب ذلك أن عفة إحدى سليلاتها قد ذهبت ذهابهم فلم يجزع لها أحد .

وكانت تناجي نفسها أينج من مقامها على كذب من أرض آباؤها خير غير منظور ؟ وسرت في روحها نشوة كما يتمشى عصير الحياة في الأغصان ، تلك كانت نشوة الشباب لم تحب ، تنبه بعد خمولها المؤقت ، وتنبه معها الأمل ، وتنبه تلك الغريزة التي لا تخمد : غريزة التمتع بالحياة .



التلاقي



١٦

رحلت تس عن وطنها للمرة الثانية في صبيحة أحد أيام مايو ، التي تعبق بروائح الصمتر وتحفل بإفراخ الأطيّار ، بعد عامين أو ثلاثة من عودتها من ترتدج ، وكانت تلك فترة استجمام وتناهض صامتين ، وكانت قد حزمت متاعها ليرسل إليها فيما بعد ، واكترت عربة صغيرة تحملها إلى ستور كسل ، وكان لا بد لها من المرور بتلك البلدة في رحلتها ، وكانت وجهة هذه الرحلة مضادة تماماً لوجهة الرحلة الأولى ولما ارتقت بها العربة أول تل أرجعت البصر كاسفاً حسيراً إلى مارلت ودار أبيها ، رغم أنها كانت من قبل تتلف إلى الرحيل .

ورجح لديها أن أهلها المقيمين هناك سيتابعون حياتهم اليومية كدأبهم ، لا ينقص ذهابها وحرمانهم بسمتها من سرورهم ورضاهم قليلاً ، وأن الأطفال سيعاودون ألعابهم في جوار غير محسين بخلو مكانها ، وكانت قد أيقنت أن في مفارقتها لهم كل الخير لهم : فلو أنها ظلت معهم لرجح أن تضيرهم بقودتها أكثر مما تنفعهم بتعاليمها .

واخترقت ستور كسل بلا تريت وتابعت طريقها إلى موضع تتلاقى عنده الطرق وهناك انتظرت مرور عربة بضائع تجرى صوب الجنوب الغربي ، لأن سكة الحديد التي كانت تطوق ذلك الإقليم لم تكن قد نفذت إلى داخله بعد ، بيد أنها ما لبثت أن بصرت بفلاح يستقل عربة صغيرة يدنو منها ويعرض عليها استئجارها في عربته ، وكان شاخصاً إلى نحو الجهة التي تقصدها ، ورغم أنه كان غريباً فإنها قبلت ما عرض ، متجاهلة أنه إنما فعل ذلك زلفى إلى جمال محياها ، وكان يقصد « وذربرى » ، فإذا صحبته إليها أمكنها بعد ذلك أن تسير بقية المسافة ، فيغنيها ذلك عن السفر في العربة العامة عن طريق كستربردج .

ولم تلبث تس في وذربرى إلا ريثما أصابت قليلاً من الطعام في كوخ دلسا

الفلاح عليه ، ثم اتخذت سميتها على قدميها وسلتها في يدها صوب المرتفعات المكسوة بالحشائش الخشنة ، والتي تفصل هذا الإقليم عن المروج المنخفضة في الوادى المجاور التي يقوم فيها مصنع الألبان ؛ ولم تكن تس قد زارت هذه الأصقاع من قبل ، ومع ذلك فقد كانت تحس أن بينها وبين تلك المناظر صلة ، وتبينت على مدى غير بعيد عن يسارها بقعة سوداء وقع في ظلها أنها الأشجار المحيطة بكنجيزير ، ولما سألت عن ذلك تأكد ظلها ؛ وفي كنيسة تلك الأبرشية كانت ترقد عظام آبائها ، آبائها الذين لا يغنون عنها شيئاً ، وكانت قد فقدت كل اعتدادها بهم ، بل كادت تكرههم لما ساقوها إليه من بلاء . ولم يكن في يدها من كل تلادهم سوى المعلقة والخاتم العتيقين ، وقالت في نفسها : « تبا للغرور ! إني لأدين لأى من نفسى بثقل ما أدين به لأبى ، أدين لها بحاسنى ، ولم تكن أى هذه إلا عاملة ألبان » .

وبلغت « إجدن » فألفت السفر فيها أشق مما كانت تتوقع : فقد كانت ملآى بالارتفاع والانخفاض ، وإن لم تزد مساحتها على بضعة أميال ، وضلت طريقها مراراً حتى لقد مرت ساعتان قبل أن تقوم على قمة تشرف على الوادى الذى طال نشدانها إياه ، وادى مصانع الألبان الكبرى ، الذى فيه يغزر اللبن والزبد ، حتى يفوقا كل ما يعرف في وطنها كمية ، وإن لم يفوقاه حسن إنتاج وتجهيز ، وكان يروى ذلك الوادى الأخضر نهر (فار) أو (فروم) .

وكان ذلك الوادى يختلف اختلافاً جوهرياً عن وادى مصانع الألبان الصغرى وادى بلاكور - الذى كان هو المنطقة الوحيدة التي عرفتها تس إلى اليوم ، اللهم إلا مashedته في رحلتها المشؤومة إلى ترترديج ؛ كان العالم أرحب رقعة ما هنا فكانت حظائر البهائم تنبسط على خمسين فداناً لا عشرة ، وكانت المزارع أوسع أطرافاً ، وقطعان الماشية أوفر عدداً ، وقد رأت تس منها حين أرسلت بصرها من حالى آلافا مؤلفة ، لم ترمثلها من قبل مجتمعة في صعيد واحد ، وكان السهل الأخضر يعمج بها كما تعمج إحدى صور فان السلوت أو ساليبرت بالقرويين ، وكانت الألوان الناصعة على جلود البقر الحمراء والرمادية تعكس أشعة الغروب ،

بينما كانت الحيوانات البيضاء تمكسها وهاجة إلى موقف تس النائي الرفيع .  
ولعل ذلك المنظر العام الذى كانت تستجليه لم يكن يبارى موطنها جمالا ورواء  
غير أنه كان أبهج للنفس ، فلم تكن له زرقه سماء منافسه الوادى الآخر ولا تربته  
الغنية ولا روائحه ، ولكن هواءه كان صافيا سحسجا منعشا ، حتى النهر الذى  
كان يسقى بقر تلك المصانع المشهورة وأعشابها ، كان يخالف جداول بلاكور :  
فقد كانت هذه تنساب فى مهل وسكون وتعلوها الكدرة أحيانا ، وكان قاعها  
طينيا رجا انماث من دونك إذا حاولت اجتيازه فى غير حذر ، وابتلعك على حين  
غرة ، أما نهر فروم فكان صافى الأمواء صفاء نهر الحياة الذى رآه القديس يوحنا  
فى بعض رؤاه ، سريعا كقوى الغمامة ، ضحضا فى مواضع يجر بها حصاء مثررا  
تحت السماء سrate يومه ، وكانت الأزهار المطرزة لجانيه مخالفة لتلك التى تنمو  
فى غدران بلاكور

نشطت روح تس نشاطا كبيرا ، إما لرقه هذا الهواء الجديد ، وإما لشموورها  
بوجودها فى بقعة جديدة بعيدة عن عيون الرقباء ، وامترجت آمالها بشعاع الشمس  
امتراجا جميلا فى ذلك الجو الرخيم الذى أحاط بها ، وطلقت تعدو مستقبلة ربح  
الجنوب الرضاء ، وكانت تسمع فى كل نسمة لحنا مطريا ، وفى مسقسقة كل طائر  
حبورا يترامى ، وكان وجهها منذ حين قد أضفى بتغير باختلاف الأحوال النفسية  
عليها : يبدو تارة مليحا وأخرى عاديا ، بتراوح الأفكار السارة والحزنة ، فكانت  
تبدو يوما متوردة كاملة الفتنة ، ويوما شاحبة كاسفة ، كانت تتورد حين يهدأ  
شموورها وتشجب حين يعتلى ، فكانت ملاحظتها توأم سكون نفسها ، وكانت تلك  
الملاحظة تفيض إذا اشتدت برحاؤها ، وكانت الآن تقابل ربح الجنوب بوجه  
ناضر وردى .

لقد تغلب على تس أخيرا ذلك الميل الباطنى القاهر ، الذى يتمشى فى جميع  
طبقات الحياة ، من أدنى الأحياء إلى أرقاها ، ويدفعها إلى ارنياذ اللمة حيث  
تكون ، فقد كان من المحال — وهى ما تزال فتاة فى العشرين لم يكتمل بدمغوها

الجئاني والعقلي — أن تترك فيها أية حادثة أثرًا لا يتحول ؛ وهكذا تزايد حبورها واشتد اغتباطها وتماظمت آمالها ، وراحت تترنم ببعض الأغاني الشعبية ، ثم لم تجد فيها غناءها ، حتى تذكرت كتاب المزامير الذي طالب عبرته عيناها قبل أن تجني ثمار التجارب ، فأقبلت تنشد : « أيها القمران . . . أيها النجوم . . . أيها الأغراس الخضراء على الأرض . . . أيها الطيور في الهواء . . . أيها السواثم . . . أيها الأطفال والرجال . . . إن الله يبارككم فاحمدوه وسبحوا له ما حيتم ! » ، ثم انقطعت فجأة وغممت : « ولكن يخيل إلى أني لا أعرف الله بعد » .

ولعلها إذ أنشدت تلك الأنشودة بغير وعي ، إنما كانت تطلق العنان لخياها ، وتعبّر عن حبها للطبيعة في أغنية دينية تشيد بالوحدانية ، فإن النساء اللواتي يخالطن مظاهر الطبيعة ويصاحبن قواها يحتفظن من خيالات أجدادهن وأوهامهم في عصور الوثنية ، بأثر أكبر مما يمين من الدين المنظم الذي لُقِّنَه قوما بعد ذلك بقرون ، وأيا كان الأمر فإن تس وجدت بعض الراحة في التعبير عن شعورها ، بإنشادها تلك التسيحة التي كانت تلتغ بها في طفولتها .

لم يكن هذا التوجه إلى حياة مستقلة جديدة إلا عملاً يسيراً عادياً ، بيد أن تس اغتبطت له كثيراً ، وكان ذلك من خلائق أسرة دريفيلد ، نعم كانت تس تخالف أباهما في حبها للاستقامة والجد ، ولكنها كانت تشابهه في القنوع بالقليل العاجل ، والمزوف عن المجهود التواصل بنية نيل المسكاة الاجتماعية المحدودة ، التي يقتضي بلوغها مجهوداً شديداً من أسرة كأمريتها في مثل ظروفها الناعسة . لقد كان يتدفع في عروق تس نشاط أسرة أمها التي لم تتدهور تدهور أسرة أيها ، ونشاطها الطبيعي في سنّها تلك ، وفضلاً عن هذا وذاك فإن النساء عادة يخضن غمرات مثل ذلك الخطب المهين الذي امتحنت به ثم يستمدن عزائمهن ويُجِلْنَ في العالم من جديد نظرة التطلع المتشوق ، وليست تغيب الحكمة القائلة بأن لا بأس مع الحياة عن أذهان من خدعن من النساء ، كما يريدنا بعض الفلاسفة للتحدثين على تصديقه .



ومن ثم انحدرت تس دريفيلد من مرتفعات إجدن إلى مصنع الألبان محط رحلتها ، وهى ممتلئة عزماً وإقبالاً على الحياة ، وعند ذلك بدا لها الفرق الأخير بين الواديين المتنافسين : فقد كان سر وادى بلاكور يكشف أحسن ما يكشف من المرتفعات المحيطة به ، أما الوادى الذى كانت تراه الساعة حياها فلم يكن يفهمه حق الفهم إلا من يتوسطه ، فلما توسطته رأت نفسها على بساط سوى يمتد شرقاً وغرباً إلى أبعد مدى النظر ، ورأت النهر قد هبط إلى الوادى حاملاً فتات تلك المرتفعات ، وراح يتمعج وقد نال منه الجهد والكهولة والضمور ، وسط أسلابه التى أتى بها .

ولم تكن تس واثقة من وجهتها ، فوفقت على ذلك السهل الأخضر المترامى المحاط بالمرتفعات ، وكأنها فى صغر جرمها وضآلة شأنها ذبابة على مائدة للبليرد لاحد لها ، ولم يكن لقيامها على ذلك السهل الوداع من أثر إلا أن استرعت انتباه نحاتة هبطت إلى الأرض غير بعيد ، واثراأت بعنفها تنظر إليها ، وتعال من جوانب السهل بغتة صيحة مرجعة متطاولة : « واوو ، واوو ، واوو » ، وانتشرت الصيحات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب انتشار العدوى ، وكان يصحبها أحياناً نباح كلب ، ولم يكن ذلك إعلاناً من الوادى لشعوره بوصول تس الحساء ، بل كان الإعلان العادى لحلول وقت الحلب ، وهو منتصف الخامسة ، حين ينطلق العمال فى طلب الأبقار . وكان على مقربة من تس قطيع من الأبقار بين حمراء وبيضاء ، كلها تنتظر تلك الصيحة فى بلادة ، فتقدمت إلى عرائشها فى الضيعة وحقائبها المفعمة بالبن تهتز من تحتها ، فتبعها تس ودخلت الضيعة من البوابة المفتوحة التى دخل منها البقر ، وكانت بالحظيرة عرائش مغطاة بالكلا تدور حولها ، وكان ينمو على تلك السقوف طحلب أخضر ساطع ، وترفعها قوائم خشبية قد بدت ناعمة لمساء ، لطول ما احتكت بها جنوب الأبقار والمجول ، التى تصرمت على وفاتها الدهور وغشاها النسيان ، وبين تلك القوائم اصطفت الحلوبات ، وقد بدت كل منها من الخلف للنظرة المارة كأنها دائرة قائمة على عودين ، يتدلى من مركزها خيط

يتحرك يمنة ويسرة كالبنّودول ؛ وأمحدرت الشمس من وراء ذلك الصف من الأبقار الصبورات ، وألقت ظلّاتها محكمة فوق الحائط ، كانت الشمس تلقى ظلّال تلك المخلوقات المتواضعة المغمورة كل أصيل ، مبدية في تصويرها من الدقة والعناية ما تبديه حين تلقى ظل صفحة غادة مخدرة على جدار قصر ، وما كانت تبديه في سالف الأزمان في إلقاء ظلّال الأبطال الأولبيين على الواجهات الرخامية ، أو ظلّال الإسكندر وقيصر والفراعنة .

ولم يوثق من الأبقار إلا الصمبة المراس ، أما السهلة القياد فكانت تحلب في وسط الغناء ، وكان هناك منهن إذاك جم غفير ، وكلهن حلويات فارهاات لا ترى نظائرهن خارج ذلك الوادى ، ولا ترى الكثيرات من مثيلاتهن داخله ، قد شبعن من الأعشاب المغذية التي ترويه المياه في ذلك الفصل الفذ من فصول السنة ؛ وكانت المنقطات منهن بالبياض يعكسن ضوء الشمس ساطعاً كاسفاً للأبصار ، كما كانت تلتصق كرات الرصاص المجلوة على قرونها في هيئة عسكرية ، وكانت ضروعهن الضخمة العروق تتدلى ثقيلة كحقائب الرمل ، وأطباؤهن ناهدة كأنها أرجل جرة من جرار الفَجَر ، وكان اللبن يشخب ويتقاطر على الأرض ، وهن ينتظرن مجى دورهن .

## ١٧

نزلت زراقات العمال والعاملات من مساكنهم وخرجوا من مصنع الألبان لدى عودة الأبقار من المروج ، وكانت العاملات يلبسن أحذية خشبية تحت نعالهن للمحافظة على النعال من أضرار الحظيرة ، وإن لم يكن اليوم مطيراً ، وجلست كل فتاة على مقعدها الثلاثي الأرجل ، واعتمدت على جنب البقرة بصفحة وجهها ، وراحت تتأمل تس وهي مقبلة ؛ أما العمال فكانوا يرتدون قلنسوات قد جذبوا حافتها إلى أدنى ، واعتمدوا على الأبقار بمجابههم ونظروهم شاخص إلى الأرض أثناء العمل ، فلم يلاحظوا تس ؛ وكان أحدهم كهلاً مربوع الخلق يرتدى معطفاً أحسن وأنظف من ثملات الآخرين ، وسترته من دون ذلك تنم عن متاجر ذى شأن ، ذلك هو رب المصنع الذى تبحث عنه تس ، وكان ظهوره بمظهر مزدوج أثناء ستة أيام العمل : مظهر العامل الحالب ، ومظهر صانع الزبد ، ثم ظهوره يوم الأحد فى مقصورة أسرته فى الكنيسة فى أحسن بزة ، كان ذلك موضع عجب القرويين حتى ألفوا فيه أغنية : « هو طول الأسبوع عامل الألبان (ديك) ، أما يوم الأحد فهو مستر كريك » .

رأى مستر كريك تس واقفة تنظر فشى إليها ، ومعظم عمال الألبان يكونون فى سورة غضب ساعة الحلب ، ولكن مستر كريك كان مقتبطاً بحصوله على عاملة جديدة ، لأن العمل كان متكاثراً ، ومن ثم قابلها بترحاب وسألها عن صحة أمها ، وجميع الأسرة ، ولم يكن ذلك إلا بمجاملة ، إذ لم يكن يعلم بوجود مسز دربيفيلد حتى أنه كتاب مختصر تعرض عليه فيه خدمات تس ؛ قال بلهجة حازمة : « لقد كنت فى طفولتى أعرف وطنك جيد المعرفة ، وإن لم أزره منذ ذلك العهد ، وقد أخبرتنى عجوز فى التسعين كانت تقيم على مقربة منا هنا ، ولكنها قد ماتت منذ طويل ، أن أسرة يشابه اسمها اسمكم فى وادى بلاكهور قد هاجرت من هذه البقاع أول الأمر ،

وأنها كانت أسرة عريقة أوشكت أن تبيد ، وإن لم يعلم أمرها أبناء الأجيال الحديثة ، على أن الحق أنى لم أمر هذين تلك المجوز التفاتا ، قالت : « أصبت ، مثل هذا الأمر غير جدير بالتفات » .

ثم انصرف الحديث إلى العمل ، قال : « أتجيدن حلب أبقارى واستفراغ ضروعها ، فإنى لا أحب أن تنضب ضروعها فى هذا الفصل من العام ؟ » . فطمأته من تلك الوجهة . وصمد فيها النظر وصوبه ، وكانت قد قضت فى الدار عهداً طويلاً حتى ارتد لون بشرتها رقيقاً ، فعاد يقول : « أواثقة أنت أنك تستطيعين العمل هنا ؟ إن العمال الأشداء لا يجدون هنا مشقة ، ولكننا لا نعرف العيش الناعم » ، فطمأته مرة أخرى واستراح إلى ما أبدت من رغبة وإقبال ، ثم قال : « والآن لا بد أنك فى حاجة إلى شيء من الغذاء ، إلى قليل من الشاى أو نحو ذلك ، ألتستبحاجة إلى ذلك بعد ؟ أنت وما تريدين ، أما أنا فلو كنت سرت مسيرك اليوم لكنت الآن فى الرمق الأخير » .

قالت تس : « سأشرع فى الحلب توالأروض يدي » ، وكرعت قليلاً من اللبن استجماماً ، فنظر إليها كريك نظرة دهشة تشوبها شائبة ازدراء ، كأنه لم يكن يتصور أن اللبن صالح للشرب ، وقال وهو يحمل الوعاء الذى تكرر منه : « مادمت تستطيعين أن تعي من هذا فأنت وشأنك ، أما أنا فلم أذقه منذ سنين » ، وأشار إلى أقرب بقرة قائلاً : « لك أن تجربى يدك على هذه ، إنها صعبة المراس ، فلدينا كما لدى غيرنا صعاب المراس ولينات المقاد ، وستكتشفين ذلك بنفسك عما قريب » . استبدلت تس بقبتها طرطوراً وجلست على مقعدها من دون البقرة ، وشخب اللبن من بين قبضتيها متقطراً فى الإباء ، وعندها شعرت أنها وضعت أس مستقبلها وامتلات ثقة وسكن روعها وأجالت بصرها فيما حولها ، فرأت فيلقاً من الحالبين والحالبات ، أولئك يتمهدون الحرون من البقر ، وهؤلاء يباشرون السهل المنصاع وكانت الضيعة كبيرة تحوى مائة حلوبة تحت إشراف كريك ، وكان هذا يحلب منهم ستا بنفسه أو ثمانى من أصعب القطيع احتلاباً ، لم يكن يعمد بهن

إلى الحالبين غير الدائمين الذين يعملون عنده إلى أجل ، غافة ألا يستفرغوا كل ألبانهم إهمالا ، أو إلى الحالبات غافة أن يقصرن عن ذلك لضعف قبضاتهن ، فتتضب ضروع البقر ، فهو لم يكن بأسى على القليل من اللبن الذي يترك في ضروع البقر في تلك الحال ، بل كان بمنفعة من ترك البقرات الست أو الثماني لعناية عمله ، علمه أن عدم استنزاف ألبانها في كل حلبة يؤدي إلى تناقص كياتها ، ثم إلى نضوب معينها .

وبعد جلوس تس على مقعدها ساد الصمت ، لا يقطعه إلا خرير الألبان في الأواني ، وإلا جل متقطعة تطالب فيها الأبقار بالدوران أو تؤمر بالسكون ، ولم تكن هناك حركة إلا صعود أيدي الحالبين وهبوطها ، وتلوي ذيول البقر ، وهكذا انهمك الجميع في العمل ، تحيط بهم المروج الخضراء الرحبة الممتدة إلى جوانب التلال ، قاعة حيث كانت تقوم منذ أجيال مناظر طبيعية أخرى مخالفة كل المخالفة لما هي عليه اليوم .

قال صاحب الضيعة وهو ينهض فجأة عن بقرة فرغ من شأنها ، مختطفاً مقعده في يد وإناءه في الأخرى ، وماشياً إلى بقرة أخرى صعبة الاحتلاب : « يخيّل إلى أن البقر لا يسخو اليوم بلبنه كمادته ، وإذا اطرد انحطاط إنتاج (ونكر) على هذا النحو ، فسيصير من العبث الجلوس إليها بتاتا في أواسط الصيف » ، قال جوناثان كيل : « هذا راجع إلى وجود يد جديدة بيننا ، وقد رأيت كثيراً من هذه الشواهد من قبل » ، قال الرئيس : « أصبت لمل الأمر كما تقول ، وقد غاب عني ذلك » ، وقالت إحدى الحالبات : « لقد سمعت أن اللبن يصعد إلى قرون البقر في هذا الأوان » ، قال كريك في ارتياب كأنه لم يصدق أن السحر يمكن أن يتغلغل في بنية البقر : « أما هذا فلا علم لي به ، أنا لا إخال ذلك صحيحاً لأن العديمت القرون يشحنن بألبانهم أحيانا كذوات القرون ؟ هل تعرف ذلك اللغز المتعلق بذوات القرون با جوناثان ؟ لماذا تجود عديمت القرون بكية من اللبن أقل مما تجود به ذوات القرون ؟ » ، فاعترضت الحالبة تقول : « أنا لا أعرف ،

لماذا؟ » ، قال الرئيس : « لأنهن أقل عدداً » ، ثم استطرد : « الحق أن هذه الأبقار الخبيثة تمسك عنا ألبانها اليوم ، فملينا يا قوم أن نفنى لحناً أو لحنين . »  
 وكان الغناء وسيلة يلجأ إليها في ضياع تلك الجهة ، حين تبدى الأبقار امتناعاً عن السخاء بكمياتها المعتادة ، وعند ذلك الطلب أنشأت الجماعة تغنى ؛ وإن كان غناء متراخياً فاتراً لا يبتنى منه إلا أداء الواجب ، واعتقد القوم أن الغناء أتى بنتيجة ، وبعد أن أنشدوا نحو عشرين بيتاً من أغنية شعبية مفرحة ، تدور حول قاتل حال الخوف بينه وبين الرقاد ، لأنه كان يرى لها يموج حوله ، قال أحد الحالين : « ما أشد ما يبلغ الجهد من المرء إذ يغنى منحنيًا ، أولى لك ياسيدى أن تستحضر قيثارتك ، وأحسن من ذلك أن تحضر كمنجة » ، وحسبته تس يخاطب الرئيس وكانت مخطئة ، فصرعان ما سمعت صوتاً كأنه صادر من جوف بقرة دكناء بين القوائم يقول : « ولم ؟ » ، وكان التكلم حالياً خلف البقرة لم تكن رآته تس بعد .

قال الرئيس : « نعم ، الكمنجة خير وسيلة ، بيد أنى أظن أن الثيران أكثر تأثراً بالنغم من البقر ، أو على الأقل هذا ما دلتنى عليه تجاربي ، فقد كان يقيم في ملستك شيخ يدعى (وليم ديوى) ، وكانت أسرته باعة متجولين ، أنذكهم يا جوانان ؟ وكنت أعرف الرجل بالنظر كما أعرف شقيقى ، وكان مرة عائدًا من زفاف كان يمزف فيه على كمنجته ، وكانت ليلة قراء ، وأراد اختصار الطريق فاخترق الحقل المسمى بالفداين الأربعين ، وكان فيه ثور يرعى ، فأكاد يرى الرجل حتى اندفع في أثره وقرناه إلى الأرض ، ومع أن صاحبنا جرى بجلء رثنيه ، ولم يكن في جوفه شراب أكثر مما ينتظر في حفلة زواج في أسرة غنية ، فقد أيقن أنه لن يبلغ سياج الحقل ويتسلقه في الوقت المناسب ، فرفع كمنجته وضرب عليها نعمة رقص ، وواجه الثور مستدبراً ركنا من أركان الحقل ، ففترت سورة الثور ووقف ساكناً يحملق في وليم ديوى ، الذى استطرد في توقيعه حتى لمح على وجه الثور بسمة خفيفة . »

قال مستر كريك مستطرداً : « ولكن لم يكذب ولم يبطل التوقيع ، ويدور ليتساق السور وينجو بنفسه ، حتى غاضت ابتسامة الثور ونكس قرنيه وسددها إلى دبر صاحبنا ، الذي اضطر إلى الرجوع إلى موقفه ومعاودة العزف ، وكانت الساعة الثالثة صباحاً ولم يكن من المحتمل مرور أحد بتلك الناحية إلا بعد ساعات وكان الرجل مجهداً خائراً لا يدري ما يصنع ؛ وواصل العزف إلى الرابعة وعندها أحس ألا بد له من الاستسلام ، وقال في نفسه : « لم يبق إلا هذا اللحن الأخير يبنى وبين سعادة الدار الآخرة ! ارحمني يارب وإلا فاني لا محالة هالك ! » .

قال مستر كريك : « ثم تذكر ولیم دیوی كيف كانت الماشية تبرك في منتصف ليلة عيد الميلاد ، ولم تكن ليلته تلك ليلة عيد الميلاد ، ولكن خطر له أن يخدع الثور ، فأقبل يعزف أغنية المولد ، التي تغنى ليلة الميلاد ، وإذا الثور يختر على ركبته جائياً قد زين له جهله أنها ليلة الميلاد ، ولم يكذب دیوی يرى صاحبه ذا القرنين باركاً حتى دار ووثب ككلب السبق خلف السياج ، قبل أن يتناهض الثور ليلاحقه ، وكان دیوی بعد ذلك يقول إنه كثيراً ما رأى سياء البلاهة على وجوه الناس ، ولكنه لم يرها قط كما ارتسمت على محيا ذلك الثور ، حين علم أن شعوره الديني قد عُثِبَ به لأغراض سيئة ، وأن الليلة لم تكن ليلة الميلاد ؛ نعم ، ذاك اسمه : ولیم دیوی ، ويمكنني أن أعين لكم بالضبط مرقده في مدفن كنيسة ريلستك ، فهو بين شجرة السرور الثانية وبين ممشي الكنيسة الشمالي » .

ولما فرغ الرئيس من قصته غنم الصوت الآتي من وراء البقرة الداكنة : « هذه قصة عجيبة تعود بنا إلى المصور الوسطى ، أيام كان الوازع الديني ما يزال حياً ! » وكانت تلك ملاحظة يغرب سماعها في ضيعة ألبان ، ولكن لم يفقه مغزاها أحد ولا اهتم لها أحد ، إلا صاحب القصة فقد خيل إليه أن معناها التشكك في صحة روايته فقال : « هذه قصة صحيحة ياسيدي صدقتها أو لم تصدقها ، لقد كنت أعرف الرجل حق المعرفة » ، فأجابه من وراء البقرة : « نعم ، نعم ، أنا لا أشك في صدقها » .

وهنا أتجه انتباه تس إلى محادث الرئيس ، الذى لم تكن ترى منه إلا رقعة صغيرة ، لا يطرافه رأسه خلف البقرة ، ولم تفهم لم يخاطبه الرئيس نفسه ياسيدى ، وظل وراء البقرة مدة كانت تكفى لحلب ثلاث ، وهو يفوء من حين إلى آخر بألفاظ مقتضبة كأنه غير موفق فى عمله ، حتى قال له الرئيس : « الأناة ياسيدى الأناة ، هذا عمل مرهان لا عمل قوة » ، فأجاب الآخر وهو ينتصب قائماً مادّاً ذراعيه : « إخالك مصيياً ، على أنى قد فرغت من أمرها وإن أجهدت أناملى » .

وعند ذلك أمكن تس أن تراه بوضوح ، وقد كان يلبس ملابس الحالب العادية ، وكانت نعلاه مثقلتين بأوزار الضيعة ، ولكن كان هذا كل ما يحمله من آثار الريف ، ومن دون ذلك كان يبدو مظهر مهذب مثقف متحفظ رزين مخالف للآخرين ، بيد أنها غفلت عن تفاصيل منظره برهة إذ تذكرت أنها قابلته من قبل ، وكانت الأيام قد تقلبت بتس منذ تلك المواجهة ، فظلت وهلة لا تستطيع تذكر ظروف ذلك اللقاء ، ثم تذكرت فى لمح البرق أنه هو ذلك العابر الذى اشترك فى الرقص فى مارلت ، ذلك الغريب الذى أتى من حيث لا تعلم ، ورقص مع أخريات غيرها وأهملها ، ثم مضى مع رفيقيه .

وأثارت الذكريات التى بعثتها هذه الصدفة خوفها من أن يعرفها ويقف على ماضيها ، ولكن خوفها تبدد حين لم تلمح فى عينيه تذكره إياها ، ولا حظت بعد حين أن وجهه السمع قد بدت عليه منذ لقاءهما الأول الوحيد سياء التفكير ، وقد طر شاربه ونبئت له لحية وسيمة ، ضاربة إلى الصفرة فوق عذاريه مشربة بالسواد دون ذلك ، وكان يرتدى تحت ثياب الحلب سترة من القطن الناعم ، وميضاً أبيض منشى وبنتلون ركوب وجترا ، فلم يكن أحد يميز صناعته إذا هو خلع ثوب الضيعة ، فكان من الممكن أن يعد مالكا غريب الأطوار أو فلاحاً متأنقاً ، وكانت تس قد أدركت فى لحظة أنه لم يزل مبتدئاً فى أعمال المصنع ، بعد أن أضاع كل ذلك الوقت فى احتلاب بقرة واحدة .



وكانت كثيرات من العاملات قد تبادلن قولهن : « ما أجملها » ! وهن يشعرن نحو الطارقة الجديدة بإعجاب أكيد ومودة ، وإن كن إذ يقلن يتوقعن أن يعقب على مقالتهن السامع بما كن يهمن هن أنفسهن أن يصفنه إلى قولهن ذلك ، فإن الجمال لم يكن هو الوصف الصحيح لما يقابل العين من هيئة تس ؛ ولما انتهى الحلب دخل الجمع إلى حيث كانت مسز كريك تشرف على أواني اللبن وغيرها ، وكانت ترتدى جلباباً ثقيلاً رغم حرارة الجو ، لأن العاملات كن يرتدين ثياباً خفيفة ، وكانت تمدن نفسها أجل شأناً من أن تبرز للعمل كغيرها .

وعلمت تس أن اثنتين أو ثلاثاً فقط من العاملات كن يقضين الليل في دار المصنع ، أما الأخريات فكن يأوين إلى بيوتهن ؛ وعند العشاء لم تر الحالب الراقى الذى عقب ذلك التعقيب على قصة الثور ، ولم تسأل عنه ، وقضت بقية المساء فى تمهيد مكانها فى الخدع ، وكان الخدع حجرة فسيحة فى أعلى الدار يناهز طولها ثلاثين قدماً ، وكانت تحوى العاملات الثلاث الأخريات ، وكن فتيات ناضرات إحداهن تصفرها سناً والأخرى ان تكبرانها ؛ ولما حان موعد النوم كانت تس فى غاية التعب ، وسرعان ما استغرقت فى النوم .

ولكن إحدى الفتيات كانت أشد تيقظاً من تس ، وكانت تصر على أن تصف لها شتى تفاصيل المسكن الذى نزلته ، واختلطت همساتها فى مخيلة تس المهومة بالظلال ؛ وخيل إلى تس أن ألفاظ الفتاة تتولد فى الظلام الذى تسبح فيه ، ومضت صاحبها تقول : « مستر اينجل كلير الذى يتعلم الحلب والذى يمزف على القيثارة لا يحدثننا كثيراً ، وهو ابن قسيس ، وهو أشد استرسالاً فى الفكر من أن يلتفت إلى البنات ، وهو تلميذ الرئيس يتلقن عليه تعهد الضياع من جميع الوجوه ، وقد تعلم تعهد النعم فى مكان آخر ، نعم إنه مولود فى أسرة راقية ، وأبوه مستر كلير فى إمنستر على مدى أميال . »

قالت تس وقد انتبهت : « نعم لقد سمعت به ، أليس هو رجلاً شديد الورع ؟ »

قالت : « نعم ، هو ذاك ، هو أتقى أهل وسكس على ما يقولون ، هو آخر أتباع الكنيسة الدنيا ، أما من عداه في هذه الأصقاع فتابعون لما يسمونه الكنيسة العليا ، وكل أبنائه عدا مستر كلير قسس » ، ولم يكن يتس الآن من رغبة الاستطلاع ما يدفعها إلى التساؤل لم لا يصير مستر كلير هذا أيضاً قسيساً كما خوته وعاودها الناس ، وكلمات صاحبها ترد إليها مع روايح الجبن الموضوع في المخزن المجاور ، ووقع قطرات ماء الجبن من المعاصر في الطابق السفلى .

## ١٨

كان إينجل كابر شخصية غامضة بمض الفموض : كان له صوت حنون ونظرة طويلة تنبعث من عينيّين جامدتين مشردين ، وفم مستدق خفيف الحركة لعله أدق مما يمهّد في أفواه الرجال ، وإن كان أزامام شفته السفلى من حين إلى حين يدل على قوة العزيمة ، وينفي كل شبهة للتردد ، ومع ذلك كان مظهر الفموض والذهول المرتسم على سيمائه وحركاته يوحي إلى الناظر أنه امرؤ لم يبت في مستقبل عيشه بعد ، على حين أنه كان كل من رآه في طفولته يتنبأ له بمقدرة على النجاح في كل عمل يزاوله .

وكان أصغر إخوته ، وكان أبوه قساذا خصاصة يقيم في الجانب الآخر من الإقليم ، وكان إينجل قد أتى إلى ضيعة الألبان لقضاء ستة أشهر في التعلم ، بعد أن طاف بضيايع أخرى ، وكان غرضه أن يحذق أعمال إدارة الضيايع ، كي يزاولها إما في المستعمرات وإما في ضيعة في إنجلترا يستأجرها ، حسبما تمكنه الظروف ، وكان انخراطه في سلك المزارعين خطوة في حياته لم يتوقعها هو ولا غيره ؛ وقد ماتتزوج أبيه الأولى فتزوج أخرى غيرها في أخريات حياته ، فولدت ثلاثة ذكور بين أصغرهم إينجل وبين الوالد قراب جيل مفقود ، وكان إينجل هو الوحيد بين إخوته الذي لم ينل تعلما عاليا ، وإن كانت نجابته في صغره تؤهله لذلك .

انقطع إينجل عن المدرسة ، وواصل الدراسة في البيت ، وإنه لكذلك ذات يوم قبل ظهوره في رقص ما رلت سالف الذكر بثلاثة أعوام ، إذ وصل إلى الدار طرد مرسل من كتي البلدة معنون باسم القس جيمس كابر ، ففضه القس فوجد به كتابا شرع يتصفحه ، وإذا هو يقفز من مكانه وقد تأبط الكتاب وقصد إلى الكتي يسأله ملوحا بالكتاب : « لماذا أرسل هذا إلى بيتي ؟ » فقال الرجل : إجابة للطلب يا سيدي » قال : « لم أطلبه لا أنا ولا أحد من ذوى » ، فنظر

الرجل في دفتره وقال : « أنا المخطئ يا مولاي ، لقد طلبه مستر إينجل كلير وكان ينبغي إرساله باسمه » ، فجهت القس وعاد إلى داره ودعا إينجل إلى مكتبه .

قال : « أنظر إلى هذا الكتاب : ماذا تعرف عنه ؟ » قال إينجل في هدوء : « أنا طلبته » ، قال : « لم ؟ » قال : « لأقرأه » ، قال : « كيف تخطر لك قراءته ؟ » قال : « كيف ؟ هذه فلسفة لا أعرف أحرص منها على قواعد الخلق والدين » ، قال : « نعم لا ضير منه على الخلق ، أما الدين ... ! أتقرؤه وأنت الذي تهباً للدعوة إلى تعاليم الإنجيل ؟ » قال : إينجل وارسم الهم على وجهه : « أما إذ أثرت الأمر فأجل بي أن أصارك بأن لا أريد الانضواء إلى رجال الدين ، إذ لا أستطيع أن أفعل ذلك مخلصاً ، إني أحب الكنيسة حب الطفل أبيه ، وسأحمل لها أصدق الحب دائماً ، وإني لا أكن لتاريخها من الإجلال ما لا أكن انظام آخر ، ولكني لا أستطيع مخلصاً أن أكون خادماً لها كأخوى ما دامت تأتي أن تحرر عقليتها من عقيدة تكفير المسيح عن ذنوب بني آدم » .

ولم يكن يخطر قط للقس الطاهر الساذج أن واحداً من لحمه ودمه ينتهي إلى هذا ، فصدم وأذهل وشل ؛ وإذا كان إينجل لن ينضم إلى الكنيسة فما جدوى إرساله إلى كمبردج ؟ وكان هذا الرجل المتصلب العقائد يعتقد أن الذهاب إلى الجامعة دون الانضمام إلى الكنيسة مثله مثل مقدمة بغير كتاب ، ولم يكن رجلاً متديناً فحسب بل كان راسخ الإيمان ، لا بالمعنى الذي يستخدم فيه هذا اللفظ المشوذون داخل الكنيسة وخارجها ، بل بالمعنى العميق القديم الذي كان يعنيه الإنشجيليون ، كان رجلاً — كما تقول أنشودة دينية قديمة — يعتقد بهبوط الروح الخالد منذ ثمانية عشر قرناً وحلوله في جسد المسيح .

راح والد إينجل يعالجه بالمجادلة والإقناع والتوسل ، فكانت جوابه : « لا يائي ، لا أستطيع أن أوقع باسمي تحت المادة الرابعة فضلاً عن الأخريات ، مقراً بأنني أؤمن بها إيماناً حرفياً كما يطلب مني الإعلان الكنسي الكبير ، وعلى ذلك لا أستطيع أن أكون قسيساً في الظروف الراهنة ؛ إن كل ميولي في الشؤون

الدينية موجهة إلى الإصلاح ، أو كما قال القديس أوغسطين في رسالته إلى اليهود التي تنبها أنت وتؤثرها : « إلى إزالة تلك الأشياء المتداعية ، والأخرى المفتراة ، لكي تبقى الأشياء التي لا تتداعي » .

وبدا على الأب من الغم ما اغتم له ابنه ، وعاد أبوه يقول : « ما جدوى تقتيرى وتقتير أمك ، وحرماننا نفسينا مما نشتهي لإرسالك إلى الجامعة ، إن لم تكن غاية ذلك ابتغاء مرضاة الله وتعظيم شأنه ؟ » قال إينجل : « فلتكن غايته تعظيم شأن الإنسان » ، ولو استمر إينجل في جداله لرجح أن يفوز بالذهاب إلى الجامعة كما ذهب أخواه ، ولكن اعتبار أبيه الجامعة خطوة إلى الكنيسة لا غير كان تقليداً موروثاً في الأسرة ، ورأى الفتى بحرف إحساسه أن التماذي في الجدل معناه سوء استعمال وديعة موروثه وإساءة إلى أقطاب الأسرة الأتقياء الذين كانوا دائماً مضطرين في أيامهم — اضطرار أبيه وأمه — إلى التقتير لتنفيذ تلك الخطة المرسومة لتعليم أبنائهم ؟ قال إينجل : « أنا متنازل عن كبردج ، إذ أشعر أن لا حق لي في الذهاب إليها في هذه الحال » .

وما لبثت هذه المناقشة الخطيرة أن أفضت إلى عواقبها ، وأنفق الشاب سنتين طويلة في أشتات الدراسات والتأملات والأعمال ، وتمكن من نفسه ازدياء التقاليد والمظاهر الاجتماعية ، وازداد احتقاراً للألقاب والثروة ، بل لم يكن يأبه لعراقة أسرة ما ، إلا أن يكون ممثلوها الحاليون يستحقون الإجلال ؛ على أن هذا الخلق الوعر كانت له مغامره اللينة : فإنه لما قصد لندن مرة بغية الاطلاع على العالم والبحث عن عمل ، وقع في أشراك امرأة تكبره بأعوام كثيرة ، وإن يكن لحسن حظه قد نجا من أسوأ مغبات ذلك الحادث .

وكان طول اختلاؤه بنفسه بين أحضان الطبيعة قد غرس في نفسه كرهاً عتيقاً لحياة المدن الحديثة لا يكاد يكون له داع ، وحرمه من نجاح لعله كان يصبو إليه في أعمال الدنيا ، ما دام انصرافه إلى أعمال الآخرة محالاً ؛ ولكن كان لا بد له من عمل يزاوله على أي حال ، وكان قد أضاع سنتين غوالى ، وكان يعرف

شباباً قد بدأ يمارس إدارة الضياع بنجاح في المستعمرات ، فال إنجل إلى محاكاته ، ورأى أن الاشتغال بالزراعة في المستعمرات أو في أمريكا أو في وطنه ، بعد استعداد جيد يهيئ له الاستقلال الذي ينشده دون أن يضحي بحريته الفكرية التي كان يضعها فوق مستقبله المادي .

ومن ثم نرى إنجل كبير وهو في السادسة والعشرين هنا في تليوتيز يدرس البقر ، ويقوم في مسكن صاحب المزرعة ، إذ لم تكن في الجيرة مساكن تستأجر ، وكانت حجراته في أعلى المسكن تمتد بطوله ، ولم يكن لها مرتقى إلا سلماً يبدأ من مخزن الجبن ، وكانت قد أهملت وأغلقت زمناً حتى جاء فاختارها مقراً ، وكان له فيها متسع رحيب ، وكثيراً ما سمعته العاملات يذرعهما ذهاباً وإياباً وقد أوى الجميع إلى مضاجعهم ، وكان جزء صغير منها قد خصص لفراشه تفصله عن جزئها الأكبر ستارة ، وقد أثت هذا الجزء الأخير بما جعله حجرة جلوس مريحة .

وكان بادي ذى بدء يقضى كل وقته في ذروته تلك ، يقرأ أو يذندن على قيثارة قديمة اشتراها من مزاد ، وكان في حالات كآبته يقول إنه ربما اضطر إلى كسب قوته بها يوماً في الحارات ؛ على أنه سرعان ما فضل أن يدرس الطبائع النفسية بتناول طعامه في الحجرة العامة في أسفل ، مع صاحب المزرعة وزوجه والعاملات والعاملين ، وكانت تلك زمرة يسودها الجبور ، وكان كلما طال به المقام هنا قل نفوره من معاشرته ورغب في مشاطرتهم أعمالهم ، بل أدهشه أن غدا يطرب لمجالستهم ، وسرعان ما محيت من غيخته فكرته العتيقة عن أهل الريف ، تلك الفكرة التي كانت تمثلها الدمية المسكينة المسماة هودج ، التي يتخذها الحضر رمزاً للقرويين ، فإنه لم ير شيئاً من هودج فيمن كان يماشرهم عن كسب .

نعم كان في بادي الأمر ، وما يزال فكره متشعباً بأحوال وسط متناقض لهذا الوسط ، يرى هؤلاء القوم شيئاً عجيباً ، ورأى أول الأمر في مجالسة أعضاء تلك الأسرة على قدم المساواة حطة وغباضة ، ورأى أفكارهم وحالاتهم ويشتهم بلهاً وضيقاً ، ولكن بمرور الأيام تجلى أمامه شكل جديد ، وبدأ له التنوع حيث

كان يشكو التشابه الملل ، وإن لم يتغير شيء في واقع الأمر ، وكان كلما ازداد معرفة بمضيفه ومضيفته وأسرتهما من المال والامالات ، بدا الاختلاف عظيم بينهما كما يبدو بين العناصر في عملية كياوية ، وتذكر قول بسكال : « كلما زاد حظ المرء من الذكاء رأى اختلاف شخصيات الخلق ، أما أوساط الناس فلا يرون اختلافا بين فرد وآخر » .

ومن ثم نرى تلك الصورة التقليدية للرقيق هودج الذي لا يتغير ولا يختلف عن سواء ، وانقسم ذلك الهودج أشخاصا متباينين تباينا شديداً ، بعضهم طروب وكثير منهم رزين وقليل منهم كئيب ، ومنهم من يبلغ ذكائه حد البقرية ، ومنهم الأغبياء وذوو العناد والغلظة ، وعلى سياء بعضهم الوادعة غايل ملتن ، وعلى سياء الآخرين القوية معارف كرمول ، ورأى أناساً لكل منهم في أحبابه رأى ، كما كان له هو رأيه في أحبابه ، يقرظون أو يذمون بعضهم بعضاً ، ويتفكهون بذكر مغامر أحبابهم ورذائلهم أو يأسفون لها ؛ رأى قوما يسير كل منهم في طريقه الخاص إلى الخاتمة المحتومة .

وإذا هو يعيش الحياة خارج حجرته عشقا خالصا بنجوة عن فائدتها في تعليمه وإذا هو يتخلص من داء الكآبة وخلل الأعصاب الذي يتفشى اليوم بين الأمم المتعدنية التي وهن إيمانها بوجود قوة رحيمة ، وراح لأول مرة منذ سنين يقرأ ما يهديه إليه ميله ، دون قصد إغمام رأسه بالمعلومات التي تجديه في مستقبل معيشته ، فلم تعد الأسفار التي استحسنت قراءتها في دراسة الزراعة تشغل من وقته إلا قليلا ونزع عن أفكاره القديمة ورأى وجه الحياة والإنسانية جديداً ، وعرف حق المعرفة ظواهر لم يع من أمرها من قبل إلا القليل البهيم ، من تقلبات الفصول وتتابع الأصباح والأمساء ، إلى مناظر الليل والقمر ، إلى الرياح في شتى أطوارها والأشجار والأمواء ، والضباب والظلال والسكون وأصداء الجداد .

كان الجو ما يزال بارداً في الصباح المبكر ، فكانت النار توقد في الحجرة حيث يفطرون ، ولم تكن مسز كريك ترى من اللائق إجلاس إنجنيل إلى مائدة

الجميع فأمرت فأعد له مجلس في جانب الحجرة حيث الموقد الكبير ، وكان طبقه وفنجان به يوضعان على لوح خشبي مثبت في الحائط بجوار مرفقه ، وكان الضوء الداخل من شباك كبير مقابل تمرضه حواجز حديدية يرتعى على ذلك الركن ، ويساعده ضوء ثانوى أزرق يتعكس عن المدفأة ، فكان يستطيع القراءة هنا كلما أراد ، وكانت تقوم بينه وبين الشباك مائدة رفاقه ، فكان يرى صفحات وجوههم مرتسمة أمام الزجاج ، وفكوكهم تعلو وتهبط في المضغ ، وكان على أحد جانبيه باب حجرة اللبن ، تبدو منه الأوعية المربعة الشكل ، صفوفا صفوفا مفعمة بألبان الصباح ؛ وتبدو في أقصى الحجرة المنخفضة تدور في غطيط مسموع ، وقد لاحظت القوة المحركة لها من زجاج الشباك ، وكانت تلك القوة حصانا خائر القوى يدور خلفه وليد .

ومضت أيام بعد وصول تس ، وكثير لا يلاحظ وجودها على المائدة ، لانهما كه في قراءة كتاب أو صحيفة أو دور موسيقى قد آناه به البريد ، وكانت هي نزة الحديث بين مثررات ؛ فلم يلاحظ في اللفظ نفمة جديدة ، وكان من طباعه الاهتمام من كل شيء بمنظره العام وإهمال تفاصيله ، حتى كان يوما يلحن في غيلته دورا موسيقيا فغلبه الذهول وتطايرت ورقة الموسيقى ووقعت عند المدفأة ، وشخص بصره إلى المدفأة التي كان طعام الفطور قد طهى وشرابه قد غلى عليها ، وكانت تتراقص فوقها شملة واحدة توشك أن تنجو ، وخيل إليه أنها ترقص مع النفمة التي تتردد في ذهنه ، ونظر إلى القضببان المدلاة فوق النار والملوثة بالدخان المتراكم وخيل إليه أنها هي أيضا تراقص النفمة ، وإلى الإناه المملوء إلى النصف وخيل إليه أن غليانه يلامس النفمة كذلك .

ودخلت المناقشة المحتممة على المائدة في هذه الفرقة الموسيقية التي ألفها خياله حتى حدثته نفسه : « ما أرخم صوت إحداهن ! لعلها القادمة الجديدة » ، وأدار بصره إليها ولم تكن ناظرة إليه ، والحق أنه لطول صمته كان قد آص وجوده نفسيا منسيا ، وإنما كانت تقول إذ ذاك : « لا علم لي بالأشباح ، إنما أعلم جيدا أن



أرواحنا قد تخرج عن نطاق أجسادنا في حياتنا » ، فالتفت إليها صاحب الضيعة مملوء الفم وفي عينيه نظرات الاهتمام والتساؤل ، وشوكته وسكينه الكبيرتان — أجل : كان تناول الفطور هنا تام المراسيم — فأعثنان رأسيّتان على المنضدة كأنهما بدء مشنقة تنصب ، وقال : « ماذا ؟ أحقا يا عذرائي الصغيرة ؟ » .

واستطردت تس : « من أسهل وسائل الشعور بخروجها ، أن يضطجع المرء على العشب ليلا ويرفع بصره إلى نجم كبير ساطع ، فإذا ركز ذهنه عليه شعر بأنه على مدى مئات من الأميال من جسمه ، كأنما هو زاهد في ذلك الجسم كل زهادة » ، وأدار الرجل نظره الحادة من تس إلى امرأته وقال : « أليس هذا عجبا يا كريستينا ؟ لقد زرعت الأميال في السنين الثلاثين الماضية في ضوء النجوم ، إما في غرابي أو على أو في طلب الطبيب أو الممرضة ، ومع ذلك لم يخطر لي هذا الأمر قبل اليوم ، ولم أشعر قط أن روحي ارتفعت قيد أنملة عن بنية قميصي » .

ولما رأت تس انتباه القوم وفيهم تلميذ صاحب المزرعة إليها ، احمر وجهها خجلا وقالت متخلصة إن ذلك لم يكن إلا وهما من أوهامها ، وأكبت على طعامها وظل كبير يراقبها ، وسرعان ما فرغت ، ولشموورها بنظره جعلت ترسم بسباتها على مفرش المائدة أشكالا وهمية ، وقد عراها من الحرج ما يعرف داجنا وديما أحس بأنه يراقب ؛ وقال الشاب في نفسه : « ما أبهى نضارتها وبكارتها بنت الطبيعة تلك ! » وعند ذلك خيل إليه أنه رآها قبل ذلك في ماضيه الطروب الغافل قبل أن تشوب صفاء سمائه غيوم الفكر ، ولم يدر أين رآها وإن صح عنده أنه قابها في بعض طوافه في الأرياف ، ولم يهتم بالأمر ، وإنما جعلته تلك الظروف يختار تس من بين غيرها من حسان العائلات حين كان ينزع إلى التأمل في بنات حواء المحيطات به .

## ١٩

كانت الأبقار تحلب عادة في غير نظام وبلا انتقاء ، ولكن بعضها كانت تفضل بعض الأيدي على بعض ، حتى كانت أحياناً تأتي أن تسكن إلا إلى تلك الأيدي التي تفضلها ، وتركل وعاء الواعل الدخيل بعيداً ، وكانت خطة الرئيس كريك أن يحجو هذه الضروب من المحابة والمعادة بدوام التغيير ، لأنه كان يخشى أن توقمه في صعوبة إذا ترك الضيعة بعض العمال والعاملات المصطفين ، على حين كانت العاملات يرمين إلى عكس غرضه ، فقد كانت كل منهن تؤثر أن تحلب كل صباح نفس البقرات السبع أو الثماني اللاتي تعودت حلبها ، لأن ذلك يجعل الحلب سهلاً يسيراً .

وسرعان ما كشفت تس كز ميلاتها أي الأبقار تميل إلى طريقتها في المعالجة ، وكانت أصابها قد رقت بعد فترات الحبس في الدار ، التي كانت ألزمتها نفسها في السنتين أو الثلاث الماضية ، وكانت على استعداد لإرضاء ميول البقر في هذا الصدد وكانت بين التسعين والخمس ، ثمانى بقرات هن : دملبن ، وفانسى ، ولفتى ، ومست ، وبرى العجوز ، وبرى الصغيرة ، وتدى ، ولود ، يسترحن إلى معالجتها حتى كان حلبهن مجرد لمس بالأصابع ، رغم أن حلقات واحدة منهن أو اثنتين كانت ناشفة كالجزر ، على أن تس لعلها برغبة الرئيس كانت تحاول بوازع من نفسها أن تحلب أية الأبقار صادفتها ، ما عدا الصعيات الاحتلاب اللواتي لم تكن لها بهن طاقة بعد .

ولكنها سرعان ما رأت تلاؤماً بين رغباتها في هذا الصدد وبين النظام الاتفاقى الذى يتصادف ورود البقر فيه ، حتى بدا لها أن ذلك النظام لا يمكن أن يكون محض صدفة ، وكان تلميذ الرئيس قد اشترك أخيراً في جمع البقر ، وفي خامس مرة أو سادسها أدارت عينها إليه وهى مسندة رأسها إلى البقرة ، وراحت

تأمله في مكر ، ثم صاحت وهي محمرة خجلاً : « مستر كبير ! لقد ربت البقر ترتيباً ! » وارتسمت على فيها وهي ترميه بتلك التهمة غايل ابتسامة ارتفعت فيها شفها العليا بالرغم منها ، حتى بدت أطراف أسنانها ، وشفها السفلى ثابتة في مكانها ، قال : « لا بأس في ذلك ، سوف تكونين هنا دائماً لتحليها » ، قالت : « أنظن ذلك ؟ إني لأرجوه وإن لم أكن على يقين » .

وأثحت على نفسها بعد ذلك باللائمة ، مخافة أن يكون قد فهم كلامها على غير ما أرادت ، لجهله بالأسباب المهمة التي تحجبها في هذه الحياة المنزلة ، وكانت قد خاطبته بلهجة جادة كأنما وجوده أحد دواعي رجائها ذاك ، واشتد جزعها حتى أنها لم تكد تفرغ من عملها عند الفسق ، حتى راحت تتمشى وحدها بين الأغراس تواصل إبحاءها على نفسها باللوم لمصارحتها إياه باكتشافها اهتمامه بأمرها ، وكان مساء من أمسية يونية المعهودة ، قد اعتدل جوه وسرى سحره ، حتى بدا كأن للجاد حواس ثلاثاً أو خمساً ، ولم يعد هناك فرق بين قريب وبعيد وكان السائر يحس أنه على اتصال بكل شيء في مدى البصر ، وأحست تس بالسكون كأنه جسم كائن لا مجرد انقطاع الضوء ، ولم يكن يقطعه إلا رنين أوتار .

كثيراً ما كانت تس تسمع تلك النفثات في الحجرة العليا فلا تخف لها ، إذ كانت نفثات غامضة مبهمة ضئيلة في سجنها العالي الذي تنبعث منه ، أما الآن فقد أعجبته إذ كانت تموج في الهواء الساكن قوية مجردة ، كانت الآلة حقيرة والتوقيع رديئاً ، ولكن كان لها وقع خاص في نفس تس التي ظلت كالطائر المسحور لا تريد عن مكانها تحولا ، بل اقتربت من موضع العازف مستخفية وراء الأشجار كيلا يحدس وجودها .

كانت الأجزاء الخارجية من الحديقة التي وجدت تس نفسها فيها قد أهملت منذ حين فلم تزرع ، وكانت إذ ذاك رطبة مغطاة بالحشائش الطويلة ، التي تتطاير منها سحائب من البذور الدقيقة بمجرد لمسها ، وبالأعشاب المزهرة تنبعث منها روائح كريهة ، وإن كانت ألوانها الحمراء والصفراء والقانية تؤلف منظرأ بهيجاً :

بهجة الأزهار المزروعة المتهمة ؛ انسلت تس كالقطة بين هذه المفائف تتلوث  
يداها وجلبابها بلعاب الحشرات وأحلاب النبات ، وتتكسر القواقع تحت قدمها ،  
وتخضب ذراعها آفات الزرع التي تبدو على جذوع أشجار التفاح بيضاء كالثلج ،  
فاذا مست جلدها لطخته تلطيخاً ، وهكذا دنت من مقر كبير دون أن يراها .

ولم تعد تس تفكر في الزمان أو في المكان ، وخالجها دون اجتهد من جانبها  
ذلك السمو الروحي الذي قالت إنه يعترى التطلع إلى النجوم ، وراحت نفسها  
تتموج مع أنغام القيثارة المشتراة في المزاد ، وكانت نبراتها تنفذ إلى فؤادها كأنها  
النسمات ، وتهيج الدموع في ماقيها ، وخيل إليها أن ثار البذور المتطاير هو  
نفثات العازف متجسمة ، وأن رطوبة الحديقة إنما هي بكاء الحديقة لتأثرها بالنفثات ؛  
ورغم أن الليل كان وشيك المهبوط فقد كانت الأزهار البرية متفتحة زاهية ، كأنها  
لشدة إنصاتها لا تريد انكماشها ، وامترجت عوجات اللون وتموجات الصوت .

وكان الضوء الوحيد الذي ما يزال منيراً آتياً من فرجة في الغيوم المنتشرة في  
الأفق الغربي ، يلوح كأنه قطعة من النهار تخلفت غلظاً وقد اسودت حواشي  
الفضاء في كل ناحية أخرى ؛ وفرغ العازف من لحنه الشجي ، وكان لحناً سهلاً  
بسيطاً ، وانتظرت لعل لحناً آخر يتبعه ، ولكنه كان قد سُم وأقبل يدور على  
غير هدى حول السياج حتى داناها من خلفها ، وعندها انقادت وجنتاها وانسلت  
مبتعدة بخطى وثيدة كأنها لا تتحرك بتاتاً ، ولكنه لمح ثوبها الصبغى الخفيف ،  
وسمعه يقول وإن كان على مدى منها : « لماذا تتسلاين هكذا يا تس ؟ أخافه ؟ » .

قالت : « كلا يا سيدي ، ليس ثمة ما أخاف بين مناظر الطبيعة ، لا سيما  
حين تنتشر الخضرة ويتساقط نوار التفاح » ، قال : « فهل تخافين شيئاً في غير  
مناظر الطبيعة ؟ » قالت : « نعم يا سيدي » ، قال : « ماذا ؟ » قالت : « لا أستطيع  
القول » ، قال : « تخافين أن يختر الابن ؟ » قالت : « لا » ، قال : « فهل تخافين  
الحياة في مجموعها ؟ » قالت : « نعم يا سيدي » ، قال : « كذلك أفعل أحياناً ، إن  
هذا الوجود شيء جنوني خيف ، أليس كذلك ؟ » قالت : « نعم إذا شئت أن تصوغ

القول على هذه الصيغة » ، قال : « ولكنى لم أتوقع أن فتاة مثلك تفهم هذا الفهم فأنى لك ذلك ؟ » فسكتت مترددة فقال : « هلى حديثى وامنحنى ثقتك » . وحسبته يريد أن تدلى إليه بنظرها إلى مختلف الأشياء فأنشأت تقول فى خجل : « يخيل إلى أن للأشجار عيوناً متطلعة فضولية ، ألا يخيل إليك ذاك ؟ وأن النهر يقول لماذا تضايقننى بنظراتك ! وأنى أرى صفا من الأيام المقبلة أولها أكبرها وأضخمها ، وبقيتها تنصاغر كلها بعد موقوفها ، ولكنها جيما تبدو شرسة قاسية كأن كلامها يقول : أنا آت ! حذار منى ! ولكنك أنت يا سيدى تخلق بموسيقاك أحلاما تطرد هذه الأوهام البشعة » .

وأدهشه أن يرى هذه الفتاة تتصور هذه الصور المؤلة ، وهى التى كانت رغم أنها عاملة بسيطة ، فذة فريدة بين أترابها على حال ربما حسدها عليها ، لقد كانت تعبر فى لهجتها الريفية تعينها معلومات سننها الست فى المدرسة ، عن مشاعر ليس من الإسراف اعتبارها مشاعر الجيل أو آلام العصر الحديث ؛ على أن دهشته فترت حين تذكر أن معظم تلك الأفكار التى تسمى عالية ، إن هى إلا أحدث أنواع التعريف والتقسيم ، ولا تريد عن كونها تعبيرات دقيقة مملوءة بالمصطلحات اللاتينية والإغريقية ، عن أحاسيس شعر بها الناس شعوراً عاماً منذ أجيال ، ومع ذلك كان عجيباً أن تساورها تلك الأفكار فى حداتها تلك ، وكان ذلك بجانب غرابته ممتعاً داعياً إلى الاهتمام والمطف ، ولما كان كبير يجهل السر فى ذلك فقد غاب عنه أن أبلغ التجارب أبعداً عمقاً لا أطولها أمداً ؛ لقد كانت الآفة التى ألت بجسم تس فيما مضى داعية نضج عقلها .

وعجبت تس من ناحيتها لرجل مثقف منحدر من أسرة دينية مكفول المؤونة يأسى على مجيئه إلى هذا الوجود ، لقد كان مثل هذا الأسى جديراً بالشريدة المسكينة ، أما هذا الرجل الشاعرى الجذاب فكيف يهبط إلى وادى الهوان ويشعر كما قال أخو الفرز ، وكما كانت تشعر هى منذ عامين أو ثلاثة : « إن روحى لتؤثر الشنى والموت على الحياة ، إنى لأمقتها ولا أطيق أن أحيأ دائماً أبداً » ، نعم إنه كان يحيا فى غير

قومه ، ولكن ذلك إنما كان رغبة منه في تعلم ما لا بد من معرفته ، شأن بطرس الأكبر في مصانع السفن ، ولم يكن يحب البقر لأن عليه أن يحلبها بل لأنه يعد نفسه ليصير مالكا غنيا فاجعا ، يزرع الضياع ويقنو القطعان في أمريكاً أو أستراليا ويضحي كإبراهيم الخليل عاجلا يسمي بين يديه الخدم والجواري ، على أنها كانت أحيانا تعجب من إشارته الزراعة على خدمة الكنيسة ، وهو من هو علما وتفكيراً وشغفاً بالموسيقى . وهكذا عجب كل منهما ، ومار في أمر صاحبه وعجز عن الاهتداء إلى سره ، وارتقب كل منهما أن تبدى له الأيام من أخبار الآخر ما كان جاهلا ، ولم يحاول أحدهما التطفل على ماضي الآخر ، وكان كل يوم بل كل ساعة تقفه على بعض دخالها ويقفها على بعض دخاله ، وكانت تس تحاول أن تحيا حياة ترمت ، ولكنها غفلت عن فرط حيويتها ، وكانت في يادى الأمر تعده فكرياً أكثر مما تعده رجلا ، وترى بينها وبينه في ذلك بونا كبيراً ، وكلما كشفت من بعد نظراته ناحية جديدة ورأت مسافة ما بين عقليتها الساذجة المتواضعة ، وعقليته الشائخة شموخ جبال الأنديز ، اشتد انقباضها وفترت عزيمتها عن الارتقاء إلى مستواه الرفيع .

ولاحظ انقباضها يوما ، وقد ذكر لها شيئا جديداً عن حياة الرعاة في إغريقيا القديمة ، وكانت وهو يتحدثها تجمع من شاطئ النهر براعم تلك الأزهار المسماة « السادة والسيدات » ، فقال لها : « ما هذا الجزع المفاجئ يعلو سياءك ؟ » قالت في ضحكة حزينة ، وهي تقشر برعماً في اضطراب : « إنما أفكر في نفسي وما كان يمكن أن يكون من أمرى ، إذ يخيّل إلى أن حياتى قد ذهبت هباء لا عواز الفرص الملائمة ، فإني حين أرى ما تعلم وما تحفظ وما تفكر فيه ، أحس أنى شيء ضئيل كذلك المسكينة ملكة سبأ المذكورة في الإنجيل ، لا أزيد عليها في العلم فتىلا . »

قال في حماسة : « لا يحزنك ذلك يا تس ، فإنه ليسرنى أن أساعدك في درس التاريخ أو أى فن آخر تروفق دراسته . » فقاطعته وهي تنظر إلى البرعم الذى قشرته : « هذه أيضا سيدة » ، قال : « ماذا ؟ » قالت : « إنما أردت أن أقول إن السيدات أكثر من السادة في هذه البراعم إذا قشرتها » ، قال : « دعيني

من السيدات والسادة ، هل يروك أن تدرسى فنا ما ؟ التاريخ مثلاً ؟ » ، قالت : « أحس أحياناً أنى لا أريد أن أعلم أكثر مما أعلم » ، قال : « لم ؟ » ، قالت : « ما جدوى أن أعرف أنى لست إلا واحدة بين كثيرات مشبهاتى ، وأن فى بعض الكتب القديمة ذكر امرأة مثلى تماماً ، وأنى لن أفعل إلا ما فعلته هى من قبل ؟ ليس من وراء ذلك إلا إثارة غمى ، وأولى للمرء ألا يعلم أن أعماله إن هى إلا صورة مطابقة لما عمله آلاف وآلاف ، وأن حياته المقبلة لن تكون إلا صورة من حياة تلك الآلاف المؤلفة » .

قال : « إذن أنت لا تريد أن تعلم شيئاً أبداً ؟ » قالت وقد تهدهج صوتها قليلاً : « أوتر أن أعلم الأسباب : سبب إشراق الشمس مثلاً على الأبرار والأشرار معاً ، ولكن الكتب لا تخبرنى خبر ذلك » ، قال : « ويحك يا تس من فتاة حقود ! » وما قال ذلك إلا مجازاة لما يقال فى ذلك الموقف ، على حين أنه طالما خطر له ذلك الخاطر فيما سلف ، وخيل إليه وهو يتأمل ذلك الفم وتينك الشفتين اللتين لم تلقنا العلوم والفنون ، أن ابنة الطبيعة تلك إنما تردد ما تقول بنير وعى . ومضت تس فى قشر السيدات والسادة ، ورمى كلير أهدابها المقوسة وهلة وهى مسترسلة على خدها الأسيل وقد أطرقت ، ثم ابتعد عنها فى بطاء ، وظلت فى مكانها بعد ذهابه تقشر آخر برعم مفكرة ، ثم انتبهت من أفكارها وألقت البرعم وسائر الأشراف الذين كانوا فى يدها أرضاً ، وقد بلغ منها الضجر ، واحتدم غيظها من حماقتها واضطرم قلبها اضطراماً ، وخيل إليها أنه لا بد يظنها غبية شديدة الغباوة ، ودفعها تحرقها إلى حسن ظنه بها إلى تذكر الأمر الذى كانت تناسته بعد أن اكتوت بناره ، ألا وهو أنهاؤها إلى آل دربرثيل ، ورأت أن ذلك النسب على قلة جدواه وما ابتليت به من خطوب من جراء علمها به ، ربما نال إجلال مستر كلير الذى ينتمى إلى أسرة راقية ويحل التاريخ ، حتى لينسى عبثها الصبيانى بالسادة والسيدات ، متى علم أن أولئك الراقدين تحت الرخام والمرمر فى كنجزير هم أسلافها ، وأنها سليلتهم لحماً ودماً ، وليست دعية فيهم كأسرة دربرثيل الأدعياء المقيمين فى ترندج .

على أنها كانت في ريبة من الأمر ، فراحت قبل أن تنافر بكشف الأمر له تسبر رأى صاحب الضيعة ، فيما يكون نظر مستر كلير إلى تلك الحقيقة ، ومدى تبجيله للأمرات العريقة التي أخنى عليها الدهر ، فقال الرجل مؤكداً : « إن مستر كلير نائر متمرد عديم النظير ، وليس بكفية أسرته ، وأشد ما يمتق هو ما يسمونه الأمرات العريقة ، فهو يرى أن تلك الأمرات أدت ما تستطيع تأديته من خدمة للمجموع في ماضى أيامها ولم يعد فيها خير ، فهناك أسررات ييلت ودريتكرد وجراى والقديس كونتن وهاردى وجوله ، التي كانت تملك أرجاء هذا الوادى ، يمكنك اليوم أن تشتري ما تملك أيامهم بأجر أغنية عتيقة » .

واستطرد : « بل إن العاملة رتى پريدل تمت إلى أسرة پاريدل العريقة ، التي كانت تملك واسع الأنحاء عند كنجز هنتك ، التي يملكها اليوم إرل إسكس ، ولم يكن أحد في تلك الأيام قد سمع به أو بأنسابه ؛ وقد علم مستر كلير بهذا الأمر فكان يخاشن الفتاة بعد ذلك ، قال لها يوما : « لن تقلحى أبدا في أشغال الألبان ! لقد استنزفت مهارتك منذ قرون في فلسطين ، ولا بد لأمرتك أن تحمل ألف عام حتى تسترد القوة والمقدرة على العمل ، وجاءنا غلام منذ أيام يطلب عملا وقال إن اسمه مات ، ولما سئل عن اسم أسرته لم يعرفه ، فلما سئل عن سبب ذلك قال إن أسرته لم تثبت ولم يصبح لها اسم خاص ، فقال مستر كلير : أنت يا بنى طلبتى ، ووثب فصاحه قائلا : أنا أتنبأ لك بمستقبل ناجح ، وأعطاه نصف كراون ؛ الحق أنه لا يهضم الأمرات العريقة ! »

ولما سمعت تس المسكينة هذا الملخص المزلز لأراء كلير ، حمدت الله على أنها لم تفتاحه في لحظة ضعف في شأن أسرته ، ولم تكن أسرته من القدم بحيث يصح أن يقال إنها قد دارت دورتها وعادت أسرة جديدة ، وعلمت أن عاملة سواها تنافسها في ذلك الشرف ، فأسدلت حجاب الصمت على مدافن دربرفيل والفارس الذى رافق وليم الفائح والذى أورثها اسمه ، وتبين لها مما سمعت عن آراء كلير أنها إنما نالت الخطوة في عينيه ، لتوهمه أنها من أسرة محدثة .



٢٠

ازدهر الفصل ونضج ، وقام فوج جديد هذا العام من الأزهار والأوراق والعنادل والعصافير ، وغيرها من المخلوقات قصيرة الأعمار ، محتلة المواقف التي كانت تقوم فيها زمرة أخرى غيرها في العام الماضي ، حين لم تكن هذه الزمر الجديدة إلا جراثيم وذرات في عالم التكوين ، وكانت أشعة الشمس قد فتحت البراعم ومدتها حتى غدت عيدانا طوالا ، وأجرت الماء في مساربها الخفية ، وهدلت الأكام وأفاحت الشذا من خفي القطرات والأنفاس .

وواصل ساكنو الضيعة من عمال وعاملات حياتهم الوادعة الساكنة ، ولعلمهم كانوا من أسعد طبقات المجتمع ، فقد كانوا فوق ذوى الحاجة والخصاصة ، ودون الطبقة التي يفسد فيها التأنيق الشعور الطبيعي ، ويطمح التحذلق إلى أكثر مما فيه الكفاية ؛ وهكذا تقضى ذلك الأوان المونع الذي تورق فيه الأشجار وتلك مشاعر النظار ، وكانت تس وكلير يدرس أحدهما الآخر عن غير وعى ، وهما يوشكان أن يترديا في وهدة الحب ولكنهما يحفظان توازنهما فلا يقعان ، وإن كانا يزدادان كل يوم تقاربا وتلاقيا ، يدفعهما قانون طبيعي لا يقاوم ، كما يتلاقى رافدان في واد .

ولم تشعر تس في سنيها الأخيرة بمثل السعادة التي كانت تشعر بها الآن ، ولعلمها لن تشعر بها فيما بعد : فقد كان ذلك الوسط يلائمها جسما وروحا ، فإن تلك الشجيرة التي امتدت جذورها في مغرسها الأول إلى طبقة سامية ، قد نقلت إلى تربة أخرى أخصب وأعمق ، هذا إلى أنها كانت تقف هي وكلير في تلك المرحلة القلقة بين التعاطف والحب ، لم تبلغ بعد مرحلة الجذ والخطر ، ولم تتألب عليها الأفكار ولم يلج بها التساؤل : « إلى أين يحملني هذا التيار الجديد ؟ ما يكون أثره في مستقبلي ؟ ما صلته بماضي ؟ »

ولم تكن تس عند كليز إلا ظاهرة عارضة ، أو طيفاً ممتعاً جذاباً لم يزد على أن اكتسب في خلد ه صفة الثبوت ، فسمح لفكره أن يتأمل فيها اعتقاداً بأن ذلك التأمل إن هو إلا نظرة الفيلسوف إلى نوع جديد من الأنوثة شائق يانع ؛ وكانا يلتقيان بلا انقطاع ، ولم يكن لهما عن ذلك معدى ، فقد كانا يتقابلان كل يوم في تلك الفترة الغريبة الساهرة فترة الفلس ، وقد بدا الأفق قرنفلي اللون أو بنفسجي ، إذ كان النهوض المبكر ضرورياً لكشط القشدة عن اللبن ، بعد الساعة الثالثة بقليل ، قبل البدء في الحلب .

وكان العمال والعاملات يتناوبون مهمة إيقاظ الباقيين ، بعد أن يستيقظ صاحب النوبة على رنين ساعة منبهة ، ولما كانت تس أحدث العاملات قدوماً ، وكان الباقيون يثقون لذلك أنها لن تواصل النوم رغم رنين الساعة ، فقد كان عمل الإيقاظ يعهد إليها عادة ، فكانت حالما تسمع دق الساعة ورنينها تهرول من حجرتها إلى باب حجرة صاحب الضيعة ، ثم تصعد السلم إلى حجرة إينجل تناديه في همس مرتفع بعض الارتفاع ، ثم تهبط لإيقاظ رفيقائها ، وبينما ترتدى تس ملابسها ينزل إينجل ويخرج إلى الهواء الرطب ، أما العاملات الأخريات وصاحب الضيعة فكانوا يتقلبون في مضاجعهم ، ولا يهبون إلا بعد ربع ساعة

وليس غبش الفجر كغبش المساء وإن تشابها لونا : ففي الفجر يكون النور هو العامل الإيجابي والظلام هو العامل السلبي ، على حين يكون الظلام هو الإيجابي المتزايد في المساء ، والنور هو السلبي المتناقص ، وإذ كان كليز وتس أول ناهضين في المزرعة — ولعل ذلك لم يكن دائماً محض صدفة — فقد كان يخيل إليهما أنهما الإنسانان الوحيدان في الوجود اليقظان في تلك الساعة ؛ ولم تكن تس في أول عهد ه هنا تشارك في كشط القشدة ، بل كانت تخرج إلى الفضاء رأساً ، وهناك كانت تجده عادة منتظراً ، وكان ذلك الضوء الشاحب الطيفي المسأج الذي يسود الفضاء ويغشى المروج يبعث فيهما الشعور بالعزلة كأنهما آدم وحواء ، وكانت تس تبدو لكليز في ذلك الوقت المهيم المسترس على جانب عظيم من قوة

الخلق وقوة الخلق معاً ، ولعل بعض السر في اعتقاده ذلك أنه كان يعلم أن غيرها ممن لمن مثل مفاتها الجسمية ، لم يكن ليظهرن في الهواء الطلق أمام ناظره في ذلك الوقت المبكر غير المألوف ، وندر جدا من بنات أنجلترا من يتحدثها نفسها بمثل ذلك ، فإن الحسان ينمن إلى ما بعد الفجر صيفاً ، أما هي فهي ذى أمامه وليس للأخريات وجود .

وكان ذلك الظلام الفذ المختلط بالشعاع الطالع ، وهما يسيران معاً إلى سراقده البقر ، كثيراً ما يذكره يوم البعث ، ولم يخطر له قط أن مجدلين تسير إلى جانبه ، وكان يحدق النظر إلى وجهها ، وقد أضاء وسط ذلك الضباب المخيم كأنه قطعة من الفسفور ، وكانت تبدو كأنها طيف أو كأنها ليست إلا روحاً هائمة ، وكان وجهها في الحقيقة قد ارتسمت عليه أشعة الصباح الباردة المنبعثة من الشمال الشرقي وإن لم يدرك ذلك ، وكان وجهه هو وإن لم يشعر يبدو لها في تلك الصورة .

في ذلك الوقت كانت تقع تس من نفسه أعمق موقع ، كما تقدم القول ، فلم تكن إذ ذاك حالبة لبن بل كانت صورة مثالية للمرأة ، كانت تتجمع فيها كل صفات جنسها وكان يداعبها فيدعوها ( ارتميس ) ويدعوها ( ديمتر ) وغير ذينك من الأسماء الأسطورية ، فكانت تفضب لأنها لا تفهم مغزاها وتقول وهي تلحظه الخزر : « ادعني تس » ، فيجيبها إلى ما تريد ؛ ثم يشرق الضياء رويداً رويداً ، وترتد سياتها سياتاً أنثى لا أكثر ، وبعد أن كانت سياتاً إلهة قادرة على منح السعادة تعود سياتاً مخلوق ينشد تلك السعادة .

وكانا في تلك الساعات الفذة ربما اقتربا من الطيور المائية أشد اقتراب دون أن يفزعها ، فكانت تدنو منها بعض النحامات ضاربة أجنحتها في ضجيج كضجة الأبواب والنوافذ تفتح على مصاريعها ، خارجة من حرج كانت تأوى إليه بجانب المروج ، فإذا كانت في الماء التزمت موقفها فيه بشجاعة ترقب السائرین مديرة رؤوسها على مهل في حركة أفقية وثيدة ، كما تدور العرائس اللولبية .

وكانا بعد ذلك يران ضباب الصيف الخفيف ، في طبقات مستوية رقيقة كأنها

الصوف المندوف ، مقطعة تقطيعاً منتشرة على وجوه المروج ، وتلوح على الحشيش المغلى بالندى المترقق آثار رقاد البقر ليلاً ، على شكل جزائر داكنات الخضرة جافات في حجم أجسام البقر ، متفرقات في محيط الندى المتراعى ، وكان يخرج من كل جزيرة أثر متعرج ممتد إلى حيث مشت البقرة للرعى بعد هبوبها من نومها وعند منتهى الأثر كانا يجدها ، فإذا عرفتهما نفخت من منخرينها نفخة تثير حولها ضباباً خاصاً بها أكثف من الضباب المنتشر في كل مكان ، وعندها كانا يستاقنهما عائدين إلى الحظيرة ، أو يحلبانها في مكانها ، حسباً تقتضيه الظروف .

وكان ضباب الصيف أحياناً أشد انتشاراً منه في العادة ، تبدو فيه المروج كأنها نهر أبيض ، تتصاعد منه الأشجار كأنها صخور المطب ، وتطير فيه الطيور محلقة في الطبقات العليا من الجو حيث شعاع الشمس ، وتظل في تدويمها تضجى في دفء تلك الأشعة ، ثم تهبط فتجثم على السياج الحديدى الذى يقسم المروج ، والذى يلتمع إذ ذاك كقضباني من الزجاج ؛ وكانت تعلق بأهداب تس ماسات دقاق من رطوبة الضباب المعلق ، وتعلق بشعرها منه قطرات كالؤلؤ المنتور ، فإذا ما بلغ اليوم أشده وصار منظره عادياً ، تبخرت تلك الحلى وفقدت تس فتنتها الأثيرية العجيبة ، ووضعت أسنانها وشفاتها وعيناها في ضوء الشمس ، ولم تعد إلا عاملة الألبان الحسناء ، ذات المنافسات الكثيرات .

وكانا حوالى هذا الوقت يسمعان صوت كريك يقرع المال الآتين من بيوتهم على تأخرهم ، ويوبخ المعجوز (دبورا فياندر) على عدم غسلها يديها قائلاً : « ناشدتك الله يا (دب) إلا ما وضعت يديك تحت الطلبية ؛ تالله لو علم أهل لندن بماداتك القذرة ، لحاذروا وأحجموا عن تناول اللبن ، وإن فيما أقول لبرة » ، وبطرد الحلب حتى يسمع كليل وتس وبقيّة الساملين مائدة الفطور الثقيلة يجرها مستر كريك من جانب الحائط في المطبخ ، شأنه قبل كل طعام ، وشأنه بعد كل طعام إذ تعاد إلى موضعها في صوتها المزعج المهود .

٢١

ثارت ضجة في البيت بعد الفطور ، إذ ظلت المخضفة تدور على عاداتها زمناً طويلاً ، ثم لم يظهر للزبد أثر ، وكان ذلك إذا حدث شل حركة المصنع ، وظل صوت اللبن يتردد في الأسطوانة الضخمة : « سكويش ، سكواش » ، ولا يتلوه الصوت المنتظر ، ووقف الرئيس كريك وزوجه والعاملات تس وماريان ورتي پریدل وإيزهيو ، والعاملات المتزوجات اللواتي أتین من مساكنهن في الصباح ، وكذلك مستر كلير وچونان كيل والمجوز دهورا ، وقف الجميع ينظرون إلى المخضفة عاجزين ، وحلق الغلام الذي يسوق الحصان في الخارج ، إظهاراً لتقديره حرج الموقف ، حتى الحصان الكثيب بدا كأنه ينظر من خلال النافذة في كل دورة قانطاً متسائلاً .

قال صاحب الضيعة في التبايع : « أنا لم أقصد ابن الراق ترندل في إجدن منذ أعوام طوال ، وهو لا يقاس قط إلى ما كان عليه أبوه ، ولقد قلت مراراً ومازلت أقول إنى لا أعتقد فيه ، وإن يكن حاذقاً باستنباط الماء من بواطن الأرض ، بيد أنه لا مفر لى من أن أقصده إذا كان ما يزال على قيد الحياة ، نعم لا بد أن أقصده إذا استمرت الحال على هذا المنوال ! » وجزع الجميع لحالة الرجل حتى مستر كلير ، وقال چونان كيل : « كان الراق فول ، من سكان الجانب الآخر من كستر برديج ماهر جداً في طفولتى ، ولكنه اليوم رفات بالية » ، وعاد مستر كريك يقول : « لقد كان جدى يقصد الراق مينترن من أهالى أولز كوم ، وكان يثنى على مهارته ، ولكن أمثال أولئك الأفذاذ لا يوجدون في هذا الزمان » .

أما مسز كريك فلم تنس الأمر الذى هم بصده ، قالت تحاول تعليل ما حدث : « لعل بعض المقيمين بالبيت عاشقون ، فقد سمعت فى صباى أن العشق ينجم عنه هذا ، ألا تذكر يا كريك تلك العاملة التى كانت تعمل عندنا منذ زمان ، وكيف

جد اللبن إذ ذاك ؟ » قال : « بلى ، ولكن الأمر لم يكن على ما تصفين ، ولم يكن للمشق في اللبن أدنى أثر ؛ إنى لأذكر كل ما كان جيداً ، وقد انتهى الأمر بتحطيم المخضنة » ، والتفت إلى كبير قائلاً : « كان يعمل عندنا يا سيدى شاب فاجر يدعى ( چاك دولوب ) ، فغازل فتاة من أهل ( ملستك ) ، وخذعها كما خدع كثيرات من قبل ، ولكنه رأى نفسه هذه المرة أمام امرأة عسيرة الحساب ، ولم تكن تلك هى الفتاة نفسها » .

واستطرد : « كنا فى موقفنا هذا يوم الثلاثاء المقدس قبل شمس النسيم ، وإذا أم الفتاة تنفتل إلى الباب وفى يدها مظلة ذات يد حديدية تكفى لصرع ثور ، وقالت : ( هل يعمل چاك دولوب هنا ؟ فإنى أريده ولى معه خصام طويل ) ، وكانت ابنتها تسير وراءها تبكى فى منديلها بكاء مراراً ، ورآها چاك من الشباك فقال فى نفسه : ( يا ويلتنا هذا خطب جسيم ! إنها قاتلتى لا محالة فإنى المهرب ؟ لا تجربوها بموضى نشدتكم ) وتسلل من الباب الخلفى واختبأ فى المخضنة ، وإذا المرأة تندفع فى الدار صائحاً : ( أين الشقى ؟ أين هو ؟ لئن ظفرت به لأهشمن وجهه ! ) ودارت فى الحجرة تصب على چاك السباب واللعنات ، وهو منكش يكاد يخنق ، والفتاة بالباب تفرح عينيها بالبكاء ، ولن أنسى ذلك أبداً فقد كان موقفاً يذيب الصخر ! ولكنها لم تعثر عليه » .

وسكت كريك برهة وعلق بعض الحاضرين على ما قص ، وكانت قصصه تلوح كأنها انتهت ولما تنته بعد ، فينخدع السامعون ويعقبون عليها تعقيب من قد سمع الخاتمة ، أما أصدقاؤه القدماء فكانوا أعرف به ؛ وعاد يقول : « ولست أدرى كيف خمنت المرأة مكانه ، بيد أنها اهتدت إلى وجوده فى المخضنة ، وكانت تدار باليد إذ ذاك ، فتناولت المقبض دون أن تنبس بينت شفة وأدارته ، فراح چاك يلف فى داخلها ، حتى أخرج رأسه يقول : ( يا إلهى ! أوقفوا المخضنة ! دعونى أخرج وإلا استحللت خبيصاً ! ) وكان جيان القلب شأن أضرابه من الرجال » .

قال مستر كريك : « فصاحت به أم الفتاة : لا أدعك تخرج حتى تكفر عن عبثك بمذرتها الطاهرة ! فصرخ فيها : ( أوقفى الإيذاء أيتها الساحرة المجوز ! ) فقالت : ( تدعوني بالساحرة المجوز أيها الخداع ، وكان يجب طوال هذه الأشهر الخمسة الأخيرة أن تدعوني بمحاثك ! ) ومعنى الإيذاء في دورانه وعظام جاك تنفضض داخله ، ولم يجرؤ أحد منا على التدخل ، وأخيراً وعد الشاب وعداً أكيداً أن يصلح ما بينه وبينها ، وهكذا انقضى ذلك اليوم . »

وبينا السامعون يتسمون معجبين على قصته سمعوا حركة خلفهم ، فالتفتوا ، فإذا تس تمشي إلى الباب شاحبة الوجه ، وقالت في صوت لا يكاد يسمع : « ما أشد الحر اليوم ! » وكان اليوم حاراً حقاً ، ولم يزم أحد انسحابها إلى حكاية الرئيس ، وسار هذا إليها يساعدها على فتح الباب وقال مداعباً : « عجباً يا عذرائتي الصغيرة ! — وكان من دأبه مناداتها بذلك الاسم ، غير داربها في ذلك من سخرية — إذا كان أول أنفاس الصيف يرهقك هكذا ، فسوف نفقد أملح عاملاتنا في أيام الحر المزهق ، ألا ترى ذلك يا مستر كلير ؟ » فقالت تس في فتور : « إنما أحس بدوار وسينعشني الهواء الطلق » ، وخرجت دالقة ، ولحسن حظها تغير صوت اللب الدائر في المخضفة في تلك اللحظة ، وسمع لفظه واضحاً : « فليك ، فلوك » ، وصاحت مسز كريك : « ها هي الزبد ! » وبحول انتباه القوم عن تس .

ومرغان ما استعادت رباطة جأشها ، وإن ظلت كثيفة بقية نهارها ، ولما انتهت حلبة المساء لم تجد بنفسها ميلاً إلى مصاحبة الأخريات ، وخرجت تمشي على غير هدى ، وقد بلغ منها الغم مذ رأت زميلاتها يعددن حكاية صاحب الضيعة أفكوهه ، ولم ينظر أحد سواها إلى جانب القصة المحزن ، وكان من المحقق أن أحداً من السامعين لم يخطر له أن تلك القصة قد مست موضع الألم من ماضيها ؛ وكانت الشمس الغاربة تبدو الآن قبيحة كأنها جرح ملتهب كبير في الأفق ، ولم يحجبها إلا عصفور مبجوح الصوت يزقو من الشجيرات القائمة على ضفة النهر ، في رنة حزينة كثيفة كرنه صاحبة لها قديمة قد غفت صحبتها .

وكانت العاملات ومعظم سكان الضيعة يأوون إلى مضاجعهم في أيام يونية تلك المتطاولة عند غروب الشمس أو قبيله ، إذ كان العمل الصباحي كثيرا متراكما لكثرة الألبان ، وكانت تس عادة ترافق زميلاتهما في الصعود ، أما الليلة فقد سبقتهن إلى الحجرة المشتركة واستغرقت في النوم قبل مجيئهن ، ثم رأتهن يغيرن ملابسهن في ضوء الشمس الفاربة البرتقالى . ثم غلبها النوم ثانية ، ولكن أصواتهن أزعجتها مرة أخرى ، وأدارت بصرها إليهن في سكون ، ولم تكن زميلاتهما الثلاث أوين إلى فراشهن بعد ، بل كن متجمعات بجانب الشباك حافيات في ملابس نومهن ، وماتزال أواخر أشعة الشمس الفاربة تدق وجوههن وصفحات الجدران المحيطة بهن . وكانت ثلاثهن يراقبن شخصا في الحديقة بشغف ، وقد جمن وجوههن واحدا إلى الآخر ، وكان أحدها مستديرا طرويا ، والثانى شاجبا أسود الشعر ، والوجه الثالث أشقر يعلوه شعر محمر .

قالت رتى الشقراء وكانت صفراهن ، ولم تحول عينها عن الشباك : « لا ترحمنى فأنت تستطيعين أن ترى كما أرى تماما » ، فأجابت ماريان ذات الوجه الطروب وكانت كبراهن في لهجة مأكرة : « لا فائدة لك كما لا فائدة لى من حبه فان فكره موجه إلى خدين غير خديك ! » وكانت رتى تواصل النظر ، وعادت الآخرين إلى التحدث ، وقالت إيزهيويت الفتاة الشاحبة ذات الشعر الأسود الرطب والشففتين الحادثين : « ها هو ذا يعود ! » فأجابتها رتى : « أطبق فك فقد رأيتك تقبلين ظله ! » قالت ماريان : « ماذا كانت تصنع ؟ » .

قالت رتى : « كان واقفا أمام ماعون ماء الجبن يدير الصنبور لينصب الماء ، وقد ارتعى ظله خلفه على مقربة من إيز ، وكانت هناك تملأ إناء ، فاعتمدت على الحائط بيديها وقبلت ظل فه ، وقد رأيتها وإن لم يرها هو » ، فقالت ماريان : « مرحى يا إيزهيويت ! » فظهرت في وجنة إيز نقطة حمراء ، وقالت متظاهرة بعدم المبالاة : « لا ضير فى ذلك ، وإذا كنت أحبه فان رتى أيضا تحبه وكذلك أنت يا ماريان » ، ولم يكن وجه ماريان الملى ليحمر أكثر من تورده العادى ، وقالت :



« أنا ؟ يا لها من أكلوبة ! آه ها هو ذا مرة أخرى ! لطف نفسي على تينك العيين ! لطف نفسي على ذلك الوجه ! لطف نفسي عليك يا مستر كلير ! » .

قالت الأخرى : « ها أنت ذى تعترفين ! » قالت ماريان في صراحة لا تبالى : « وكذلك أنت ، وكلنا جميعا ، ومن الحماقة ادعاء غير ذلك ، وإن لم ينبغ أن نصرح بذلك إلى غيرنا ، وددت لو أتزوجه غدا ! » فغمغمت إيز : « هذا ما أودده أنا أكثر منك » . وهمست رتي وكانت أشد حياء : « وأنا أيضا » ؛ واشتد تيقظ المصنية إلى هذا الحديث . وقالت إيز : « لا يمكن أن نتزوجه جميعا » ، قالت الكبرى : « ولن نتزوجه إحدانا أبدا ، وهذا شر ما فى الأمر ، ها هو ذا ثانية » ، وأرسلن إليه قبلة صامته ، وقالت رتي فى لهفة : « ولم ؟ » فقالت ماريان خافضة صوتها : « لأنه أكثر جبالنس دريفيلد ، لقد راقبته كل يوم حتى تبين لى صحة ما أقول » .

وساد سكوت وتفكير ، وأخيرا تنفست رتي الصعداء وقالت : « ولكن أحبه هى ؟ » قالت ماريان : « يخيل إلى أحيانا أنها تفعل » ، قالت إيز متململة : « يا لحماقتكما ، من المسلم به أنه لن يتزوج إحدانا ولن يتزوج تس نفسها ، وهو ابن أسرة راقية مقبل على مستقبل رفيع ! وأقرب إلى العقول أن نعمل عنده فى ضياعه بكذا فى العام ! »

وتهدت إحداهن ، وتهدت الأخرى ، وصعدت ماريان نهدة كبيرة ملء جسمها البدن ، وتهدت فتاة رابعة راقدة فى الفراش على كسب ، وتساعدت الدموع إلى عيني رتي صفراهن الحسنة الشقراء ، آخر زهرات آل پاريدل ذوى المكانة العظمى فى صحائف تاريخ المقاطعة ؛ وواصلن النظر برهة أخرى ورؤوسهن ما تزال مجتمعة ، وألوان شعورهن متألقة ، ولكن مستر كلير الذى لم يكن يلاحظ شيئا مما يجرى كان قد دخل ولم يرينه بعدها ، وبدأ الظلام يزحف قتلسلن إلى الفراش ، وبعد دقائق سمعته يصعد الدرج إلى حجراته ، وسرعان ما ارتفع

غطيط ماريان ، أما إيز فلم يدركها النعاس بتلك السرعة ، وأما رتي بريدل فلم تزل تنشج حتى غلبها النوم .

أما تس التي كانت أعمقهم شعورا فلم يحس الكرى جفونها ، وقد كانت تلك المحادثة ثانی جرعة مرة أرغمت على تجرعها في ذلك اليوم ، ولم تكذب تحس بأدنى غيرة ، فقد كانت واثقة من سبقها في ذلك المجال ، إذ كانت أجل تكويننا وأحسن تعلما وأكمل أنوثة من صاحباتها وإن لم تصرفها منهن إلا رتي ، ومن ثم كانت لا تحس بحاجة إلى مجهود كبير من أجل الاستئثار بمطف إنينجل دون صاحباتها الوفيات أولاً ؛ أما المعضلة التي كانت تمضها فهي : هل ينبغي لها أن تفعل ؟

لقد كان من الثابت الأسبيل لأية مهن جميعاً أن تحل منه مكاناً دائماً ، ولكن كان هناك أمل في اجتذاب إحداهن نظره واستئثارها برعايته مدى إقامته ، وكثيراً ما أدى مثل هذا التآلف — رغم عدم تساوى المتألفين في المكانة الاجتماعية — إلى الزواج ، وقد سمعت تس مستر كريك مرة يقول إن مستر كلير تساءل يوماً ضاحكاً عن جدوى زواجه سيدة نبيلة الطبقة ، يوم تجب عليه مباشرة عشرة آلاف فدان في المستعمرات ، وتمهد القطمان وحصاد المحصول ، وقال إن امرأة فلاحه هي الزوج الملائمة له ؛ ولكن تس لا تدرى إن كان جادا فيما قال ، ولم تدر إن كان لها الحق — وهي التي لا يسمح لها ضميرها أن تدع رجلاً يتزوجها بعد ما كان ، والتي وطنت عزيمتها أي توطين على ألا تفعل — في أن تحول نظر مستر كلير عن الأخريات ، لكي تتمتع تلك التمتعة القصيرة بصحبته ما أقام في تلبويز .

٢٢

نزل القوم في الصباح التالي يتشاءمون . ولكن أعمال كشط القشطة والحلب مضت على سنتها المعتادة ، ثم دخل الجميع لتناول الفطور ، وإذا الرئيس كريك يذرع الحجرة ضارباً الأرض بقدميه ، فقد أتاه كتاب من أحد عملائه يقول إن زبده حارز ، وكان كريك يحمل في يده سلحة خشب عليها قطعة زبد ، وهو يقول « قسما إنه لملي حق ، ذوقوا ! » وتجمع حوله منهم نفر ، وذاق مستر كلير . وذاقت تس وزميلاتها في المخدع ، وتذوق عامل أو عاملان ، وأخيراً غادرت مسز كريك مائدة الطعام المنتظرة وجاءت فتذوقت ، وصح لسيهم أن للزبد طعماً حريفاً .

وشرد صاحب الضيعة بذهنه بعيداً ليدرك كنه الطعم ، ويتهدى إلى نوع العشب الخليث الذي هو سيبه ، وصاح فجأة : « هو الثوم ! وقد كنت أحسبه استؤصل من تلك المروج عن آخر عود ! » : وعندها تذكر بعض العمال القدماء أن حقلاً معيناً جافاً مرحت فيه الأبقار حديثاً ، كان فيما مضى سيباً في إفساد الزبد على هذا النحو ، ولم يفتن صاحب الضيعة في ذلك المهد إلى الحقيقة . وظن الزبد مسحوراً ، قال كريك : « يجب أن نفحص ذلك الحقل ثانياً ، لا بد من وضع حد لهذا ! » .

وتسلح الجميع بالسكاكين القديمة وخرجوا ، وكان الثور على ذلك النبات المؤذى يكاد يلوح مستجيلاً وسط الحشيش النامي المتكاثف ، إذ لا بد أن وجوده كان قاصراً على مواضع ضئيلة جداً ما دام قد فانت ملاحظته النظر المادى ، على أنهم استقاموا جميعاً صفاً واحداً ، وتعاونوا كلهم لأهمية البحث ، وكان صاحب الضيعة على رأس الصف ، وبجانبه مستر كلير الذى تطوع للمساعدة ، يليهما تس وماريان وإيزورتي ، يلي أولئك « بِلْ لُوِيل » و « جُونَانْ » والساملات المزوجات ، وفيهن « بِلْ نَبْز » ذات الشعر الأسود الصوفى والينين المحتاجين

و «فرانسس» الشقراء المسولة من جراء رطوبة الشتاء النبعثة من المروج الممتدة على ضفاف النهر .

وزحفوا في بطاء على قسم من الحقل وعيونهم مشدودة إلى الأرض ، حتى إذا بلغوا نهايته عادوا على نفس الوجه ، بحيث لا تفوتهم بوصة من الأرض إلا أصابها عين أحدهم ، وكان عملاً مضجراً جداً ، إذ لم يكشف في الحقل كله أكثر من ستة عيدان من الثوم ، ولكن كان طعم ذلك النبات من الخشب ، بحيث كانت عضة بقرة واحدة على عود منه ، كافية لاكساب منتجات المزرعة كلها في يوم ذلك المذاق .

ومضوا في زحفهم وانحنائهم وتحديقهم ، على اختلاف بعضهم عن بعض طباعاً وأطواراً ، ومضوا في صف مستقيم موحد يسير سيراً هادئاً آلياً ، ولومر بهم عابر غريب ورآهم على تلك الحال ، لكان له العذر إذا دعا كل فرد منهم « هودج » ، وكان يرسم على وجوههم — وهم في زحفهم منحنون أشد انحناء ليتبينوا العيدان — وهج أصفر رقيق منعكس من زهرات « فناجين الزبد » ، فكانوا يلوحون كأنهم عفاريت سارية في ضوء القمر ، وإن كانت الشمس تضرب في ظهورهم على أشد ما يكون الظهر وقدأ .

وكانت نزعة إنجيل كليل الاشتراكية قد حدثت به إلى مشاركة القوم السراء والضراء ، وكان الآن يرفع بصره من حين إلى حين ، ولم يكن محض صدفة أن كان يسير إلى جنب تس ، وأخيراً تتم إليها : « كيف أنت ؟ » قالت : « بخير وشكراً يا سيدى » ، وبدأ هذا السؤال التعارفى وجوابه أمراً غريباً : إذ كانا منذ نصف ساعة فقط يتبادلان الحديث في أصرح المواضع ، على أنهما الآن لم يتعديا ذلك الحد في الكلام ، وتابعا الزحف وذيول سراويلاتهما تلامس حذاءه ، وذراعه يحتك بذراعه أحياناً .

وأخيراً صاح صاحب الضيعة بجوارها وقد عيل صبره : « قسما إني لأحس أن هذا الانحناء يفتح ظهري فتحاً ويقفله إقفالاً » ، وتناهض وعلامات التألم في وجهه حتى اعتدل قائماً ، وقال مخاطب تس : « وأنت يا عذرائى الصغيرة تس

لقد كنت منحرفة منذ يوم أو يومين ، وهذا الانحناء سيورثك دواراً ظريفاً !  
كفى إذا كنت تشعربن بالدوخة وعلى الآخرين أن يتموا العمل » ، وانسحب  
كريك ، وتأخرت تس ، وخرج مستر كلير من الصف ، وبدأ يبحث عن الميدان  
خبط عشواء ، ولما دنا منها دفعها اهتمامها لما سمته البارحة إلى السلام ، قالت  
« ما أجملها ! » . قال : « ما أجمل من ؟ » . قالت « إيزهبيوت ورتي » .

وكانت تس في سورة حنقها على نفسها قد أجمت رأيها على أن إحدى هاتين  
الفتاتين تصلح زوجاً مختارة لزارع ، وعولت على تركيتهما لديه لتغنيا أمام ناظريه  
على محاسنها الماثرة الجد ؛ قال : « ما أجملها ؟ نعم ، ها جيلتان ، ها ناضرتا  
الطلعة ، هذا ما رأيته دائماً » . قالت : « ولكن يا لسوء طالمهما ! ليس الجمال  
يباق ! » . قال : « أجل ، ذلك محزن » . قالت : « ها أيضاً عاملتان حاذقتان » .  
قال : « نعم ، وإن لم تكونا أحذق منك » . قالت : « ها أحذق مني بكشط الربد »  
قال : « أحقا ؟ » وظل كلير يراقبهما ، وكاتتا تبادلانه نظراً بنظر ، وقالت تس  
بلهجة الظفر : « لقد تورد وجهها » . قال . « وجه من ؟ » قالت : « وجه رتي  
يريدل » ، قال : « ولم ؟ » قالت : « لأنك تنظر إليها » .

ومهما كان ميل تس إزاء ذلك إلى التضحية والإيثار ، فلم يكن في إمكانها أن  
تريد قائلة : « تزوج إحداها إن كنت حقا تريد عاملة ألبان لا سيدة نبيلة المنبت ،  
ولا تفكر في زواجي ! » وتبعت صاحب الضيعة ، وسرها وآلمها مما أن تخلف  
كلير ، ومنذ ذلك اليوم كانت تتحاماه ولو كان تقابلهما محض اتفاق ؛ ومنحت  
الثلاث الأخريات كل فرصة .

واستنبطت تس من غصون نصريحاتهن لها أن شرف جميع العائلات كان تحت  
رحمته ، وقد أجلته تس لما رأت من حرصه على تجنب ما يمس سعادتهن أدنى  
مساس ، ولم تكن تتوقع مثل ذلك الشعور بالواجب ومثل ذلك الضبط لجاح النفس في  
فرد من أفراد الجنس الآخر سواء أكانت مخطئة في ذلك أم كانت مصيبة ؛ ولولا نبل  
عاطفة كلير لانفطرت قلوب كثيرات من المحيطات به ، ولربكن في الحياة طريقاً وعمراً .

## ٢٣

هجم حر بولية على القوم من حيث لا يشعرون ، وخيم على الوادى المنبسط جو ثقيل راكد ، شمل الضيقة إنسانها وحيوانها وأشجارها ، وهطلت الأمطار ساخنة تزيد الأعشاب التى ترعاها الأبقار ترعرا . وتعطل صنع الكلا فى الحقول الأخرى ؛ وفى صباح أحد أيام الآحاد ، بعد أن حلبت الأبقار وعادت الماملات المتزوجات إلى مساكنهن ، راحت تس وصويحباتها الثلاث يلبسن أحسن ثيابهن على عجل ، وكن قد اتفقن على زيارة كنيسة ملستك ، على مدى أميال ثلاثة أو أربعة . وكانت تس قد أقامت فى الضيقة شهرين ، وهذه أولى رحلاتها .

وكانت المواصف قد أبرقت وأرعدت عصر اليوم السابق ، حتى جرفت بعض الكلا من الحقول إلى النهر ؛ أما فى هذا الصباح فقد أعقب ذلك الطوفان شمس مشرقة بهجة وجو صاف مسجسج ، وكان الطريق المتعطف المؤدى إلى «ملستك» تجرى بعض أجزائه فى أشد الوهاد انخفاضا ؛ فلما بلغت الفتيات أخفض موضع إذا السيول النهمرة قد غمرت الطريق حتى رسّفت مسافة خمسين ذراعا ، ولم يكن ذلك ليعرقل سيبلهن فى أيام العمل ، بل كن يخضن تلك البركة بأحذيتيهن العالية غير مكترئات . أما فى هذا اليوم يوم التباهى والظهور ، الذى يفاضل فيه الجسمُ الجسمَ رغم التظاهر بالانصراف إلى شؤون الروح ، وفى هذه المناسبة التى يلبسن لها جواربهن البيضاء وأحذيتيهن الرقيقة ، وأبرادهن بين أبيض وقرنفلى وأرجوانى ، التى تظهر على أديمها أصفر نقطة من وحل ، أما فى هذه الظروف فكانت البركة عائقاً خطيراً ، وكن يسمعن ناقوس الكنيسة على مدى ميل وقد بدأ يدق .

وصعدن إلى قمة ضفة الطريق ووقفن عليها موقفاً خطراً ، يردن أن يواصلن السير على ذلك النشز حتى يجاوزن البركة . وقالت ماريان : « من كان يتوقع

فيضان النهر على هذا النحو في الصيف ؟ » وتوقفت رتي يائسة وقالت : « لا سبيل إلى الوصول إلا أن نخوضها أو أن نأخذ طريق تيرنبايك الطويلة ، فنصل متأخرات جداً ! » قالت ماريان : « وإني لأتندى خجلاً حين أدخل الكنيسة متأخرة والأحداق مصوبة إلى ، فلا يسكن روعى حتى يبدأ النشيد » وإنهن لفي حيرتهن تلك إذ سمعن رشاشاً ، وبدا إينجل كلير من المنطف يخوض الماء صوبهن وعندما خفقت قلوب أربعة في وقت معا .

وكان ملبسه بعيداً عن المظهر الدينى في ذلك اليوم المقدس ، شأن أبناء الورعين المتزمطين من القسس ، فقد كان مرتدياً ملابس العمل في الضيعة وحذاءه العالى وفى قمبته ورقة كرنب ييرد بها رأسه ، وفى يده منجل تتم به أبهة منظره ؛ قالت ماريان : « هو غير ذاهب إلى الكنيسة » ثم غمغمت : « ليتة يذهب ! » والحق أن إينجل كلير كان يؤثر منابر الصخور على منابر الكنائس فى أيام الصيف الصاخبة — سواء أكان مصيباً أم كان مخطئاً فى ذلك ، كما يقول المتناظرون التحفظون — هذا إلى أنه قد خرج فى هذا الصباح لينظر إن كان التلف الذى أنزله السيل بالكلأ جسيماً ، وكان قد لمح الفتيات من بعد وإن شغلن ما هن فيه عن ملاحظته ، وكان يعلم أن الماء قد طنى فى تلك الناحية وأنه سيعتض طريقهن ومن ثم أسرع إليهن وفى ذهنه فكرة لم تنضج بعد عن طريقة مساعدتهن ، ولا سبباً إحداهن .

وبدت الحسان الأربع التوردرات الحدود المتألفات العيون فانتات فى ثيابهن الصيفية الخفيفة ، وهن متعلقات بجانب المرتقى كالحائم يبعض الأعراش ، فوق وهلة يتأملهن من مدى قبل أن يدانينهن ، وكانت أذيالهن الرقيقة قد علقت جما غفيراً من ذباب الحشائش وفراشاتها ، وظلت تلك الهوام عاجزة عن الخلاص محبوسة فى النسيج الشفاف كأشهن منه فى أقفاص ، واستقرت عين إينجل أخيراً على تس وراء الثلاث الأخريات ، وكان وجهها يفيض ضحكا من غمتهن تلك ، فقابلت نظره وسياؤها تتألق جبوراً .

وتقدم حتى قام من دونهن في الماء ، ولم يبلغ الماء أعلى حذائه الطويل ، ووقف يتأمل الذباب والفرش المحبوس ، وقال يخاطب ماريان التي كانت في الطليعة ، ويعني الآخرين الواقفتين خلفها ويتجنب تس : « هل أنتن شاخصات إلى الكنيسة ؟ » قالت : « نعم يا سيدى ، والوقت متأخر جدا ، وإنى لأتندى خجلا حين ... » فقاطعهما قائلا : « سأحملكن واحدة واحدة عبر البركة » فتوردت وجوههن جميعا كأن قلبا واحدا خفق فيهن جميعا ، وقالت ماريان : « لا إخالك تستطيع يا سيدى » ، قال : « هذه هى السبيل الوحيدة لمروركن ، اثبتن في مكانكن ، يا للحقاقة ! لستن من الثقل بحيث يعجزنى حملكن ؛ بوسى أن أحمل أربتمكن سويا ، والآن انتبهى يا ماريان وضئ ذراعيك حول كتفى هكذا ، هلمى ، أمسكى جيدا ، هكذا » .

هبطت ماريان إلى ذراعه وكتفه كما أشار ، وسار بها لينجل وقد بدا قوامه النحيل من خلفه كأنه عود باقة هى من فوق مجموعة أزهارها ، حتى اختفيا خلف منعطف المرتفع ، ولم يعد ينبئ بموضعهما إلا حفيف خطاه في الماء والشريط الأعلى في قبعة ماريان ، ثم لاح ثانية بعد دقائق ، وكانت إزهيوت الثانية في ترتيب الوقوف فتتممت : « ها هو ذا عائد ، وعلى أن أطوق عنقه بذراعى ، وأنظر في وجهه كما فعلت ماريان » فأجابتها تس : « لا ضير في ذلك » ، واستطردت إيز غير حافلة بما قالت تس : « لكل شيء أوان : فللعناق أوان ، وللامتناع عن العناق أوان ، وقد حل الأوان الأول » قالت تس : « تبأ لك يا إيز ! أهكذا تقتبسين فقرات الإنجيل ؟ » قالت إيز : « نعم نعم ، إني لأستوعب كل ما أسمع في الكنيسة من الآيات الطريفة » .

ولم تكن ثلاثة أرباع هذه المهمة التي أخذها اينجل كبير على عاتقه إلا عملا عاديا من أعمال المروءة ، وتقدم إلى إيز فهبطت بين ذراعيه في أناة وعيناها تحملان ومضى بها بخطى مصممة ، ولما سمعت خطاه عائدا كاد قلب رقى يطفر من فوقها خفقانا ، ومشى إلى هذه الفتاة الحمراء الشعر ؛ وبينما كان يتناولها رنا إلى تس



بنظرة أفصح من شفثيه مقالا : « سأكون أنا وأنت وحدنا عن قليل » وبدأ على وجهها أنها قد فهمت ، ولم يكن بوسعها إخفاء ذلك ، فقد كان بينهما تعاطف . وكانت رقى السكينة — على أنها أخف من الأخريات كثيراً — أشق عبء احتمله كليز في ذلك الهار ، وقد كانت ماريان كأنها غرارة من الشعير ثقيلة اختلجت في حملها سافاه ، وكانت إيز من بعدها هادئة معقولة ، أما رقى فكانت شعلة من الاضطراب ؛ على أنه تخلص منها وتركها في مكانها وعاد ؛ وكانت تمس تستطيع أن ترى من خلف سياج صوحيباتها الثلاث مجتمعات حيث وضعهن على المرتفع التالي .

والآن جاء دورها ، وهالما أن تحس في نفسها عند دنو عيني مستر كليز وأنفاسه ضعف ما أنكرت من تهيج صوحيباتها ، وكأنها أرادت أن تخفي اضطرابها بالتمنع فقالت : « لعل أستطيع تسلي جانب النشر ، إلى أمهر منهن تسلياً ولا بد أنك تعب جدا يا مستر كليز » ، فقال على الفور : « كلا يا تس » ، وقبل أن تشعر كانت جالسة في ذراعيه مستندة إلى كتفه ، وهمس إليها ملحاً إلى الإنجيل : « ثلاث لياها من أجل راشيل واحدة » ، فأجابت متشبثة في حزم بمزيمتها التي وطنت النفس عليها من قبل : « هن فتيات خير مني » ، قال : « في غير عيني » ، وراها تتورد لذلك فسار خطوات بلا كلام ، حتى قالت : « أرجو ألا أكون شديدة الثقل » ، قال : « كلا ، فأتكون ماريان ؟ يا لها من عبء ! إن أنت إلا موجة قد أدفأها الشمس ، وهذا الثوب الموصلي هو الزبد » ، قالت : « ما أجل هذا إن كنت هكذا تراني ! » .

قال : « ألا تعلمين أنني حملت مشقة ثلاثة أرباع هذا العمل لأجل الربع الرابع ؟ » قالت : « لا » ، قال : « أنا لم أكن أتوقع هذا الأمر اليوم » ، قالت : « ولا توقعته أنا ، لقد طنى الماء فجأة » ، بيد أن تردد أنفاسها قد كذب دعواها حين تظاهرت بأنها إنما ظنته يشير بقوله إلى طغيان الماء ، وقال : « ويحك يا تس ! » واتقدت وجنتاها ولم تعد لاضطراب عواطفها تستطيع النظر إلى عينيهِ ، فخيّل إليه أنه يستغل

موفقاً عارضاً استغلالاً غير كريم ، فلم يزد ، ولم تكن كلمات الحب قد جرت على لسانيهما بعد ، ورأى الأجل الوقوف عند ذلك الحد ، على أنه سار على مهل كي يطيل المسافة جهد المستطاع .

وأخيراً وصلا إلى النمط وأصبحا يمرأى من الأخريات ، ثم بلغ الأرض الجافة وأزلهما ، ورأت تس صاحباتها ينظرن إليها وإليه بعيون متأملة مستطلمة ، وبدأ لها أنهن كن يتحدثن في أمرها ، وحياهن على عجل وانفتل راجعاً يخوض الماء ، وتقدم الأربع من جديد حتى قطعت ماريان الصمت بقولها : « الحق ألا أمل لنا إزاءها » ، ونظرت إلى تس في وجوم ، فقالت هذه : « ماذا تعنين ؟ » ، قالت : « هو أشد إثارة لك وشفقاً بك ، لقد رأينا ذلك واضحاً وهو يحملك ، وكان بوده لو يقبلك لو شجته أدنى تشجيع » ، فقالت تس : « لا ، لا » .

وزالهن الاغتياب الذي بدأ به رحلتهن ، على أنه لم يكن بينهن حسد أو حقد ، فقد كن فتيات كريمات النقيصة ، قد نشأن في أركان الريف المنعزلة حيث يسود الاعتقاد بالقضاء والقدر ، فلم يلغنها بل آمن أن تقدمها عليهن قدر محتوم ؛ أما تس فكانت في مضض شديد ، فلم يكن يخفى عليها أنها تحب إينجل كلير حبا جما ، لعل مرجع بعضه علمها أن الأخريات يحملن له نفس الحب ، فإن عاطفة الحب تعدى لا سيما بين النساء ، بيد أن هيامها هي زاد الأخريات حرارة ، وقد قاومت تس ذلك الميل بما طبعت عليه من وفاء ، ولكن كانت مقاومتها ضعيفة تلها النتيجة المحتومة .

ولما احتوتهن حجرة النوم في ذلك المساء قالت لرقى ودموعها تجري : « لن أقف في سبيلك ولا في سبيل أية واحدة منكن ، إن هذا الأمر يعجزني ، فلست أحسبه يفكر في الزواج ألبتة ، ولكن هي أنه سألتني فسأرفضه كما سأرفض أي رجل » ، فعمجت رقى وقالت : « ترفضين ؟ لماذا ؟ » ، قالت تس : « هذا محال ، ولكن دعيني أصارحك أنه حتى ولو لم أكن هنا لم يكن ليختار أية منكن » ،

فقلت رتى فى زفير : « لم أتوقع ذلك يوماً ولا خطرتلى يبال أنه يفعل ، ولكن ... ليتنى مت قبل هذا ! » .

كانت الفتاة المسكينة نهب شعور لا تعرف كنهه ، والتفتت إلى الآخرين وقد ظهرتا صاعدتين فى الدرج وقالت : « نحن وهى صديقات من جديد ، إنها لا تأمل أن يتزوجها أكثر مما نأمل » ، وهكذا ارتفع لشام التحفظ وأقبلن يتحدثن فى صراحة وحرارة ، قالت ماريان وقد بلغ منها الوهن : « أنا لم أعد أبالى ما أصنع ، لقد كنت أنوى زواج عامل ألبان فى ستكفورد ، تقدم إلى مرتين ، ولكنى والله أوثر أن أبجع نفسى على أن يبنى بي الآن ! لماذا لا تتكلمين يا إيز ؟ » فغمضت إيز : « أنا أعترف أنى كنت واثقة أنه سيقبلنى هذا الصباح وأنا فى ذراعيه ، وقد سكنت فى حضنه مستسلمة للأمل لا أتحرك ، ولكنه لم يفعل ، أنا لم أعد أطيق البقاء هنا فى تلبوثيز ، وسأعود إلى بلدى » .

وكان جو الحجرة كأنه يخفق خفقان عاطفة الفتيات البائسة ، ورحن يتملكن ويتحرقن تحت كل شكل تلك العاطفة القاهرة ، التى أرهقتهن بها سنة الطبيعة ، تلك العاطفة التى لم يتوقعنها ولم يردنها ، وقد أظهرت حادثة ذلك اليوم النار التى كانت تضطرم تحت أضلاعهن وأبرزت شعلتها ، ولم يمدن يطقن اضطراباً ، ومحت هذه العاطفة المشتركة ما يبينهن من فروق فردية ، ولم تمد كل واحدة منهن إلا جزءاً من مجموع هو الجنس ، وكانت الصراحة مطلقة يبينهن والغيرة معدومة ، لأن الأمل كان مفقوداً .

كانت كل منهن على جانب من حسن البصر بالأمور ، لا يعميها عن الحقائق غرور ، ولا تنكر حبها ولا تدعى ما ليس فيها تحاول الظهور على الأخريات ، وقد أورثن تمام إدراكهن عقم غرامهن وعدم تجاوب صدها فى الجانب الآخر ، وإعواز كل مبرر لوجوده فى نظر المدينة ، وإن لم يموزه شئ فى نظر الطبيعة ، وتحليقه بهن إلى عنان العاطفة المتحركة — أورثن كل ذلك تسلياً وسمو نظرة كان يقضى عليهما قضاء مهيباً لو كان لديهن أمل فى الظفر بصاحبهن والفوز بزواجه .

ورحن يتقلب في مضاجعهم الصغيرة ، وقطرات ماء الجبن تنساقط من الآلة في الطبقة السفلى من البيت تساقطاً راتباً عملاً ، وبمد نصف ساعة همست إحداهن : « أما تزالين يا تس ؟ » وكان ذلك صوت إزهيوت ، فأجابت تس إبتاتاً ، وعندها قذفت رتي وماريان غطاءيهما عن جسدیهما وتهدتا قائلتين : « ونحن أيضاً ! » وقالت إحداهن : « ليت شعري كيف تلك السيدة التي يقال إن أهله اختاروها له ؟ » قالت إيز : « ليت شعري ! » فأجفلت تس وصاحت : « السيدة التي اختاروها له ؟ أنا لم أسمع بهذا من قبل » قالت : « نعم هذا ما يشاع همساً ، وهي سيدة من طبقته ، أبوها دكتور في الإلتهیات یقیم على كسب من أبرشية أبيه ، ويقال إنه لا يهواها ولكن من المحقق أنه سيتزوجها » .

ولم يكن قد سمعن عن هذا الأمر إلا النزر اليسير ، ولكنه كان كافياً ليشدن منه هياكل ضخمة من الرؤى المؤلة تحت حاشية الليل ، وتحيلن تفاصيل إقناع أهليه إياه بالقبول ، وحفلة الزفاف ، وسعادة العروس ، وثوبها وخمارها ، وبينها السعيد معه ، وقد سُحب عليهن وعلى هيامهن به ذيل النسيان ، وهكذا استطردن في الحديث والتأوه والنحيب حتى مسح النوم برقاه أحزانهن .

وبعد اطلاع تس على ذلك السر ودعت كل خاطر أحمق يتحدثها بأن وراء احتفاء كبير بها طائلاً أو مغزى مقصوداً ، إن هو إلا إعجاب بوجهها لمجرد الإعجاب سيذهب بذهاب الصيف ، وكان أوجع ما وخزها من تلك الفكرة الأليمة إحساسها أنها — وهي التي تحظى دون الأخريات بإشاره ، والتي تعلم أنها أجل وأبرع وأعمق شعورا منهن جميعا — كانت في نظر العرف واللباقة أقل جدارة به من المتواضعات اللواتي أعرض عنهن .

### ٣٤

كان من المحال ، وقد نضجت الطبيعة في وادى فروم ، وسرت الحرارة في أوصالها ، وكاد يسمع ديب الماء في عيدانها وصوت التفتح والأخصاب في أوراقها وبراعمها ، ألا تتحول أتفه العواطف حبا حارا ، وقد زادت القلوب المتفتحة اضطراباً بفعل ذلك الوسط ، وتصرم شهر يوليو ، وتلته أيام كأنها مجهود من الطبيعة تبذله لتأليف القلوب في ضيعة تلبويز ، وآخض هواء ذلك المكان الراكد ثقيلًا على الأعصاب ، بعد أن كانت منمشا في الربيع وأوائل الصيف ، وعادت روائحه شديدة الوطأة ؛ وإذا ما حلت الظهيرة بدت الطبيعة كأنها نشوى ، وجفت تلك الحرارة المحرقة مراعى المنحدرات العليا ، بينما ظلت ضفاف الغدران خضراء زاهية ، وكان كبير واقما بين نارين : حر الطبيعة من الخارج ، وحر هيامه من داخل نفسه بتس الوديمة الصامته .

كانت المرتفعات قد جفت بعد إقلاع السماء ، فكانت عربات محجلة كريك إذا قفل من السوق مسرعا تلعق تراب الطريق الساقى ، ويتبعها حيث مضت شريطان طويلان من الغبار كأنهما سلكان أوقدا لإشعال قبيلة ؛ وكانت الأبقار تتوثب هائجة على بوابة الحظيرة ذات القصبان الخمسة ، وقد أطارت صوابها وخزات الدباب الكبير ؛ وكانت ذراعا كريك دائما مشمورتين من الاثنين إلى السبت ، ولم يمد فتح النوافذ يكفي للتهوية إلا أن تفتح معها الأبواب ، وكانت المصافير ترحف في الحديقة زحف ذوات الأربع لا توثب ذوات الجناحين ، وانتشر الدباب في المطبخ كسلان متطفلا مخنقا ، يزحف في كل مكان من الأرض إلى الأدراج إلى ظهور أيدي الخالبات ، وكان الحديث يدور غالبا حول ضربة الشمس ، وكاد يستحيل صنع الزبد بله حفظه ؛ وأصبح القوم لا يملكون إلا في المروج طلبا للبرودة والسهولة ، بدل سوق الأبقار إلى الداخل ، وكانت البهائم هناك طول اليوم تدور

صغيرة ذليلة مع ظل أسفر شجرة كلما تقدم النهار ، ولا تكاد تفر في مكانها ساعة الحلب من لدغات الهوام .

في عصر أحد تلك الأيام اتفق وقوف أربع بقرات أو خمس ناحية من بقية القطيع خلف ركن السياج ، وكانت بينهما دملن وبريتي المعجوز اللتان تؤثران يدى تس ، وفرغت تس من حلب بقرة أخرى ونهضت ، وكالت إينجل كلبير يراقبها منذ حين ، ففرض عليها حلب البقرات سالقات الذكر ، فوافقت في صمت ويممتمهن ، حاملة مقعدها في ذراعها الممدودة وحلبها بيدها الأخرى مستنداً إلى ركبتهما ، وسرعان ما تصاعد من خلف السياج خرير لبن بريتي المعجوز في الواء ، ورأى إينجل أن يذهب هو أيضاً وراء الركن ليفرغ من حلب بقرة حرون قد تسربت هناك . وكان قد حذق ذاك حذق صاحب الضيعة نفسه .

وكان جميع الحالبين وأكثر الحالبات عند العمل يعملون جباههم في جانب البقرة وينظرون إلى الحلاب ، ولكن بعض النساء ولا سيما الشواب كن يسندن صفحات وجوههن إلى البهائم ، وتلك كانت عادة تس ، فكان جانب وجهها ملتصقا إلى جانب البقرة ونظرتها ذاهبة إلى أقصى المرج ، كأنها غارقة في التأمل ، وكانت تحلب بريتي المعجوز ، وقد سقطت أشعة الشمس على جلبابها القرفلى وقلنسوتها البيضاء وصفحة وجهها ، فكان صفحة وجهها حجر ثمين متألن اللون رصع به أديم البقرة الأدكن .

ولم تكن تعلم أن إينجل قد تبعها ، وأنه كان جالسا إلى بقرته يراقبها ، وكان رأسها وملاحها ساكنة على حال رائمة ، وكانت عيناهما مفتوحتين ولكن كأنهما لا تبصران وكأنهما في غيبوبة ، ولم يكن يتحرك في تلك الصورة إلا ذيل بريتي ويدا تس القرفليتان ، وكانت يداها تتحركان في رفق كأنهما تابعتان توقيما موسيقيا ، وكأنهما تتحركان حركة تلقائية كنبض القلب ، وما كان أحب وجهها إليه إذ ذاك ، على أنه لم يكن وجهها أثيرى المنظر بل كان حقيقيا بفيض حرارة وحياة .

وطالما رأى إينجل عيوناً عميقة ناطقة كمينها من قبل ، وخدوداً تكديها

ناضرة ، وأهدابا مقوسة وذقنا وجيدا صقيلين ، ولكنه لم ير فما يحكى فيها أبداً : فقد كانت ارتفاع وسط شفيتها العليا ساحرا جذابا يبعث الجنون إلى رأس أقل الشبان حرارة ، ولم ير قبلها شفتين وأسنانا تذكره دائماً بتشبيه الشعراء الإليزابيثيين للفم بوردة حشيت برداء . ولعله كان لتوقد حبه يمد شفيتها وأسنانها صورة للكمال ، ولكن الحق أنها لم تكن كذلك ، وقد كان تقصيرها دون الكمال وإشرافها مع ذلك على بلوغه مرجع تلك الملاحظة ، لأن ذلك كان مظهر الإنسانية فيها .

وقد درس كبير تينك الشفتين مرارا حتى صار من السهل عليه استحضارها في غيخته ، والآن إذ رآها أمامه مرة أخرى يكسوها الضوء والحياة ، فقد أرسلها إلى جسده خلجة وفي أعصابه نسمة كاد يقشعر لها بدنه ، وأثرت في جسمه تأثيراً فسيولوجيا خفيا انتهى بمطاسه ، وعند ذلك انتهت إلى أنه يراقبها ، ولكنها لم تظهر ذلك بأدنى حركة ، وإن زایل عيائها ذلك السهوم العجيب الشبيه بالحلم ، وكان في استطاعة من يراها من أم أن يلاحظ اشتداد تورد وجهها ، ثم انقشاع ذلك التورد إلا أثرا منه ضئيلا .

أما الشعور الذى سرى في كبير كأنه وحى من السماء فلم ينقشع ، وانخذلت إرادته وتصميمه وكبحه للنفس والتزامه للحكمة وخوافه ، كما تنخذل كتيبة مهزومة ، ووثب من مقعده ، وخلف محله عرضة للانكفاء إذا فكرت البقرة في رفضه ، وأسرع إلى قبله ناظريه ، وركع بجانها وضما بين ذراعيه ، وأخذت تس على غرة فاستسلمت لعناقه بلا وعى ، وإذا تحققت أنه محبوبها لا غيره هو الذى أقبل عليها على ذلك النحو ، انفرجت شفتاها وارتعت عليه في غبطتها الفاشية ، صائحة صيحة ارتياح خافتة ، وأوشك أن يقبل ذلك الثغر المفرد ولكنه ازدجر بوازع نفسى .

وهمس إليها : « مغفرة يا عزيزتى تس : كان ينبغي لى أن أستاذن ، ولكنى لم أع ما كنت أفعل ، ولم أقصد الهجوم عليك ولكنى متيم بك يا عزيزتى تس خلص القلب » ، وكانت ريتى المعجوز قد التفتت متعجبة ، وإذا رأت شخصين

جائعين دونها وعهدا من قديم ترى شخصا واحداً ، رفعت خلفيتها في غضب ، فصاحت تس : « إنها غاضبة ، هي لا تدري ما تفعل وسوف تكفى اللين ! » قالت ذلك وهي تحاول في رفق أن تتخلص من ذراعيه ، وعيناها تتابعان حركات البهيمة وقلبا أشد انشغالا بأمرها هي وكثير ، وهمت قابعة وقام بجانبها ، وما زالت ذراعه تطوقها ، وشخصت عينا تس إلى بعيد وترقرقت فيهما الدموع ، قال : « لماذا تبكين يا عزيزتي ؟ » فغمضت : « لا أدري » .

وثابت إلى نفسها قليلا وشمرت بموقفها فاضطربت وحاولت الانسحاب ، فقال وهو يتهدد تهدة يائسة كمن غلبته عاطفته على حكمته : « لقد بحثت بشموري يا تس أخيراً ، وما بي حاجة أن أقول إني أحبك حبا صادقا حارا ، ولكنني لن أزيد ، لأنني أرى ذلك يحزنك ، وإني لدهوش دهشتك ، إنما أرجو ألا تحسبيني مستغلا ضعفك ولا تعديني متهوراً مندفعاً » قالت : « لا ، لا أدري » .

وكان قد أرسلها ، وما هي إلا وهلة حتى عاد كلاهما إلى الحلب ، ولم يكن أحد قد لاحظ تقارب الاثنين وصيرورتهما واحداً ، ولما جاء صاحب الضيعة بعد دقائق إلى تلك الناحية لم يكن هناك أدنى دليل على أن بين ذنبك الشخصين المتباعدين في الجلسة تباعداً يئسناً ، أكثر من معرفة سطحية ، ولكن شيئاً كان قد حدث منذ رآهما كريك لآخر مرة ، فغير وجه الكون أمامها ، شيئاً كان يحققره ذلك الرجل العملي لو علم به ، وإن يكن أعمق غورا وأوطد أساساً من ألف مطلب مما يسمى بالطالب العملية ؛ لقد أميط اللثام ، واتجهت سيرة كل منهما إلى أفق جديد ، يتجهان إليه زمنا يطول أو يقصر .



النتيجة



٢٥

زحف الليل وبلغ اللال من كبير ، فخرج في الظلام وقد أوت صاحبة هواه إلى مضجعها ، وكان الليل ساخنا جافا كالنهار ، لارطوبة إلا على العشب ، وكانت الطرق ومماشي الحديقة وواجهة المنزل وجدران الحظيرة ساخنت كالمواقد ، تعكس الحرارة التي كسبتها في الظهر على وجه ذلك المدبج ؛ وجلس على البوابة الشرقية للقناء ، ولم يدرك كيف يفكر في نفسه فقد محق شعوره ففكره في ذلك اليوم ، وقد ظل المحبان متنازعين بعد تلك الماتقة منذ ثلاث ساعات ، وقد أذهلها ما حدث ولعله هالها ، وأزعجته جدة الحادث ومفاجأته وتغلب الظروف على إرادته رغم ما هو عليه من إيمان للتفكير وإحجام عن التهور ، ولم يكد يدرك بعد ما بينهما من علاقة ، وكيف ينبغي لهما أن يظهر أمام الآخرين من الآن فصاعدا . لقد جاء إينجل إلى هذه الضيعة متملذا ظانا أن مقامه بها سيكون أئفه مراحل حياته ، يمر بها سريعا وينساها وشيكا ، جاء إليها ليرقب من ملجأ المنزل الهادئ دينا الناس الخارجية المجاجة ، ويخاطبهم بقول وولت ويتمن : « يا جماعات الرجال والنساء المرتدية ملابسها المادية : ما أعجبك في عيني ! » ويصمم على خطة للانفجار في العالم من جديد ؛ ولكن ما راعه إلا أن يسمى إليه العالم العجاج حيث هو ، واستحال العالم الخارجي إلى مشهد سحيق مقفر من المتعة غير جدير بالاهتمام ، على حين اضطرم في نفسه من الشاعر الجائحة في هذا المكان الغمور البادى الإقفار ، ما لم يضطرم فيها من قبل في أى مكان .

وكانت نوافذ المنزل مفتوحة جميعا ، فكان في وسع كبير أن يسمع أخفت حركات القوم داخله وهم يأوون إلى مراقدهم ، وكان ذلك المنزل من الحفارة وضعية الشأن بحيث لم يهتم قبل اليوم بالنظر إليه ، واعتباره جزءا ذا بال من المنظر الطبيعي المحيط به ، ولم يكد يمدد إلا مقاماله في رحلة قصيرة المدى محدودة الغرض

أما الآن فكيف استحال ؟ لقد بدت شرفاته المتينة المنطاة بطفلي النبات كأنها تنأجيه : « أقم ! » وكأن النواخذ تبسم والباب يداعبه ويستدعيه ، والنبات المتسلق متورد خجلا من اشتراكه في السر ؛ لقد كانت داخل المنزل شخصية لها من التأثير البعيد المدى ما ينتشر في الآجر والملاط ، بل في السماء التي تظله ، وتجمل جميع ذلك بتوقد حرارة وشعورا ، شخصية من تلك ؟ شخصية عاملة ألبان .

لقد أصبح لحياة تلك الضيعة الغمورة منزلة في نفسه عجيبة ، وكان الحب الجديد بعض السر في ذلك ، ولكنه لم يكن كل السر ، وقد أدرك الكثيرون قبل إينجل أن عظم الحياة لا يقاس بضخامة أحوالها وظروفها المحيطة بل بعمق تجارب المرء الشخصية ، فحياة الفلاح الرقيق الحس أرحب وأعمق وأحفل من حياة ملك بليد الطبع ، ولما أدرك إينجل تلك الحقيقة أيقن أن الحياة يمكن أن تبلغ من العظم في هذا المكان مثل الذي تبلغ في أي مكان آخر .

وكان كبير على زيف عقيدته ومغامزه ومثالبه رجلا حي الضمير ؛ فلم يكن يعد تس مخلوقة حقيرة الشأن يلهو بها ثم يصرفها ، بل امرأة تحيا حياة ذات قيمة ، حياة تقاسمها أو تنعم بها ، ولها في نظرها من الخطر والكبر ما لحياة أعظم العظماء في نظر نفسه ، فقد كانت الدنيا في نظر تس متوقفة على مشاعرهما ، ووجود الآخرين في نظرها نتيجة لتجاربها ، ولم يوجد هذا الكون في فكرها إلا في نفس السنة ونفس اليوم الذي ولدت فيه .

على هذا الشعور في الوجود وغل كبير : على فرصة تس الوحيدة في الحياة التي منحها إياها باريها ، فكيف يمدها أقل شأنا من نفسه ويراها شيئا جميلا نافها يغازله حيناً ثم يسأمه ؟ وكيف لا يجد أشد الجد في معالجة تلك العاطفة التي كان واثقا أنه قد أثارها في نفسها ، بعد ما رأى من بليغ تأثيرها وعظيم وجدها رغم تحفظها الشديد ؟ إنه إن لم يفعل أدخل على نفسها الألم وجرها إلى الوبال .

وما إذا استمر على التلاقي كل يوم ازداد الأمر بينهما توتقا ، واشتد هيامهما

ما داما يعيشان على قرب ، ولا طاقة للحم والدم بمقاومة ذلك ؛ ولما لم يكن قد استقر رأيهم على قرار في عاقبة هذا الليل ، فقد صمم على الانقطاع في الوقت الحاضر عن كل عمل يجمع بينهما ، ولم يكن الأمر قد تفاقم بعد ، على أن ذلك التصميم كان متعذر التنفيذ : فقد كانت كل نبضة من نبضات قلبه تدفعه إليها ، ففكر في زيارة أصدقائه لمل عندهم في ذلك رأيا ؛ ولم يكن باقياً على انقضاء مقامه في هذه الضيقة إلا خمسة أشهر ، وبعد أشهر أخرى في ضياع أخرى يصبح تام البصر في الشؤون الزراعية كفوئاً لبدء حياته المستقلة ، أفلا يحتاج الفلاح إلى زوج ؟ وهل ينبغي أن تكون زوج الفلاح فتاة ناعمة جلس متديبات أم امرأة حاذقة بالفلاحة ؟ رد السكون على تساؤله هذا رداً أرضاه ، ولكنه صمم مع ذلك على الرحيل .

قالت إحدى العاملات وقد جلس الجمع إلى مائدة الفطور ذات صباح إنها لم تر مستر كلير ذلك اليوم ، فقال كريك : « لقد ذهب مستر كلير إلى بلده إمنستر ليقضى أياماً بين أهله » فانكشف ضوء الشمس فجأة في عيون المتيات به من بين الجالسين ، وخفضت الأطياف في مسامعهم أصواتها ، ولكنهن لم يبدن جزعهن بقول أو إشارة ، واستطرد صاحب الضيقة في غفلة لم يدر سوء موقعها على السامعات : « لقد أوشكت إقامته عندي أن تنتهي ، ويظهر أنه قد بدأ يرسم خططه في جهات أخرى » وكانت إزهيوت هي الوحيدة بين الزمرة المحزونة التي تجاسرت على الكلام دون أن تخشى أن يخونها صوتها ، قالت : « كم من الزمن سيقضي معنا ؟ » وانتظرت الأخريات جواب الرئيس كأن الحياة تتوقف عليه ، ورق منفرجة الشفتين تخلق إلى غطاء المائدة ، ووجه ماريان الأحمر يتقد حرارة وتس خافقة القلب شاخصة الطرف إلى الروج في الخارج .

قال كريك في فدامته الموهودة التي لا تطاق : « لا يمكنني تحديد اليوم حتى أنظر في مذكراتي ، وربما حدث تغيير بسيط وسيبقى هنا حتى يتمرن على نتج البقر فهو باق إلى انصرام الحول على ما أظن » . فأيقن الفتيات بأربعة شهور حافلة بالصباة واللوعة ، أو باللذة المشوبة بالألم ، ثم يمقب ذلك ليل حالك .

وكان إينجل كلير فى تلك الساعة راكباً يقطع طريقاً ضيقاً على مدى عشرة أميال من أولئك الجالسين إلى فطورهم ، يقصد مسكن أبيه القس ، يحمل فى صوبة سلة تحوى بسيسة وزجاجة فيها نبيذ رقيق ، قد حملهما إياه مسز كريك إلى والديه مشفوعتين بأكرم تحياتهما ، وكان الطريق الأبيض ممتداً أمامه وعيناه شاخصتين إليه ؛ إنه يهواها : أفيتزوجها ؟ أميجرؤ أن يتزوجها ؟ ماذا يقول أبوه وأخواه ؟ ماذا يقول هو نفسه بعد عامين من الزواج ؟ لقد كان هذا يتوقف على توثق الألفة الروحية بينهما بجانب العاطفة المارضة ، أو الاختصار على الولوع بحسنها الجسدى ولوعاً سطحياً وشيك الذهاب .

أخيراً ارتفعت أمام عينيه بلدة أبيه المحاطة بالتلال ، و برج الكنيسة البنى من القرميد على الطراز التودورى ، والأجمة القائمة بجانب مسكن القس ، وساق مطيته إلى البوابة الممهودة ، وقبل أن يدخل رى يبصره ناحية الكنيسة ، فرأى زمرة من البنات واقفة أمام حجرة المسوح فى الكنيسة ، كآتهن ينتظرن قادمة أخرى ، وسرعان ما لاحت هذه من بعد وكانت أسن من أولئك التلميذات ترتدى قبعة عريضة الخافة وجلباً صوفياً ناعماً منشى ، وفى يدها كتابان ، وكان كلير يعرفها حق المعرفة ، ولم يدر ألا حظته أم لا ، وود ألا تكون لمحته لأنه لم يكن يريد أن يذهب إليها ويمحادثها ، وإن لم يكن فيها عيب ، وجملته كراهيته لتحيتها يقرر أنها لم تره ، وكانت تلك مس ميرسى تشانت ، وحيدة جارهم وصديقهم التى كان أبواه يأملان أن يتزوجها يوماً ، وكانت جيدة البصر بالإنجيل تقول مع القائلين إن أحكام العهد الجديد تنسخ ما عداها ، وكانت على ما يظهر آتية لإعطاء درس فى ذلك ؛ وطار فكر إينجل عائداً إلى سكان وادى فار غير المثقفين الفارقين فى وهج الصيف ، الموردى الخدود ، القليلي الاحتفاء بالمذاهب الدينية ، المستوفزى الشعور ، ولا سيما واحدة منهم هى أحد الجميع شعورا .

كان إينجل قد قرر بنته أن يشخص إلى إمنستر ، ومن ثم لم يكن قد أخطر أبويه ، ولكنه كان يقصد أن يصل ساعة الفطور قبل أن يخرجوا إلى واجباتهما

فى الأبرشية ، على أنه تأخر قليلا وكان القوم قد جلسوا إلى المائدة ، فأكاد يدخل حتى وثبوا يرجون به ، وكان الحاضرون أبويه وأخاه القس فيلكس قس إحدى البلدان المجاورة ، وقد جاء يقضى نحو أسبوعين ، وأخاه كثبرت العالم بالأداب القديمة وأحد الممداء والزملاء بكليته ، وقد جاء من كمبردج فى زيارة طويلة ، وكانت أمه تردى قلنسوة ونظارة فضية ، وكانت تبدو على أبيه سياؤه الحقيقية : سياء الرجل الجاد الذى يخشى الله ، وكان يميل إلى النحافة فى نحو الخامسة والستين ، وجهه شاحب قد غصفته السنون والأفكار ، وكانت تتدلى على رؤوسهم صورة أخت إنجل ، كبرى الإخوة التى تكبره بست عشرة سنة ، وكانت قد تزوجت مبشراً ورحلت إلى إفريقيا .

كان مستر كبير الأكبر قسا من طراز بدأ يندثر فى الأعوام العشرين الأخيرة : فلقد كان خليفة روحيا لويكليف وهوس ولوثر وكلفن رجال الإصلاح الدينى ، شديد التعلق بالإنجيل واهباً نفسه لنشر تعاليمه ، يمارس بساطة الحوارين فى فكره ومعيشته ، قد ارتضى لنفسه فى صباه آراء جازمة فى كل مشكلات الوجود ، ثم أبى بعد ذلك أن يقبل فيها جدالاً ، وكان أبناء جيله ومدرسته أنفسهم يعدونه متطرفاً ، على أن معارضيه كانوا لا يسمعون إلا الإعجاب بمضاء إيمانه وانصرافه بكليته عن مناقشة المبادئ إلى تطبيقها ، وكان المهد الجديد فى نظره يمت إلى پولس بأكثر مما يمت إلى المسيح ، ويبدو له نشوة روحية لا معرضاً للجدال النظرى ، وكان يؤمن بالجبر إيماناً صارماً كاد يرتد رذيلة ، وكان إيمانه هذا من جانبه السلبي فلسفة إنكارية شبيهة بفلسفة شوبنهاور وليوباردى ، وكان يحتقر الطقوس والرموز فى الدين ، وكان يقسم بالمواد التسع والثلاثين التى يتألف منها قانون الكنيسة الانجليزية ، وكان على تناقض تلك المواد لا يرى فى إيمانه بها أى تناقض ، على أنه أية كانت آراؤه كان مخلصاً فى اعتناقها .

ولو عرف بالتساؤل أو بالتخيل تلك الحياة الطبيعية التى كان يحياها ابنه إنجل منذ حين فى وادى فار ، بتمتعها الحسية الوثنية وعنصرها النسائى الناضج المستوفز ،

لثار عليها ضميره غضباً وأنكرها إنكاراً ؛ وكان إينجل قد ساقه نحس الطالع إلى أن قال لوالده يوماً في ساعة ضيق ، إن الناس كانوا يكونون أسعد حالاً اليوم لو أنهم دينهم من بلاد الإغريق لا من فلسطين ، وغضب لذلك أبوه وكمد أشد الكمد ، دون أن يظن أقل الظن أن ابنه ربما كان قد أصاب ذرة من الصواب ، وإنما ظل بعد ذلك يثقل على ابنه بالوعظ ؛ على أن طيبة قلبه كانت تأتي أن يطول به الحق ، وقد استقبل ابنه اليوم ببسمة بارة كبسات الأطفال .

وجلس إينجل وأحس أنه في داره ، يسد أنه لم يعد يرى نفسه واحداً من أعضاء تلك الأسرة المجتمعة ، وكان يشعر بهذا الاقتراق كلما زارهم ، وقد بدت له حياتهم في هذه المرة أشد اختلافاً عن حياته مما عهدها من قبل ، فكانت مثلهم العليا المؤسسة من حيث لا يشعرون على نظرة إلى الحياة عتيقة ، تعد الأرض مركز الكون من فوقها الجنة ومن تحتها النار ، بعيدة عن فكره كأنها أحلام قوم يعيشون على كوكب آخر ، فقد كان منذ حين يعيش في أحضان الطبيعة ويشعر بنبض هذا الوجود الرحب ، لا تغله ولا تنوء به تلك العقائد الحقاء ، التي تحاول أن تحقق غرائزنا حيث تقضى الحكمة بمجرد تنظيمها .

ولاحظوا هم من جانبهم اختلافاً شديداً فيه عن إينجل القديم ، ولاحظ أخوا خاصة اختلاف عاداته ومسلكه : فقد تطبع بأحوال الفلاحين يجلس منفرج الرجلين بكليتهم ، وصارت عضلات وجهه أظهر تعبيراً ، وعينه تشارك لسانه فيما يقول أو يزيدان عليه ، وقد كاد يفيض مظهر طالب العلم المثقف ، به مظهر الشاب المذهب حليف المجالس ، فلو رآه متحدث بالعلم لقال إنه فقد ثقافته ، أو متأنق في السلك لقال قد انقلب فظاً غليظاً ، وهكذا أعدته مساكنة فلاحى تلوين و آرامها .

وبعد الفطور خرج يتمشى مع أخويه ، وكانا شابين ذوي عقيدة مترممة ، مثقفين مصبوبين في قالب واحد مصقولين إلى الناية أنيقين إلى النهاية ، من ذلك الطراز من التملين الكاملين الذين يخرجون مماثلين من قوالب التعليم المحكمة ؛



وكان كلاهما ضعيف النظر قليلا ، فكانا يلبسان عويئة واحدة حين كانت تقتضى المادة لبس عويئة واحدة ذات خيط مسترسل ، ثم لبسا عويئتين حين قضى العرف بلبسهما بنفض النظر عن حاجة أعينهما ؛ وحين كان وردزورث فى إقبال شهرته كانا يحملان طبعة جيبية من ديوانه ، وإذا شئت الغارة على شلى ، تركا ديوانه يَخْلَقُ على الرف ، وإذا أطرى أحد صور ( الأسرة المقدسة ) لكورجيو أطريا ( الأسرة المقدسة ) ، فإذا حط من شأن ذلك المصور وقدم فيلاسكوز عليه فعلا مثل ذلك بلا تردد ولا غضاضة .

وإذا كان هذان قد لاحظا شذوذ إينجل الاجتماعى التزايد ، فقد لاحظ هو زمتهما العقلى المتفاقم : فلم ير فى شخص فيلكس إلا الكنيسه ، ولا فى شخص كثبرت غير الكلية ، ذاك يعد اجتماعاته الدينية وزوراته لأبناء أسقفيته أساس الكون ، وهذا يرى كبردج ذلك الأساس ، وكان كلاهما يقرران مخلصين أن فى المجتمع المتمدين عدداً عديداً من الملايين العديمي القيمة ، ممن لا يمتنون إلى الجامعة ولا إلى الكنيسه ، وريان أن أولئك قوم يُصْبِرُ على وجودهم ويَحْتَمَل ، وإن كانوا لا يُؤوْنُ إجلالاً ولا اعتداداً .

وكانا ابني بارين زوران أبويهما فى مواقيت معلومة ، وكان فيلكس بين أغصان دوحه الكنيسه غصناً أحدث تفرعاً من أبيه ، ولكنه كان أقل إنكاراً للذات فى سبيل الكنيسه ، وانقطاعاً لمبادئها ، وكان أرحب من أبيه صدراً بآراء من يخالفه ، لا يمدحها كما يمدحها أبوه خطراً على صاحبها ، ولكنه كان أشد تأفقاً منها من أبيه ، يرى فيها ازدراء بتعاليمه لا بغتفر ؛ أما كثبرت فكان على العموم أوسع الأخوين فكراً وأنفذها نظرة ، وإن كان أبليها شعوراً .

وعاود إينجل ، وهم يشيرون بجانب سفح التل ، شعوره القديم بأنهما مهما فاقاه فى بعض النواحي ، فهما لا يريان الحياة على حقيقتها ، ولا يعبران عنها كما هى ، وكان يرى أنهما قد أعوزتهما فرص ملاحظتها وتجربتها وإن واتتهما فرصة تعلم التعبير عنها ، فلم تكن لأى منهما خبرة بالموامل المتشابهة التى تعمل خارج الوسط

الناعم المذهب الذى يضطربان فيه هما وأضرابهما ، ولا كان أى منهما يميز بين الحقيقة المحلية والحقيقة العامة ، أو يدرك أن ما يقال فى علمهما الكنسى والجامعى يخالف أشد المخالفة ما يراه العالم الخارجى .

راح فيليكس يخاطب أخاه الأصغر فى شتى الأمور ، مرسلًا بصره فى نظرة صارمة إلى الحقول من تحت نظارته ، قال : « لعله لم يعد أمامك اليوم إلا الفلاحة يا صاح ، ما لنا عن ذاك محيد ، بيد أنى أناشدك أن تبقى ما استطعت على صلة بالثل العليا ، نعم إن الفلاحة تستتبع الاخشيان ولكن التفكير العالى والحياة الساذجة يمكن مع ذلك أن يتفقا » ، قال إينجل : « طبعا ذلك ممكن ، ألم يتأت ذلك مرة منذ تسعة عشر قرنا — إذا غفرت لى وغوى على مجالك ؟ لماذا تظن يا فيليكس أنى أهجر تفكيرى العالى ومثلى الخلقية ؟ » قال : « لقد خيل إلى — ولعل هذا لا يبدو حد الوهم — بعد قراءة رسائلك والاستماع إلى حديثك ، أن عقليتك فى اضمحلال ، ألم تلاحظ ذلك يا كثبث ؟ » قال إينجل فى لهجة جافة : « أصغ إلى يا فيليكس : نحن كما تعلم صديقان حميان ، يتخذ كل منا طريقه فى الحياة ، أما إذا جاء حديث العقلية فأولى لك أن تدع عقلىتى وشأنها ، وأن تسائل نفسك فى أمر عقليتك أنت ، وأنت ذلك القانع بعقائده يقلد فيها تقليداً أعمى » .

وعادوا أدرأجهم لتناول الغداء ، الذى حدد مواعده فى أية ساعة يفرغ فيها أبواهما من أعمالهما فى الأبرشية ، وكان آخر ما يفكر فيه مستر ومسر كبير المتفانيان فى عملهما ، راحة من يزورها بعد الظهر ، وإن كان الإخوة الثلاثة يقولون جميعاً بوجوب مراعاة أبويهم عادات المصر ، وكان المشى قد أجاعهم لاسيما إينجل الذى أصبح رجل حقل متموداً مائدة مستر كريك المحملة بالطعام فى غير نسق ، ولكن الوالدين لم يكونا قد عادا بعد ، ولم يعودا إلا وقد عيل صبر أبنائهما ؛ وكان الزوجان المضحيان بالنفس يعالجان بعض مرضى الأبرشية ، يحاولان فتح شهيته ، يردان استبقائه مسجوناً فى سجن اللحم ، وإن كان فى ذلك مناقضة لتعاليمهما ، وقد نسيا شهية نفسيهما .

وجلس الجميع إلى المائدة ، ووضعت أمامهم أكلة هزيلة قوامها اللحم البارد ، ودار إينجل بعينه يبحث عن بسيسة مسز كريك التي طلب أن تهلك له كما تهلكها مسز كريك ، وكان يريد أبويه أن يمتدحا مذاقها ويستطيا توابلها كما يستطيعها هو . حتى قالت مسز كلير : « أنت تبحث عن البسيسة يا بني ، ولكن لملك إذا أخبرتك بالحقيقة لا يحزنك التنازل عنها كما لا يحزن أباك أو يحزنني ، فقد اقترحت عليه أن نأخذ هدية مسز كريك الجميلة إلى أبناء الرجل العاطل المصاب بالتبقيع من أثر الشراب ، فوافق أبوك على أن ذلك يفرحهم كثيرا ، وهذا ما فعلناه » ، قال إينجل مبتسما : « نعم ما فعلنا » ، والتفت يبحث عن النبيذ فقالت أمه : « وقد وجدت ذلك الشراب كوكليا إلى درجة لا يصلح معها أن تتعاطاه ، وإنما رأيت أنه قد يصلح دواءً فوضعت في صيدلية المنزل » ، وأضاف والده : « مبادثنا لا تسمح بتناول الكحول على هذه المائدة » .

قال إينجل : « ولكن ماذا أقول لزوج صاحب الضيعة ؟ » قال أبوه : « تقول لها الحق بلا تردد » ، قال : « لقد كنت أحب أن أقول لها إننا استطبتنا حلواءها وشرابها جدا ، فهي امرأة كريمة طروب ستبادهني بالسؤال حللا أعود » قال مسز كلير في هدوء : « لن يمكنك أن تقول ذلك ما دمنا لم نفعل » ، قال إينجل : « طبعلا لا » ، وأردف مربعا عن استطابته ذلك النبيذ في لفظ رقيق لم يفقهه أخواه فصاحا ممتا : « ماذا ؟ » فأجر وجه إينجل وقال : « ذلك تعبير يستعملونه في ضيعة تلبويز » ، ورأى أن أبويه مصيبان في تنفيذ مبدئهما ، وإن أخطأ في عدم مراعاة شعور الآخرين ، وسكت .

٢٦

لم يتح لإينجل كليل أن يختل بآبيه يفاتحه في موضوع أو موضوعين يشغلان نفسه إلا في المساء ، بعد فراغ الأسرة من الصلاة ، وكان قد جمع غزمه لذلك الغرض وهو راكع خلف أخويه على البساط ، يتأمل المسامير في كموب نعالها . ولما انتهت الفريضة خرجا وبقى هو وأبوه وحدهما ؛ وياحث الشاب أباه أولا في خططه التي ترى إلى اتخاذ مزارع واسعة النطاق ، إما في إنجلترا أو في المستعمرات ، وقد قال له والده إنه وقد أعنى من الإنفاق على دراسته في كمبردج ، قد شعر أن واجبه أن يدخر كل عام قدرا من المال قصد شراء أرض أو استئجارها له يوما ، كيلا يظن أنه قد فرط في حقه ، واستطرد : « ولا شك أنك — فيما يتعلق بالثروة المادية — ستفوق أخويك كثيرا بعد قليل » .

وشجبه هذا الاهتمام والكرم من جانب أبيه ، على الاستطراد إلى الموضوع الذي هو أعلق بشغاف قلبه ، فقال لأبيه إنه قد بلغ السادسة والعشرين ، وأنه متى بدأ حرفة الفلاحة احتاج إلى معين يشرف على شؤونه ويتعهد منزله حين يكون هو في الحقل ، وسأل ألا يجدر به في تلك الحال أن يتزوج ؟ فاستحسن أبوه الفكرة ، فسأله إينجل : « فأى النساء أصلح لفلاح مجد مقتصد ؟ » فقال أبوه : « امرأة مسيحية تقية ، تمينك وتريحك في خروجك ودخولك ، وكل ما عدا ذلك لا يهم ، ومثل هذه يسهل الاهتداء إليها ، والحق أن صديقى وجارى الجليل الدكتور تشانت ... » ، فقاطعه إينجل : « ولكن ألا ينبغي أن تعرف كيف تحلب البقر وتصنع الزبد والجبن ، وترقد الدجاج وترى الكتاكيت ، وتدير العمال في الحقل إذا قضت الضرورة ، وتقدر أثمان الأغنام والمجول ؟ » .

قال أبوه ولم يكن قد فكر في هذه الأمور من قبل : « طبعا ، طبعا ، امرأة فلاح ، طبعا يحمل بها ذلك ، وقد كنت أريد أن أزيد أنك إذا أردت امرأة

طاهرة نقية ، لم تجد امرأة ترضيك وترضيني أنا وأمك كصديقتك (ميرسى) التى كنت دائماً تميل إليها ؛ نعم إنها قد اقتبست أخيراً عادة الناشئين من رجال الدين حولنا هنا ، أعنى عادة ترين منضدة الاجتماع الكنسى — التى هالتي منذ أيام أن سمعتها تسميها المذبح — بالزهور وغيرها فى أيام الاحتفالات ، ولكن أباهما الذى يعارض تلك البدع معارضتى يقول إن من الممكن معالجة ذلك ، وأنا لا أراها إلا نزعاً صبيانية طائشه لن تطول » ، قال إينجل : « نعم ، نعم ، ميرسى نقية طاهرة ، أنا أعلم ذلك جيداً ، ولكن ألا تظن يا أبى أن امرأة طاهرة طاهرة مس تشانت ، فاضلة مثلها ، ولكنها تعرف شؤون الضيعة معرفة الفلاح ، وإن كانت تنقصها خبرة مس تشانت الإكليروسية ، هى أصلح له حليلة ؟ » .

وأصر أبوه على أن الخبرة بمطالب المزرعة ذات أهمية ثانوية ، إذا قيسَت بالنظر إلى الإنسانية نظرة القديس بولس ، وكان إينجل رغم اندفاعه حريصاً على إجلال شعور أبيه ، حريصاً مع ذلك على تركية لبانة نفسه ، فتلفظ وقال إن القدر أو العناية قد ألقت فى طريقه امرأة تجمع كل المواهب التى يجب أن تتوفر فى زوج الفلاح ، وهى مع ذلك امرأة على خلق عظيم ، وليس يدرى أمن أتباع مدرسة أبيه هى أم لا ، يعنى مدرسة الكنيسة السفلى ، ولكنه يعلم أن من السهل ضمها إلى تلك المدرسة ، فإنها فتاة دينية مواظبة على الذهاب إلى الكنيسة ، ساذجة الإيمان ، مخلصه القلب ، ذات فطنة ورشاقة ، طاهرة بارعة الجمال .

وكانت أمه قد تسلمت فى الحجرة ، وراعها ما سمعت فقالت : « أمى من أسرة تليق بك ، أو بالإيجاز هل هى نبيلة ؟ » فأجاب إينجل فى حزم : « ليست نبيلة بالمعنى الذى تستعمل فيه تلك الكلمة ، فإننى فخور أن أقول إنها ابنة كوخ ، ولكنها رغم ذلك نبيلة الطبع والشعور » ، قالت : « ميرسى تشانت من أسرة طيبة جداً » ، قال : « أف لهذا ! ما جدوى ذلك يا أم ؟ كيف تنفى الأسرة الطيبة عن زوج فلاح عليه أن يحيا حياة خشنة ؟ » فأجابته أمه شاخصة إليه من خلال نظارتها الفضية : « ميرسى مهذبة مكلمة ، وفى ذلك من الجاذبية ما فيه » .

قال : « أما تهذبُ المظهر وكال النظر فاغناؤه حيث أنا ذاهب ؟ وأما الاطلاع فأمر أستطيع أن أنهض به ، وستكون صاحبتى تليذة نجية ، وستحكيين بذلك إذا رأيتها ، فإنها تفيض شعرا ، شعرا واقعيا إن صح هذا التعبير ، إنها تحيا الحياة التي إنما يدونها شعراء الطروس مجرد تدوين ، وأنا واثق أنها مسيحية لا غبار على عقيدتها ، ولعلها من ذلك القبيل ، أو القالب ، أو النوع الذي تعملان على نشره » قالت : « وبحك يا إنجيل ، أنت تنندر علينا » ، قال : « عفوا يا أم ، إنما الحقيقة أنها تنابر على الذهاب إلى الكنيسة كل أحد ، وأنها مؤمنة مخلصه ، ولا ريب أنكما تفضيان عن قصورها الاجتماعي في سبيل تلك الفضيلة ، وتدركان أني ربما اخترت من هي دونها » ؛ وهكذا أطنب إنجيل متحمسا في تقريب ذلك الإيمان التقليدي الذي تتحلى به محبوبته تس ، ولم يكن يحلم من قبل أن إيمانها ذاك سيفيده في يوم من الأيام ، فائدته الآن ، وإنما كان قبل ذلك يتسم منه حين يراها هي وزميلاتها مقبلات على أداء فرائضه ، إذ كان يراه مظهرا زائفاً وسط حقائق الطبيعة وإيمانها الصحيح

وقد ارتاح مستر ومستر كلير إلى تحلى الفتاة المجهولة بذلك الإيمان الذي كان يحزنهما ارتياهما في تحلى ابنيهما به ، ورأيا أن سلامة عقيدتها مزية لا يستهان بها ، لا سيما وقد اعتقدا أن العناية هي التي جمعت بينها وبين الشاب : إذ لم يكونا يعتقدان أن إنجيل من تلقاء نفسه يشترط صحة العقيدة فيمن يميل إلى زواجها ؛ وأخيرا قالوا بالآ داعي للتمجّل وأنهما لا يمانعان في رؤيتها ، ومن ثم لم ير إنجيل سببا لزيادة الحديث عنها ، وكان يرى أن أبويه على صفاء طويتهما وسعيهما في سعادة الغير ، يحملان من التعصب لطبقتهما الاجتماعية مالا يتغلب عليه إلا الحكمة ، فإنه وإن كان حرا في حدود القانون أن يفعل ما يشاء ، وكانت صفات زوجه لا تؤثر في حياة أبويه أدنى تأثير ، إذ الأرجح أنها ستعيش بعيدة عنهما ، فقد كان برّه بهما يأبى له أن يجرح شعورهما في أهم خطوة يخطوها في حياته .

وتنبه إنجيل إلى تناقضه بإطنايه في ذكر حقائق من حياة تس كأنها

خصائص جوهرية ، على حين أنه إنما كان يحبها من أجل نفسها وقلبها وطبيعتها ، لا لمهارتها في صناعة الألبان ، ولا لاستمداها للتلميذ عليه ، ولا لمرعاتها في سذاجة شعائر دينها ، فهو لم يكن بحاجة إلى طلاء التقاليد بحسن إلى نفسه طبيعتها الطلقة المرسلة ، فقد كان يعتقد أن التعليم لم يؤثر بعد تأثيراً يمتد به في المواطن والنوازع التي تتوقف عليها سعادة البيت ، وكان يرجح أن وسائل التعليم الخلقى والعقلى إذا حسنت على مدى الأجيال ، أمكن أن ترفع طبائع الإنسان المستعصية وغرائزه غير الواعية إلى مستوى محمود مشهود ، ولكنه كان يرى أن التعليم إلى عهده لم يؤثر إلا في اللحاء العقلى من حياة أولئك الذين وقعوا تحت تأثيره ، وقد ثبتت عقيدته تلك تجربته للنساء ، وقد انتقلت تلك التجارب من الطبقة الوسطى الثقافة إلى المجتمع الريفى ، فعلمته أن الفرق الجوهرى بين امرأة عاقلة مستقيمة فى إحدى الطبقتين ، وأخرى عاقلة مستقيمة فى الطبقة الثانية ، أقل جداً من الفرق بين العاقلة والمحقة ، أو بين المستقيمة والفاصلة فى الطبقة الواحدة .

وجاء يوم رحيله ، وكان أخواه قد خرجوا فى رحلة على الأقدام إلى الشمال ، بفترقان بعدها ، هذا إلى جامعته وذاك إلى مكتبه ، وكان فى وسع إينجل أن يرافقهما ولكنه آثر أن يعود إلى حبيبته فى تلبوتز ، وعلم أنه يكون نائى المكان فى تلك الرحلة ، لأنه وإن كان أصدق إخوته نزعة إنسانية وأسماء فكرة دينية ، بل أوسعهم علماً بتاريخ المسيحية ، كانت قد حلت الوحشة بينه وبين أخويه منذ تمرد على المستقبل الذى أعدّ له ، حتى أنه لم يفاتح أياً منهما فى حديث تس .

وأعدّت له أمه قطعاً من السندوتش ، ورافقه أبوه جزءاً من الطريق على مهرته ، وكان إينجل قد زكى حاجته لدى أبيه تركية حسنة ، فاستراح إلى أن يصنى فى صمت إلى وصف أبيه لمتابعه فى الأبرشية ، وتجاوى زملائه القسس الذين أحبهم ، لتشده فى تفسير العهد الجديد على ضوء عقيدة كانوا يرونها عقيدة كلثنية مترمة ، قال فى لهجة احتقار صاعدة من صميم قلبه : « مترمة ! » ومضى يستعرض التجارب التى تفند آراءهم ، وتحدث عن العدد العبد من اهدتوا أو تابوا على

يديه من فقراء وأغنياء ، واعترف صراحة بإخفاقه في مواطن أخرى .  
 وذكر مثالا لإخفاقه شابا ثريا ناشئاً النعمة يدعى دربرفيل ، يعيش على مدى  
 أربعين ميلا في أرباض ترتدج ، فقال ابنه : « أهو سليل آل دربرفيل الراقدين  
 في كنجزير وغيرها ، تلك الأسرة التاريخية العجيبة البائدة ، ذات الخرافة المربعة  
 التي تدور حول المركبة والحياد الأربعة ؟ » قال أبوه : « كلا ، لقد انقرض أولئك  
 من ستين أو ثمانين عاما على ما أعلم ، أما هذه فأسرة على ما يظهر جديدة دعية  
 انتحلت اللقب ، وآمل أن تكون كذلك ، وإلا كانت عاراً على فرسان دربرفيل  
 الأقدمين ، بيد أن من العجيب أنك تهتم بالأسرات القديمة ، لقد حسبتك أقل  
 احتفالاً بها حتى منى أنا » .

قال إينجل في شيء من التملل : « أنت تسيء فهمي يا والدي ، أنت كثيراً  
 ما تسيء فهمي ، أما من وجهة السياسة فأنا أشك في قيمة عرافة تلك الأسرات ،  
 وبعض العقلاء منهم هم أنفسهم يتصلون من منتهام كما يقول همليت ، وأما من وجهة  
 الأدب والتاريخ فلي بهم أرق الصلات » ولم يكن هذا تمييزاً دقيقاً يمسر فهمه ،  
 بيد أنه كان دقيقاً في نظر مستر كلير الأكبر فعجز عن فهمه ، ومضى في قصته  
 التي كان بدأها ، وخفاها أنه بعد موت المدعو دربرفيل الأكبر ، فجر ابنه وفسق  
 مع أن له أما عمياء كان يُتوقع أن تردعه حالما عما جنح إليه ، وقد بلغت أخباره  
 مسامع مستر كلير حين كان يعظ في تلك النواحي ، فلم يتردد في محادثة الشاب  
 المستهتر في شأن نفسه ، فقد أحس بأن ذلك واجبه ، رغم أنه كان غريباً يقوم  
 على منبر غيره ، واقتبس أمام الشاب قول القديس لوكاس : « أيها الأحمق !  
 ستطلب منك روحك هذه الليلة ! » فثار الفتى على هذه الصدمة ، وتلت ذلك  
 معركة كلامية ، لم يتورع فيها الشاب عن سب مستر كلير علناً ، دون رعاية  
 لوقار شبيهه .

وعند ذلك احمر وجه إينجل أما وقال : « نشدتك يا أبي ألا تستهدف لهذا  
 الإيلام بصيكتك به الفجار ! » . قال أبوه وقد تهلت أساريره طرباً بإنكاره ذاته :



« الإيلام ؟ أنا لم يؤلنى إلا حالته هو ، يا ويح الحدث الغر المسكين ! أتحسب كلماته الحادة بل ضرباته كانت تؤلنى ؟ ( نحن إذا شتمنا بآركنا ، وإذا اضطهدنا احتملنا ، وإذا أهنا توسلنا ، نحن خلقنا من نطفة مهيبة ومازلنا أخبت الأشياء طينة ) هذه الكلمات النبيلة التى وجهت إلى آل كورنثى ما تزال صحيحة إلى ساعتنا هذه . »

قال إينجل : « أرجو ألا يكون قد تمادى إلى الضرب ؟ » قال : « لا ، لم يفعل ، وإن كنت طالما تلقيت ضربات السكرارى » قال : « لا ! » قال : « عشر مرات يا بنى ، وما فى ذلك ؟ إننى نجيتهم بذلك من قتل أبناء لحمهم ودمهم ، وقد عاشوا حتى شكروني وحمدوا الله . » قال إينجل فى حرارة : « لعل الله يهدى ذلك الشاب إلى مثل هذا ، وإن كانت كلامك يوحى بغير ذلك » قال مستر كلير : « لنأمل ذلك على كل حال ، وأنا لا أنقطع عن الدعاء من أجله ، وإن كان الأرجح أننا لن نتلاقى على هذا الجانب من القبر ، ولكن لعل كلمة من صوالح كلئى تنبت فى صدره وتصير غرسا مباركا يوماً ما . »

وكان الأب يبدو إذ ذاك — كما كان يبدو دائماً — مخلصا ساذجا كالطفل وكان ابنه — وإن لم يؤمن بمقائده الموروثة — يجل مسلكه ويراه بطلا فى زى قسيس ، ولعله صار أشد إجلالا له الآن إذ رآه وهما يتحدثان فى أمر تس لا يتساءل أموسرة هى أم مفلسة ، وقد كان هذا الزهد منه فى حطام الدنيا سبب اضطرار إينجل إلى كسب رزقه بالزراعة ، وسيكون على الأرجح سبب خصاصة أخويه ما عاشا ، ولكن إينجل رغم ذلك كان يجل هذا الزهد ، والحق أن إينجل — على زيف عقيدته — كثيرا ما رأى نفسه أشبه بأبيه إنسانية من كلا أخويه .

## ٢٧

واصل إينجل طريقه زهاء عشرين ميلا يرفعه نجد ويهبط به غور ، وقد توهجت حوله الظهيرة ، حتى انتهى عصرا إلى تل منفرد على مدى ميل أو ميلين غربى تلبويز ، ومنه أطل ثانية على تلك المساحة الخضراء المربعة الرطبة ، المسماة وادى فار أو فروم ، ولم يكد يأخذ في الهبوط إلى تلك التربة الخصبة الدسمة حتى شعر بثقل الجو ، فقد كانت العطور الكثيفة وفاكهة الصيف والضباب والكلأ والأزهار ، تؤلف في ذلك الوادى بركة مترامية من الرائحة ، تبعث الخمول في أجسام الحيوان بل في النحل والفراش .

وكان كبير قد صار تام الخبرة بذلك النكان ، حتى لقد عرف كل بقرة باسمها حين رآها من بعيد متفرقة في أطراف المروج . وشعر بالنبضة إذ رأى قدرته على النظر إلى الحياة من داخلها في هذه الأنحاء ، على حال لم يكن له بها عهد أيام دراسته ، ورغم شديد حبه لأبويه أحس أن عودته من بينهما إلى هذا الوادى ، هو بمثابة إماطة اللقائف والأغلال عن نفسه ، لا سيما وقد كانت تلبويز حرة من ذلك النير الذى يظلل المجتمعات الريفية الإنجليزية ، فلم يكن لها سيد مالك مقيم فيها .

ولم يكن خارج الضيعة في تلك الساعة إنسان ، بل كان كل يحظى بقلوته التى كان الاستيقاظ المبكر في الصيف يجعلها ضربة لازب ، وكانت المحالب ذات الأطواق الخشبية المتشعبة بالاء البيضاء من كثرة الحك ، معلقة كأشها القبعات على مشجب مركب فوق جذع بلوطة مقشور مهيا هناك لهذا الغرض ، وكلها مجهزة لحلبة النساء ، ودخل إينجل واجتاز مماشى الدار الساكنة إلى جانبها الخلقى حيث أنصت برهة فسمع غطيظا متواصلا آتيا من غرفة العربية حيث ينام بعض الرجال ، وسمع لفظ الخنازير آتيا من مكان أبعد ، وكان الكرب والروند الكبير

الأوراق ناعمين أيضا ، وقد تراخت أعضاء تلك النباتات العريضة في الشمس كأنها مظلات مقفلة نصف إقفال .

وخلع عن حصانه الشكيمة ، وقدم له الملف وعاد إلى الدار ، ودقت الساعة الثالثة ، وكانت تلك ساعة كشط الزبدة بعد الظهر ، فلم تكذب حتى سمع صرير السقف الخشبي ، ثم صوت خطى تهبط الدرج ، وكانت تلك تس ، وما هي إلا وهلة حتى استوت أمام عينيه ، ولم تكن قد سمعته يدخل ، ولا كانت تعلم بوجوده هنا ، وتساءلت حتى رأى داخل فها أحمر كغم الثعبان ، ورفعت إحدى ذراعيها فوق شعرها المروكوم حتى رأى نومتها السندسية فيما يلي الجزء الذي تلوحه الشمس منها ، وكان وجهها محمرا إثر النوم ، وجفونها مرمجة على مقلتيها ؛ لقد كانت أنوثتها الكاملة تفيض من جسمها في تلك الساعة التي تتجسم فيها روح المرأة أكثر مما تتجسم في وقت آخر ، وحين يعرب الجبال الروحاني عن نفسه في شكل جسماني ، ولا يكون للجنس في ذلك الإعراب إلا دور ثانوي .

ثم تأملت تانك العيان من خلال جفونها الرقيقة المتناقلة قبل أن يتم تيقظ بقية وجهها ، فارتسمت عليها سماء الفرح والحجل والدهشة مؤتلفة أثلافا عجيبا وقالت : « أو ! مستر كلير ! شدمأ أفزعتنى ! » ، ولم يكن قد أتيج لها الوقت لتفكر في علاقتهما الجديدة التي أقامها بينهما تصريحه ، ثم تصاعد الشعور التام بتلك العلاقات إلى وجهها حين لمحت النظرة الرقيقة المرتسمة على وجه كلير ، وهو يمشى إلى الدرجة السفلى من السلم ، وهمس وهو يطوقها بذراعه ويضم وجهه إلى خدها المحمر : « عزيزتى تس : ناشدتك ألا تدعيني مستر بعد اليوم ، لقد عجلت بالعودة من أجلك » .

خفق قلب تس السريع التأثر بجانب قلبه كأنما يجاوبه ، ووفقا على بلاط المدخل الأحمر ، وأشعة الشمس تنبسط من النافذة على ظهره ، وهو يضمها إلى صدره بشدة ، وتنبسط على وجهها المطرق وشرابين صدغها الزرقاء ، وذراعها المارى وجيدها وفي أعماق لفائف شعرها ؛ وإذا كانت قد نامت في ثيابها العادية ، فقد

كانت دافئة كقطعة قد اصطلت في الشمس ، وكانت بادئ الأمر تأتي أن ترفع بصرها إليه ، ولكن سرعان ما ارتفعت إليه عينها ، وشخصت عيناه في أعماق حدقتها الدائمتي التغير ، المترقتين عن أخضر الألوان وأسودها وداكها وبفسحها ، وهي ترمقه كما لعل حواء قد رمقت آدم في بقظتها الثانية .

قالت : « يجب عليّ أن أذهب لكشط القشدة ، وليس لي معين اليوم إلا (دب) المعجوز ، فقد ذهبت مسر كريك ومستر كريك إلى السوق ، ورتي علية ، وقد خرج الآخرون ولن يمودوا إلا وقت الحلبة الثانية » وبينما هما عائدان إلى حجرة الحلب ظهرت دبورا فياندر على الدرج هابطة ، فقال كليز رافعا إليها بصره : « لقد عدت يا دبورا ويمكنني أن أساعدك في الكشط ، وما دمت أنت تعبنة فلا حاجة بك إلى النزول حتى يحين وقت الحلب » .

لم تكشط القشدة في مزرعة تلبوتيز على الأرجح كشطاً جيداً في ذلك اليوم : فقد كانت تس في حلم تلوح فيه الأشياء ذات ألوان وظلال وحيز ، ولكن ليس لها شكل محدد ، وكلما حملت المكشط تحت صنبور الماء تبرده ارتعشت يداها ، فقد كانت تنتفض تحت حرارة جبه الوهاجة ، كما يتقبض النبات في وقدة الشمس ، ثم ضمها كليز إلى صدره مرة بعد أخرى ، ولما فرغت من إجاللة سبابتها داخل حوائى الأواني لفصل حروف القشدة ، نظف صاحبها سبابتها بالطريقة الطبيعية ، فقد ألف كليز عادات تلبوتيز .

وعاد يقول في رفق : « يجدر بي أن أفاطمك الآن بلا توان ، في أمر عملي خطير ما زلت أفكر فيه منذ ذلك اليوم في الأسبوع الماضي في المروج : فسأحتاج إلى الزواج عما قريب ، وسأحتاج ما دمت مزارعاً إلى امرأة تحبني إدارة المزارع ، فهل لك أن تكوني تلك المرأة يا تسي ؟ » وقد صاغ سؤاله في تلك الصورة ، كيلا تتوهم أنه يتقدم إليها في نزوة هوجاء ينكرها عقله فيما بعد ، وعند ذلك ارتسم على وجهها الجزع والنم الشديد ، فقد كانت رضخت للنتيجة المحتومة لمعاشرته عن قرب ، وهي الهيام به ، ولكنها لم تتوقع هذه النتيجة الأخرى التي عرضها عليها

كبير نفسه ، دون أن يقصد أن يتسرع على هذا النحو .  
أحست أن قلبها يهتز لوعة وغصة ، وتمتمت بالجواب الذى حدثها أمانتها  
وشرفها إلى إعداد ردا على مثل طلبه : « مستر كبير ! لا يمكننى أن أكون زوجاً  
لك ، هذا محال ! » فدهش لقلها ، وقال وهو يشدد عناقها فى شغف : « عجبا  
يا تس ! أترفضين ؟ ألا تحبيننى ؟ » قالت : « بلى ، وإنى لأترك زوجاً على كل رجل  
آخر ، ولكن لا يمكننى أن أتزوجك ! » فبسط ذراعيه بها ونظر إليها من بعيد  
وقال : « أنت إذن مخطوبة لآخر » ، قالت : « كلا » ، قال : « فلم ترفضيننى ؟ »  
قالت : « لا أريد أن أتزوج ! أنا لم أفكر فى الزواج بعد ! ولا يمكننى أن أفعل !  
لا أريد إلا أن أحبك ! »

قال : « ولكن لماذا ؟ » فاضطرت أن تتذرع بذريعة فقالت : « إن أباك  
قسّ ولن ترضى أمك بمثل لك زوجاً ، بل هى تريد أن تزوجك سيدة نبيلة » ،  
قال : « هذا كله هراء ، لقد فاتحتهما فى الموضوع وهذا بعض سبب ذهائى  
إليهما » ، قالت : « لا يمكننى أبداً . . . . أبداً » قال : « هل فاجأتك بالأمر  
يا حسناى ؟ » قالت : « نعم . . . لم أكن أتوقه » ، قال : « إذا غفرت لى ذلك  
يا تس فسامنحك الوقت اللازم للتفكير ، لقد كنت متعجلاً مفاجئاً إذ فاتحتك  
فى هذا بمجرد عودتى ، وسأمسك عن هذا الأمر حيناً » .

وعادت إلى المكشط اللامع فرففته تحت الصنبور وراجعت عملها ، ولكنها  
على فرط ما اجتهدت لم تعد تستطيع أن تصيب الجزء الذى يلى سطح القشدة  
مباشرة بالمهارة اللازمة ، فكانت تضرب فى اللبن حيناً وفى الهواء طوراً ، ولم  
تعد ترى ، إذ امتلأت عيناها بعبيرتين كبيرتين مترققتين ، أرسلهما إلى جفونها  
حزن عميق لا تستطيع أن تبسطه لأبر صديق لها وأوفى محام عنها ؛ قالت وهى  
تشيخ عنه : « لا أستطيع العمل ، لا أستطيع العمل ! » وأراد إنجنل الأريب  
أن يبعد إليها سكونها وانبساطها بطرق مواضيع عامة ، قال : « أراك لا تفهمين  
نفسية والدى » ، إنهما لأبسط الناس طبيعة وأشدهم تواضعاً ، وهما يتان إلى المذهب

الافنجيلي المنقرض ، هل تمتين إلى ذلك المذهب يا تس ؟ » .  
 قالت : « لا أدري » ، قال : « أنت تبارين على غشيان الكنيسة ، وقد  
 سمعت أن قسيسها ليس من أتباع الكنيسة العليا المتطرفين » ، وبدأتس أن  
 معلومات كثير عن مذهب القسيس الذي لم يستمع إليه قط ، أوضح وأدق من  
 معلوماتها هي التي تنصت إلى وعظه كل أسبوع ، فقالت قولاً مبهماً معماً تهرب  
 من الرد على ملاحظته ، قالت : « ليتني أستطيع أن أركز انتباهي على كل ما أسمع  
 هناك أكثر مما أفعل ، إن قصوري عن ذلك كثيراً ما يحزنني » ، وقد تكلمت  
 بسذاجة جعلت إينجل يتأكد أن أباه لن يعارض في زواجه بها لسبب ديني ،  
 وإن لم تدر أمذهبها مذهب الكنيسة العليا أم السفلى أم العريضة .

وكان كثير واثقاً أن عقائدها الحقيقية مزيج من المذاهب والطقوس معقد  
 مبهم لفتته في طفولتها ، على أن آخر ما كانت تحده به نفسه أن يعكر عليها صفو  
 تلك العقائد ، مهما كان من اختلاطها وتناقضها ، بل كان يتمثل بقول القائل :  
 « دع أخذك وشأنها حين تنهض لصلاتها التي شبت عليها ، وتسعد بعقائدها  
 المطمئنة ، ولا تكدر عليها بإشارة منك مربية حياة مؤلفة الأيام في غبطة وسلام »  
 وقد كان من قبل يحسب تلك النصيحة مقالا عذب الصيغة ولكنه فاسد المشورة ،  
 أما الآن فارتاح إلى اتباعها .

ومضى يسرد أبناء رحلته ويصف حياة أبيه وحماسته لمبادئه ، فعاودها جأشها  
 وذهب اضطراب يدها في الكشط . وكانت كلما انتقلت من إناء إلى إناء تبعها  
 وجذب الصمام لينسكب اللبن ، وأخيراً تجرأت على أن تقول وما تزال حريصة على  
 تجنب موضوعها : « لقد خيل إلى أنك كنت منقبضاً وأنت داخل » ، قال :  
 « أجل ، لقد كان أبي يحذني في مصاعبه ومتاعبه ، وهذا موضوع تنقبض له  
 نفسي ، فإن فرط حماسته يمرضه أحياناً للإهانة والرد القبيح من جانب مخالفيه في  
 الرأي ، ولست أحب أن أرى رجلاً في مثل سنه يهان ، لا سيما وأنا أعتقد أن  
 الاجتهاد لا يجدي إذا بولغ فيه » .

واستطرد : « لقد وصف لى مشهداً حديثاً كان له فيه موقف غير حميد : فقد ذهب منتدباً من بعض الجماعات الدينية يعظ في أرباض ترتدج ، على مدى أربعين ميلاً من مكاننا هذا ، وأخذ على عاتقه أن يحاور شاباً مستهتراً مبتدلاً لقيه هناك ، وهو ابن صاحب أملاك في تلك الناحية ، وأمه مبتلاة بالعمى ، وقد جبهه أبي الفتى بما لا يحب وكانت ضجة ، والحق أن أبي كان مخطئاً في مخاطبته رجلاً لا يعرفه ، وهو يعلم أن جدوى ذلك قليل ، ولكن هذا دأبه ، إذا اعتقد أن واجبه يقضى بعمل عمله ، مناسباً كان أو غير مناسب ، ومن ثم يخلق لنفسه أعداء ، لا بين الفجرة الفسقة فقط ، بل بين التسامحين التساهلين الذين يستكفون أن يضايقهم إنسان ، وهو يفخر بما كان ويأمل أن ينتج خيراً أجلاً ، ولكنى أود لو أبقى على نفسه وهو يتقدم في السن ، وترك أولئك الخنازير في حماهم » .

تقلصت معارف وجه تس ، وإن لم تبد اضطراباً ، وشحب فيها القاني ، وكان كبير في شغل بذكريات أبيه فلم يلاحظها ؛ وهكذا استمر في تقدمهما أمام صف الأواني حتى فرغاً منها واستقرغا كل ما بها ، وعندها عادت الماملات الأخريات ، وأخذن محالهن ، وجاءت (دب) المجوز تدق الأواني استعداداً للدين الجديد ، وبينما تس تنسحب تبغى الذهاب إلى الحقل قال لها في رفق : « ومطلبي يا تس ؟ » قالت : « لا لا ! مستحيل » ! قالت بصوت اليائسة التي سمعت كل مأساة ماضيها من جديد ، حين أشار في حديثه إلى دربرفيل .

ومشت إلى المروج ، ولحقت بالأخريات قافزة كأنها تريد الهواء الطلق أن ينفض عنها حزنها واقتباضها ، وتقدمت الفتيات إلى حيث كانت الأبقار ترعى في آخر مرج ، يسرن بخطوات نشيطة بخطوات الحيوان البرى ، في حركة النساء المتدفعات المتعودات على الفضاء الرحب الذى لاحد له ولا قيد ، الذى فيه يمنجن أجسامهن للهواء كما يمنح السابح جسمه للماء ؛ ورأى كبير وقد عاود النظر إلى تس أن من الطبيعى البديهي أن يختار لنفسه زوجاً من الطبيعة المطلقة ، لا مما تهب الصناعة التأنقة .

٢٨

كان رفض تس أمراً غير منتظر ، ولكن كبير لم يجزع له طويلا ، فقد كان ذا خبرة طويلة بالنساء ، يعلم جيداً أن السلب في أكثر الأحيان إن هو إلا مقدمة للإيجاب ، على أن خبرته كانت أضيق من أن توحى إليه أن في هذه الحالة سبباً استثنائياً غير التمتع والدلال ؛ وزاده وثوقاً باعتقاده ذاك كونها سمحت له بغافلته ، ولم يدر أن الفزل في المروج والحقول يعد غاية في ذاته ، وأنه هنا يطلب للذته وعذوبته ، على حين تفسد فكرة الاستقرار على بنات الأشراف الطامحات إلى المستقبل ، التمتع الصحيحة بالمطفة في حد ذاتها .

عاد كبير يسائل تس بعد أيام : « تس : لماذا أجيتني (لا) بذلك الجزم القاطع ؟ » فأجفت وأجابت : « لا تسألني لماذا ، لقد أخبرتك بكل السبب ، أنا لا أليق لك ، أنا غير جديرة بك » ، قال : « كيف ؟ ألا تليقني بي لأنك لست نبيلة ؟ » فتمتعت : « نعم ، ذلك هو السبب على وجه التقريب ، سيزدريني ذووك » ، قال : « الحق أنك لا تفهمين أبي وأمي ، أما أخوأي فلا أبالي ... » وهمت أن تفلت منه ، فاعترض طريقها قائلاً : « أنت لا تجدين في رفضي ، هذا محال ، لقد أفضضت مضاجعي حتى لم أعد أستطيع القراءة ولا العزف ولا أن أعمل شيئاً آخر ، أنا لا أتعجلك يا تس ، ولكني أريد أن أؤكد ، أريد أن أسمع من شفئك الحاريتين أنك ستكونين لي يوماً ، أي يوم تختارين »

ولم يسمعها إلا أن تهز رأسها وتحول عنه بصرها ، فغلق في وجهها يستقرى معارفها كأنها رموز هيروغليفية ، ولاح له أن الرفض رفض صادق ، فقال : « لا ينبغي لي إذن أن أمسك بك هكذا ، ليس لي الحق في هذا أو في البحث عنك ومسايرتك ، اصدقيني يا تس : هل تحبين غيري ؟ » قالت وما زالت تجاهد نفسها : « كيف يخطر لك هذا السؤال ؟ » قال : « أكاد أجزم بأنك لا تحبين



سواى ، ولكن لماذا تذودينى عنك ؟ » قالت : « أنا لا أذودك ، ويطربنى أن أسمع كلمات الحب منك ، لك أن تصرح لى بحبك أبان تذهب ، فلن أنكر ذلك منك » ، قال : « ولكنك لا ترضينى زوجاً ؟ » قالت : « هذا شىء آخر ، إنما أرفضك من أجلك ، ثق أنى أفعل ذلك حبا لك ! لا أستطيع أن أنال سعادة الوعد بتزوجك ، لأنى موقنة أنه لا يبنى لى أن أعد » ، قال « ولكن زواجى بك يسمدنى » قالت : « هكذا تظن ولكنك لا تدرى ! »

وكان يخشى أن يكون رفضها راجعاً إلى شعورها المتواضع بقصورها عنه فى المنزلة الاجتماعية والتهذب ، فكان يؤكد لها أنها مثقفة مرنة العقلية جدا ، وكان صادقا : فإن نباهتها وإعجابها به جعلها تقتبس تمبيراته ، ولهجة خطابه وشذرات من علمه إلى درجة محببة ؛ وكانت بعد هذه المناوشات التى تخرج منها ظافرة ، تنبذ مكاناً قصيا تحت بقرة منفردة إذا كان الوقت وقت الحب ، أو تتغلغل فى المروج أو تأوى إلى حجرتها إذا كان وقت فراغ ، وهناك تطلق لأشجانها العنان ولما تمض دقيقة على رفضها إياه ، رفضاً ظاهره الغفلة وعدم المبالاة .

لقد كان ذلك نضالاً عنيفاً : إذ كان قلبها هى مظاهراً لقلبه ، تظاهر القلبان على مناضلة ضميرها الأعزل المسكين ، فراحت تدرع العزم جهد ما تستطيع ؛ وكانت قد جاءت إلى تلبويز بمزجة مجتمة على ألا تخطو بأى حال خطوة تكبد من يتزوجها مرير المذاب فيما بعد جزاء على غفلته ، والآن أصرت على أن ما اعترمه عقلها أيام كان طلقاً زيهماً ، يجب ألا يغلبها عليه اعتباراً ما ؛ قالت فى نفسها : « ما بال أحد لا يخبره خبرى ؟ إنما كان الخطب على مدى أربعين ميلا فلم لم يصل إلى هنا ؟ لا بد أن إنساناً ما يعرف الحقيقة ! »

ولكن لم يبد أن أحداً يعلم ، ولم يخبره أحد ، وتصرم يومان أو ثلاثة ، وأدركت من سياء الوجوم على وجوه زميلاتها فى المذبح أنهن يدركن أنها لا تحظى لديه بالإشارة فقط ، بل بالاختيار أيضاً ، ولكنهن كن يعلمن جيداً أنها لم تتصد له ؛ ولم يمر بتس زمن كان فيه جبل حياتها مفتولا على هذا النحو من جديلتين

متناقضتين : إحداهما اللذة المفرطة ، والأخرى الألم المبرح .

ووجد العاشقان نفسيهما وحيدين مرة أخرى عند صنع الجبن ، وكان مستر كريك يعاونهما ، ولكنه هو وزوجه كانا قد بدأ يحسان بما بين الاثنين من تواصل ، وإن كان العاشقان قد سارا بمنتهى الحذر حتى لم تحم حولهما إلا أوهى الشبهات ، وعلى كل حال تركهما صاحب الضيعة ومضى ، وكانا يكسران كتل الخثارة قبل وضعها في الجرار ، فكان ذلك أشبه بتحطيم كيات هائلة من الخبز الجاف ، وكانت يدا تس تبدوان قرنفليتين ناصعتين وسط يياض الخثارة الساطع ، وكان إنجل يضع الخثارة في الجرار بمحفتيه ، فأمسك عن ذلك ووضع يديه على يديها ، وكان كلاًهما مشغورين إلى ما فوق زنديها ، فأبحنى وقبل الشريان الباطنى من ذراعها الناعمة .

وكان صباحاً دافئاً في سبتمبر ، ولكن ذراعها للماستها الخثارة كانت باردة رطبة على فمه كالشب الجنى ، وكان عليها طعم ماء الجبن ، ولكن تس كانت شديدة التأثير كأنها حزمة من الإحساسات ، فاستحثت لسته ضربات قلبها ، واندفع الدم إلى أطراف أصابعها ، واحمرت ذراعها بعد أن كانتا باردتين ، ورفعت إليه طرفها كأنما قلبها يقول : « أيجدى التمتع بعد هذا ؟ ما أخلق أن يسود الصدق بين المرأة والرجل ، كما يسود بين الرجل والرجل » ، ولعت عيناها إزاء عينيه يبريق الإخلاص ، وارتفعت شفها العليا مفرقة عن ابتسامة خفيفة رقيقة .

قال : « أتعلمين يا تس لماذا فعلت هذا ؟ » قالت : « لأنك تحبني جدا ! » قال : « نعم ، وتمهيدا لمعاودة التوصل إليك » ، قالت : « لا تعد ! » وبدأ عليها الجزع من أن يخونها عزمها ، واستطرد : « تسى ! لست أدري لماذا تعذبنى هكذا ! لماذا تخيين أُملى ؟ يكاد يخيّل إلى أنك فتاة لموب تتلون كما تتلون بنات المدن كالحرباء ، وهذا آخر ما يتوقمه المرء في بقعة منعزلة مثل تلبوتز » ثم عاد يستدرك وقد لاحظ كيف آلمها مقاله : « ومع ذلك أنا أعلم يا عزيزتى أنك أصدق امرأة عاشت وأنقاها ، فكيف يخطر لى أنك امرأة غزلة ؟ خبرينى يا تس لماذا

ترهدين في زواجي ما دمت تهوينني على ما أرى ؟ »  
 قالت : « لم أقل قط إنى أزهد في زواجك ، وأنى لى أن أقول ذلك وهو غير صحيح ؟ » وأرهقها الموقف فاحتلجت شفها العليا واضطرت إلى الابتعاد عنه ، وبلغ من كليل الألم والدهشة حتى جرى وراءها ولحق بها في المشى ، وضمها بحجارة وقد نسي تلوث يديه بالبخارة وقال : « خبريني ! قولى لى إنك لن تكونى لإنسان سوى ! » فقالت : « أؤكد لك ذلك ، وسوف أعطيك جوابا شافيا إذا تركتني الآن ، سوف أخبرك بكل تجاربى ؛ وكل ما يتعلق بشخصى ، وكل شيء ! » قال مداعبا في لطف : « كل تجاربك يا عزيزتى ، طبعاً ، أى عدد منها تشائين ، لا بد أن عزيزتى تس قد مر بها من التجارب العديدة مثل ما مر بزهرة اللبلاب تلك التى تفتحت على وشيع الحديقة هذا الصباح ، خبريني بما شئت ولكن دعى ذلك القول المقوت بأنك غير جديرة بى » ، قالت : « سأحاول ، وسأنهى إليك كل أسبابي غدا ... الأسبوع القادم » ، قال : « يوم الأحد ؟ » قالت : « نعم ، يوم الأحد » .

وأخيراً أطلقها ، فلم تترث في فرارها حتى بلغت أشجار الصفصاف المشذب في الجانب المنخفض من الحظيرة ، حيث تستطيع الاختفاء التام ، وهنا ارتمت تس على لفائف الأعشاب الخشنة كأنها ترتدى على فراشها ، وظلت كذلك خافقة القلب يعركها الألم وتخطف أمامها لمحات من الجبور لم يستطع خوفها من النهاية أن يطفئها ؛ والواقع أنها كانت منساقة إلى المواقفة ، فإن كل نفس من أنفاسها المترددة ، وكل دفعة من دمها ، وكل خفقة في أذنيها ، كانت عوامل تظاهر الطبيعة في ثورتها على مبادئها التى اتخذتها لنفسها ، كان الحب يشير عليها بقبول زواجه بلا تبصر ولا تريت ، والاقتران به أمام المذبح دون أن تبوح بشيء ، مستهدفة في ذلك للفضيحة ، واختطاف حفظها من السعادة النامية قبل أن تسحقها أنياب الألم ، وخيل إلى تس وهى بين الفرع والجبور أن مشورة القلب هى التى ستسود في النهاية ، رغم شهور عزلتها وإيحائها على نفسها ، ورغم عراكها

وتأملاتها وخططها التي دبرتها لمستقبل منمزل صارم .

ومرت ساعة وهي في الصفصاف ، وسمعت قعقة الأواني وهي تؤخذ من مشاجبها ، ونباح الكلاب أثناء جمع البقر ، ولكنها لم تنهض للحلب ، فقد كانت تخشى أن يرى القوم اضطرابها ويمزوه صاحب الضيعة إلى الحب وحده ، فيداعبها في طيبة قلبه المهودة ، ولم تكن لها طاقة بذلك العذاب ؛ ويظهر أن حبيبها قد حظر حالتها المؤسسية فانتحل عذرا لعدم ظهورها ، فإن أحدا لم يبحث عنها أو ينادها ؛ ودلفت الشمس في منتصف الساعة إلى الأفق كأنها أتون هائل في السماء وبعد قليل ظهر على الجانب الآخر قرع عظيم الجرم كأنه يقطينة ، ولاح الصفصاف الذي أوسعه المشذبون قضا وتحيفا كأنه وحوش طويلة سلكية الشعور ، وهو مائل أمام القمر ؛ ودخلت تس وصعدت في الظلام .

ومر يوم الأربعاء وتلاه الخميس ، وكان كبير يتأملها من بعد مليا ، ولكنه لم يَفِعلْ على حريتها ، وكان ماريان وصاحبيتها شعرن أن أمرا ما يجري ، فلم يلحفن عليها في المقال في حجرة النوم وتصرم الجمعة وجاء السبت : غدا فصل الخطاب ! وسمعت تس وهي في فراشها إحدى الفتيات تنهد باسمه في منامها ، فقالت تس وقد أدركتها الفيرة وانتقد وجهها على الوسادة : « سأوافق وأرضى بزواجه ، فليس في طوقي غير ذلك ! لا يمكنني أن أدع غيري تفوز به ! ولكن هذه إساءة إليه وربما قتله اكتشافها فيما بعد ! يا لقلبي ! واشقوتاه ! » .

٢٩

جلس صاحب الضيعة كريك في الفد إلى مائدة الفطور ، وأجال في المال المهملين في المضغ نظرة المجر وقال : « من تظنون أرسل إلى كتاباً هذا الصباح ؟ » وخمن عامل أو عاملان ولم تخمن مسز كريك لأنها كانت تعلم ، قال صاحب الضيعة : « ذلك الوغد الفاجر چاك دولوب ، لقد تزوج أرملة منذ عهد قريب » ، فقال بعض المال : « چاك دولوب ؟ ذلك الفاسق ؟ يا للمجب ! » وكان ذلك الاسم سريع النفاذ في خاطر تس ، لأنه اسم الرجل الذي جنى على فتاته ثم تناولته بعد ذلك يد أمها المسراء وهو في المخضنة .

قال إينجل في غير انتباه وهو يقلب صفحات جريدة أمام مائدته الصغيرة ، التي كانت مسز كريك تنفيه عندها حرصاً منها على سمو مكانه : « هل تزوج ابنة تلك المرأة الشجاعة كما وعد ؟ » فقال مستر كريك : « هيهات ياسيدى ! ما كان ينوى قط أن يبر بوعده ؛ أما هذه الأرملة فكانت ذات يسار ، إذ كان يدخل يدها خمسون جنياً في العام أو نحو ذلك ، وهذا كل ما كان يطمع فيه ، وتمجلاً بالزواج ، وعندها أخبرته أنها بزواجها قد فقدت دخلها ، فتصوروا حالة صاحبنا حين سمع ذلك ! إنهما يمشيان عيشة القط والكلب منذ ذلك الوقت ، وهذا جزاء صارم يستحقه ، ولكن يا للمرأة المسكينة ! إنها لفي بلاء عظيم » .

قالت مسز كريك : « كان يجدر بالحقاء أن نخبره قبل ذلك أنه إن تزوجها فسيزعجه شبح زوجها الأول » ، قال زوجها في تردد : « نعم ، نعم ، ولكن الحقيقة واضحة : وهي أنها كانت تبني لنفسها بيتاً عامراً ، ولم تكن تحب أن تفقر بفقدان صاحبها ، ألا تحسبن أن الأمر جرى على هذا النحو يا فتيات ؟ » ونظر إلى صف العاملات ، فقالت ماريان : « كان يجب أن نخبره قبل نهوضهما إلى الكنيسة ، حين كان يتمنر عليه التقهر » ، قالت إيز : « نعم كان يجب عليها

ذلك » ، وقالت رتي في اندفاع : « كان يجب عليها أن تفهم أى رجل هو ، وأن ترفضه » ، قال كريك لتس : « وأنت يا عزيزتي ماذا ترين ؟ » قالت وفيها ممتلئ بالخجل والزبد : « أرى أنه كان يجدر بها أن تخبره بحقيقة الحال ، أو ترفضه ، لست أدري » .

قالت (بك نبز) ، وهي عاملة متزوجة تأتي من دارها كل يوم : « لعنة الله على لو فعلت شيئاً مما تصغن ، المثل يقول إن الغاية تبرر الوسطة في الحب والحرب ، ولو كنت في مكان تلك الأرملة لتزوجته كما تزوجته ، فإذا لامني على عدم إفضائي إليه بشيء عن رجلى الأول لم أرد إخباره به من تلقاء نفسي ، هويت عليه بالنشابة فبطحته أرضاً ، وكل امرأة تستطيع أن تفعل به ذلك الفعل ، وهو ذلك القزم الضئيل » ، وأعقب هذا القال المتدفق ضحك لم تشترك فيه تس إلا ببسمة حزينة ، فقد كان مأساة في نظرها ما يرويه مهزلة ، ولم تك تد تطبيق على جوارهم صبرا .

ونهضت ، وكانت تحس أن كليز سيتبعها ، فالتحذت سمتها في ممشي متعرج تتوئب في اندفاعها حول قنوات الري ، حتى وقفت بجانب نهر فار الرئيسي ، وكانت تمر بها كتل من الأعشاب المائية طافية قد اقتطعها الفلاحون في أعلى النهر فكانت تبدو كأنها جزر خضراء من الطحلب عائمة ، يخيل إلى تس أنها تستطيع أن تقف عليها ، وقد تجمعت صفائر من تلك الأعشاب حول الأعمدة المدقوقة في النهر لمنع البهايم من العبور خوفاً ؛ وراحت تس تستعيد في مخيلتها ذلك الموقف المعض حيث يتصاحك القوم من تلك المأساة المفجعة ، مأساة امرأة تبوح بقصتها وتكابده أشق ألم في حياتها ، كأنما يحق للناس التصاحك من شهيد ؛ وإذا كليز يناديه من خلفها وهو يعبر القناة قفزاً ويهبط بجانبها : « تس ! يا زوجي ... عما قريب ! » فقالت : « لا ! لا ! لا أستطيع ، من أجلك أنت يا مستر كليز ، من أجلك أنت أقول لا ! » قال : « تس ! » قالت : « ما زلت أقول لا ! » .

ولم يكن يتوقع ذلك . ومن ثم كان أجال ذراعه بعد مخاطبتها حول خصرها دؤبين شعرها المسترسل ؛ وكانت عاملات الضيعة ومنهن تس يتناولن فطورهن

مهدلات الشعور صباح الأحد ، ثم رجليها ويصففها تصفيفاً عالياً قبل الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يكن يتأتى ذلك قبل أن يحلبن البقر ، إذ يضطرهن الحلب إلى إسناد رؤوسهن إلى البقر ؛ ولو كانت تس قالت نعم بدل لا لكان قبلها ، تلك كانت نيته على الأرجح ، ولكن رفضها الجازم جعله يحجم بوازع نفسى ، إذ كان يراها لاضطرارها إلى مساكنته فى الضيعة فى مركز حرج ، لأنها كانت وهى المرأة مجبرة على ملاقاته من حين إلى آخر ، فكان يرى أن من الحيف أن يحاول الضغط عليها أو إغراءها بلطيف المغازلات ، وما كان ليحجم عن مثل تلك المغازلة البريئة لو أن تس كانت أمتع موقفاً وأقدر على تجنبه ، لذلك كله أطلق خصرها وأحجم عن تقيلها .

وكان إطلاقه إياها فصل الخطاب ، فإنها لم تستمر جلدتها على الرفض فى تلك الساعة إلا من قصة الأرملة التى حكها صاحب الضيعة ، وكان ذلك الجلد سيخونها لو استمر الموقف دقيقة أخرى ، ولكن إنجل لم يزد ، بل ظهرت الحيرة فى وجهه وانصرف ؛ ومريوم بعد يوم وهما يتلاقيان ، وإن قل تلاقيهما عن ذى قبل قليلا ، وتصرم أسبوعان أو ثلاثة ، وفارب سبتمبر نهايته ، وكانت تس ترى فى عينيه أنه ربما عاود السؤال .

على أن كبير قد غير خطته ، وكأنه قد اقتنع أن رفضها إنما يرجع إلى الدلال ومفاجأة الطلب لها وهى ما تزال صبية جاهلة ، وقد زاده اقتناعاً بذلك ما كان يعرفها من اضطراب وتبديه من تملص كلما فتحها ، ومن ثم سلك إليها سيلا ألين ، فبذل جهده فى استمالها واجتذابها دون أن يجاوز حد القول أو يعاود عناقتها ، وألحف فى ملاحقتها فى نبرات لينة كأنها خرير اللبن فى الحلب ، وتعقبها بجانب الأبقار وعند كشط القشدة وعند صنع الزبد وعمل الجبن ، ووسط الدجاج الراقد وبين الخنازير القذرة ، فلم يتعقب مثله أبداً عاملة ألبان كما تعقبها .

وأيقنت تس أنها ستنوء وترضخ ، ولم يمد يمدى شعورها الوجدانى بأن لمعلاقها بالرجل الأولى قيمة خلقية تجعل تلك الملاقة قائمة إلى اليوم ، ولم يمد يمدى

إصرار ضميرها على أن تكون أمينة ، فقد كانت تحب إينجل حبا متيسماً ، وكان يبدو لها ملكاً كريماً ، وكانت على ضالة تعليمها دقيقة المشاعر بطبيعتها ، فكانت تريده أستاذاً ومرشداً ، وعبتاً كانت تردد على نفسها قولها : « لا يمكن أن أتزوج » وكان نفس نقطتها بذلك دليلاً على ضعفها ، فلو كانت لها القوة لصمتت على ذلك في هدوء ، وكانت حالاً تسمع نبرة صوته يماود الموضوع القديم تنهاها النبطة والفرع ، وكانت تحن إلى مفاتيحه قدر ما تخشاها ، وكان مظهره — كظهر كل رجل في موقفه — مظهر امرئ غايته الوحيدة أن يحبها ويرعاها ويدفع عنها ، في أى ظروف أو تقلبات أو شبهات أو حقائق تجدد ، فكان هما يتشعشع وهى تضحى في حرارة عطفه .

واقترب الاعتدال الخريفى ، وكان الجو ما يزال جميلاً ولكن النهار تقاصر ، وبدأ القوم يستضيئون بالشموع في العمل الصباحى ؛ وعاد كليز إلى توسلاته ذات صباح بين الثالثة والرابعة ، وكانت قد هرعت إلى حجرته العليا في ثوب نومها توقظه كالعادة ، ثم كرت راجعة ترتدى ملابسها وتوقظ الأخريات ، وبعد عشر دقائق خرجت إلى السلم وفي يدها شمعتها ، ونزل هو في نفس الوقت في قبضه بغير معطف ، واعترض السلم بذراعه وقال في حزم : « الآن قبل أن تنزلى يا ربة الحسن والدلال ، أنا لم أفتح فى منذ أسبوعين ، ولم يعد هذا يطاق ، يجب أن تفصحى عن نيتك وإلا وجب على أن أهجرك هذه الدار ، لقد كان بابى منفرجاً الساعة فرأيت قوامك ، فمن أجل سلامتك أنت يجب أن أذهب ، أراك حائرة ، خبرينى : أمى نعم أخيراً ؟ »

فزمت شفتيها وقالت : « أنا لم أتبه إلا منذ قليل يا مستر كليز ، ومن الحيف إرهابى في هذا الأوان المبكر ، ولا ينبغي أن تدعونى بذات الدلال ، فذلك ظلم وقسوة ، انتظر ساعة ، أرجوك أن تنتظر ساعة ، فسوف أفكر في الأمر تفكيراً جدياً ، والآن خل سبيلى » ، وكانت تحمل الشمعة جانباً ، وحاولت أن تزيل مسحة الجذ البادية على قولها ذاك بالابتسام ، فبدا عليها كأنها حقاً كما وصفها ،



قال : « ادعيني إنجل إذن لا مستر كبير » ، قالت : « إنجل ! » قال : « عزيزي إنجل ! لماذا لا تدعيني بذلك ؟ » قالت : « ألا يكون معنى ذلك أني أوافق ؟ » قال : « لا يكون معناه إلا أنك تحبينني ، وقد تكلمت بمصارحتي بذلك منذ زمان ، حتى وإن لم تستطعي أن تزوجيني » ، قالت : « حسناً إذن ، عزيزي إنجل إن لم يكن بد » .

غمغت بذلك وهي تنظر إلى شمعها ، وحامت حول فمها بسمه خبيثة رغم اضطرابها ، وكان إنجل قد عول على ألا يقبلها حتى يحظى بوعدها منها ، ولكنه لم يسمه — وهي واقفة موقفها ذاك في جلابب الحلب المجموع حول جسمها في رشاقة ، وشعرها مكوم فوق رأسها في غير نسق حتى يتاح لها الوقت لترجله بعد الفراغ من الحلب والكشط — إلا أن يتناسى غزمه ، فوضع شفتيه على خدها وهلة ، وأسمرت تهبط الدرج غير ملتفتة إليه ولا قائلة شيئاً .

وكانت العاملات الأخريات قد نزلن من قبل ، وانقطع حديثهن لدى ظهور إنجل وتس ، ونظرن ما عدا ماريان إليهما في اكتئاب وارتباب ، وسط أشعة الشموع الحزينة الصفراء ، تقابلها من خارج الحجرة أوائل أشعة الفجر الباردة ؛ ولما انتهى الكشط — وكانت عملياته تتناقص يوماً فيوماً بتناقص اللبن منذ دخل الخريف — خرجت رتي والأخريات وتبعهما الحبيبان ، وهمس إليهما وهو يرمق شخوص الفتيات الثلاث تدلف في ضوء القمر الشاحب : « ما أشد اختلاف حياتنا المضطربة عن حياتهن ! » قالت : « لا إخال هناك كبير اختلاف » ، قال : « لم ؟ » قالت : « ندر من النساء من ليست حياتها ... مضطربة » ، قالت الكلمة الأخيرة في ببطء كأنها قد راعتها ، واستطردت : « إن هؤلاء الفتيات من المواهب فوق ما تتصور » قال : « ما مواهبهن ؟ » قالت : « لعل أيتهن تكون زوجاً أليق مني ولعلهن يحببنك حبي إياك » ، قال : « لا يا تس ! » .

وبدا عليها أنها ارتاحت لسماع احتجاجه على ما قالت ، وإن كانت أصرت أشد إصرار على أن تمكن من نفسها لكرم طبعها ، وقد كان لها ما أرادت ،

ولكنها لم تستطع أن تعاود النيل من نفسها في تلك الساعة ، ولحقت بهما عاملة آتية من دارها ، وأمسكا عن الكلام في ذلك الموضوع الذي يعنيهما أشد عناية ، ولكن تس أيقنت أن ذلك اليوم سيشهد البت في الأمر .

وفي العصر ذهب القوم يجلبون الأبقار في مواضعها ، وكانت كمية اللبن تتضاءل منذ حلت الأبقار ، وتخلص صاحب الضيعة من الأبقار الزائدة عن حاجة الفصل ، التي كان يستبقها في فصل الماء والاختضار ، ومضى القوم في عملهم على مهل ، وكان كل حلاب يتملى بفرغ في أوان مستطيلة فوق عربة أحضرت لهذا الغرض ، وكانت الأبقار متى جلبت سارت حيث شاءت ، وكان مستر كريك يرتدى شملة ناصعة البياض على حين كانت السماء مدجنة ، ونظر فجأة إلى ساعته الثقيلة وقال : « نحن متأخرون عما كنت أظن ، وهيهات أن نبلغ المحطة بهذا اللبن في الوقت المناسب إلا أن نسرع ، وليس لدينا متسع من الوقت لأخذه إلى الدار لمزجه بغيره ، بل يجب أن يذهب إلى المحطة رأسا ، فمن يقوم بذلك ؟ »

وتطوع مستر كليز لذلك ، وإن لم يكن ذاك من شأنه ، ورغب إلى تس أن تصاحبه ، وكان المساء على غياب شمس حارا وخيفا في ذلك الفصل ، وكانت تس قد جاءت لابسة قلنسوة الحلب فقط ، عارية الذراعين بلا سترة ، فلم تكن مستعدة للخروج فأجابته بالنظر إلى ملابسها القذرة ، ولكنه ألحف في رفق ، فوافقت بأن تاولت الحلب والمقعد إلى رب الضيعة لكي يحملهما عنها إلى الدار ، وصعدت بجانب كليز .

٣٠

انطلقا في الطريق المبد بين المروج ، وكانت المروج تمتد أميالاً وتبدو داكنة في البعد ، تحدها على الأفق منحدرات إجدن هيث السوداء السريعة الهبوط ، وكانت تقوم على قمم تلك المنحدرات آجام من أشجار الشربين غروطية الشكل تبدو رؤوسها بما فيها من ثغرات كأنها بروج ذات فجوات ، تتوج حصوناً سحرية سوداء المقادم .

وبلغ من اعتباطهما بقرب أحدهما من الآخر أن أمسكا عن الكلام ردحا من الزمن ، لا يقطع السكون إلا تَصْرُبُ اللبن في جوانب المدجات الطويلة القائمة خلفهما ، وكانت الطريق غير مطروقة ، فكان اللوز معلقا على أغصانه حتى يتساقط من قشوره من تلقاء نفسه ، وكان الثوت الأسود متجمعا في عناقيد كبيرة ، وكان إينجل أحيانا يجتذب عنقودا بسوطه ويقطفه ويدفعه إلى صاحبه .

وبدأت السماء المتلبدة تفصح عن غرضها بإرسال طلائع من رذاذ ، وتحول هواء اليوم الراكد نسيا هائجا يلعب حول وجهيهما ، وزايل سطوح الأنهار والبرك منظرها الرثيق ، فبعد أن كانت مرايا عريضة منيرة ، ارتدت صفائح من الرصاص قائمة ذات سطح كأنه المبرد ، على أن ذلك المنظر لم يؤثر في هم تس الشاغل ، وكان وجهها الذي لوحته حرارة الفصل قد ازداد احمرارا تحت ضربات القطر ، وتلزع منه شعرها حتى شابه أعشاب البحر ، وكان احتكاكه بمنجب البقرة قد هدله وأخرجه عن قلقسوتها القطنية .

تمتمت وهي تنظر إلى السماء : « لم يكن ينبغي أن أجيء » ، قال : « أنا آسف لنزول المطر ، ولكن ما أسعدني بوجودك معي ! » واختفت إجدن في بعدها وراء غبش الظلام ورطوبة الجو ، واشتدت الظلمة وكانت تمترض الطريق بوابات ، فكان من الخطر زيادة السرعة على المشي المادى ، وكان الهواء بارداً ، قال :

« أخاف أن يصيبك البرد وذراعاك وكتفك عارية ، التصق بي لا يصبك الرذاذ ، لقد كان ألى يزداد لو لم أعلم أن هذا المطر يساعدنى على غايتى » ، وزحفت فى بطء إلى جانبه ، ولفها معه فى خرقه كبيرة مقطوعة من شراع مركب ، كانت تستعمل فى حجب الشمس عن المدلجات ، وإذ كانت يدها مغلولتين فى السوق تولت تس المحافظة عليها أن تسقط عنه أو عنها .

قال : « كل شيء على ما يرام الآن ! لا ، ليس كل شيء على ما يرام ! ما زال المطر يصيب عنقى ولا شك أنه أشد إصابة لمنقك ، هذا أحسن ، إن ذراعيك كعمودين من الرخام مبتلين ، فامسحيهما فى الخرقه ، الآن إذا سكنت فى موضعك لم تصبك قطرة واحدة ، ثم خبرينى يا عزيزتى عن مطلبى المهود ، وذلك السؤال القديم المهد ! » ولم يسمع جواباً إلا ضربات حوافر الحصان على الطريق المبتل ، وتدافع اللبن فى أوانيهِ ، فعاد يقول : « هل تذكرين ما قلت لى ؟ » قالت : « نعم » ، قال : « يجب أن يكون ذلك قبل أن نعود إلى الدار » ، قالت : « سأجتهد » ، ولم يزد .

وبرز أمامهما فى الظلام أطلال قصر ريفى يرجع إلى العهد الكارولينى ، وبلغاه وجاوزاه ، فقال يحاول إيناسها : « هذا بناء قديم له قصة ممتعة ، فهو أحد المساكن الكبيرة التى كانت تسكنها أسرة نرمندية ، كانت فيما مضى ذات نفوذ عظيم فى هذه المقاطعة ، وهى أسرة ذات شهرة عظيمة ، وإن تكن شهرة إقطاعية طاغية متفطرسة » ، قالت تس : « نعم » .

وتقدما فى بطء وسط الظلام الشامل إلى نقطة بدأ يترأى فيها ضوء خافت ، وعند تلك النقطة كان يرسم أحياناً أثناء النهار خط ضئيل أبيض من البخار ، فوق الحقول الخضراء الداكنة المترامية ، فيدل على اتصال هذا العالم المنعزل الذى يعيشان فيه بالعالم المصرى الخارجى ، فقد كانت الحياة المصرية ترسل إلى هذه البقعة خرطوماً بخارياً صغيراً من خراطيمها المديدة ، ثلاث مرات أو أربعمائة كل يوم ، تحس به حياة الريفين ثم تسجبه ثانية كأنها لم تستطع ما تحبسته .

وبلنا الضوء الخافت الذى كان متبعثاً من محطة صغيرة ملوثة بالدخان ، كأن ذلك الضوء نجم أرضى حقير ، على أنه كان أهم من النجوم السبابة في نظر صاحب ضيعة تلبوتز وغيره من الناس ؛ وأزلت المدلجات تحت المطر النهر ، بينما كانت تس لائذة بشجرة هناك ، ثم سمع صليل القطار الذى جاء منزلقاً على القضبان المبتلة ووقف في غير جلبة ، وارتمى ضوء القاطرة وهلة على شخص تس دريفيلد وهي منكشة في مكانها ، فإ كان أشد التباين بين عدد القاطرة ومجلاّتها اللامعة ، وبين هذه الفتاة الساذجة ذات الذراعين المفتولتين انمايتين ، والوجه والشعر البتلين ، وهي في رقبها كأنها غمرة أليفة ، وعليها جلبابها الرخيص المديم الزى ، وقلنسوتها القطنية منحدره على جبهتها .

وصمدت ثانية إلى جانب حبيبها في صمت المحبة المخلصة الطيبة ، وغطيا رأسهما بالخرقة مرة أخرى وعادا يشقان الظلام المحلولك ، وكانت تس سريعة التأثير ، فظل أثر الدقائق الممدودة التي قصتها على اتصال بجلبة التقدم الماسى ماثلا في خاطرها ، قالت : « سيشر به أهل لندن غداً ، أولئك الذين لم نرم في حياتنا ، أليس كذلك ؟ » قال : « بلى ، ولكنهم لن يشربوه كما أرسلناه إليهم ، بل بعد أن تقتل حذته فلا يصعد في رؤوسهم » ، قالت : « نبلاء ونبيلات وسفراء وضباط ، وسيدات وتاجرات وأطفال ، ممن لم يروا بقرة قط » ، قال : « نعم ، لا سيما الضباط » ، قالت مستطردة : « لا يعرفون عنا شيئاً ولا يعلمون من أين يأتى ، ولا دروا أننا قطعنا هذه المسافة في الظلام والمطر كي يصل إليهم في الوقت المناسب » .

قال : « لم تقطع هذا الطريق لمجرد إرضاء أهل لندن الأعزراء ، بل لغاية في أنفسنا نحن ، لأمر ذى بال إخالك يا عزيزتى تس ستريحيه من كثرة البحث ، والآن اسمح لي أن أصوغ الأمر هذه الصيغة : أنت لى ، أليس كذلك ؟ أعنى أن قلبك لى » ، قالت : « أنت تعلم مثل ما أعلم ، نعم ، نعم ! » قال : « فإذا كان قلبك لى فلم لا تكون يدك لى ؟ » قالت : « لسبب واحد يتعلق بك ، يتعلق

بمسألة؛ عندى شيء أفشى إليك به ... » قال : « ولكن إذا كان هذا مما يؤدى إلى سعادتي التامة وراحتي ؟ » قالت : « نعم إذا كان يؤدى إلى سعادتك وراحتك ، ولكن حياتي قبل أن أجيء إلى هنا ... أريد أن ... » .

قال : « أنا واثق أن هذا يؤدى إلى سعادتي وراحتي ، فإذا صارت لي مضرة كبيرة ، سواء في إنجلترا أو في المستعمرات ، فإن نفعتك لي إذا تزوجتني لا يقدر ولا يقاس به نفع امرأة آتية من أنعم قصور البلاد ، فأنا أرجوك وأتوسل إليك يا تس العزيزة ، أن تطهري ذهنك من فكرة أنك تقفين في سبيل » ، قالت : « ولكن تاريخ حياتي يجب أن تعلمه ، يجب أن تدعني أخبرك به ، وعندها لن تحبني بمقدار ما تحبني الآن ! » قال : « أخبريني إذن يا عزيزتي ما دمت تريدين ، هاتي تاريخك النفيس ، هيه ولدت في كذا بعد الميلاد ... » .

قالت مستعينة بكلماته وإن يكن قد قلها مازحا : « ولدت في مارلت وفيها نشأت ، وكنت في السنة السادسة بالمدرسة حين انقطعت عنها ، وكانوا يقولون إن لي استعدادا للتدريس واختيرت لي تلك المهنة ، ولكن أسرتي كانت في عسر إذ لم يكن أبي مجتهدا في عمله وكان يشرب قليلا » ، قال وهو يضمها إلى جانبه : « نعم ، نعم ، مسكينة يا بنيتي ليس هذا بالشيء الجديد » ، قالت : « ثم ... ثم كان أمر غريب ... أمر غريب يتعلق بي ... » ، ولهتت ، فقال : « نعم ، نعم ، يا عزيزتي تس ، لا تثريب عليك » .

قالت : « ليس اسمي دريفيلد بل دربرثيل ، أنا سليلة تلك الأسرة التي كانت تملك ذلك المسكن الذي عبرنا به ، وقد هوبنا إلى الحضيض ! » قال : « دربرثيل ؟ أحق ما تقولين ؟ وهل هذا كل ما في الأمر ؟ » قالت بصوت ضعيف : « نعم » قال : « ولم يقل حيي إذا علمته ؟ » قالت : « لقد أخبرني صاحب الضيعة بأنك تمقت الأسرات القديمة » ، فضحك وقال : « هذا صحيح إلى حد ما ، أنا أمقت مبدأ الأرستقراط الذين يحملون الدم فوق كل شيء ، وأرى من المنطق ألا نبجل

إلا النسب الروحي نسب العقلاء والفضلاء ، دون نظر إلى المنتمى الجسدى ، ولكنى مقتبط بهذا النبأ إلى غاية ما تتصورين ! وهل يروك أنت انبأوك إلى ذلك النسب الرفيع ؟ » .

قالت : « لا ، بل ذلك أمر يؤسنى ، لا سيما منذ قدومى إلى هذا المكان ، إذ علمت أن كثيراً من التلال والحقول التى أراها كانت ملك أسرة أبى فيما مضى ، ولكن تلالاً أخرى وحقولاً كانت ملك آباء رتى ، ولعل غيرها كانت ملك آباء ماريان ، ومن ثم أنا لا أعتد بالأمر كبير اعتداد » ، قال : « أجل : من الدهش أن كثيراً من عمال الأرض اليوم كانوا يمتلكونها قديماً ، وأحياناً أعجب لـ إذا لا يستغل هذه الحقيقة حزب جديد من الساسة ، ولكن لعلهم يجهلونها .. وأنا أعجب أيضاً لعدم ملاحظتى مشابهة اسمك لاسم دربرفيل ، وعدم انتباهى إلى ما اعتور الاسم الأخير من فساد ، وأخيراً هذا هو السر الفظيع ! » .

لم تخبره بما أرادت ، إذ خانتها شجاعتهما فى آخر لحظة ، وخشيت أن يؤنبها على أن لم تخبره قبل ذلك ، وتقلب حرصها على سعادتها على رغبتها فى الصراحة والأمانة ، واستطرد كلير فى غفلته : « طبعاً كنت أفضل أن تكونى منحدرة من صلب الشعب الإنجليزى الصبور الصامت المغمور ، لا من الأقلية الأثانية التى ارتقت إلى القوة على هامات الآخرين ، ولكن حبي لك يفسد على مبدئى ياتس ، ويجعلنى أنا أيضاً أنانيا » ، وضحك واستطرد : « فن أجلك أنت أنا مقتبط بنسبك ؟ إن المجتمع شديد النفاق ، ولعل عراقة نسبك تساعد مساعدة كبيرة على قبول المجتمع إياك زوجاً لى ، بعد أن تقرئ من الكتب ما أحب لك ، وأنى العززة أيضاً ستسر أعظم السرور حين تعلم بذلك ، يجب ياتس أن تنطق باسمك منذ اليوم على وجهه الصحيح : دربرفيل » .

قالت : « بل أوتر الوجه الآخر » قال : « ولكن يجب يا عزيزتى ! يا للمعجب إن عشرات الأغنياء المحدثين ذوى الملايين ليتحرقون شوقاً إلى مثل ثروتك ! ولهذا المناسبة أقول إن أحدهم قد استحل هذا الاسم فعلاً ، أين سمعت به ياترى ؟

في جهة تنيس على ما أظن، أجل هو ذلك الرجل الذي كانت بينه وبين أبي تلك المشادة التي أخبرتك خبرها ، ما أعجبها صدفة ! » قالت : « إنجيل : أوثر ألا آتخذ ذلك الاسم ، يخيل إلي أنه شؤم ! » قال : « مهلا يا سيدتي النبيلة تيريزا دربرثيل ، لقد وقعت في قبضتي : آتخذى اسمي تغلتي من اسمك ! لقد بحث بالسر ففيم ترفضيني بعد ؟ » .

قالت : « إذا كان محققا أن زواجي سيسمك ، وكنت تشمر أنك تريد جدا أن تزوجني ... » قال : « طبعاً أريد ذلك يا عزيزتي ! » قالت : « أعني أن رغبتك في وكونك لا تستطيع الحياة بدوني مهما كانت مثالي ، هذا وحده هو الذي يجعلني أشعر أنه ينبغي لي أن أوافق » . قال : « نعم ، توافقي ! توافقي ! ستكونين لي إلى الأبد ! » وضعها بشدة وقبلها وقالت : « نعم ! » ولم تكذب تقولها حتى أجهشت باكية بكاء مرعاً عنيفا يكاد يمزق صدرها ، ولم تكن تس فتاة عصبية بحال ، فدهش وقال : « ما ييكيك يا عزيزتي ؟ » .

قالت : « لا أدري تماما ! إنما أنا فرحة ... بكوني لك وبأنى أسعدك ! » قال : « ولكن هذا لا يشبه الفرح كثيرا يا تسي ! » قالت : « أعني أني أبكي لأنني حنثت في عيمي ، فقد كنت آليت أن أموت عانسا » ، قال : « ولكنك إذا كنت تحبينني فإنك تحبين أن أكون زوجك ! » قالت : « نعم ، نعم ، نعم ، كم أتمنى أحيانا لو لم أولد ! » قال : « اسمي يا عزيزتي تسي : لو لم أعلم أنك مضطربة جدا وأنت غير مجربة ، لرأيت في قولك هذا تنقصالي ، كيف تتمنين ذلك إذا كنت تحبينني ؟ هل تحبينني ؟ ليتك تثبتين ذلك بوجه ما ! » قالت وهي تفيض عاطفة نحوه : « كيف أثبتته أكثر مما أثبتته ؟ هل يشبه هذا إثباتا جديدا ؟ » وطلقت عنقه ، ولأول مرة عرف كلير كيف تكون قبلات امرأة متيمة على شفتي من تحبه من أعماق قلبها ، وقالت وقد احمر وجهها وجعلت تمسح عينيها : « هاك ! أنصدق الآن ؟ » قال : « نعم ، وما شككت قط ، أبدا ، أبدا » .

وهكذا استطردا في طريقهما تحت الظلام ، وهما حزمة واحدة تحت الخرقة ،



والحصان يمشى على رسله ، والمطر يلاطمهما ؛ لقد وافقت ، وكان سواء لو وافقت من بادى الأمر ، ولم تكن شهوة التمتع بالحياة التى تسرى فى جميع الأحياء — تلك القوة الهائلة التى تخضع للإنسانية لمشيئتها ، كما يثنى المد واهى الأعشاب — لتقهقر أمام الهراء والهديان بمحدث الأنساب وطبقات المجتمع .

قالت تس : « يجب أن أكتب إلى أمى فهل تمانع ؟ » قال : « طبعا لا يا طفلى العزيزة ، أجل طفلة أنت فى نظرى ياتس إذ لا تدركين وجوب الكتابة إلى أمك فى مثل هذا الوقت ، وشدة افتئاقى إذا أنا مانعت ، أين تسكن ؟ » قالت : « فى نفس القرية ، مارلت ، على الجانب الأقصى من وادى بلاكمور » ، قال : « أنا إذن رأيتك قبل هذا الصيف كما ظننت ... » قالت : « نعم ؛ فى ذلك الرقص فوق الخضرة ؛ ولكنك لم تختر مراقصتى . أرجو ألا يكون ذلك فألا سيئنا لنا الآن ! » .

٣١

كتبت تس إلى أمها في صباح الفد رسالة حارة مؤثرة ، وفي نهاية الأسبوع أنهاها كتاب بخط جوان دريفيلد التمرج ، على أسلوب القرن الماضي .

« عزيزتي تس : أكتب إليك هذه الكلمات آملة أن تجدك بصحة جيدة كما تغادرنى ، والحمد لله ؛ عزيزتي تس : كلنا مسرورون لكونك ستزوجين حقا عما قريب ، أما فيما سألتني عنه ، فأني أخبرك يا تس بيني وبينك ، سرا مكتوما ولكن في تأكيد وتحقيق ، إنه لا ينبغي لك أن تقولى له كلمة واحدة بحال من الأحوال عن مصابك القديم ، وأنا لم أخبر أباك بكل شيء لأنه شديد الاعتداد بعقامه ، ولعل خطيبك أيضا كذلك ؛ لقد أصابت نساء كثيرات غيرك — وفيهن نساء من أرفع الطبقات في البلاد — مصائب كمصيبتك ، فلماذا تملنين خطيبك ويكتمن خطوبهن ؟ لن تفعل ذلك فتاة عاقلة : لا سيما وقد تصرم على الأمر زمن طويل ، ولم يكن انخطأك قط .

« أنت إذا سألتني نفس سؤالك خمسين مرة أجبتك نفس جوابي ، ثم اذكرى أنى لعلى بسذاجتك العجيبة التى تُجرى على لسانك كل ما فى قلبك ، قد جعلتك تعدين ألا تبوحى بالسر قولا ولا فعلا ، حرصا على سعادتك ، وقد وعدتني بذلك وعدا أكيدا قبل أن تبرى هذا الباب ، وأنا لم أذكر هذا الأمر ولا زواجك المنتظر لأبيك ، علما بأنه لحاقته سوف يثرثر بالأمر فى كل مكان ؛ عزيزتي تس : تشجى ، وسنرسل إليك زجاجة من شراب التفاح من صنف (هود جهدز) يوم زفافك ، علما بأنه صنف نادر فى ناحيتكم وأن ليس عندكم إلا الأصناف الرديئة ، هذا كل ما أردت أن أقول الآن ، وتحيتي إليك وإلى فتاك ، من أمك المحبة .

ج . دريفيلد »

غمغمت تس : « أماء ! يا أماء ! » وقد أدركت خفة موقع أنقطع المواف

على نفس أمها المستهينة بالأمور ، التي لا تنظر إلى الأمور نظرتها هي ، ولا تعد ذلك الحادث القديم إلا أمراً عارضاً ؛ ولكن لعل أمها مصيبة فيما أشارت باتباعه أية كانت الأسباب التي تتذرع بها ، فقد كان يلوح لئس أن السكوت هو خير ما يتبع طلباً لسعادة حبيبها العزيز ، فليكن السكوت إذن خطتها .

هدأ بال نس ، وقد سد خطاها إرشاد الشخص الوحيد الذي كان له أدنى حق في توجيهها في الحياة ، وأزيع عنها الشعور بالمؤاخضة ، واستراح قلبها راحة لم يعرفها منذ أسابيع ، وشهدت أواخر الخريف التي تلت موافقتها على الزواج بدءاً من أكتوبر ، عهداً من حياتها سعدت فيه بغبطة روحية لم تسعد بمثلهما في وقت آخر ، ولم تكن تشوب جها لكثير شائبة ، بل كانت في وثوقها ونقاء طويتها تعده مثال الكمال ، وتراه عالماً بكل ما يعلمه فيلسوف ومرشد لها وصديق ، وتعتبر كل سمة من سمات شخصه مثلاً للجمال الرجل ، وترى روحه روح قديس وذنه ذهن عالم بالغيوب ، وكان اعتدادها بحبها إياه يزيد اعتدادها بنفسها فكانت تحس أن على مفرقها تاجاً ، وكانت حرارة حبه إياها — كما كانت تتجلى لها — تجعلها تخلص له وتفديه ، وكان أحياناً يقاچى عينيها الواسعتين البعديتي القرار ، تنظران إليه من أعماقهما نظرة عبادة ، كأنما تتأملان كائناتاً خالداً .

وطردت الماضي من حياتها ، ووطئته بقدميها وأخذته كما يبطأ المرء جرة متقدمة خطرة ، ولم يكن خطر لها من قبل أن من الرجال من يتصف بهذا الكرم والإيثار والرعاية في محبته للمرأة ، وما كان أبعد إنجيل كبير عما توهمت فيه من هذه الصفات ولكنه في الحق كان روحاً أكثر مما كان جسداً ، كان مالكا لزام نفسه مبرءاً من الغلظة والخسة ، ولم يكن بارد الطبع بيد أنه لم يكن حاراً ، إنما كان صحو المزاج ، كان أقرب إلى شلى منه إلى بيرون ، قد يتيمة الحب ولكنه حب أقرب إلى الخيال أنيرى ، فكان حبه عاطفة نقية تكاد تحمله على حماية محبوبته حتى من نفسه ، وقد راع ذلك نس وملأها حبوراً ، وكانت تجاربها إلى اليوم ناعسة شقية ، فاندفعت من النقيض إلى النقيض ، من الزرابة على الجنس الحشن إلى العبادة لكثير .

وأصبح كل منهما يحدّث في طلب حبة الآخر ، وكانت لصراحتها وإخلاصها له لا تحاول إخفاء رغبتها في مصاحبته ، وإذا أمكن إيجاز شعورها في هذا الأمر فهو أنها كانت ترى أن التمتع الذي هو شيمة جنسها والذي يفرى عامة الرجال ، ربما يحبه هذا الرجل الكامل بعد أن صارحته أنها تحبه ، إذ يكون التصنع فيه محسوسا ، ولم تكن تعرف إلا العادة الريفية عادة الصنعة التامة بين الخطيبين خارج الدار ولم تكن ترى في ذلك غرابة ، أما هو فكان يعد ذلك سببا للحوادث عجيبا ، حتى رأى كيف أنها هي وغيرها من أهل الضيعة يعدونه شيئا مألوفا .

ومن ثم راحا في شهر أكتوبر هذا ذى الأسائل الجليّة يضربان في الحقول ، ويسلكان الطرق المتسجبة على ضفاف الجداول المترققة ، ويعبرانها ذهابا وإيابا على قناطر صغيرة ، يطرق سمعهما حينما ذهابا خريز منحدر مائي يأتلّف لفظه مع رثرثهما وقد انبسطت أشعة الشمس أفقية موازية للمرج ذاته ، مكوّنة فوقه غيابة متألّفة ، وكانا يريان قطعا صغيرة من الضباب في ظلال الأشجار والشجيرات ، بينما أشعة الشمس تسطع في كل الجهات ، وكانت الشمس من الدنو إلى الأفق والمروج من الانبساط ، بحيث كان ظلّا تس وكليز يمتدان أمامهما ربع ميل ، كأنهما إصبغان طوليلتان تشيران إلى حيث تلتقى الحضرة اليانعة بجوانب الوادى المنحدر . وكان الفلاحون يعملون هنا وهناك ، فقد كان ذلك أوان تعميق القنوات استعدادا للرّى الشتوى ، وترميم جوانبها حيث هدمتها أرجل البقر ، وكان النهر قد جلب تلك التربة حفنة حفنة أيام كان متسعا اتساع الوادى كله ، وتركها سوداء كالإمد مؤلفة من خلاصات الأعصر الخالية ، مركزة مكررة منقاة خصبة غنية ؛ وظل كليز مطوقا تس بذراعه في غير مبالاة أمام العمال ، فعل التعمود تلك المشية المدللة أمام الأنظار ، وإن يكن في الحقيقة لا يقل خجلا عن صاحبته التي كانت تلحظ الرجال الخزر كالوحش الحذر وشفتها مفترمان .

قالت مغتبطة : « أنت لآتأف أن تظهرهم على أنى صاحبك ! » قال : « كلا ! »  
قالت : « ولكن هب ذويك في إمنستر سمعوا أنك تسايّرني وأنا عاملة الألبان .. »

قال : « أسحّرُ عاملة ألبان على ظهر الأرض » ، قالت : « ربما عدوا ذلك إهانة لكرامتهم » ، قال : « أتضع سلية دربرفيل من كرامة سليل كبير ؟ إن نسبك لحجة دامغة أبقيا سرا حتى يتم زواجنا ، وعندها أحصل على البراهين القاطعة . بصحته من القس ترنج ، ويكون لذلك وقعه العظيم ، زيدى على ذلك أن حياتى المستقبلية ستكون بنجوة عن ذوى ، ولن تؤثر حتى فى سطح حياتهم ، وسوف نرحل عن هذا الجانب من انجلترا ، بل ربما هجرنا انجلترا قاطبة ، وكيف يضيرنا إذ ذاك ما يقول الناس عنا ؟ ألن يسرك الرحيل ؟ » .

ولم ترد أن ردت عليه إيجابا فى أبسط لفظ ، فقد بلغ منها الجبور لدى تصور الرحلة معه فى أقطار العالم فى ألفة محكمة وثيقة ، حتى كاد الجبور عملاً أذنيها كلفظ الأمواج ويطغى على عينيها ؛ ووضعت يدها فى يده وواصل السير إلى بقعة تتوهج فيها أشعة الشمس منعكسة من النهر إلى أسفل قنطرة فوقه تلعب لمعان المعدن المذاب فتكسف بصريهما ، وإن كانت الشمس ذاتها مختفية وراء القنطرة ، ووقفا مكانهما فارتفعت على سطح الماء الأملس رؤوس صفار يغطيها الفراء والريش ، ولكنها حين رأت الشخصين اللذين أزجعا هدوءهما قد وقفا ولم يمضيا ، اختفت ثانية ؛ وطال لبثهما فوق حافة النهر حتى بدأ الضباب يلفهما ، وكان الضباب سريع الهبوط مساء فى ذلك الفصل ، وتبلور على أهدابها وعلى شعره وحاجبيه .

وكانا فى أيام الآحاد يطيلان نزهتهما بعد هبوط الليل ، وكان بعض أهل الضيعة يتنزهون كذلك مساء أول يوم أحد أعقب خطبتهما ، فسمعوا حديثها متهدج النبرات مقطع العبارات لفرط جوارها وانفصالها ، وإن كانوا أبعد مدى من أن يسموا كلماتها ، ولاحظوا صمتها أحيانا وضحكها أحيانا فحكما طروبا كأنما روحها تعلى فيه ، ضحك المرأة فى صحبة الرجل الذى تحب والذى استخلصت من دون جميع النساء ، فهو ضحك فريد عديم النظير ، ولا حظوا جوار خطواتها كأنها خفقات الطائر لم يجثم على العنص بعد .

لقد أصبح حبها إياه روح وجودها وقوامه ، يحيط بها كالهالة متساميا بها

حتى نسيت ما ضيها الحزين ، ذائدا عنها تلك الأشباح التي كانت تصر على مهاجمتها ، أشباح الشك والخوف والكآبة والهم والمار ، وكانت تعلم أن هاتيك الأشباح جميعها قابعة كالذئب خارج دائرة الضوء المحيطة بها ، ولكن كانت تعاودها رجعات طويلة من قوة الإرادة ، تستطيع بها أن تدراها عن نفسها وتبقيها في مكانها صاغرة جائعة ، سكنت نفسها من تلك الآلام ، أما عقلها فكان يعلم علم اليقين بوجود تلك الأشباح على كثر ، كانت تسير في الضياء المنير ولكن تلك الأشباح كانت تقاربها يوما وتباعدنها يوما .

وتخلف كلير وتس ذات مساء في الدار يعينان بها وقد خرج الآخرون ، وبينما هما يتحدثان نظرت إليه متأملة وقابل بصرها عينيه المعجبتين ، ثم وثبت فجأة من مقعدها وكأما أفرغها تيممه بها وفرط سعادتها بذلك ، فصرخت : « لا ! لست أهلا لك ! » وعزا كلير اضطرابها إلى الأمر الذي لم يكن إلا جزءاً صغيراً من السبب ، قال : « لست أحب أن تقولى هذا يا تس ! فليس النبيل هو البراعة في اتباع مجموعة من التقاليد الخفاء ، ولكن هو الانتماء إلى زمرة ذوى الأمانة والصدق والعدل ، والطهارة والرقّة ونقاء الصحيفة ، وإليهم تنتمين » .

وحاولت تس مغالبة البكاء الذي جاش في صدرها ، فقد راعها أن تراه يذكر هذه الصفات التي طالما أوجع قلبها سماعها في الكنيسة ، وقالت وهي تشبك يديها في انفعال : « لماذا لم تبق مئى وتجنبنى يوم كنت في السادسة عشرة أيام كنت أحياء مع أشقائى الصغار ، وحين جئت ترقص على الخضرة ؟ لماذا لم تبق ؟ لماذا ؟ » . وجعل إنجل يسكن روعها وبطمئنها ، وقد رأى ما راعه من تقلب حالاتها ، وأدرك أنه سيضطر إلى كثير من الحكمة في معاملتها ، يوم تتوقف سعادتها عليه هو وحده ، قال : « لماذا لم أبق ؟ هذا ما أسائل نفسى أنا به ، ليتنى كنت أدري ولكن علام يذهب بك الندم كل هذا المذهب ؟ » وعادتها طبيعة التستر التي فطر عليها النساء ، فحوت عنان الحديث بقولها : « لو فعلت لاستمتعتُ ببحك أربع سنين أكثر مما يمكننى الآن ، وإذن لما أضعت وقتى سدى كما أضعته ، ولطالمت سعادتى أى طول ! » .

وما كانت السكينة التي تتجرع هاتيك الفصص بامرأة ذات ماض مظلم  
مملوء باجتراح الآثام ، وإنما كانت صبية ساذجة لم تبلغ بعد واحدا وعشرين ربيعا  
قد أخذت على غرة قبل أن يتم تمامها كما يؤخذ المصفور في الفخ ؛ وأرادت أن  
تسكن نفسها تماما فهضت خارجة من الحجرة ، وكفا ذيل ثوبها مقعدها وهي ذاهبة  
ويبقى هو بجانب المدفأة وكانت تتوهج ، والأعواد تتكسر فيها بقطعة سارة ،  
وتثر في أطرافها فقايع من عصيرها ، ثم عادت تس وقد استرجعت تمام جأشها .  
قال ملاطفا وهو يمد لها حشية ويجلس بجوارها على المقعد : « ألا ترين أنك  
غريبة الأطوار والبدوات قليلا ؟ لقد كنت أريد أن أسألك شيئا ، وإذا أنت  
تفتلين خارجة » قالت : « بلى ، إخالني كذلك » ، ثم دنت منه وجعلت يديها على  
كلتا ذراعيه وقالت : « لا يا اينجل ، لست بغريبة الأطوار في الحقيقة ، أعني أني  
لم أخلق كذلك » . وأرادت أن تزيد توكيدا ، فضمت نفسها إليه واتخذت من  
كتفه مسندا ، ثم قالت في خضوع : « ماذا كنت تريد أن تسألني ؟ ثق أني  
سأجيبك عليه » قال : « أنت تحبينني ، وقد وافقت على زواجي ، والخطوة الثالثة  
هي أن تخبريني عن يوم الزواج » ، قالت : « أفضل أن أظل هكذا » .

قال : « ولكن لا بد لي أن أنهي للشروع في عملي المستقبل في بدء العام  
الجديد ، أو بعده بقليل ، وأحب أن أحصل على شريكة حياتي قبل أن آخذ في  
تفاصيل عملي التي لا تحصى » ؛ فأجابت في توجس : « ولكن أليس الحزم ألا  
يكون زواج إلا بعد ذلك ؟ وإن كنت لا أطيق تصور رحيلك وتركك إياي هنا »  
قال : « طبعا لا تطيقين ذلك ، ولا هو بأحسن ما يفعل في هذه الحالة ، فأنا  
محتاج إلى معوتك في شتى الأمور عند البدء ، فتي ؟ بعد أسبوعين ؟ » ، فارتسم  
الجد على وجهها وقالت : « لا ، هناك أشياء كثيرة يجب أن أفكر فيها أولا » ،  
قال وهو يضمها إليه : « ولكن . . » .

وأفرعها شبح الزواج إذ لاح قريبا ، وقبل أن يستطردا في حديث الزواج  
دخل الرئيس كريك دالفا إلى جوار الموقد ، وظهر في ضوء النار التوهج ، وبجانبه

مسز كريك وعاملتان ، فوثبت إلى قدميها كأنها كرة مطاط ، واحمر وجهها وبرقت عينها في وهج الموقد ، وقالت في حنق : « لقد توقعت هذا إذا جلست بجواره ، وقلت لنفسى لا بد أنهم سيفاجئونا ! ولكنى في الحقيقة لم أكن جالسة على ركبته وإن خيل إليكم ذلك ! » قال مستر كريك : « ما دمت بدأت الكلام فالحق أننا لو لم نخبرينا لما عرفنا أنك هنا على الإطلاق لخفوت هذا الضوء » ، ثم التفت إلى زوجها وقال في سياء الجلود التي يتسم بها الجاهل بما يتعلق بالحب من عواطف : « هذا مما يثبت لك يا كرستينا أنه لا يليق بالمرء أن يحمل على الناس ما لم يفكروا فيه ، إنى لم أكن لأعلم أين مجلسها لولا تكلمت » .

قال كلير في غير اكتراث : « سنقترن عما قريب » ؛ قال صاحب الضيعة : « أحقا ؟ هذا يسرنى كثيرا ياسيدى ، لقد كنت أتوقع هذا منذ زمن ، وإنها لأرفع من أن تكون عاملة ، وهذا ما حدثت به نفسى منذ رأيها أول مرة ، وإنها لأهل خير بعل ، وهى إلى ذلك خليفة أن تكون زوجا للمزارع صاحب الأملاك ، لا يرى نفسه وهى بجانبه تحت رحمة مدير أعماله » ؛ واختفت تس من حيث لا يشعر أحد ، وقد أزعجها نظر العاملتين إليها ، فوق ما أزعجها إطرء كريك القدم ، وبعد العشاء أوت إلى غدعها وكانت زميلاتها قد سبقنها إليه ، وكن جالسات في فراشهن والحجرة مضاءة ، يرقبن بحىء تس شاحبات وكأنهن صف من الأرواح المنتقمة ، ولكنها سرعان ما تبينت أنهن لا يضرمن حقداً ، فأنهن لم يكنن يشمرن بفقدان شيء لم يتوقعن يوما أن يملكه ، وإنما كن يفكرن فى أمرها .

قالت رتى ، وعيناها مشدودتان إلى تس : « سيتزوجها ! ما أين ما يبدو ذلك فى وجهها ! » قالت ماريان : « أستزوجينه ؟ » قالت تس : « نعم » قالت : « متى ؟ » ، قالت : « يوما ما » ، وعزرون قولها ذاك إلى مجرد التخلص ، قالت إيزهيوث مرردة : « نعم : ستزوجه ! ستزوج سيدا نبيلًا ! » ، وزحفن من فراشهن واحدة بعد واحدة كالسحورات وسرن إلى تس ووقفن حولها ؛ ووضعت إيزيديها على كتفى تس كأنها تريد الاستيثاق من تجسد صاحبها أمامها بعد وقوع



تلك المعجزة ، وطوقت الأخباريات خصرها بذراعيهما ، وكلهن ينظرن في وجهها .  
 قالت إيز : « هذا عجيب فوق ما أتصور ! » ، وقبلت ماريان تس وقالت وهي  
 ترفع عنها شفتيها : « نعم » ، قالت إيز لماريان بجفاء : « أَحَبُّهَا تقبلينها أم لأن  
 شفقتين أخريين كاتتا على وجهها منذ هنية ؟ » فقالت ماريان في بساطة : « لم أكن  
 أفكر في ذلك ، إنما كنت أستمري كل ما في الأمر من طرافة ، إذ ستصبح هي  
 دون غيرها زوجها ؟ ولست أعترض ولا واحدة منا تعترض ، فإننا لم نتوقع أن  
 نحظى به ، وإنما كنا نحببه ، ومع هذا فلن تزوجه سيدة منعمة تيس في الخبز  
 والدياج ، بل هذه التي نحيا كما نحيا . »

قالت تس في صوت منخفض : « أوثاقت أنتن أنكن لا تمتنني من أجل  
 ذلك ؟ » فتكا كأن حولها في ثياب نومهن البيضاء كأنما يتوقعن أن يكون  
 جوابهن في عينيها ، وتمتمت رقى : « لست أدري ، لست أدري ، إني أريد أن  
 أكرهك فلا أستطيع ! » وأجابها إيز وماريان كلتاها : « هذا ما أحس به أنا ،  
 أنا لا أستطيع أن أكرهها ، فإنها تمنعني أن أكرهها » ، وغممت تس : « يجدر  
 به أن يزوج إحداكن » ، قلن : « لم ؟ » قالت : « لأنكن جميعاً خير مني » ،  
 فقلن في صوت بطل منخفض : « نحن خير منك ؟ لا ، لا يا عزيزتنا تس » ،  
 قالت معبرة : « بلى ! بلى ! » .

وتخلصت من حلقتهن فجأة وانخرطت بأكية بكاء حارا ، وهي منحنية على  
 الصوان تردد : « بلى ! بلى ! » ولم تستطع وقد غلبها البكاء أن تضع له حدا ،  
 واستطردت : « كان ينبغي أن يختار إحداكن ! ولعله ينبغي لي أن أحله على ذلك  
 الآن ! وأكبر ظني أن واحدة منكن خير له من ... أنا لا أدري ما أقول ! »  
 وسرن إليها واحتضنها ولكن البكاء كان ما يزال يمزق صدرها ، قالت ماريان :  
 « على بقليل من الماء ، لقد أهجنا أنفسنا ، ويح المسكينة ! » وأرجعنها في رفق إلى  
 فراشها حيث قبلها تقييلا حارا .

قالت ماريان : « أنت خير من تصلح له ، أنت أنبل منا وأكثر ثقافة ،

لاسيما بعد أن تلقنت عنه ما تلقنت ، ولكن حتى أنت يجب أن تنهي به وتفخرى » ،  
قالت : « أجل أنا به مزهوة نفور ، ومخجلنى أن أجهش بالبكاء هكذا » ، وعدن  
جيماً إلى مضاجعهم وأطفيء النور وهمست إليها ماريان : « أرجو أن تذكرينا  
إذا ما صرت حليته ، وتذكرى كيف صارحناك بحبنا إياه ، وكيف حاولنا أن  
نكرهك لأن اختياره وقع عليك ، ولم نأمل يوماً أن يختارنا » .

ولم يدر بخلدن أن تلك الكلمات أرسلت الدموع مرة أخرى على وسادة تس  
أليلة مريرة ، وأنها صممت بقلب محترق على أن تبوح لا ينجل كبير بكل ماضيها ،  
رغم نصيح أمها ، كي يحترقها إذا شاء وهو الذى تحيا من أجله وتنفس ، وكى  
تمدها أمها حمقاء ، فهي تؤثر كل ذلك على التماذى فى صمت تخشى أن يكون خيانة  
له ، وتتوهم أنه إساءة إلى هؤلاء الفتيات .

### ٣٢

جعلها هذا التندم تؤجل يوم الزفاف ، حتى حل نوفمبر وذلك اليوم ما زال معلقاً ، رغم أن إنجنل كان يسألها عنه في أشد المواقف إغراء ، ولكن تس كانت كأنما تفضل عهد خطبة مستمرة تظل فيها الأحوال على ما هي عليه ؛ وكانت المروج قد بدأت تتغير ، ولكن حرارة الجو كانت ما زال تسمح بالتزده هناك عصرأ قبل الحلبة الثانية ، وكانت قلة أعمال الضيعة في ذلك الفصل توفر الوقت للتزده .

وكانا ربما أرسلتا بصريهما فوق الأديم المخضل حيال الشمس ، فيريان في وهجها أمواجاً لامعة من نسيج الخيتعور كأنها القمر منبسطة على اليم ، وكان البعوض الغافل عن قصر حياته وغبطتها يسبح في هذا الأديم اللامع ، ويشع ضوءاً كأنما يحمل في باطنه نارا ، ثم يخرج من تلك الدائرة فيختفي ، وكان إنجنل يذكرها وهما ينظران إلى تلك المخلوقات أن يوم الزفاف ما زال سرا .

أو ربما سألتها ليلا وهو يرافقها في مهمة تخترعها مسز كريك لتتيح لها الفرصة ، وكانت تلك المهمة عادة الذهاب إلى بيت المزرعة المشيد على المنحدرات فوق الوادى ، لاستطلاع حال البقر العشار التي نقلت إلى العريش المقام هناك ، فقد كان ذلك فصلا حافلا بالتغيرات في أحوال البقر ، فكانت ترسل منها زمرا كل يوم إلى ذلك المستشفى ، حيث ترقد على القش حتى تنتج ، فإذا ما أصبح الفصيل قادراً على المشي أعيد هو وأمه إلى ضيعة الألبان ، ولم يكن يحلب لبن كثير حتى تباع العجول ، وعندها تعود أعمال الحلب إلى سالف عهدها .

وكانا عائدتين ليلة من إحدى هذه الرحلات ، فبلغتا تلا عظيما منطى بالحصى قائماً وسط السهل ، فوقفا منصتين ، وكانت الأنهار ملاءى بمياهها تندفق على الجنادل وتخر تحت البرايخ ، وكانت القنوات الصغرى مترعة فلم يكن هناك سبيل لاختصار الرحلة ، وكان السائرون على الأقدام مضطرين إلى اتباع الطرق المادية الطويلة ،

وكان يطرق مسامعها صدى مختلط آت من جوانب السهل الممتد ، خيل إليهما أن تحت أقدامهما مدينة راقدة ، ذلك اللفظ هو تصايح أهلها .

قالت تس : « يخيل إلي أنهم آلاف مؤلفة ، مجتمعون في أسواقهم بين جدال وخطابة وشجار ، ونحيب وأنين وصلاة وسباب » . ولم يكن كليز ملقيا إلى ذلك باله ، وإنما قال : « هل حادثك كريك اليوم في عدم احتياجه إلى كبير مساعدة في الشتاء القادم ؟ » ، قالت : « لا » ، قال : « لبن البقر يشع بسرعة » ، قالت : « نعم لقد ذهبت ست أو سبع إلى المستشفى أمس ، وثلاث أول من أمس ، حتى صار في المستشفى نحو عشرين ، آه ! ألا يريد مساعدتي أثناء النتج ؟ ويحي ! ألم تعد به حاجة إلي ؟ » ولكم حاولت أن . . . » قال : « لم يقل كريك إنه لم يعد في حاجة إليك ، وإنما قال في أجل قصد وآدب لهجة — إذ كان يعلم ما بيننا — إنه بظن أني سأستجيبك في رحلي قراب عيد الميلاد ، فلما سألته أيستغنى عنك أجاب بأنه يستغنى عن مساعدة معظم عاملاته أثناء هذا الفصل ، والحق أن الحبث بلغ مني أن فرحت إذ رأيته يرغمك على الذهاب معي » .

قالت : « لم يكن يجمل بك أن تفرح يا إينجل ، فإن من المحزن دائما أن يعلم المرء أنه غير مرغوب فيه ، حتى ولو جاء ذلك وفق هواه » قال : « أجل هذا وفق هواك ! لقد اعترفت ! » ووضع يده على خدها وقال : « آه » قالت : « ماذا ؟ » قال : « أشعر باحمرار وجهك لاعترافك على غرة منك ! ولكن لماذا نهزل كل هذا الهزل ؟ ليست الحياة هزلا بل هي جد مر » ، قالت : « هي كذلك ، ولعلّي تعلمت ذلك قبل أن تتعلمه » .

وتبين لها موقفها : فهي إذا رفضت الاقتران به إطاعة للمحافظة التي ثارت بها البارحة ، وترك الضيعة ، فستضطر إلى الذهاب إلى مكان غريب ليس بمصنع ألبان ، لأن الحاجة إلى عاملات الألبان كانت قليلة في هذا الفصل فصل التعشير ، وإنما تذهب إلى مزرعة ليس فيها كائن إلهي مثل إينجل كليز ؛ وقد كرهت تلك الفكرة ، وكانت أشد كراهة للعودة إلى قريبها .

واستطرد : « فإذا كنا نبغى الجد فأولى لك ما دام الأرجح أنك سترحلين عن هذه الضيعة حوالى عيد الميلاد ، أن أحملك معى ملكا لى ، هذا إلى أنك لابد ترين أن من المحال استمرارنا على هذه الحال ، إلا أن تكونى أشد من عرفت تجاهلا للحقائق » قالت : « ليتنا نستطيع الاستمرار ، ليت الفصل دائما إما صيف أو خريف ، وليتك دائما تتقرب إلىّ وتمنى بى كما كنت تمنى فى الصيف الفائت » قال : « سأظل أعنى بك ما حييت » ، فصاحت وقد تملكها وثوق حار بصاحبها : « أجل ، أنا واثقة أنك ستعنى بى دائما ، لينجل : سأحدد اليوم الذى أغدو فيه ملكا لك إلى الأبد ! »

وهكذا قرر الأمر بينهما فى تلك الرحلة الليلية ، وسط أصداء الماء المتضاربة عن يمينها وعن شمالها ، ولما بلغا الدار أخبرا مسر كريك ومسز كريك توا ، وطلبا إليهما أن يُيسرا الأمر ، فقد كانا كلاهما يريدان أن يبقى سرا ؛ وكان صاحب الضيعة بنوى أن يصرف تس عما قليل ، أما الآن فتظاهر بالأسف البالغ لفقددها ، وتساءل عمن يتولى عنه كشط القشدة وصنع أفراس الزبدة المنقوشة ، التى ترسل إلى عقائل (إنجليزى) و (ستدبورن) ؛ وهنأت مسز كريك تس بانتهاء عهد التردد وقالت إنها حالما وقعت عيناها على تس أول مرة تنبأت لها بزواج ليس من غمار الناس ، فقد كانت سياء الإباء تبدو عليها وهى تسير فى الحظيرة يوم وصولها ، وتدل على أنها تمت إلى أسرة كريمة ؛ والحق أن مسز كريك قد لاحظت من بادى الأمر رشاقة تس وحسن طلعتها ، أما الإباء وكرم المحتد فلعلهما أمران تولدا فى مخيلتها بعد طول معاشرتها .

والآن ألفت تس نفسها مندفعة فى تيار الحوادث بغير إرادة ، وقد أعطيت الكلمة وحدد اليوم ، وكانت قريحتها الوقادة قد بدأت تؤمن بنبلة القدر إيمان أهل الريف ممن هم أكثر خالطة لمظاهر الطبيعة منهم لأبناء جنسهم من البشر ، ومن ثم وطنت نفسها على قبول كل ما يقترحه عليها حبيبها ؛ على أنها عادت فكتبت إلى أمها تخبرها فى الظاهر بيوم الزواج وغرضها فى الباطن طلب

نصيحتها مرة أخرى ، فلعل أمها لم تكن قد أدركت تماماً أن خاطبها سيد راق ، ربما لا ينفى على الحقيقة إذا أخبرته بها بعد الزواج ، كما ينفى بعض الدهماء ، ولكن مسز دريفيلد لم تحب .

ورغم الحرج التي كان يدلي بها كلير إلى تس وإلى نفسه تبريراً للتعجيل باقترانهما ، فقد كانت تلك الخطوة لا تخلو من تسرع ، كما اتضح فيما بعد ؛ لقد كان يحبها حباً عظيماً ، وإن كان حبه مثالياً خيالياً لا تحبها الحار المتدفق ، ولم يكن قد خطر له يوم وطن نفسه على حياة الفلاحة والعمل اليدوي أنه سيمثر على فتاة ساحرة فائنة كهذه ، ولم يكن يدري كيف تروع النفس بساطة الطبع حتى أتى إلى هذا المكان ؛ ولكنه رغم ذلك كله لم يكن على بينة من مستقبل حياته ، وكان ما يزال أمامه عام أو عامان قبل أن يستطيع القول بأنه قد بدأ حياته المستقلة ، وكان السر في ذلك راجعاً إلى عنصر الإهمال وعدم المبالاة الذي تسرب في حياته منذ شعوره بأنه قد حيل بينه وبين المستقبل الجدير به ، بسبب أوهام والديه الدينية . سألته يوماً في خشوع : « ألا تظن أنه كان يجمل أن تنتظر حتى تستقر في مزرعتك في الأقاليم الوسطى ؟ » وكانت الفكرة إذ ذاك متجهة إلى اتخاذ مزرعة في تلك الأقاليم ، قال : « الحق يا عزيزتي تس أنى لا أحب أن أدعك بنجوة عن رعايتي وعطفي » ، وقد كان هذا سبباً معقولاً إلى حد بعيد : فإنه كان قد أثر فيها تأثيراً بليفاً ، حتى اقتبست طباعه وعاداته وطرق خطابه وعباراته ، وحاكته فيها يحب وما يكره ، فإذا هو تركها تعمل في مزرعة تخلفت ثانية وبعدت عن مشربه ؛ وكان هناك سبب غير هذا يدعو إلى استبقائها في رعايته : فقد كان والداه قد أبديا رغبتهما في رؤيتها مرة على الأقل قبل أن يحملها إلى بلد بعيد ، ولما كان لا يريد أن يمارضه معارضة تجعله يقلع عن نيته ، فقد رأى أن مقامه معها شهرين في مسكن أثناء بحثه عن عمل يمنحها من الخبرة الاجتماعية ما يهون عليها الصعوبة التي ستمتحن بها حين يقدمها إلى أمه في دار أبيه القس .

وعن له أن يدرس كيفية إدارة مطحن للحبوب ، إذ كان يفكر في أن يشفع

زراعته القمح بإدارة مطحن له ، وعرض عليه مالك مطحن مائي كبير قديم في (ولبردج) كان فيما مضى مطحن الكنيسة ، أن يطلع على طريقته العتيقة في العمل ، وأن يساهم في العمل أياماً ، حيناً تروقه زيارته ، وكان المطحن على مدى أميال ، فشخص إليه كبير ليستخلص بعض المعلومات وعاد في المساء ، فإذا هي تراه مصمها على قضاء زمن في ولبردج ، وإلام كان ذلك التصميم راجعاً ؟ لم يكن راجعاً إلى رغبته في حذق عمليات الطحن ، قدر رجوعه إلى اكتشافه عرضاً أن من الممكن استئجار مسكن في نفس ذلك البناء الرقيق ، الذي كان قبل أن تتدهور به الحال مقراً لأحد فروع دربرثيل .

تلك كانت طريقة كبير في الفصل في المسائل العملية : كانت ينزع فيها عن عواطف لا علاقة لها بتلك المسائل ؛ وعول الخطيئان على الإقامة هناك عقب اقترانهما بدل التجوال بين المدن والفنادق ، قال : « وبعد ذلك نذهب لفحص بعض المزارع على الجانب الآخر من لندن ، وفي مارس أو إبريل نزور أبي وأمي » ؛ وهكذا بحثا خطط المستقبل وبنا فيها ، واقترب شبح ذلك اليوم العجيب يوم تصوير له ، وكان تاريخه الحادى والثلاثين من ديسمبر ، اليوم السابق لعيد رأس السنة ، قالت تسائل نفسها : أحقا ستصير حليلته ؟ أحقا ستألف نفسها تشاطره كل شيء ولا يفرق بينهما مفرق ؟ ولم لا يكون ذلك ؟ ومع ذلك لم يكون ؟

وعادت إزهيوت صباح أحد أيام الآحاد وقالت لتس في خلوة : « لم يناد اسمك في الكنيسة اليوم لأول مرة ، ألسنت تريدان عقد القران في آخر أيام السنة ؟ » فأجابت تس إثباتاً ، قالت إيز : « ويجب أن ينادى اسمك ثلاثة آحاد متوالية ، والآن لم يبق إلا يوما أحد اثنتان » ، فشعرت تس بامتقاع خديها ، إذ كانت إيز على صواب ، وقالت في نفسها لعله نسي ، فإذا كان الأمر كذلك فسيؤجل الزواج أسبوعاً ، وذلك فالسي ، فكيف تذكر حبيبها ؟ وارتدت — وهي التي كانت محجمة مترددة — تتحرق شوقاً وحرصاً على عدم إفلات حبيبها الذي فازت به . وسكن قلقها حين أنهت إيز الخبر إلى مسز كريك التي أخذت على عاتقها مفاخرة إينجل باعتبارها ربة البيت ، قالت : « هل نسيت أمر المناداة ؟ » قال :

« لا ، لم أنس » ، وحالها اختل بتس طمأنها قائلاً : « لا يروعنك ما يقولون في أمر الندادة : فالزواج المدني أننى للجلبة ، وقد عولت عليه بغير مشورتك ، فإذا ذهبت إلى الكنيسة يوم الأحد القادم فلن تسمى اسمك إذا كان سماعه يروفك » ، قالت في صراحة : « لا ، لم يكن سماعه ليروفنى » ، وتنفست الصعداء إذ علمت أن الأمور تجري مجراها الطبيعى ، وكانت تخشى أن يعترض على الزواج معترض يستند إلى تاريخها ، وبدا لها أن الحوادث تحايبها أعظم المحابة ، على أنها قالت في نفسها : « لست مستريحة كل الاستراحة ، فلمل كل هذا التوفيق السعيد ستغتنبه المصائب منى في المستقبل ، وهذا دأب الأقدار ، فليتهم نادوا باسمى في الكنيسة ! » على أن كل شيء سار على ما يرام ، وساءلت تس نفسها : أيرضى أن تزف إليه في ثوبها الأبيض ، أم ينبغي لها أن تشتري ثوباً جديداً ؟ وكان هو قد سبقها إلى جواب هذا السؤال ، إذ وصلت باسمها عدة طرود ، وجدت تس داخلها مجموعة من الملابس : من القلنسوات إلى الأحذية ، وفيها ثوب للصباح بالغ غاية الجمال ، يوافق أتم الموافقة ذلك الزفاف الهادى الذى قر عليه قرارها ، ودخل الدار بعد وصول الطرود بقليل ، وسمعا وهى تحل رباطها فى أعلى ، وبعد هنيهة نزلت وقد احمر وجهها واغرورت عيناها ، وقالت وخدها على كتفه : « ما أكرمك ! حتى القفازات والمناديل ! » قال : « ليس فى ذلك فضل ولا كرم ، ولم يتعد الأمر كتاباً إلى خياطة فى لندن » .

وليصرفها عن المغالاة فى تقدير صنيعه أشار عليها أن تصعد وتقيس الملابس على مهل وترى إن كانت تناسبها ، فإن لم يناسبها شيء دعت خياطة القرية لإجراء ما يلزم من تسيير ، فمادت أدراجها صاعدة ، وارتدت ثوب الخرز ووقفت أمام المرأة مدة تنظر إلى صورتها ، فتبادرت إلى ذهنها أغنية أمها عن الثوب السحري « الذى لا يناسب العروس التى ارتكبت خطيئة » ، وكانت أمها تنشدها إياها فى حبور أيام طفولتها ، وقدمها على المنزلة تهز مع النغم ، وساءلت تس نفسها : ما تصنع إذا تم عنها هذا الثوب كما تم ثوب الملكة جينيفر عنها ؟ ولم تكن تلك الأغنية قد صرمت يالها منذ مجيئها إلى الضيعة .



٣٣

أراد إينجل أن يقضى معها يوما قبل الزواج بنجوة عن الضيعة ، لتكون تلك آخر رحلة يقومان بها وهما ما يزالان مجرد حبيبين ، في جو من العواطف لن يعود ، وهما يرقبان ذلك اليوم العظيم الذي يسطع أمامهما من أمم ؛ ومن ثم اقترح عليها في الأسبوع الماضي أن يخرجوا لشراء بعض الحاجيات في أقرب بلد ، وانطلقا معا ؛ وكانت حياة كليز في الضيعة حياة عزلة عن أبناء طبقتها ، تعبر به شهود دون أن يهبط بلدا ، فلم يكن يملك مركبة ، بل كان يستأجر عربنة كريك أو حصانه ، واليوم خرجا في العربنة ، وللمرة الأولى في حياتهما اشتراكا في شراء ما يريدان ، وكان اليوم هو السابق لعيد الميلاد ، فكانت الحوانيت مملأة بأغصان الميسلتو ، والبلد غامسا بالزائرين الوافدين من جميع أنحاء الإقليم ، وكانت تس تشق طريقها بينهم وذراعها في ذراعه ، ووجهها يفيض جمالا وجورا ، فكان عقابها على ذلك أن كانت تحمدجها العيون .

وفي المساء عاد إلى الفندق الذي نزل به ، وانتظرت تس داخل الباب حتى يعود إينجل بالعربنة والحصان ، وكانت حجرة الجلوس تمتع بالناس خارجين وداخلين ، وكان كلما انفتح الباب وانتلق خلف أحدهم وقع الضوء على وجه تس ؛ وكان في الخارجين رجلان حملق فيها أحدهما من فرعها إلى قدمها مدهوشا ، وقام بظنها أنه من أهل ترتدج ، وإن تكن تلك البلدة على مدى بعيد لا يكثر قدوم أهلها إلى هذا المكان ، وقال الرجل الآخر : « ما أجملها » ، قال الأول : « بلاشك ولكن إذا لم أكن مخطئا ... » وسكت فلم يزد .

وكان كليز قد عاد من الإصطبل وقابل الرجل وجهها لوجه ، وسمع ما قال ورأى انكماش تس ، وهاجه أن يراها تها ، فسرعان ما لكم الرجل على ذقنه لكمة قوية ترخ لها الرجل في الطريقة ، ثم أفاق وكر عائدا ، ووقف كليز خارج

الباب متأهباً للدفاع ، ولكن خصمه راجع الحكمة فنظر إلى تس مرة أخرى وهو يمر بها ، وقال لكثير : « عفوك يا سيدى ، أنا مخطئ » ، لقد حسبته امرأة أخرى تعيش على مدى أربعين ميلا » ، وأحس كثير أنه تسرع وأنه كان أخطأ بتركها هناك ، ففعل ما كان يفعل دائماً في تلك الأحوال : فنقد الرجل خمسة شلنات تعويضاً ، وافترقا مصطححين وتبادلا التحية ، وحالما تناول كثير العنان من السائق وانطلق هو وفتاته ، انصرف الرجلان في الاتجاه المضاد ، وقال الرجل الثانى : « أ كنت مخطئاً حقاً ؟ » قال : « كلا ، وإنما أيت أن أجرح شعور صاحبها » .

وقالت تس فى الطريق بصوت كثيب : « ألا يمكن تأجيل الزواج قليلاً ؟ أعنى إذا شئنا ؟ » قال : « لا يا عزيزتى ، هدى روعك ، أتعنين أن الرجل رباً قاضى لتعدى عليه ؟ » قالت : « لا ، إنما أعنى . . . إذا لزم تأجيل الزواج » ، ولم يدر ما تعنى ، ونصح لها بالإقلاع عن تلك الهواجس : فأطاعت إلى غاية ما استطاعت ، ولكنها ظلت عابسة طوال الطريق حتى قالت فى نفسها : « سنتبعد عن هذه الربوع أميالا ، وعندها لا يتكرر هذا الأمر ولا يتعمقنا شبح من الماضى » وافترقا على السلم تلك الليلة افتراق الحبيبين ، وصعد كثير إلى حجرته العليا ، وقامت تس تعد بعض الحاجيات ، مخافة ألا يتسع الوقت فى الأيام القليلة الباقية ، ولما جلست سمعت ضوضاء فى حجرة إينجل فوق رأسها ، وصوت عراك وسقوط ، وكان جميع من فى البيت نائمين ، وخافت تس أن يكون بكثير سوء ، فاندفعت صاعدة وقرعت بابه وسألته ماذا حدث ، فأجاب : « لا شئ يا عزيزتى ، ويوسفنى أنى أزعجتك ، ولكن السبب الحقيقى مضحك : فقد غلبنى النوم ورأيت كأنى أعود مقاتلة ذلك الرجل الذى تهجم عليك ، ولم يكن ما سمعت إلا صوت لكمانى التى كلتها لحقيقتى التى كنت أعدها للسفر ، وهذه أحوال تعاودنى فى نوى أحياناً فعودى إلى فراشك ولا تفكرى فى الأمر »

وكان هذا آخر درهم لازم لترجيح كفة قرارها ، ولم تكن تستطيع أن تنهى

إليه خبر ماضيها شفاها ، ولكن كانت هناك طريقة أخرى ، فأوجزت في أربع صفحات صفار تاريخ تلك الحوادث التي تعاقبت منذ ثلاث سنين أو أربع ، وغلفتها وعنوانها باسمه ، ثم دلفت حافية وصعدت لتوها مخافة أن يخونها العزم ، ودفعت الرسالة تحت باب حجرته ، وقضت ليلة مفرقة ، وارتقت سماع أول حركة ضئيلة فوق رأسها ، وسمعت تلك الحركة كالمادة ، وهبط كالمادة ، وهبطت وقابلها عند أسفل السلم وقبلها ، وأحست أنها قبلة حارة دون مرء

وكان يبدو عليه القلق والنحول قليلا ، ولكنه لم يفه بكلمة فيما كاشفته به حتى في خلوتها ، فهل عثر على رقعتها ؟ ولم تكن تستطيع أن تقول شيئا مالم يفتحها في الموضوع ، وهكذا انقضى اليوم ولاح لها أنه لا ينوي أن ييوح برأيه أيا كان رأيه ، ومع ذلك ظل صريحا مخلصا في معاملتها كدأبه ، فهل كانت شكوكها شكوكا صبيانية ؟ هل صفح عنها ؟ هل هو يحبها لذاتها على علاقتها ولم يزد على أن ابسّم إلى جزعها وعده كابوسا سخيفا ؟ هل التقط رقعتها حقا ؟ وألقت في حجرته نظرة فلم تر لها أثرا ، فلعله غفر لها ؛ وشعرت في ثقة حارة مفاجئة أنه صافح عنها غافر لها وإن يكن لم يحرز رقعتها ، وظل إينجل كالمعهد به صباح مساء ، حتى حل اليوم السابق لعيد رأس السنة ، وهو يوم الزفاف .

ولم ينهض الحبيبان للحلب ، وكانا قد منحا خلال هذا الأسبوع الأخير من مقامهما في تلبوئيز ، منزلة كمنزلة الضيوف ، ومنحت تس شرف التفرد بحجرة ، ولما هبطا للفقور راعهما ما استجد في المطبخ الواسع منذ رأياه للمرة الأخيرة ، من معالم الاحتفال بهما : فقد كان صاحب الضيعة أمر مبكرا فظلي الموقد بالحجرة وطلّى ركنه الفاغرفاء بالبياض ، وعلق ستار أصفر من النسيج الدمشقي على القبو ، محل الستار القطنى الأزرق القديم ذى النقش الأسود المزركش ، ولما كان ذلك الركن هو مطمح الأعين من تلك القاعة في صباح كل يوم شات مدجن ، فقد كسبت الحجرة بتجديده على هذا النحو منظرا بشوشا ، وقال صاحب المصنع : « لقد كنت مصمما على عمل شىء ما ابتهاجا بهذا الأمر ، وإذ أيتنا استدعائى فرقة

موسيقية بأبواقها وكنجياتها ، كما كنا نفعل في ماضى الزمن ، فلم يبق لدى ما أفعله  
بغير ضوضاء سوى هذا » .

وكانت صديقات تس وذووها يقيمون على بعد لا يتيسر لهم معه أن يحضروا  
اليوم حتى لو دعوا . على أنه لم يدع أحد من مارلت ، أما أسرة إينجل فكان قد  
كتب إليهم في الوقت المناسب يخبرهم بالبعد ، وأكد لهم أنه يسره أن يرى  
واحداً منهم على الأقل في ذلك اليوم إذا راق أحدهم الحضور ، فأما أخواه فأمسكا  
عن الرد بتأنٍ كأنهما حائقان ، وأما والداه فردا ردا حزيناً يندبان فيه تسرعه  
بالزواج ، ولكنهما يتميزان بقولهما إنهما — وإن لم يتوقعا قط أن تغدو عاملة  
ألبان كنة لهما — يريان أن ابنهما قد بلغ السن التى يصبح فيها خير حكم .

ولم يحزن إينجل لهذا الفتور من جانب قرابته بعض ما كان يحزن لولا حاجته  
الدائمة ، التى ينوى أن يفجأهم بها عما قريب ، وكان قد رأى أن استخراج تس  
رأساً من الضيقة ، وإبرازها للناس على أنها سليمة دربر قيل وعلى أنها سيدة نبيلة ،  
عمل لا يخلو من تهور ومغامرة ، ومن ثم كتم نفسها حتى يُصَوِّرَها بأحوال الدنيا  
في أشهر يقضيانها في الرحلة والقراءة ، وعندها يستصحبها لزيارة والديه ، ويروح  
بالسر ويقدمها إليهما والظفر ملء جوامحه سيدة جديرة بتشريف نسبها ؛ كان  
ذلك حلم عاشق إن لم يزد على ذلك ، ولعل إينجل كان الوحيد بين المالمين الذى  
يغالى بنسب تس .

رأت تس أن شعور إينجل نحوها لم يتغير فتبلا بعد رسالتها ، فأحست كأنها  
خاطئة وارتابت في حصوله على الرسالة ، فهضت قبل أن يفرغ من طعامه وأسرت  
صاعدة ، وقد خطر لها أن تعاود النظر في الحجرة الممتعة المعجبة التى كانت عريناً  
أو عشاً لإينجل كل ذلك الوقت الطويل ، ووقفت بالباب المفتوح تتأمل وتتدبر ،  
ثم انحنت إلى العتبة حيث كانت قد دفعت الوريقات في عجلتها منذ يومين أو ثلاثة  
وكان طرف البساط يقارب أسكفة الباب ، وتحته لمحت هامش الرقعة الأبيض

الشاحب ، ورجح لديها أنه لم يرها قط ، إذ كانت في استعجالها قد دفعها تحت الباب وتحت البساط معاً .

سحبت تس الرسالة وقد خدرت مفاصلها ، فاذا هي كما تركتها مخنومة ، وإذا الجبل لم يرحزح بعد ، ولم تكن تستطيع الآن أن تطلعه عليها والدار تعج بمظاهرها الاحتفال ، وهبطت إلى حجرتها ومزقت الرقعة ، ولما رآها إينجل ثانية كانت ممتعة امتقاعاً هاله ، وكانت قد أذهلت لما كشفت من أمر الرقعة ، وعدت ذلك حائلاً يحول دون الاعتراف ، وإن أحست في قرارة نفسها بأن الأمر على تقيض ذلك وأنه ما زال هناك متسع من الوقت ؛ ولكن الحركة في الدار كانت على قدم وساق ، وكان على كل امرئ أن يظهر في خير ثيابه ، وكانا قد رغبا إلى مستر كريك وزوجه أن يصحباها ليكونا شاهدي زواجهما ، وكان التفكير أو الحديث المستفيض في ذلك متعذراً .

ولم تستطع تس أن تختلي بصاحبها إلا وهلة التفائهما على السلم ، فقالت وهي تتظاهر بعدم أهمية الأمر : « كم أود أن أحدثك وأعترف لك بكل أخطائي وعيوبي » قال : « لا ، لا ، لا يمكن التحدث في الأخطاء ، يجب اعتبارك كاملة هذا اليوم على الأقل ، وأرجو أن يتاح لنا الوقت فيما بعد لنفصح عن معايينا ، وسأفصح عن نصيبي منها » . قالت : « ولكنني أستحسن أن أفصح الآن كيلا تقول . . . » قال : « إذن تنهي إلى كل شيء يا عزيزتي بمجرد استقرارنا في مسكننا ، أما الآن فلا ، وسأبوح لك بأخطائي ، ولكن لا نفسدن بها يومنا ، فإنها ستكون موضوعاً شائناً في يوم كآبة » . قالت : « أنت إذن لا تريدني أن أتكلم ؟ » قال : « الحق أني لا أريد يا تس » .

ولم تترك زحمة اللبس والانطلاق متسعاً من الوقت لأكثر من هذا ، وتأملت فيما قال فرأت في مقاله ما يدعو إلى الطائفة ، واندفعت في الساعتين المشهودتين اللتين أعقبتا ذلك محمولة في تيار من هيامها به ، وكان هياماً جارفاً سد السبيل دون متابعة التفكير ، وقد جاءت رغبتها الوحيدة التي طالبا قاومتها — رغبتها في أن

تجعل نفسها له وتدعوه مالكها وملكها معاً ، ثم تموت إن لم يكن بد — جاءت تلك الرغبة تنتشلها من طريق تأملاتها الموحد ، وكانت وهي تلبس ثيابها تجول في غمامة خيالية مثالية متعددة الألوان ، تكشف بلألوانها كل هاجسة ممضنة .

وكانت الطريق إلى الكنيسة طويلة ، فاضطروا إلى الركوب لا سيما وقد كان الفصل شتاء واستحضرت عربية مقفلة من أحد الفنادق ، وكانت عربية متروكة هناك من عهد الانتقال بالعربات والخيول ، وكانت عجلائها صلبة القوائم ثقيلة الإطارات ، وكان لها قاع مقوس ضخيم وسيور ولوالب عظيمة ، وذراع في مقدمتها كأنها الدبابة التي تدك بها أبواب الحصون . وكان سائقها شيخاً في الستين قد وقع فريسة لداء المفاسل من جراء تعرضه في الصغر لتقلبات الجو ، ومحاوئته علاج ذلك بالإفراط في الشراب ، وكان قد قضى خمساً وعشرين سنة ، منذ بطل الاحتياج إلى مهنته ، واقفاً بباب الفندق لا يصنع شيئاً ، كأنما ينتظر رجعة الزمان الذي مضى ، وكان بظاهرها ساقه اليمنى جرح ما يزال دامياً ، قد شقه دوام احتكاك ساقه بأذرع مركبات الأشراف ، في السنين الطوال التي قضاها يعمل بفندق « كنجز آرمز » في « كستربردج » .

في هذا الهيكل الثقيل الواهي المتعثر ، وخلف هذا السائق المهدم ، جلست الرفقة الرباعية : العروس والعريس ومستر كريك ومسر كريك ، وكان إينجل بود لو حضر أحد أخويه على الأقل فكان رفيقاً له ، ولكن صمتها بعد إشارته إلى ذلك في خطابه إشارة لطيفة ، كان دليلاً على رغبتهما عن الحضور . ولم يكونا يشهدا الزواج وهما غير موافقين عليه ، ولعل غيابهما كان خيراً : فإنهما وإن لم يكونا بالترفيهن لم يكونا ليستسيغا الانفار في وسط عمال الضيعة ، مع ماها عليه من الترفع والتأني ، بنض النظر عن رأيهما في الزواج ذاته .

أما تس التي كانت مشغولة اللب بخاطر الموقف ، فلم تكن تفكر في شيء من هذا ، ولا كانت تري شيئاً أو تعرف الطريق التي كانوا يجتازونها إلى الكنيسة ، إنما كانت تعلم أن إينجل بجوارها ، وكل ما عدا ذلك كان ضباباً براقاً ، وكانت

تحس أنها شخص سماوى شعرى ، وأنها إحدى تلك الآلهات الكلاسية التى كان كبير يحادثها فى شأنها وهما يتزهران .

وإذ كان الزواج زواج عقد مدنى لم يكن بالكنيسة إلا أفراد قلائل ، ولو كانوا ألفاً لما استرعوا انتباهها ، فقد كانوا بعيدين عن دنياها الحاضرة بعد الكواكب ، وأقسمت على الوفاء له فى حرارة وإخلاص تتضاءل حيالها كل الميول الجنسية ، وساد الصمت وهلة ، فالت إليه عن غير وعى وهما راكمان معاً حتى مست كتفها ذراعها ، وكانت قد أفرقتها فكرة خاطرة ، فتحركت تلك الحركة الآلية ، كأنها تطمئن إلى وجوده بجانبها وتؤكد اعتقادها بأن وفاء لها سيكون حرزاً منيعاً لها ضد كل غوفة ؛ وكان كبير يعلم أنها تحبه ، إذ كانت كل انحناءة فى تكوينها تنطق بذلك ، ولكنه لم يكن يعلم إذ ذاك عمق تقانها فى حبه وتوفرها عليه وخفضها جناحها إليه ، وما تضرع من استمداد لتحمل المشاق ، وطول الولاء والاضطراب ورعى التمام .

وعند منصرف الجمع أطلق القارعون النواقيس فدقت ثلاث دقات متواضعة ، وكان بناء الكنيسة قد قدروا أن ذلك العدد المحدود كاف للتعبير عن أفراح تلك الأبرشية الصغيرة ، وأحست تس عند مرورها هى وزوجها بجانب البرج فى طريقهما إلى البوابة ، بحفيف الهواء مندفعاً فى دائرة من الصوت من قبة الأجراس ذات المنافذ ، فكان ذلك الحفيف مشابهاً للعجو النفسى المحتدم الذى تعيش فيه .

وظلت تخامرها هذه الحالة النفسية التى فيها تحيط بها هالة ملائكية لمجاورتها كبير — كأنها ذلك الملاك الذى رآه القديس حنا فى الشمس — حتى تخافتت أصوات النواقيس ، وسكن الاضطراب الذى صحب مراسيم القران ، وعندها استعادت عيناها القدرة على إبصار تفاصيل الأشياء ، وكان مستر كريك وزوجته قد أمرا أن تلحق بهما عربتهما كي يتركا المركبة للمروسين ، ولاحظت تس شكل المركبة وتكوينها لأول مرة وجلست تحديق فيها صامتة .

قال إنجنل : « أراك مكتئبة » ، قالت وهي تمسح جبينها : « نعم ، أنا مشفقة من أشياء كثيرة خطيرة ، من ذلك أنى رأيت هذه المركبة من قبل وأنى أعرفها جيداً ، ولا بد أنى رأيتها فى حلم فعلى غريبة جداً » ، قال : « لا بد أنك سمعت خرافة مركبة دربرثيل ، الدائمة فى هذا الإقليم عن قومك أيام كانوا مطمح قلوب الأهالى ، ولا بد أن هذه المركبة الضخمة تذكرك بذلك » ، قالت : « لم أسمع تلك الخرافة قط ، فما هى ؟ » قال : « أوثر ألا أفصلها لك الآن ، ولكن مجملها أن أحد أبناء دربرثيل فى القرن السادس عشر أو السابع عشر ، اقترف جريمة فى مركبة أسرته ، ومنذ ذلك العهد يرى أبناء الأسرة المركبة أو يسمعونها كلما . . . بل أخبرك بذلك يوماً آخر ، فعلى خرافة بشعة ولا بد أن هذه المركبة الوقور قد أعادت إلى مخيلتك معرفة ضئيلة قديمة بهذه الأسطورة » .

قالت : « لا أذكر أنى سمعتها من قبل ، أرى أبناء أسرتى العربية عند إشرافهم على الموت أم عند اقترافهم إثماً ؟ » قال : « مه ياتس ! » وأسكتها بقبلة ، ولم يبلغا الدار إلا وقد نال منها التأثم والجزع : لقد أصبحت حقاً مسر كلير ، ولكن ألهما حق أدبى فى حمل ذلك اللقب ؟ . أليس أجدر أن تدعى مسز إسكندر دربرثيل ؟ وهل تبرر حرارة الحب ما قد يدعوه ذوو الطوية النقية صمتاً آثماً ؟ لم تكن تدرى ما ينبغى للنساء فى مثل تلك الحال صنعه ، ولم يكن لها ناصح مشير .

على أنها حالما انفردت بنفسها فى حجرتها — وكان ذلك آخر يوم تدخلها فيه — جثت تصلى ، وحاولت أن تصلى لله ، ولكن زوجها استأثر بدعواتها ، فقد كانت تقدس ذلك الرجل تقديساً خافت هى نفسها أن يكون مشؤوم العقبي وكانت تحس بذلك الشعور الذى عبر عنه القس لورنس بقوله : « هذه السعادة المنيفة تنتهى نهاية عنيفة » ، فلعل تلك السعادة أشد عراماً وانطلاقة واحتداماً ، من أن تدوم فى ظروف بنى الإنسان الحاضرة ، وراحت تهمس فى وحدتها : « يا حبيبى ! يا حبيبى ! لساذا أحبك كل هذا الحب ؟ . إن التى تحبها ليست إياى ، بل هى امرأة فى رسمى ، هى المرأة التى كان يمكن أن أكونها ! » .



ومضى الظهر وأزفت ساعة الرحيل ، وكأنا قد عولنا على تحقيق فكرة قضاء بضعة أيام في المسكن القائم في الضيعة العتيقة قرب طاحون ولبرديج ، حيث كان ينوى الإقامة أثناء دراسته العملية للطحن ، وما حانت الساعة الثانية حتى تمين الانطلاق . وكان جميع خدم الضيعة متجمعين بالمدخل المبني من الطوب الأحمر لوداعهما ، وتبعهما صاحب الضيعة وزوجه إلى الباب ، ورأت تس زميلاتها في المخدع بجانب الحائط مطرقات في تأمل ، وكانت قد شكت في أنهن يظهرن ساعة الذهاب ، ولكن ها هن أولاء متجملات متجلدات إلى النهاية وكانت تعلم جيدا لماذا تبدو ريتي الرقيقة علية ، وإيز حزينه والهآ ، وماريان واجمة .

ونسيت تس عناء نفسها الناصب وهلة ريثما تنظر في عنائهن ، وهست في أذن زوجها : « ألا تقبل المسكينات قبلة واحدة هي الأولى والأخيرة ؟ » ولم يجد إينجل ضيرا في مثل هذه المجاملة الظاهرة في موقف الوداع — ولم يكن يراها إلا بمجاملة — وحين مر بهن قبلهن واحدة واحدة قائلا لكل منهن : « وداعا » ، ولما بلغنا الباب دفعت تس أنوثتها إلى الالتفات وراءها ، لترى أثر تلك القبلة المتكرم بها ، ولم يكن يبدو الظفر في عينيها كما قد يبدو في عيني سواها في مكانها ولو كانت في عينيها نظرة ظفر لتلاشت حالما رأت فعل القبلة المؤلم في الفتيات ، فقد نهت منهن مشاعر كن يجتهدن في إرقادها ، أما كلير فكان في غفلة عن كل ذلك .

ولما بلغنا البوابة الصغيرة صافح صاحبي الضيعة ، وأعرب للمرة الأخيرة عن شكره على عنايتهما ، وتلت ذلك فترة صمت قبل انطلاق المركبة ، ولم يقطع ذلك الصمت إلا صياح ديك ، فقد كان الديك الأبيض ذو العرف الأحمر قد جاء وجثم على السور الخشبي أمام الدار على مدى أذرع من الجميع ، ودوت صيحته في آذانهم ، وتحافت رويداً رويداً كما تتضاءل الأصدا في واد صخرى ، وقالت مسز كريك : « يا للعجب ! أصياح ديك بعد الظهر ؟ » ، وكان رجلان واقفين بجانب البوابة الكبيرة يفتحانها ، فهمس أحدهما للآخر في صوت لم يخله يصل

إلى آذان الجمع الواقفين بالبوابة الصغيرة : « هذا فال سىء » .  
وصاح الديك صيحة أخرى في وجه كبير ، فقال صاحب الضيعة : « واعجبا ! » ،  
وقالت تس لزوجها : « لست أحب صياحه ؛ مر السائق بالانطلاق ؛ وداعا ؛  
وداعا » ، وصاح الديك ناثثة ، فالتفت صاحب الضيعة إليه يدفعه بعيدا وهو يصيح  
به محنقا : « أطبق فك واغرب وإلا دقت عنقك » ، ولما انقلب راجعا إلى الدار  
هو وزوجه قال لها : « ما أعجب حدوث هذا في يومنا هذا ! أنا لم أسمع صياح الديك  
بعد الظهر طوال هذا العام ! » فقالت : « لا يدل هذا إلا على تغير في الطقس ؛  
وليس يدل على ما تظن ؛ فذاك محال ! » .

٣٤

انطلقا على الطريق المبد الذي يخترق الوادى ، مسافة أميال حتى بلغا ولبرديج ، فجانبنا القرية منعطفين إلى اليسار عابرين الجسر المبنى على الطراز الإليزابيثى ، الذى اشتق من اسمه نصف اسم القرية ، وكان يقوم خلف الجسر تماماً البيت الذى استأجرا فيه مسكنهما ، والذى كان منظره الخارجى معروفاً حق المعرفة لدى جميع السائحين فى وادى فروم ، وكان فيما مضى جانباً من قصر بعض الأشراف من آل دربرثيل ، ثم تهدم وصار منزلاً ريفياً ، وقال كليز وهو يساعدها على الترتيل : « فلتشر فى أحد قصور أجدادك » ، ثم عاد فندم على تلك الدعابة إذ رآها أقرب إلى السخرية .

ولما دخل وجد أن صاحب المنزل كان قد انتهز فرصة إقامتهما فى الدار فى الأيام المقبلة ، ورحل لزيارة بعض أصدقائه لمناسبة عيد رأس السنة ، تاركاً الدار كليهما ، مع أن كليز لم يستأجر إلا غرفتين اثنتين ، وترك الرجل امرأة قاطنة ببعض الأكوخ المجاورة لتدبر حاجتهما القليلة ، فسرهما تفردهما بالمنزل ، ووجدا نفسيهما لأول مرة مستقلين مجتمعين تحت سقف واحد ، بيد أن كليز لاحظ أن ذلك المسكن القديم المتداعى أدخل الكآبة على نفس عروسه ، ولما ذهبت المركبة صعدا الدرج لينسلا أيديهما والخادم تقودهما ، فإذا تس تقف على بسطة فى السلام بحفلة .

قال : « ما بالك ؟ » قالت مبتسمة : « نأناك المرأتان الخيفتان أفزعنا فى ! » فرفع بصره فإذا صورتان بالحجم الطبيعى منقوشتان فى صلب الجدار ، وكانتا — كما يعرف كل رواد المنزل — تمثالان امرأتين نصفين يرجع عهدهما إلى مائتى عام مضت ، هيات ينسى هيتهما من رأهما ، بل نعمتا فى منامه ملايح إحداهما الحادة وعينها الضيقة ، وابتسامتها الخبيثة الناطقة بالخدبة التى لا تبقى ولا تذر ،

وأنف الأخرى الأتقى وأسنانها الكبيرة ، وعينها الجريئة الفصحة عن الكبرياء  
البالغة حد الفظاعة .

سأل كليبر الخادم : « صورنا من هاتان ؟ » قالت : « حدثني بعض الشيوخ  
أنهما لامرأتين من آل دربرفيل أصحاب هذا المنزل الأقدمين ، لم تمكن إزالتهما  
لكونهما محفورتين في صلب البناء » ، وكان أفضح ما في الأمر — فضلا عن سوء  
موقع رؤيتهما في نفس تس — أن الشبه كان واضحاً بين ملامحها السمحة وبين  
تلك الملامح البالغ في تصويرها ، على أن كليبر لم يشر إلى ذلك بقول ، وندم على  
اختياره هذا المنزل لقضاء شهر العسل .

ومشى إلى الحجرة المجاورة ، وكان المكان قد أعد لها في عجلة ، فاضطرا إلى  
غسل أيديهما في حوض واحد ، ولس يديها تحت الماء ثم رفع بصره قائلاً :  
« أية هذه يدى وأيتها يداك ؟ لقد اختلطت جميعاً » ، فأجابته في رشاقة عذبة :  
« كلها لك ! » وحاولت أن تظهر من السرور أكثر مما تبطن ، ولم يكن كليبر استاء  
من استرسالها في التفكير في تلك المناسبة ، فقد كان من الطبيعى أن تسترسل أية  
امرأة في التفكير في مثل ذلك الموقف ، ولكنها أحست أنها قد أفرطت . وحاولت  
أن تتغلب على وجوبها .

وكانت الشمس منخفضة في ذلك الأصيل القصير الذى هو آخر أصائل السنة ،  
فكانت نضى من ثمرة صغيرة ويمتد منها خيط ذهبي إلى ذيل ثوب تس ، ينقش  
على ثوبها نقطة كأنها نقطة طلاء ؛ وسارا إلى حجرة الجلوس القديمة لتناول الشاي ،  
وهنا تقاسما أول أكالاتهما المشتركة على انفراد ، وبلغ من عبثهما ، أو بالأحرى  
من عبثه هو ، أن راقه أن يستعمل وإياها طبقاً واحداً للخبز والربد ، وأن يسمح  
الفتات عن شفتيها بشفتيه ، وعجب إذ لم تحب على هذه المداعبات بمثل حماسه .

وأدمن النظر إليها ثم قال في نفسه كأنه يتخير أوفى الألفاظ للتعبير عن  
فكرة وعرة المتناول : « تس هذه ما أجملها وأعزها لى ! هل أنا أعمى إلى أى  
مدى يتوقف مستقبل هذه الجارية على سعود جدى أو عثاره ؟ يخيل إلى غير ذلك

ويخيل إلى أنى لن أستطيع أن أرى ذلك إلا أن أكون امرأة أنا نفسى ، مكانى  
فى المجتمع مكانها ، ومصيرى مصيرها ، وما لا قبل لها به لا قبل لى به ، وهل ترانى  
مهملاً يوماً أو مدحلاً الألم على نفسها أو ناسياً مرضاتها ؟ معاذ الله أن أقترف  
مثل تلك الخطيئة ! » .

وجلسا فوق مائدة الشاى ينتظران أمتعتهما ، وكان صاحب الضيعة قد وعد  
بإرسالها قبل هبوط الظلام ، ولكن بدأ الليل يزحف ولم تصل الأمتعة ، ولم يكونا  
أحضرا شيئاً سوى ما يكسو بدنيهما ، ولما غربت الشمس تغير سكون ذلك اليوم  
الشاى ، وخفقت خارج الدار أصوات كأنها خفيف الخرز يتضرب بعضه فى بعض  
وأنثرت أوراق الخريف المنصرم اللينة ، فراحت تمخبط وتلاطم فى تناقل ،  
وتضرب مصاريع النوافذ ، وسرعان ما نزل المطر ، فقال كبير : « لقد كان ذلك  
الديك يعرف أن الجو سيتغير » .

وكانت المرأة التى هيأت لها حاجتهما قد ذهبت تقضى الليل فى كوخها ،  
ولكنها كانت قد وضعت شموعاً على المائدة فأضاءها ، فراحت شعلاتها تتأبل نحو  
الدفأة ، وقال إينجل : « هذه المساكن القديمة قوية التيار » ، وكان ينظر إلى  
اللهب وإلى دموع الشموع تتساقط على جوانبها ، واستطرد : « لست أدرى ماذا  
حل بمتاعنا ، وليس معنا حتى فرجون ولا مشط » ، فأجابت وذهنها شارد :  
« لست أدرى » ، فقال : « لا أراك مسرورة الليلة يا تس ولا أرى أثراً من  
حبورك المهود ، لقد انقبضت نفسك لرؤية تينك المجوزين الحيزونين فى الطابق  
العلوى ، وليتنى لم آت بك إلى هذا المكان ولست على يقين إن كنت حقاً تحببني » .  
وكان على يقين أنها تحبه ولم يكن الجذ ظاهراً فى نبرات صوته ، ولكن  
نفسها كانت تعج بالانفعالات ، فجفلت كأنها وحش طمين ولم تمالك أن اغرورقت  
عينها بالرغم منها ، فقال نادماً : « لم أعن ما قلت ، وكل ما فى الأمر أن غياب  
متاعك يشغل بالك ، وليتنى أدري ماعاق الشيخ چونان أن يأتى به ، وقد بلغت الساعة  
السابعة ، آه ! ها هو ذا ! » ، وكان الباب قد دق ، ولما لم يكن هناك من يجب

خرج كليز ، وعاد إلى الحجرة وفي يده حزمة صغيرة وقال : « لا ، لم يكن ذاك جوناتن » ، قالت : « أف لهذا ! » .

وكان قد جاء بالحزمة رسول خاص وصل إلى تلبوثيز آتياً من إمنستر بعد انطلاق العريس وعروسه مباشرة ، وانطلق على آثارها إذ كان مأموراً أصراً قاطعاً ألا يترك الحزمة إلا في أيديهما ؛ ووضع كليز الحزمة في الضوء وكان طولها لا يبلغ القدم ، مغلفة بالخيش وعليها خاتم والده بالشمع الأحمر ، معنونة بخط والده إلى (مسز إينجل كليز) فقال وهو يدفعها إليها : « هي هدية زفاف صغيرة لك يا تس ، ما أكرمهما ! » وتناولتها تس في حيرة ثم أعادتها إليه قائلة : « أوتر أن تفضها بيدك يا جيببي ، فلست أحب أن أفض تلك الأختام المائلة ، فإن لها منظرأ خطيراً ، فتكرّم بفتحها لي ! » ففرض الغلاف فإذا به حقيقة من الجلد الغربي على رأسها رقعة ومفتاح ، وكانت الرقعة موجهة إلى كليز وهذا نصها :

« بنى العزيز : لملك تذكر أن جدتك مسز (بتنى) حين ماتت وكنت ما تزال طفلاً ، تركت إليّ — تلك المرأة الطيبة الساذجة — جزءاً من محتويات حقيقة جواهرها ، وديعة لك ولن تختارها زوجاً إن أنت اخترت أحداً ، وقد وفيتُ بتلك الوديعة وحفظتُ تلك المساسات لدى صيرفي منذ ذلك العهد ، وأرى — كما لا بد أنك ترى — حقاً على أن أدفع الوديعة إلى المرأة التي تستحق الآن أن تنتفع بها مدى حياتك — وإن بدا عملي هذا مضحكاً متناقضاً في هذه الظروف — ومن ثم بادرت بإرسالها — وهي وديعة تتوارث في الأسرة على مضي الأجيال كما تنص وصية جدتك ، وقد أرفقت بهذا نص العبارة التي تشير إلى ذلك »

قال إينجل : « أجل ، الآن أذكر وإن كنت قد نسيت تماماً من قبل » ، وفتحا الحقيقة فإذا فيها عقد ذو واسطة وأساور وأقراط وحلى أخرى دقيقة ، ونفرت تس في بادئ الأمر من لمس تلك الأشياء ، ولكن عينيها برقتا بريق الجواهر حين بسطها كليز ، وسألت غير مصدقة : « أمي لي ؟ » قال : « هي لك بغير شك » وأطرق نحو اللدفاة ، وتذكر أيام كان غلاماً في الخامسة عشرة ، كيف

جزمت جدته بمستقبل باهر ينتظره ، وكانت السيدة زوج شريف المقاطمة ، وهي الشخص الغنى الوحيد الذى عرفه كليز ، وقد تنبأت له بحياة ناجحة ، فلا عجب أن وقفت تلك الجواهر الثمينة على زوجه وذريتها ؛ ولكن كان فى بريق الحلى الآن شئ من السخرية ، على أنه قال فى نفسه : « ولكن لم ؟ » وبدا له أن المسألة مسألة غرور من بادية الأمر إلى نهايته ، يستوى فيها طرفا المعادلة ، فإن زوجه سلبية دربرثيل فأى النساء أجدر بالجواهر منها ؟

ورفع رأسه فجأة وقال فى حماسة : « البسيها يا تس ، البسيها ! » والتفت إليها يساعدها ، ولكنها كانت قد لبستها بسرعة سحرية ، لبست العقد والأقراط والأساور وكل ما هنالك ، قال : « ثوبك لا يلائمها يا تس ، بل يجب أن يكون أعلاه أقل بروزاً » ، قالت : « أحق ؟ » قال : « نعم » وأشار عليها بضم أعلى ثوبها حتى يقارب تفصيل ثوب السهرة ، فلما فعلت وتذلت واسطة العقد وحيدة على جيدها الناصع تقهقر يتأملها وقال : « يا إلهى ! ما أجملك ! »

وبدعى أن الريش الجميل يكسب الطير منظرًا جميلاً ، وإذا كانت ريفية تسترعى نظر الرائي بعض الاسترعاء فى ثيابها الساذجة ومظهرها المرسل ، فإنها لتبدو مليحة ساحرة فى زى سيدة قد حباها الفن كل ما يستطيع ، على أن إحدى الحسان من رائدات الحفلات الساهرة لن تبدو إلا زرية هجينة إذا اشتملت بشملة الريفية ، ووقفت فى حقل لفت فى يوم عبوس قطرير ؛ ولم يكن كليز قد قدر قبل الآن كمال تناسب أعضاء تس وملاحها ، قال : « آه لو ظهرت فى صالة رقص ! ولكن لا ، لا يا حبيبتى ، أنت أحب إلى فى قلنسوتك المنحثة وثوبك القطنى ، وإن كنت لتزينين هذه الحلى الفاخرة »

وكانت تس لشعورها بوجاهة مظهرها قد توردت مزهورة وإن لم تنبسط ، قالت : « سأخلعها لثلاث رباتى جونان ، فعلى لا تناسبنى ، وأولى أن نبيعهما ، ألا ترى ذلك ؟ » قال : « استبقها قليلاً ، نبيعهما ؟ أبداً ! تلك خيانة للمهد » ، وغيرت رأيها وامثلت بما قال ، وخطر لها أن تلك الأشياء ربما ساعدتها على ما هى مقبلة

على البوح به ، فجلست وعليها الجواهر ، وعادا يفترضان الفروض لمآل جونان  
والأمتعة ، وكانت الجمعة التي صباحها له قد مهوت<sup>١</sup> لطلول ما انتظرت ، وما لبثا أن  
بدأ عشاءهما وكان مجهزاً على مائدة جانبية ، وقبل أن ينتهيا تراجع دخان الموقد  
واندفعت غمامته في الحجرة ، كأن مارداً وضع يده على قمة المدخنة ، وسمعت  
خطوات ثقيلة في الطريقة نخرج إنجيل .

وكان القادم هو جونان أخيراً ، قال : « لم أستطع بالطرق أن أسمع أحداً ،  
وإذ كان المطر منهمراً فتحت الباب ، لقد أحضرت الأشياء يا سيدي » ، قال  
إنجيل : « يسرنى أن أراها ولكنك تأخرت كثيراً » ، قال : « أجل يا سيدي ،  
أجل » ، وكانت في صوته رنة انضاع لم تكن به طول اليوم . وقد غضن جبينه  
الهم فوق ما غضته السنون ، واستطرد : « لقد عانا خطب كاد يكون وخيم  
العاتبة ، بعد أن فارقنا أنت وزوجك — وقد أصبح هذا لقبها الآن — أتذكر  
صياح الديك بعد ظهر هذا اليوم ؟ » قال كبير : « يا لله ! ماذا . . » قال جونان :  
« من الناس من يستنبط من صياح الديك بعد الظهر شيئاً ومنهم من يستخرج منه  
شيئاً آخر ، ولكن الواقع الذي حدث أن المسكينة رتي بریدل قد حاولت أن  
تنحجر غرقاً » قال : « لا ! أحقاً ؟ كيف وقد ودعنا مع الآخرين ... »

قال : « أجل ، ولكن بعد انطلاقي يا سيدي ارتدت رتي وماريان  
قلنسوتيها وخرجتا ، وإذ كان العمل قليلاً هذا المساء السابق لرأس السنة ، وليس  
للناس شاغل عدا الأكل والشرب ، لم يلحظهما أحد ، وذهبتا إلى حانة (ليوإفرد)  
حيث تناولتا شراباً ، ثم انطلقنا حتى بلغتا ملتقى الطرق عند (دري آرمد) حيث  
افترقتا على ما يظهر ، فاخترقت رتي المروج التي تشققها الجداول ، كأنها تريد  
العودة إلى الدار ، وواصلت ماريان سيرها إلى القرية المجاورة التي بها حانة أخرى  
ولم يسمع عن رتي خبر حتى كان خفير المياه سائراً إلى داره . فرأى شيئاً بجانب  
(البركة الكبرى) ، وإذا قلنسوتها وشالها محزومين ، وفي الماء عثر على الفتاة ،  
وجاء بها هو ورجل آخر إلى الدار ، وقد حسابها ميتة ، ولكنها عادت إلى صوابها  
رويداً رويداً » .



وتنبه إنجل فجأة إلى أن تس تسمع تلك الرواية الفظيمة ، فبادر إلى إغلاق الباب القائم بين الطرقة والحجرة المؤدية إلى حجرة الجلوس ، التي كانت تس فيها . ولكن زوجه كانت قد اشتملت بشال وخرجت إلى الحجرة الأمامية تصنى إلى قصة الرجل ، وعيناها شاخصتان في شرود إلى المتاع وإلى قطيرات المطر المترقرة عليه ، واستطرد جونان : « والأدهى من ذلك قصة ماريان ، فقد عثروا عليها فاقدة النطق سكرآ في أعشاب المستنقع ، وهي الفتاة التي لم يعرف عنها من قبل أنها قاربت شيئا عدا الجمعة الرخيصة ، وإن كانت في الحق امرأة مبطانا كما يبدو في وجهها ، والظاهر أن جميع الفتيات قد فقدن صوابهن ! »

قالت تس : « وإيز ؟ » قال : « إيز تغدو وتروح في الدار كماداتها ، ولكني أعلم حق العلم لم حدث ما حدث ، وهي أيضا شديدة الأذى ولا غرو ، وإذا حدث كل ذلك ياسيدى ونحن نحزم أمتعتك ومجسد زوجك وأثوابها على العربة فقد تمطلنا » ، قال كلير : « حسن ، أصعد الحقايب واشرب كأسا من الجمعة . ثم أسرع بالإياب فلعلهم في حاجة إليك » ، وكانت تس قد عادت إلى حجرة الجلوس وجلست بجانب النار مطرقة نحوها ساهمة ، وهي تسمع خطى جونان صاعدا هابطا ، حتى وضع المتاع في مكانه ، وسمعتة يعبر عن شكره على الجمعة التي أخرجها إليه زوجها ، والنقود التي نفحه بها ، ثم تخافتت خطواته بالباب وانطلقت عربته في صرير .

ودفع إنجل الحاجز البلوطي الضخم الذي يفاق به الباب ، ودخل إليها حيث كانت جالسة ، وضغط خديها بين يديه من خلفها ، وكان يتوقع أن تقفز في جوار وتحمل أدوات الزينة ، التي كانت مهمومة من أجلها كل ذلك الهم ، ولكنها لم تتحرك ، فجلس بجوارها في وهج النار ، وقد بلغ من وهن ضوء الشموع القاعة على مأدئة العشاء ، أنه لم يطغ على ذلك الوهج ، وقال : « آلمنى أن سمعت قصة تينك الفاتنتين المؤسية . ولكن لا تغتمى لها فقد كانت رقى بطبيعتها سوداوية » ، قالت تس : « بغير داع ، على حين أن أولئك الذين تتوفر لديهم دواعى السوداوية ، يخفونها ويتظاهرون بغيرها . »

وكانت هذه الحادثة قد رجحت كفة ميزانها : فأولئك فتيات بريئات عصفت بهن يد الحب الجائع ، كن يستأهلن معاملة خيراً من هذه على يد القدر ، وكانت هي تستأهل شرّاً ، فإذا هي تفوز باصطفائه ، فمن اللؤم أن تحظى بكل شيء . بلا ثمن ، بل لابد لها أن تدفع إلى آخر درهم ، ولا بد لها أن تبوح بكل شيء . في ذلك المكان في تلك الساعة ، صحت غريمتها على ذلك ، وهي مطرقة في النار ويدها في يده .

وكان الجرح قد خبا لهيبه ، وارتدى وهجه الساطع على جوانب المدفأة وعمدائها المجلوة ، والكاشة الكبيرة التي لا تلتقي ذراعها أبداً ، وكان أسفل رف المدفأة متوهجاً في ذلك الضوء الساطع ، وكذلك كانت رجلا المائدة القريبتان من المدفأة ، وكانت نفس تلك الحرارة تنعكس على وجه تس وجيدها ، وترتد على كل جوهرة من جواهرها ثريا يتطاير منها ابيضاض في احمرار في اخضرار ، تبديل ألوانها كلما دق نبضها دقة .

ولما استرسلت في جودها قال فجأة : « أتدكرين ما قلناه هذا الصباح في شأن البوح بأخطائنا ؟ لعلنا كنا نمزح ولعلك أنت لم تعنى ما قلت ، أما أنا فلم أكن في الحق بالمازح ، بل أريد أن أعترف لك بشيء يا حبيبتي » ، ولاح لها هذا العرض المفاجيء من جانبه كأنه مدد إلهي ، فقالت مسرعة في غبطة وانبساط : « تريد أن تعترف بشيء ؟ » قال : « ألم تتوقى مثل هذا الأمر ؟ لقد كنت أحسن ظناً بي من أن تتوقيه ، ولكن اسمي : ضى رأسك هنا لأنى أريدك أن تصفحي عني لا أن تنفضي لأنى لم أخبرك من قبل ، ولعله كان يجدر بي أن أفعل » .

كان ذلك غريباً جداً ، وبدل لها أنه صورة منها ، ولم تنبس بكلمة واستطرد : « لم أذكر هذا الأمر من قبل مخافة أن أخطر بأملى فيك يا عزيزتى ، يا منية حياتى الكبرى ، يا درجتى الجامعية إن صح أن أدعوك هكذا ، لقد نال أخى درجته من جامعتة ، وثلت درجتى في مصنع ألبان تلبويز ولم أرد أن أغامر بها ، وقد هممت أن أخبرك منذ شهر يوم وافقت على زواجى ، ولكنى جيت وخشيت .

أن ينفرك ذلك منى ، فسوفت ، ثم بدا لى أن أخبرك أس كى أمتحك فرصة على الأقل للفرار منى ، ولكنى لم أفعل ، ولم أفعل هذا الصباح حين اقترحت على الدرج أن نبوح بأخطائنا ، فيا لى من أئيم ! ولكن لم يعد لى عن ذلك معدى إذ أراك على هذا العبوس ، فهل يكون نصيبى الصفح ؟ » .

قالت : « أجل ، اطمئن . . . » ، قال : « أرجو أن يكون ذلك ، ولكن مهلا فلست تعلمين ، ولأبدأ عند البداية : إنى أو من بالأخلاق الفاضلة إيمانك ياتس ، وإن ظن أبى أنى ملعون أبد الدهر لزيغ عقيدتى ، وكنت آمل أن أكون معلماً لبنى الإنسان ، وأحزنى كثيراً أن عجزت عن الانضمام إلى الكنيسة ، وكنت دائماً أعجب بنقاء الصفحة وإن لم أحمل به ، وأمقت الدنس ولا زلت أمقته ، وأيا كان رأى المرء فى الطهر الروحى فلا ندحه له عن الايمان بقول بولس : ( فلتكن قدوة فى اللفظ والخطاب والبر والزعة والعقيدة والتقاء ) ، فذلك معتصمنا الوحيد معشر بنى آدم الضعفاء ، وقد قال شاعر الرومان وما أبعد ما بينه وبين بولس : ( الرجل المستقيم السيرة المنزه عن الأوزار فى غنى عن قوس البربرى وحربته ) ، وإنما الأعمال بالنيات ، ويمكنك أن تدركى مدى ندى حين زلت فى القدم أنا نفسى ، على حين أعد العدة بكل تلك الحماسة لأعظ غيرى » .

ثم باح لها بذلك الفصل من حياته الذى تقدمت الإشارة إليه ، حين كان يتخبط فى لندن فى تيار الشكوك والمصاعب ، كقطعة من الفلين بين اللجج ، ثم انغمس فى حمأة المجون مع امرأة يومين ، قال : « وكان من حسن حظى أن تنبهت حالاً إلى حماقتى ، فبادرتها بالقطيعة وقفلت إلى بلدى ولم أعد لثلاثها ، ولكنه بدا لى أن أعاملك بأتم صراحة وأمانة ، ولا يكون ذلك إلا بالاعتراف ، فهل تغفرن ؟ » فكان جوابها أن شدت على يده ، قال : « إذن ننبذ ذلك الأمر ظهرياً حالاً وإلى الأبد ! فما أمض ذكره فى هذا المقام ، ولنخض فى غير هذا الحديث » .

قالت : « إينجل : ما أسعدنى ! الآن يمكن أن تصفح عنى أيضاً ، أما لم أعترف اعترافى بمدى ، تذكر أنى أخبرتك أن لى اعترافاً » ، قال : « نعم ، نعم ، هاتيه

أيتها الصغيرة الخبيثة ! » قالت : « ربما مزحت ولكن الأمر خطير خطر اعترافك  
أوهو أخطر » ، قال : « لا إخاله يكون أخطر يا عزيزتي » ، قالت « لا ،  
لا يمكن ! » وطفرت فرحاً إذ أشرق عليها ذلك الأمل ، واستطردت : « لا يمكن  
أن يكون أخطر ، بل الأمران سيان ! سأخبرك الآن ! » وعادت إلى جلستها .  
وكانت أيديهما ما تزال متشابكة ، وكان ضوء النار ينبعث من تحت الرماد ،  
وكان وهج الحجر الأحمر يرتدى على وجهه ويديه ووجهها ويديها ، ويتخلل خصلتها  
المدلاة على حاجبها ، ويسطع على جلدها الرقيق من دون ذلك ، يخيل إلى الناظر  
أنه وهج اليوم الآخر : لما يملوه من قفرة ، وكان ظل جسمها يرتدى على الحائط  
والسقف ، وانحنت إلى الأمام فبرق كل حجر ثمين في حلها برقة خبيثة ، كغمزة  
عين الضفدعة ، وجعلت تس جبينها إلى عذار زوجها ، وأخذت في سرد قصة  
اتصافا بألك دربرفيل وما أفضت إليه ، تنطق بكلماتها في غير جزع ،  
وأهدأها مرسلته .

المرأة تُكْفَرُ



٣٥

انتهت من قصتها ومن تعقيباتها واستندرا كتابها ، ولم يكدها صوتها يرتفع في أثناء سردها عما كان عليه عند بدئها ، ولم تعترض سردها تبرئة لنفسها أو اعتذار ولم تبك ؛ ولكن مظهر الأشياء المحيطة بهما كان يزداد تغيراً كلما استرسلت في مكاشفتها : فاتخذت النار منظرًا شيطانيًا خبيثًا متعابثًا ، وكأنها لا تبعاً فتيلًا بمأساة الفتاة ، وتكشر السياج المحيط بالنار ضاحكا في غير اكتراث ، وانعكس الضوء عن الدورق لا يعنيه إلا أن يتشعع وينير ، وراحت كل مظاهر المادة المحيطة تعلن في تكرار فظيخ براءتها من كل مسؤولية ؛ ومع ذلك لم يكن شيء تبدل منذ تلك الدقائق التي كان يقبلها فيها ، أو بالأحرى لم تكن مادة الأشياء قد تغيرت ولكن روحها قد تبدل .

ولما سكنت بدا كأن آثار صوتيهما المحملة بالفاظ المحبة والإعزاز تهارب إلى زوايا ذهنيهما ، وتتردد هناك كأنها أصداء عهد حماقة وعمر لا مثيل لهما ؛ وتشاغل كبير بإثارة النار ، ولم تكن هذه الأنباء قد هبطت إلى قرارة نفسه بعد ، وبعد أن حرك الحجر مثل واقفاً ، وقد نفذت في نفسه كل قوة تصريحاتها وذبل وجهه ، وراح يذرع الجرة واطناً أرضها في عنف ، وهو يفكر جاهداً أن يجمع شتات ذهنه ويركزه ، ولما تكلم تكلم في صوت مجذب مقفر من تلك التبرات المعبرة التي كانت تمهدا منه .

قال : « تس ! » قالت : « نعم يا عزيزي ! » قال : « أتريدني أن أصدق هذا ؟ إن هيئتك توحى إليّ أنه الصديق ، ولكن لعلك قد مستك جنة ! ولكن لا ... زوجتي ! تسى ! ألا تشعربن بأعراض جنون ؟ » قالت : « ليس بي جنون » ، قال : « ومع ذلك ... » وحلق فيها واجماً ثم استطرد وقد دارت به الأرض : « لم تخبريني من قبل ؟ أجل ، أجل : لقد كنت تريدني إخباري على

نحو ما ، ولكنى منعتك ، أنا أذكر ذلك ! » ولم تكن هذه الأقوال وأمثالها إلا قفايع طافية على السطح وما زال القاع متجمداً ، وأشاح عنها واعتمد على كرسي ، وتبعته نس إلى وسط الحجرة ، ووقفت شاخصة إليه بعينين جامدتين ، وما عتمت أن خرت جاثية عند قدميه مجمعة جسمها كأنه كومة ، وقالت بصوت أجش : « باسم حننا ، اغفر لى ، لقد غفرت لك مثل ذنبى ! »

فلم يجب ، فمادت تقول : « أعفُ عني كما عُفِيَ عَنْكَ ، لقد عفوت عنك يا إينجل ! » قال : « عفوتِ عني ، نعم ، لقد عفوت عني » ، قالت : « أفلا تعفو أنت عني ؟ » قال : « نسي ! لا ينطبق العفو على هذه الحالة ! لقد كنتِ إنساناً فأصبحت الآن إنساناً آخر ، يا إلهي ، كيف ينطبق العفو على خدعة بشعة كهذه ؟ » وصمت يتدبر هذا التعريف ، ثم انفجر مقهقهة قهقهة فظيعة منكرة قبيحة كأنها منبعثة من جهنم ، فقالت : « كف ! كف ! إنك تقتلني ! رحماك بي ! رحماك ! » ولم يجب ، وانتفضت واقفة ممتعة الوجه كالمليلة وقالت : « إينجل ! إينجل ! ماذا تعنى بهذا الضحك ؟ أدرك حقيقة شعورى فى هذا الأمر ؟ » فhez رأسه ، فقالت : « لقد كنت أبني أن أسعدك وأمنى ذلك وأصلى من أجله ! وقد كنت أتمثل ما فى ذلك من دواعى النبطة ، وأدرك أنى إن لم أسعدك كنت زوجاً غير جديرة بك ! هذا ما كنت أشعر به يا إينجل وما زلت أشعر به ! » قال : « أعلم ذلك » ، قالت : « وقد كنت أحسبك تحبني ، تحبني أنا نفسى ، فإن كنت إياى تحب فليت شعري كيف تنظر إلى هكذا وتخطبني على هذا النحو ؟ إن هذا يفرغنى ! إني وقد اعتنقت حبك سوف أحبك أبداً مهما تغيرت الحال أو ناب خطب مزر ، لأنك أنت أنت ولست أريد غير ذلك ، فكيف يا زوجي العزيز تعرض عن حبي ؟ » قال : « لقد قلت إن المرأة التى كنت أحبا ليست إياك » ، قالت : « فن هى إذن ؟ » قال : « امرأة أخرى فى صورتك » .

ورأت فى أقواله تحقيق مخاوفها وتصوراتها السالفة : رأته يعدّها مخادعة ويراها امرأة آثمة فى زى امرأة طاهرة ، ولما تبين لها ذلك تجسم الرعب فى وجهها



فترهل خدها وتكرر فيها كأنه ثقب صغير ، وترنحت لهول إحساسها برأيه فيها ،  
واندفع نحوها وقد خشي أن تسقط وقال في رفق : « اجلسى ، اجلسى ، لا جرم  
أنت عيلة » ، وجلست وهي لا تدري أين هي ، وما زال وجهها متقلصاً وعيناها  
يقشمر لنظرتهما جلده ، وقالت فى يأس : « أنت إذا براء منى يا اينجل : لم أكن  
أنا بل امرأة أخرى موضع جبه — هكذا يقول » .

وتجسم لها ذلك فرئت لنفسها إذ أحست أنها قد استغلت ، واغرورت  
عيناها إذ استرسلت فى تأمل موقفها ، وانتحت ناحية ، وأجهشت بالبكاء رحمة  
لنفسها وورثاء ، فارتاح كبير إلى هذا التبدل : فقد كان تأثير هذه التطورات الأخيرة  
فى نفس تس قد أدخل عليه ما لا يقل إلا عن همه لاعترافها ، وسكن مصطبراً  
غير مبال حتى هدأت مرارة حزنها ، وتبدل نشيجها العنيف شهقات متفرقة ،  
وإذا هى تقول فى نبراتى العادية وقد زایلها ذلك الصوت الأجنس الجنونى المفزع :  
« اينجل : أترانى أدنس من أن تعاشرنى ؟ » قال : « لا أستطيع بعد أن أعرف  
ما يمكنتنا صنعه » .

قالت : « لن أسألك أن تأذن لى بمعاشرتك إذ لا حق لى فى ذلك ! ولن أخبر  
أبى وإخوتى بأننا قد اقترنا كما وعدت ، ولن أكل الثوب المنزل الذى فصلته  
وكنت أنوى الفراغ منه فى هذا الثوب » ، قال : « أحقا ؟ » قالت : « لن أصنع  
شيئاً أو تأمرنى به ، وإذا ذهبت عنى فلن أتبعك ، وإذا قاطعتنى فلن أسألك عن  
السبب إلا أن تبسح لى مساءً لك » ، قال : « فإذا أمرتك أن تصنى شيئاً ؟ »  
قالت أطيعك طاعة الأمة الناعسة ، حتى لو أمرتنى أن أستلقى وأنتظر حتى » ،  
قال : « أنت طيبة ولكن يروعنى الفرق بين نزعة التضحية الغالبة عليك الآن ،  
ونزعة الأثرة التى تسلطت عليك فيما مضى » .

وكانت هذه أولى كلمات الخاصة ؛ بيد أن إلقاء هذه السخریات المحكمة  
الصوغ فى وجه تس ، لم يكن إلا كإلقاءها فى وجه قطرة أو كلبة : فإنها لم تكن  
تفقه بلاغتها وإحكامها ، وإن أحست من لهجتها الخاصة أن الغضب كان يسود

بينهما ، وظلت صامته لا تعلم أنه يخنق حبه لها . ولم تكد تلح دمة قد انحدرت على خده ، كبيرة حتى لتكبر مسام الجلد التي جرت عليها كعمدسة المجهر ، ثم عاوده تصور التبدل التام الفطيع الذي تبدلته حياته وكونه بعد اعترافها ، وعبثا راح يبحث عن طريقه في هذه الظروف الجديدة التي رأى نفسه فيها ، كان يحس بضرورة عمل ما ، ولكن ما هو ؟ .

قال في أرفق لهجة : « تس : لست أطيق البقاء بهذه الحجرة في هذه الساعة فأنا خارج للمشي قليلا ، وخرج في هدوء ، وظلت كأسا الخمر اللتان كان ملأهما لمشائهما — له واحدة ولها الأخرى — مكانهما على المائدة لم تمسأ ، وهكذا كان مصير أفراسهما ، وهما اللذان تناولا الشاي من فنجان واحد منذ ساعتين أو ثلاث وسط معاينات الحب ، واصطفق الباب خلفه في رفق ، ولكن اصطفاقه أثار تس من ذهولها ، وإذا هو قد ذهب وإذا هي لا تستطيع البقاء ، فرمت معطفها على كتفها في عجلة وخرجت في أثره ، بعد أن أطفأت الشموع فمل من لن تعود أبدا ، وكانت السماء قد أقلت وسحا الجو .

وسرعان ما لحقت به إذ كان يسير متمهلا على غير هدى ، ولاح شخصه بجانب شخصها الأشهب أسود غاضيا غضوبا ، وأحست بلسات الجواهر التي ازدهيت بها وهلة منذ قليل فكأشها تهكم بها ، والتفت كليل حين أحس بوقع خطواتها ولكن شعوره بمحضورها لم يؤثر فيه أدنى تأثير ، وواصل السير فوق الجسر ذى الأقواس الضخمة الفاغرة أفواهاها أمام الدار ، وكانت الحفرات التي تركتها حوافر الخيل وأظلاف البقر في الطريق قد أقمت بالماء ، إذ كانت غزارة المطر كافية للملأها غير كافية لمحوها ، وكانت النجوم تومض في هذه البرك الصغيرة كلما عبرتها تس ، ولم تكن تس لتنتبه إلى سطوع النجوم في علو لو لم ترها في تلك الأمواء ، لو لم تر أضخم أجرام الكون مرتسمة في تلك الحفر المزودة .

وكان هذا المكان الذي جاء إليه الليلة يقع في نفس الوادى الواقعة فيه تلبوئيز ولكنه كان على مدى أميال منها في اتجاه مصب النهر ، وإذا كان أديم الأرض

في تلك الجهة مكتشفًا فقد ظل صاحبها في تناول بصرها ، وكان الطريق يبتعد عن الدار ويتعرج في المروج ، وراحت تُتابع زوجها دون أن تحاول قط أن تدركه أو تسترعى التفاته ، وإنما تدفعها أمانة عجماء بكاء ، على أنها ما لبثت أن رأت نفسها تحاذيه ، ولكنه ظل صامتًا ، وكانت نزعة الصرامة بالغة منه منهاها ، شأن الوفيّ الطبع إذا اطلع على انخداعه ، وكان هواء المساء المنمش على ما يظهر قد نزع منه كل رغبة في العمل المتسرع .

وأيقنت أنه يراها مجردة عاطلة من كل حلية ، وأن القدر يتلو على رأسها رمزًا مَرَّ سحريته : « إذا ما أسفرَ وجهك فلاك من كان يهواك ، وإذا ما أفلَ وجهك غاضت ملاحه وجهك ، ولتَنفُقَنَّ حياتك كما تَنفُقُ ورقة الشجر ، ولتراقنَ كما يراق ماء المزن ، وليندُون الحزن خماراً لوجهك والألم تاجاً لرأسك » . وكان كبير ما يزال منهمكا في التفكير ، ولم تعد لصحبته القدرة على قطع جبل تأمله فا أوهى سلطان حضورها عليه اليوم ، ولم يسمعها إلا أن تخاطبه : « ما ذا جنيت أنا ؟ ما ذا جنيت ؟ أنا لم أقض إليك بشيء يتنافى حبي إياك أو يكذبُه ، فهل تحسبني قد قصدت ذلك عمداً ؟ إنما أنت حاتقٌ لأمر في فكرك ، لا لذنوب أنا قارفته ، ليس الذنب ذنبي ولست أنا تلك المرأة الخادعة التي تتوهمها ! » .

قال : « لا ، لست امرأة خادعة ولكنك لم تعودي نفس المرأة التي كنت أتصورها ، ولكن لا تحمليني على ملامتك فقد آليت ألا ألومك ، وسأجنب ذلك ما استطعت » ، ولكنها مضت تتوسل في غير وعي حتى تفوهت بأشياء كان أولى لو أسدل عليها حجاب الصمت . قالت : « إنجيل ! إنجيل ! لقد كنت طفلة حين حدث ما حدث ولم تكن لي خبرة بالرجال » . قال : « أنا أعترف بأنك لم تجنئي بمقدار ما جُنيتي عليك » . قالت : « ألا تصفيح عني إذن ؟ » . قال : « بلى ، ولكن الصفيح ليس كل ما هنالك » . قالت : « ومجنبي ؟ » فلم يجب .

قالت : « إنجيل ، إن أرى تقول إن هذا الأمر كثير الحدوث ، وإنها تعرف نساء كن أُنس مني حظًا ، ولكن لم يكن يحفل بذلك أزواجهن ، أو على الأقل

استطاعوا أن يتفاوضوا عما كان ؛ مع أن أولئك النساء لم يُحببن أزواجهن حبك  
قال : « مه يا تس ، كفى عن المجادلة ، إن الطبايع تختلف باختلاف الطبقات ،  
إنك تكادين تحميلينى على الاعتقاد بأنك ريفية ساذجة غافلة عن حقائق المجتمع ،  
ولا أراك تفقهين ما تقولين » . قالت : « أنا ريفية بطبقتى لا بطبيعتى ! » . قالت  
ذلك فى نزعة نحو الغضب لم تلبث أن فارقتها .

قال : « هذا من سوء حظك ، وأرى أن ذلك القس الذى كشف عن نسبك  
كان يُحسن صنعاً لو طوى الخبر ، وليس يسمنى إلا أن أرى علاقة بين انحلال  
أمرتك وبين ضعف إرادتك ، وذلك شأن الأمر المنحلة دائماً يصحبها انحلال  
العزائم ، وا حسرتاه ! لماذا حدثنى إلى الإيعان فى ازدرائك بإطلاعى على أمر  
نسبك ؟ لقد كنت أحسبك نباتاً ناجماً جديداً أخرجته يد الطبيعة إذا أنت ثمرة  
مختار خلفها أرستقراطية واهنة » . قالت : « حظ أسرتى كحظ أسرات كثيرة  
فقد كان آباء رقى أشرفاً ذوى أملاك شاسعة ، وكذلك كان آباء العامل (بيلت)  
وأسرة (ديهاوس) صانعو العربات كانوا فيما مضى (آل دى بايوس) ؛ وأضرابى  
كثيرون تجدهم حيث سرت ، فإن هذه الظاهرة من خصائص إقليمنا هذا ولا يدلى  
فى ذلك » . قال : « هذا من سوء حظ الإقليم » .

وكانت تتقبل هذا التفريع منه فى إجماله لا فى تفصيله ، تفقه منه أنه لم يعد  
يحبها كما كان يحبها ولا تنى مما عدا ذلك شيئاً ، وتابعا مسيرهما فى صمت ، وذاع  
بعد ذلك أن أحد سكان ولبردج كان قد خرج فى تلك الليلة يبنى طبيياً ، فرأى  
حببيين يسيران فى الأعشاب على مهل صامتين — يتبع أحدهما الآخر — كأنهما  
يشيمان ميثاً ، ولاح من نظراته الخاطفة إلى وجهيهما أنهما كانا فى حرق وعناء ،  
وفى عودته قابلهما ثانياً ، وما يزالان عشيان مشيتهما البطيئة غير عابئين بتصرم الليل  
ولا بكفهرار الجو ، وما صرف باله عن ذلك الأمر إلا انشغاله بأمر نفسه وأمر  
المرضى الراقدين فى داره ، على أنه تذكر الحادثة فيما بعد .

وكانت تس قد قالت لصاحبها فى الفترة بين ذهاب الرجل وإيابه : « لست

أدرى كيف أحول دون تكدير صفو حياتك ، على أن النهر دوننا وفي استطاعتي أن أقضى فيه نجي ولن أجبن عن ذلك » ، قال : « لا أحب أن أزيد القتل في عداد حماقاتي الأخريات » . قالت : « سأترك ما يدل على أنى فعلت ذلك بنفسى . سأترك وصفاً لحزبتي وعندها لا يلومك لأنهم » . قال : « كفى عن هذا الهراء فلست أحب أن أسمع ، فن الحق أن تخامرك هذه الأفكار في مثل هذه الحالة التى هى أجدر بضحك السخرية منها بأن تكون مأساة ، أنت لا تدركين قط أى ضرب من المصائب هذا ، هذا مصاب لا يقابله تسعة أعشار الناس إذا كشف لهم إلا بالتسندر ، ناشدتك أن تمنى على بالعودة إلى المسكن والإيواء إلى فراشك » . قالت في رضوخ : « سمعاً وطاعة » .

وكانا قد ركبنا طريقاً مؤدياً إلى الخرائب المشهورة ، خرائب كنيسة سسترس القاعة خلف الطاحون ، وكانت تلك الطاحون قد ضمت إلى مباني الدير ، وقد واصلت الطاحون عملها ، إذ كان الطعام حاجة دائمة ، واندثر الدير ، إذ كانت العقائد خيالات ، وهكذا كثيراً ما نرى شعائر الشيء الفانى أطول أمداً من شعائر الأمر الخالد ؛ وإذ كان العروسان يسيران في خط دائر لم يعبدا كثيراً عن الدار وحين أرادت تنفيذ أمره لم يكن أمامها إلا أن تسير إلى الجسر الصخرى الضخم الذى يعبر النهر الرئيسى ، ثم تتابع الطريق مدى أذرع .

ولما بلغت الدار وجدت كل شيء على ما تركته ، وكانت النار ما تزال مشتعلة ولم تلبث إلا هنيهة فى الطابق الأرضى ، ثم صعدت إلى مخدعها حيث كان متاعها قد وضع ، وهنا جلست على حافة الفراش تصرف عينها فيما حولها واجمة ، ثم بدأت تخلع ثيابها ، وأدنت الشموع من فراشها فارتعت أشعتها على الكلة القطنية فإذا شيء مدلى منها ، فرفمت الشمعة لترى ما هو فإذا هو غصن مسلتو ، وكان إينجل قد وضعه هناك ، أدركت ذلك فى لمح البصر ، وأدركت أن ذلك هو سر تلك الفنيقة التى استغرقت جهداً عظيماً لربطها ونقلها ، وأبى أن يخبرها بمحتوياتها قائلاً إن الزمن كفىل باخبارها ، وكان قد علق الغصن فى ساعة جواره وحجاسته

وما كان أَرذل منظر النفسن الآن وأَسخَفَه .

ولم يعد ثمت ما تَحْشاه ، ولم يكد يبق لها ما تأمله ، إذ لم يكن ثم أدنى شاهد على أنه سيعدل عن خطته ، فاستلقت هنالك في جود ؛ وحين يفقد الحزن عنصر التفكير يبتدر النوم فرصته ، وإذا كانت بعض الأحوال النفسية السعيدة تدود الكرى فإن تس كانت في حالة ألمية ترحب به ؛ وسرعان ما نسيت تس الوجود في وحشتها تلك ، تحيم عليها السكينة وتضوع حولها المظور ، في تلك الحجرة التي ربما كانت فيما مضى مشهد زفاف بعض أقربائها الأقدمين .

ورجع كبير أيضاً أدراجة بعد حين ، ودلف إلى حجرة الجلوس فأخذ شمعتة ومشى مشية من هيا كل شيء في فكره ، ونشر أعطيته على الأريكة القديمة المحشوة بشعر الخيل ، ومهدا للنوم ؛ وقبل أن يرقد انسل صاعداً حافياً وتسمع يباب حجرتها . فدلّه تنفسها المنتظم على أنها مستغرقة في نوم عميق ، فقال : « حسن » ومع ذلك أمضه إحساسه — وكان مصيباً في ذلك بعض الإصابة لا كلها — بأنها وقد ألقت عبء حياتها على كتفيه راحت تنام ملء جفونها .

ودار بيني النزول ، ثم عاد متردداً يواجه بابها ، فلع إحدى السيدتين اللتيمتين إلى آل دربرثيل ، وكانت صورتاهما فوق المدخل المؤدى إلى مخدعها مباشرة ، وقد ازداد الرسم في ضوء الشمعة بشاعة ، ولاحت على وجه المرأة نظرة خبث وتفنن في النكاية بأبناء الجنس الخشن ، هكذا تمثلت له وكان أعلى ثوب المرأة منخفضاً كما كان ثوب تس حين أصلحه لها كي يلائم المقد ، وأمضه مرة أخرى الشعور بتشابههما ، وصدمه ذلك صدمة أرجعته عن قصده ، فعاد أدراجة هابطاً .

وظل رابط الجأش مترنكاً ، يدلّفه الصغير المنضم على امتلاكه زمام نفسه ، تكسو وجهه تلك السياء المقررة النقبضة التي ارتسمت عليه منذ اعترافها ، سياء رجل محرر من ربة العاطفة وإن لم يقتبط لهذا التحرر ، وإنما كان يتأمل في مفاجآت حياة الإنسان وعجائب الأيام ؛ لقد كانت تس زمن عبادته إياها أتقى

الأشياء وأطهرها وأحبها ، إلى ما قبل سويغات مضت ، ولكنها : « نقصت ذرة فما أعظم الفارق ! » .

ولقد أخطأ القياس حين زعم لنفسه أن قلبها لا يرسم في نضارة وجهها ، ولكن لم يكن لتس مدافع يهديه سواء السبيل ، وراح يسائل نفسه أمن الممكن أن تينك العينين اللتين لا تتم نظرتيهما عن أدنى انحراف عما ينطق به اللسان ، كانتا دائماً مشرقتين على دنيا أخرى مخالفة لدنياها الظاهرة مناقضة لها ؟ واضطجع على الأريكة في حجرة الجلوس وأطفأ النور ، وهبط الليل ومد رواقه كمادته غير حافل : ذلك الليل الذي افترس سعادته وكان الآن يهضمها في استهتار ، وكان مستمداً لافتراس سعادة ألف رجل آخرين بلا اكتراث ولا تبدل في سيانه .

٣٦

استيقظ كبير في ضوء فجر لاح ضئيلا حائلا كأنه مثقل بالخطيئة ، وقابل عينيه الموقد ملآن يبقايا النار الخاملة ، ومائدة المشاء المدودة يقوم فيها كأسا الخمر المفعمتان لم يذقهما ذائق ، وقد ماعت خمرتها وفقدت سورتها ، ومقعده الخالي ومقعدها ، وقطع الأثاث الأخرى يلوح عليها طابع عجزها عن تدارك ما حدث ، وتساؤلها عما كان يمكن عمله لتفادى ما وقع ، ولم يكن في الطابق العلوى صوت ، ولكن سرعان ما دق الباب ، فتذكر أن الطارق لا بد أن يكون ربه الكوخ المجاور التى أخذت على عاتقها تعهد حاجتهما مدى إقامتهما هناك .

وأحس أن وجود شخص ثالث في الدار في ذلك اليوم لا يطاق ، وكان قد ارتدى ملابسه ، ففتح النافذة وصاح بالمرأة قائلا إنهما يستطيعان تعهد شؤونهما في ذلك اليوم ، وكان بيدها ملبن أمرها بتركه الباب ، ولما ذهبت بحث في مؤخرة المسكن عن وقود وسرعان ما أوقد نارا ، وكان في خزن الدار قدر وفير من البيض والزبد والخبز ، ولم يلبث كبير أن أعد الفطور ، وكانت خبرته في مصنع الألبان قد بصرته بشؤون البيت ، وتساعد دخان الخشب الموقد من المدخنة خارج الدار ، كأنه عمود على ذؤابته زهرة لوتس ، وراه أبناء الجيرة المارون وتذكروا المروسين فغبطوها على سعادتهما .

وأخيرا أجال إيتچل بصره فيما حوله ، وسار إلى أسفل السلم ونادى بصوت عادى : « الفطور جاهز » وفتح الباب الخارجى وخطا خطوات في هواء الصباح ، ولما عاد بعد قليل وجدها في حجرة الجلوس تصلح وضع أواني الفطور في حركة آلية ، وإذا كانت كاملة اللبس ولما تمض على مناداته إياها إلا دقيقتان أو ثلاث ، كان من الواضح أنها قد ارتدت ثيابها قبل أن يذهب لدعوتها ، وكانت قد كومت شعرها على قهقهوتها وارتدت أحدث الأثواب الجديدة ، وكان ثوبا من الصوف



شاحب الزرقة ذا أفواف يبضاء حول العنق ، وكانت يداها ووجهها تبدو باردة ، إذ كانت قد جلست في مخدعها زمنا طويلا مرتدية ثيابها بنير مدفأة ، ولعل الرفق الذى رن في نبرات كلير وهو يناديهما قد أحيا في نفسها وميضاً من الأمل ولكنه سرعان ما خبا حين نظرت إلى وجهه .

لقد أصبحا كلاهما رماداً سافياً متخلفاً عن نارهما الخالية ، فقد تلا الخمود توهج أشجان البارحة ، وبدا كأن شيئاً كانا ما كان لن يستطيع أن ينفث الحرارة في شعور أحدهما بعد اليوم ، وجعل يخاطبها في رفق فتجيبه في لهجة متضعة ، وأخيراً سارت إليه وحملت في وجهه المتهجم المعارف ، فعل من لم تدرك أن وجهها أيضاً عبرة للتأمل ، وقالت : « إنجيل » ثم صمتت ، ولست بأناملها لسا خفيفاً كالنسيم ، كأنها لا تكاد تصدق أن با زائها الذى كان فيما مضى حبيبها وكانت عينها تبرقان وخدها على شحوبه يبدو في استدارته المعهودة ، وإن تركت المدامع التى لم تجف بعد تمام الجفاف آثارها فيه ، وكان فيها الذى طالما بدا ناضجاً قانياً ، يلوح شاحباً شحوب خدها — كانت الحياة ما تزال تتدفع في نفسها ، ولكنها كانت تتدفع في اضطراب تحت وقر آلامها ، تكفى أقل زيادة في ذلك الوقر لتمكين الداء منها وإذبال عينها الأخاذتين وإضمار ثغرها .

وبدت كاملة الطهارة ، وكانت الطبيعة الخبيثة الساخرة قد وصمت تس بمسمة العذرة ، فخلق فيها كلير مشدوها ثم قال : « تس ! قولى إن ذلك غير صحيح ! لا يمكن أن يكون ذاك صحيحاً ! » قالت : « بل هو صحيح » ، قال : « كل كلمة » قالت : « كل كلمة » فنظر إليها مستعطفا كأنه يود لو ترضيه بأ كذوبة يقنع بها على علمه بأنها أ كذوبة ، ولكنها كررت قولها : « هو صحيح » ، قال : « وهل ما يزال حياً ؟ » قالت : « لقد مات الطفل » ، قال : « والرجل ؟ » ، قالت : « ما زال حياً » فارتسم على وجهه اليأس الأخير وقال : « هل هو فى انجلترا ؟ » قالت : « نعم » .

ومشى خطوات على غير هدى ، ثم أنشأ يقول : « إن موقفى هو هذا : لقد

ظننت — كما يحق لأي إنسان أن يظن — أنى وقد تغافلت عن زواج امرأة نبيلة الطبقة غنية خيرة بالعالم ، سأفوز بالطهارة الريفية فوزى بالحدود المتوردة ، وإذا بي . . . ولكنى لا ألومك وإن لامك غيرى » ، وأدركت تس موقفه تمام الإدراك ولم تعد به حاجة إلى إتمام مقاله ، وكان ذلك ألجأ ما فى الخطب ، فقد رأت أنه فقد كل شيء .

فقلت : « إينجل : ما كنت لأدع الأمر يصل إلى حد الزواج لولا وثوق أن أمامك سبيلا للخلاص ، وإن كنت أومل أنك لن . . . » وتهدج صوتها ، وقال : « سبيلا للخلاص ؟ » ، قالت : « أعنى للتخلص منى ، وأنت على ذلك قدير » ، قال : « كيف ؟ » ، قالت : « بطلاق » ، قال : « يا لله ! كيف تبلغ بك السذاجة هذا المبلغ ؟ أتى لى بطلاقك ؟ » ، قالت : « أليس ذلك فى وسعك بعد أن كاشفتك ؟ لقد كنت أعتقد أن اعترافى بمنحك الذريعة اللازمة » ، قال : « يالك يا تس من غرة غافلة ! لست أفهمك أبدا ، أنت تجهلين القانون ، أنت لا تفهمين ! » قالت : « أليس ذلك فى وسعك ؟ » ، قال : « كلا » .

فارتسم الجزع والحزى على وجهها وتمتمت : « لقد كنت أحسب ، لقد كنت آه — الآن أرى مقدار دناءتى فى نظرك ! صدقتى . قسما لقد كنت أعتقد أن ذلك فى مقدورك ، لقد كنت آمل ألا تفعل ولكنى كنت أعتقد بلا أدنى ريب أن فى وسعك نبذى إذا أردت وإذا انتهيت عن حبي » ، قال : « كنت مخطئة » ، قالت : « إذن كان ينبغى أن أنهى الأمر البارحة ، ولكن أعوزتنى الشجاعة وذلك ديدنى » قال : « فم أعوزتك الشجاعة ؟ » فلم تجب فأمسك يدها وقال : « فم كنت تفكرين ؟ » قالت : « فى إنهاء حياتى » ، قال : « متى ؟ » فتنفضر وجهها أسى لهذا الإلحاف منه فى مساء لها ، وأجابت : « تحت غصن الميسلتو » ، قال مقطبا : « يا إلهى ! كيف ؟ » قالت جازعة : « سأخبرك إن لم تغضب على . حاولت ذلك برباط صندوق ولكنى لم أستطع أن أعمل العمل الأخير ، لقد خفت أن أدنس اسمك بمار » .

واعترته هزة لهذا الاعتراف الذى اعتصره منها اعتصارا ، ولم تُدَلِّ به طواعية وخيارا ، ولكنه استبقى يدها فى يده ، وحول نظرته عنها وقال : « أصنى إلى ؟ يجب ألا تفكرى فى هذا الأمر البشع أبدا ! كيف جرؤت على التفكير فى هذا ؟ عدينى وأنا زوجك ألا تحاولى هذا الأمر ثانية » . قالت : « أعدك بلا تردد ، ولم ينب عنى قبج مثل هذه الفعلة » قال : « قبجها ! هذه فعلة لا تليق بك » ، قالت وهى تحديق فيه فى سكون وإيثار : « ولكنى لم أفكر فيها يا إنجل إلا من أجلك أنت ، لأعفيك من معرة الطلاق الذى حسبته مضطرا إلى اللجوء إليه ، ولم أكن لأفكر فى ذلك الأمر من أجل نفسى ، على أنى لا أستحق شرف تنفيذ هذا العمل بنفسى ، والأجدر أن تقوم أنت يا زوجى المنكوب بالإجهاز على ، وإخالى أزداد لك حبا — إذا كان هذا ممكنا — إذا أجمعت عزمك على ذلك العمل ، ما دام هو السبيل الوحيد لخلاصك ، وإنى لأشعر أشد الشعور بحقارتى واعتراضى طريقك ! » .

قال : « صه » ، قالت : « لا أعترض على رغبة لك » ، وكانت يعلم أنها صادقة فى إقلاعها ، فقد هبطت قواها بعد مجهود البارحة إلى درجة الصفر ، ولم يعد تحت خوف من أن تندفع إلى عمل جنونى ؛ وعادت تس تشاغل بإصلاح أوانى المائدة ، وجلس كلاهما على جانب واحد من المائدة فلم تكن نظراتهما تتلاقى ، وشعرا يبعض الحرج فى بادئ الأمر لدى سماع كل منهما صوت مضغ الآخر وشرابه ، ولكن لم يكن عن ذلك معدى ، ولم يصب أى منهما إلا القليل ؛ ولما انتهيا نهض وأخبرها بساعة عودته للغداء ، وانطلق إلى الطاحون ينفذ خطة دراسة ذلك العمل تنفيذاً آليا ، وقد كانت تلك الدراسة هى السبب العملى الوحيد لجيئه إلى هذه البقعة .

ولما مضى وقفت تس بالشباك ، وسرعان ما رأت شخصه يعبر الجسر الحجرى الكبير المؤدى إلى مباني الطاحون ، وانحدر وراءه وعبر السكة الحديدية وغاب ، وعندها عادت — دون أن تصعد زفرة واحدة — إلى الحجرة ترفع الصحف عن

المائدة ، وترتب الأثاث ، وسرعان ما أقبلت الخادم فكان وجودها مضيقاً لتس في بادئ الأمر ثم عاد مؤنسها ، ولما انتصفت الساعة الواحدة تركت مساعدتها في المطبخ وعادت إلى حجرة الجلوس ترقب ظهور شخص إينجل وراء الجسر ؛ وفي الساعة الواحدة تراءى شخصه ، فاحمر وجهها وإن كان على بعد ربع ميل ، وهرعت إلى المطبخ تعد الطعام ليكون في انتظاره ساعة دخوله ، ومشى أولاً إلى الحجرة التي غسل فيها أيديهما سوياً في اليوم السابق ، وحالاً خطأ في حجرة الجلوس ارتفعت أغطية الأطباق كأن حركته هو ترفعها فقال : « ما أشدها مواظبة ! » قالت : « أجل ، لقد رأيتك تجتاز الجسر » .

وتناولوا الطعام في محادثات سطحية عما كان يصنع ذلك الصباح في الطاحون وعن طرق نخل الدقيق ، والآلات العتيقة الطراز ، وكان يخشى أن كل ذلك لن يفيد كبر خبرة الأساليب العصرية إذ كان واضحاً أن تلك الآلات هي التي كانت تستخدم لطحن القمح لربان الدير المجاور ، الذي أخشى ركاباً من الانقراض ؛ وخرج إينجل مرة أخرى بعد ساعة ولم يعد إلا في غسق الظلام ، فأكب يدرس أوراقه ، وخشيت تس أن تكون قذى لصفوه ، فلما انصرفت الخادم ارتدت إلى المطبخ حيث تشاغلت زهاء ساعة ؛ ثم ظهر شخصه بالباب وقال : « لا ينبغي أن تجهدى نفسك هكذا ، أنت زوجي لا خادمي » .

فانبسطت أساريرها قليلاً وأجابت كأنها تهزأ من نفسها هزءاً يستحق الرثاء : « ألي أن أعد نفسي كذلك ؟ إنما أنت تمنى أنى زوجك اسماً ، ولست أطمح إلى ما فوق ذلك » ، قال : « أجل . لك أن تعدى نفسك كذلك ، إنك لزوجي فإذا تقصدين بقولك هذا ؟ » قالت على عجل وقد مهدج صوتها : « لست أدري ، إنما عنيت أنى ... لكوني لا أليق ، لقد أخبرتك منذ بعيد أنى لا أليق لك ، وأنى لذلك لا أريد أن أتزوجك ، ولكنك ألحفت » ، وانفجرت باكياً وولته ظهرها وكان ذلك كافياً لمطف قلب أى رجل عدا كبير : إذ كان إينجل يكن في أعماق جبلته — على وداعته وحنانه — جذوراً متحجرة من المنطق كأنها قضيب من

المعدن الصلد مستطرق في ناعم العلمي ، يفل غرب كل نصل يحاول اختراطه : عليه تنلم أمر التحاقه بالكنيسته وتنلم ارتضاؤه لتس ، هذا إلى أن حبه كان حباً شديد الوهج غير شديد الحرارة ، فتى بطل إيمانها بإحدى بنات الجنس اللطيف بطل احتفائه بها ، مناقضاً في ذلك بعض ذوى الطباع السريعة التأثر ، الذين يظلون مفتنين افتناناً حسيّاً بما تردديه عقولهم .

سكت حتى كفت عن الالتحاب ، فقال وقد انفجر حنقه على جنس النساء طرا : « وددت لو أن نصف نساء إنجلترا يماثلنك لياقة وشرفا ، ليس الأمر أمر لياقة إنما هو أمر مبدأ ! » وكان يجبهها بهذه الأقوال مدفوعاً بالنفور الذي يغشى النفوس الصريحة فيملؤها مرارة ، إذ تطلع فجأة على أن الحقائق تسخر من أحلامها ؛ نعم كان من دون هذا كله تيار من الشفقة والرأء ، كان في إمكان امرأة أريية أن تنفذ منه إلى عطفه فتجذبه ، ولكن تس لم تكن تلك المرأة ، إنما تقبلت كل شيء معتقدة أنها تستحق كل ما ينزل بها ولم تفتح فاهها ؛ لقد كان إخلاصها الوطيد لصاحبها يستدر الرحمة ، فلم تكن وهي السريعة الغضب لتضيق بشيء مما يقول ، ولا لتفكر في الانتصاف لنفسها ، ولا لتثور حفيظتها ، ولا لتنقم منه معاملته إياها ، فكادت أن تحاكي طهارة الأجبار والحواريين ، في عصرنا هذا الحديث عصر الأثرة .

تقضى هذا المساء وهذه الليلة ثم هذا الصباح ، كما تقضت سابقاتها ، ولم تجرؤ تس — التي كانت فيما مضى حرة مستقلة ، فقدت رهن مشيئته — على محاولة اجتذاب عطفه إلا مرة واحدة ، وكان ذلك حين هم للمرة الثالثة أن يخرج بعد الطعام قاصداً إلى الطاحون ، إذ قال وهو ينهض عن المائدة : « إلى الملتقى » ، وأجابته بمثل قوله وهي تميل بشفتيها على فمه ، فلم يلب هذه الدعوة وقال وهو يفتل ناحية : « سأعود في وقتي المهود » ، وانكشفت تس كأنما لطمت ؛ لظالما حاول الوصول إلى تينك الشفتين على غير رغبة منها ، وظالما قال ضاحكاً إن فيها ونفسها طعمهما طعم الزبد واللبن والبيض والمسل التي كانت قوام غذائها ، وإنه

يتمص منهما غذاءه ، إلى آخر تلك المداعبات ، أما الآن فيه عن شفتيها صدفة ؛  
ولاحظ انكماشها فقال في ترفق : « لا بد أن أفكر في مسلك ، لقد كان حتماً أن  
نبقى سوياً زمنًا ، تفادياً للمار الذي يلحق بك إذا افترقنا توا ، ولكن لا يغيب  
عنك أن هذا كله إنما هو إبقاء على الظواهر » ، قالت في شرود : « نعم » .

وخرج ، وفي طريقه إلى الطاحون توقف وود لحظة لو كان جاملها وقبلها  
مرة على الأقل ؛ وهكذا عاشا هذين اليومين الهائلين ، تحت سقف واحد ، نعم ،  
ولكنهما كانا أشد تنائياً مما كانا قبل أن يتحابا ، وكانت ترى جليلاً أنه يحيا كما قال  
حياة مشلولة ريثما يستنبط مسلكاً يتبعه ، وقد هالها أن تكشف تلك العزيمة  
الوطيدة من دون ذلك اللين الظاهر ، وأحست بقسوة تصميمه ولم تعد تطمع في  
عفوه ، وفكرت غير مرة في هجرانه أثناء غيابه في الطاحون ، ولكنها خشيت  
أن يُعرف ذلك فيضيره ويلحق به عارا بدل أن ينفعه .

وكان إينجل في نفس الوقت مثابراً على التفكير في غير انقطاع ، حتى أسقمه  
الفكر وأذواه وأضواءه ، وأجنه وأخرجه عن حلاوة شمائله الممهودة ، فأصبح أنى  
ذهب يسائل نفسه : « ما العمل ؟ ما العمل ؟ » وسمته صدفة فدفعها ذلك إلى  
تمزيق حجاب الصمت الذي ساد بينهما في شأن مستقبلهما فقالت : « لا إخالك  
مقياً معي طويلاً يا إينجل » ، وكان هبوط جانبي فنها ينم عن اصطناعها ذلك الهدوء  
المرتمس على وجهها ، قال : « لا أستطيع ، أو أحتقر نفسي ، وأحتقرك وهو  
أنكى ، أعنى طبعاً أنى لا أطيق الإقامة معك بالمعنى المعروف ، أما الآن فأيا كان  
شعورى فلست أحتقرك » .

واستطرد : « دعيني أنكلم في صراحة ، وإلا غابت عنك المصاعب التي  
تواجهني : أنى لنا أن نقيم سوياً وذلك الرجل حى ، وهو زوجك الطبيعى ولست  
أنا به ؟ ولعل الموقف كان يختلف عما هو عليه الآن لو كان الرجل قد مات ؛  
ولست هذه بالصعوبة الوحيدة ، بل هناك صعوبة تعترض مستقبل أناس سوى  
شخصينا : فتدبرى اختلاف السنين ونمو أبنائنا واقتضاح هذا الأمر وهو لا بد

مفتضح ، فكل بقعة في الأرض مهما نأت يطرقتها الطارقون وينزع منها الزئاع ،  
وتصوري أبناءً لنا ناعسين من لحنا ودمنا يترعرعون في ظل تلك الوصمة ، يشتد  
إحساسهم بوطأتها كلما شبوا ، فما أمضا من مفاجأة لهم ! وما أبشعه من مستقبل  
ينتظرهم ! هل يسمعك بعد هذا التأمل أن تريدني على البقاء ؟ ألا ترين أن الأجدر  
بنا أن نقاسي آلامنا الحاضرة بدل أن نخف إلى سواها ؟ .

وظلت مطرقة مثقلة الأجفان بالهم وقالت : « لا يسعى أن أريدك على البقاء ،  
لم أكن قد تدبرت هذا من قبل » ، والحق أن أمل تس الأثوى كان شديد  
الاستمارة والتعلق بالصالح مافسد ، فجعلها تتصور أن طول المعاشرة والملاسة  
سيتغلب على نفور صاحبها بالرغم منه ، ولم تكن تس فتاة لعوبا ، ولكنها لم تكن  
ناقصة الإدراك ، ولو لم تهدها غريزتها إلى ما في التقارب من قدرة على الإقناع  
لكان ذلك دليلا على نقص في أنوثتها ، وكانت موقنة ألا شيء يغني عنها إن لم يغن  
عنها ذلك التقارب ، وكانت تحدث نفسها أحيانا بأن من اللؤم أن تبني أملها على  
ذلك الضرب من الاحتيال ، ولكنها لم تستطع أن تنزع ذلك الأمل من نفسها .  
أما الآن فقد أدلى بوجهة نظره النهائية ، فرأت على ضوءها موقفاً جديداً كما  
قالت ، والحق أن فكرها لم يكن استرسل إلى تلك الغاية ، فلما صور لها جلينا  
احتمال إنجابها أبناء يأنفون من الانتساب إليها ، اقتنعت أتم اقتناع وحز ذلك في  
قلبها المغمم بحب الإنسانية ، وكانت التجارب وحدها قد علمتها أن هناك شيئاً هو  
خير في بعض الأحوال من حياة النقاء ، وهو أن يعنى الإنسان من الحياة إطلاقاً  
وكان يخيل إليها — شأن من أكسبهم معاناة الخطوب بعد النظر — أنها  
تسمع حكماً بالأشغال الشاقة ، كما يقول مسيو سولي برودوم في هذا الأمر :  
« كُتُولَدَن » ، لا سيما إذا وجه ذلك الأمر إلى ذرية يحتمل أن تعقبها ، ومع ذلك  
فقد بلغ من مكر الطبيعة — تلك المجوز الخبيثة التي تررى بعر الثعلبان — أن  
تس غطى على بصيرتها إلى الآن حبها كبير ، فأنسيت أن ذلك الحب ربما أعقب  
أحياء ينكبون غيرهم بمثل التكبلة التي ما تزال تندهبها .

ومن ثم عجزت عن مقاومة حبه ، ولكن نهض في ذهن كبير نفسه جواب على تلك الحجة ، شأن الرجل المرفه المحس يميل بطبعه إلى الانحاء على نفسه ، وقد أوجس خيفة من ذلك الجواب ؛ كان ذلك الجواب مبنيًا على تكوينها الجفاني الخاص ، وكان في مقدورها أن تستفيد من ذلك ، وكان في مقدورها أن تزيد فتقول : « من عسى يعلم أو يحفل بمصايبى على حزون استراليا أو في بطاح تكساس ؟ أو من عسى يلومنى أو يلومك ؟ » ولكنها — شأن معظم بنات جنسها — قبلت الصورة التى عرضها أمامها على أنها المصير المحتوم ، ولعلها أصابت ، فإن قلب المرأة للمهم لا يشعر بالآلامه هو وحده ، بل بالآلام زوجها أيضاً ، وإذا كان لن ينال زوجها أو ذريته لوم من الأغيار ، فلهل كان يسمعه آتياً من ضميره المتأثم .

كان ذلك هو اليوم الثالث بعد وقوع الجفوة ، وربما تعجل بعض الناس وقالوا فى ذلاقة : « لو كان كبير فى هذه الحالة أكثر حيوانية لكان أكثر إنسانية » ولكننا لا نرى رأيهم ، وإن كان حب كبير بلا شك جبا خيالاً أثريا مفرطاً ، مبتوتا ما بينه وبين الحياة المتحجرة ، فأصحاب هذه الجبله لا يؤثر فيهم التقارب الجفاني تأثير التباعد : فإن التباعد يثير فى مخيلاتهم مثلاً أعلى منزها عن الحقيقة الواقعة ، ورأت تس أن وجودها بجانبه لم يعطفه إليها كما كانت تظن ، لقد كان قوله صادقاً ، وإن لاح مجازياً : لم تمدى تلك المرأة التى تيمته .

قالت وهى تشير بسبابه يمينها فوق غطاء المائدة ، معتمدة برأسها على يسراها التى تحمل الخاتم الذى كان يسخر من كليهما : « لقد تدبرت ما قلت ، وكله صحيح ولا بد أن يكون ما تقول صحيحاً ، ولا بد أن تمضى عنى » ، قال : « ولكن ما تصنعين أنت ؟ » قالت : « أعود إلى أهلى » ، ولم يكن كبير قد فكر فى ذلك من قبل ، قال : « أواتقة أنت ؟ » قالت : « كل الثقة » ، لا بد لنا من الافتراق ، وأن نمجل أولى ، لقد قلت مرة إن فى مكنتى أن أغلب الناس على ألبابهم ، وإذا أنا ظلت أمامك فربما حملتك على تغيير خطتك ، رغم ما عليه محض رأيك



وإرادتك ، وبمدها لا يكون لندمك وحزنى حد » ، قال : « وهل تحبين أن تعودى إلى أهلك ؟ » قالت : « أحب أن أرحل عنك وأعود إلى أهلى » ، قال : « إذن تفعلى » .

ولم ترفع بصرها إليه ، ولكنها جفلت ، فقد كان بين عرضها وبين قبوله فرق أحست به أشد إحساس وأسرع ، قالت مغممة وعليها سياء الانضاع : « لقد كان ما خفت أن يكون ، وإن كنت لا أشكو يا إنجل ؛ إن هذا خير ما يمكن عمله . فقد أقنعتنى ما قلت أتم إقناع ، فإنه ولو لم ينلنى لوم اللاتئين إذا تعاشرنا ، فلعلك تغضب على يومنا فى مقبل السنين لأمر غير ذى بال ، فنبسط مقولك أنت نفسك ببعض ما تعرف من شؤون ماضى ، فيسمعك سامع أو يسمعك أبنائى ، وعندها لا يؤلنى مصابى مجرد إيلام كما يؤلنى اليوم ، بل ينكل بى ويسحقنى سحقا ، لا ! لا بد أن أرحل — غدا ! » قال : « ولن أبقي أنا هنا ، إنى وإن كنت قد كرهت أن أبدأ بالاقتراح قد أيقنت من بادية الأمر أن الأحببى أن نفترق ، نفترق زمنا على الأقل حتى أستطيع أن أستجلى الموقف وأكتب إليك » .

واختلست نظرة إليه فإذا هو ممتقع منتفض ، ولكن راعها مرة أخرى ذلك التصميم الراسخ فى أعماق هذا الكائن الوديع الذى تزوجته ، وذلك العزم المصر على إرضاخ العاطفة الدنية للعاطفة التى هى أرقى وأسمى ، وتضحية المادة من أجل المثل ، واللحم من أجل الروح ، لقد تهافتت كل النوازع والميول والعادات تهافت الأوراق الجافة أمام تلك العاطفة الجائحة — تساميه إلى المثل الأعلى ؛ ولعله أحس بنظرتها إليه فأنشأ يقول : « أنا أكرم رأيا فى الناس حين أغيب عنهم » ، ثم أضاف فى سخرية : « لا يعلم إلا الله : لعلنا بعد أن يمينا الجهد نتصالح يوما ، فقد فعلها قبلنا ألوف ! » .

وبدأ فى ذلك النهار يحزم أمتعته ، وصعدت إلى الطابق العلوى تحزم أمتعتها ، وكان كلاهما يعلمان أنهما يحسان أنهما مقترقان غدا إلى غير لقاء على الأرجح ،

رغم تلك الفروض المرفهة السريّة التي توبلا بها قرارها ، تجنبنا لذلك الألم الممض الذي لا بد أن يصحب افتراق مثلهما افتراقاً أبدياً ، وكان يعلم وكانت تعلم أنه رغم أن السحر الذي ألقاه كل منهما على الآخر — وكانت هي قد سحرته بسجيتها المرسلّة دون تثقيف ولا ترقيق — سيزداد في الأيام التي يعقب افتراقهما ، حتى يفوق كل ما عهدا من قبل ، فإن الزمان سيفلّ غربه ، وربما ازدادت وجاهة الحجج التي تمنعه من أن يتخذها شريكه لحياته ، إذا ما نظر إلى الموقف كله من بعد في ضوء شامل ، هذا إلى أنه حين يفترق أليقان ويهجرات مسكنا مشتركا وموطنا مشتركا ، ينمو نبات جديد ويتفتح حتى يعلأ كل مكان خال ، وتحول دون تحقيق النيات حوادث لم تكن في الحسبان ، وتنسى خطط كانت مرتبة .

٣٧

انتصف الليل والسكون نعيم ، إذ لم يكن في وادى فروم شيء يعلن انتصاف الليل ، وبعد الساعة الواحدة بقليل سمع صرير ضئيل في سواد البيت الرقيق الذى كان حقة مقر آل دربرفيل ، وسمعت تس التى كانت تنام فى الحجرة العليا وانتهت ، وكان آتيا من منمرج السلم الخشبي حيث كانت سائمة غير محكمة التثبيت ورأت باب غندها مفتوحا ، وأبصرت شخص زوجها يجتاز شعاع القمر المنبسط فى خطوات رفيقة حذرة ، ولم يكن عليه إلا قميصه وبنطلونه ، وسرعان ما خبت بادرة الفرح التى لمحت فى نفسها ، إذ رأت عينيه مشدودتين إلى الفضاء فى حلقة غريبة ، ولما بلغ وسط الحجرة وقف بلا حراك وغمغم فى رنة شديدة الأسمى :

« ماتت ! ماتت ! ماتت ! » .

كان كلير إذا هاج بلباله هائج يمشى فى نومه أحيانا وربما أتى بالغرائب ، كما فعل ليلة عودتهما من السوق قبيل زواجهما ، حين مثل فى مخدعه صراعه مع الرجل الذى أهانها ، وأدركت تس أن إلحاح الآلام النفسية قد دفعه إلى المشى فى نومه ، وكانت لشديد إخلاصها له وعميق ثقها به لا تستشعر خشية منه فى بقطة أو سبات ، ولو أنه دخل عليها بمسدس فى يده لما زعزع ثقها فى حمايته إياها من كل أذى ، ودنا منها كلير وأحنى عليها مغمغا : « ماتت ! ماتت ! ماتت ! » وبعد أن حذر فيها لحظات بتلك النظرة الحزينة الآسفة أخذها فى ذراعيه ، ولفها فى أعطيتها كأنه يلفها فى كفن ، ثم رفعها من فراشها فى ذلك الإجلال الذى يحاط به الموتى ، واجتاز بها الحجرة متمتا : « مسكينتى ، عزيزتى ، حبيبتي ، تس ، ما أملحها وأطيبها وأصدقها ! » .

وما كان أعذب وقع كلمات الإغراز هذه فى نفس تس المتلهفة ، بعد ما حرمتها فى يقظته أتم حرمان ، ولم تكن لتززع نفسها بحركة أو عراك من الموضع الذى

وجدت نفسها فيه ، ولو توقفت على ذلك حياتها الناعسة ، ومن ثم استسلمت في سكون مطلق لا تكاد تجرؤ على التنفس ، وتركته يخرج بها إلى فسحة السلم ، وهي لا تدري ما هو صانع بها ، وقال : « ماتت زوجي ! ماتت ! » وتوقف وهلة ومال بها على الدريزين ، أريد إلقاءها من حلق ؟ لقد كان احتفالها بعصيرها قد تضاءل ، وإذ كانت تعلم أنه قد عول على الرحيل في الغد ، رحيلا ربما كان إلى غير رجعة ، فقد سكنت في يده في ذلك الموقف الهائل في ارتياح لا في دعر ، وودت لو هوى سويا وتمشيا معا .

على أنه لم يقذف بها ، وإنما استعان باعتماده على الدريزين فطبع قبلة على شفتيها — شفتيها اللتين يزدريهما نهارا — ثم شدد تطويقها وهبط السلم ولم يوقظه صرير السلمة المخلخلة ، وبلغا الطابق السفلي سالمين ، وخلص إحدى يديه من حملها وهلة وشد رتاج الباب الخارجي ، واندفع خارجا فاصطدمت أصبع قدمه المكسوة بالجورب بحافة الباب اصطداما خفيفا ، ولكنه لم يبال ووجد في الهواء الطلق متسما فحملها على كتفه ، وخف عبثه بذلك ولقطة ما كان عليها من ثياب وسار بها مسافة طويلة تجاه النهر .

ولم تدري هي غايته التي يقصد إليها إن كان يقصد إلى غاية ، وراحت تظن الظنون كأنها شخص ثالث غير مشترك في الأمر ، وكانت قد منحت نفسها إياه منحا خالصا ، وسرها أن تراه يعدها ملكا خاصا له يصنع بها ما يشاء ، وعزاها من عذاب الفراق الذي يحلق حولها في الغد أن تراه يعدها زوجه تس ولا ينذها ، وإن ذهب في اعتداده يمولته إلى حد انتحال الحق في إيذائها ، وأدركت فجأة أنه يحلم بذلك اليوم يوم الأحد إذ حملها عبر الماء هي وصاحباتها اللاتي يهمن به هيامها — وإن كانت لا تستطيع أن تقر بذلك — ولم يمر كبير بها الجسر بل تقدم خطوات على نفس الشاطئ صوب الطاحون ، ثم وقف .

وكان ماء النهر الذي ينساب أميالا في تلك المروج كثيرا ما يتشعب ويتلوى في تعاريج شتى بغير نظام حول جزائر صغار لا تعرف بأسماء ، ثم يمود فيلتئم بعد

مكونا مجرى رئيسيا ، وكان حيال البقعة التي وقف بها كبير ملتقى نهيرات من تلك الملتقيات ، وكان المجرى هناك عميقا مترا يجتازه جسر ضيق للسيارة ، ولكن السيل الذى فاض فى الخريف كان قد جرف سياجه ، ولم يدع إلا الألواح العارية على ارتفاع بوصات فوق التيار المتدفق ، فكان ذلك مجازا خطرا حتى للصاحين ، وكانت تس قد لاحظت الناس من نافذتها يمررون عليه كأنما يأتون بمعجزة فى التوازن ولعل زوجها كان قد لاحظ ما لاحظت ، والآن تقدم إلى الجسر مجتازاً .

أريد إغراقها ؟ لعله يريد ، لقد كان المسكان خلوا والنهر عميقاً واسماً يصلح لتلك الغاية ، ولم تكن لتأبى عليه إغراقها لو أراد ، فقد كان ذلك خيراً من الافتراق فى الغد والعيش بعد ذلك بمنزل ؟ وطفق النهر يبدو ويدوم من دونهما منعكساً عليه وجه القمر متبعجاً ممزقاً ، وتندفع فيه نقط من الزبد وتعلق بعض الأعشاب بحوامل الجسر فتتموج حولها ؟ ولو سقطا فى النهر فى تلك اللحظة لحال توشح أذرعتهما دون نجاتهما ، ولفارقا الحياة فى غير كبير ألم ، ولم تقاس من أحد بعد اليوم تقريبا ولم يقاس لومة لائم على زواجه بها ، ولكن آخر نصف ساعة قضاء وإياها برهة محبة وإعزاز ، على حين أنهما لو عاشا حتى يشوب إلى وعيه ، لعاوده مع النهار نفوره منها ، ولم يبق من هذه اللحظة العارية إلا ذكرها .

ونزت بها نزوة لو استقادت لها الأسرعت بهما إلى الهوة ، فأما احتفالها بحياتها فقد أثبتت الحوادث السالفة مقداره ، وأما حياته فلم تر لنفسها حقاً فى البعث بها وبلغ بها العدو سالماً ، وهنا وجدا نفسيهما فى مزرعة تحيط بالدير ، وشدد تطويقها مرة أخرى وسار خطوات حتى بلغ موضع المرتلين من الدير المهدم ، وكان بجانب الحائط الشمالى تابوت لرئيس الرهبان فارغ ، كان يتمدد فيه كل سائح مغرم بالزجاج الكتيب ، وفيه وضع كبير تس فى رفق ، وقبل شفتيها مرة أخرى ، وتنفس الصعداء كأنه قد أدرك مأرباً كان عليه جد حريص ، ثم تمدد على الأرض بجوارها وسرعان ما استغرق فى نوم عميق لشدة إعيائه ، وسكن فى موضعه كأنه جذع شجرة ، وخذت تلك الفورة النفسية التى حملته كل ذلك المجهود .

اعتدت تس جالسة في التابوت ، وكانت الليلة أجف وأدفا مما يُتوقع في ذلك الفصل ، ولكنها كانت مع ذلك ليلة باردة إذا أطال بقاءه فيها في تلك الثياب تعرض للخطر ، ولو ترك وشأنه لبقى في مكانه ذلك على الأرجح إلى الصباح ولهذا بردا ، ولكن أنى لها أن توقظه فتنبهه إلى ما كان فيه ، وهو إذا تنبه إلى ما صنع بها أمضه الألم ؟ على أنها خرجت من التابوت الحجرى وهزته في رفق ، ولكنها لم تستطع إيقاظه إلا أن تلجأ إلى العنف ، ولم يكن بد أن تعمل عملا ، فقد أخذتها القشعيرة ، ولم يكن غطاؤها ليغنى عنها كثيرا . . وكان انفعالها أثناء تلك المغامرة قد أدفاها إلى حد بعيد ، ولكن ذلك الوقت السعيد قد انتهى .

ثم عن لها أن تحاول إغراءه ، فهمست في أذنه بكل ما لديها من حزم وتصميم : « هلم يا عزيزى نسر » ، مقترحة عليه السير بأخذ ذراعه في نفس الوقت ، وأثلج صدرها أن رأيته يوافق ، وكأن كلماتها قد قذفت به مرة أخرى في أحلامه ، التي اتخذت من تلك اللحظة طورا جديدا ، توهم فيه أنها انبعثت روحا تقوده إلى السماء ؛ وهكذا قادته من ذراعه إلى الجسر الحجرى المحاذى لمسكنهما ، فلما عبراه صارا أمام الباب ، وكانت تس حافية فكانت الأحجار تؤلمها وتشيع البرودة في مفاصلها ، أما كلير فكان مرتديا جواربه الصوفية لا يبدو عليه شعور بالأم ؛ ولم يجد صعوبة بعد ذلك في إرقاده على أريكته ، وغطته تغطية جيدة ، وأوقدت نارا لتنفض عنه أثر كل رطوبة ، وكانت ضوضاء حركاتها تلك وهى تتمهده حرية أن توقظه ، وقد ودت في صميم نفسها لو أيقظته ، ولكن فكره وجسده كانا من العياء بحيث استغرق في سباته لا يزعجه شيء .

وحالما تقابلا في الصباح التالى ، أدركت تس أن إننجل لا يكاد يدرى شيئا عن مدى اشتراكها فى رحلة البارحة ، وإن كان يذكر أنه هو نفسه لم يهجع في مكانه ليلته ، والحق أن كلير استيقظ ذلك الصباح من سبات عميق أشبه بالهمود وفي ذهنه ذكرى دامسة لحوادث في الليل غير عادية ، تساور ذهنه في تلك اللحظات الأولى التى يحاول فيها النهن استعادة قواه ، كأنه سمسون ينفض عنه

خوله ، ولكن حقائق موقفه في حياته سرعان ما شغلت فكره عن التأمل في ذلك الموضوع الآخر .

وتلبث كبير علّ فكره يتجه اتجاهًا جديدًا ، وكان يعلم من طبيعة نفسه أن كل عزم يَبْتَثُهُ يومًا وأصبح عليه فلم يتغير بطلوع النهار ، هو عزم لم يُجْلِلْهُ إِلَّا المنطق السليم ، وإن دفعه إليه احتدام العاطفة في بادئ الأمر ، وهو عزم من أجل ذلك جدير أن يوطن نفسه عليه ، وهكذا بدا له في غبش الصباح عزمه على مفارقتها . لم يكن ذلك العزم وليد عاطفة جامحة ، بل كان يلوح له الآن مجرداً من كل ذلك الانفعال والاحتدام اللذين عصفا به من قبل ، كان ذلك العزم يلوح مجرداً كالهيكل العظيم ، ولكنه كان بلا ريب ثابتاً في نفسه ، لم يعد للتردد سبيل إليه .

وكانت أمارات التعب من جراء مجهود البارحة مرسمة عليه وقت الفطور ، وأثناء حزمهما لما بقي من أشياءهما ، حتى همت تس أن تفضي بكل ما كان ، ولكنها عادت فأمسكت مخافة أن يفضبه ذلك ويحزنه ، ويحرجه أن يعلم أن عزيزته دفعته إلى إظهار حب لها ياباه حسن إدراكه ، وأن نوازعه غضت من كبريائه في غفلة عقله ، وبدا لها أن إفضاءها إليه بما كان أشبه بالتندر على امرئ في صحوته ، بما كان من سقاطه وهو ثمل ، وعنّ لها إذ ذاك أنه ربما كان يذكر ذكرًا خافتاً ما كان من بدوته الخرقاء ، فأبت أن تشير إليها لاعتقادها بأنها ربما استغلتها من أجل حبها إياه ، وانتهزت تلك الفرصة لتمود فتتوسل إليه ألا يهجرها .

وكان قد كتب يطلب عربة من أقرب بلدة ، وسرعان ما وصلت بعد الفطور ورأت فيها تس بداية النهاية ، النهاية المؤقتة على الأقل ، فقد أثار ما كشفت عنه حادثة البارحة من حب لها في نفسه ، آمالاً في نفس تس بأن يعاودها يوماً ! ووضع المتاع على سقف العربة ، وانطلق السائق بهما بعد أن أبدى صاحب الطاحون والخدام المعجوز دهشتهما من سرعة رحيلهما ، فعزا كبير ذلك إلى اكتشافه أن أعمال الطاحون لم تكن تجري على الطراز المصري الذي يعني درسه ، وكان ذلك

صحيحاً في حد ذاته ، وفيها عدا ذلك لم يكن في هيئة رحيلهما ما يوحى بشقاق أو ينفي أنهما إنما يقصدان زيارة بعض الأصدقاء .

وكان طريقهما يقارب الضيعة التي فصلها عنها منذ أيام ، وفي نفس كل منهما من الغبطة بصاحبه ما فيها ، وإذ كان كلير يبنى تصفية أعماله مع مستر كريك لم يسع تس إلا أن تزور مسز كريك في نفس الوقت ، وإلا أثارت الريب حول علاقتهما المحزنة ، ولكيلا تكون زيارتهما مفاجئة مثقلة ترجلا عند البوابة الصغيرة وسارا على المعشى المؤدى إلى دار صاحب الضيعة جنباً إلى جنب ، وكانت الأعشاب قد جذت ، وكانا يريان خلال سوقها المجذوة البقعة التي تبع كلير إليها تس يوم ألحف عليها في زواجه ، وكانت على ميسرتها الحظيرة التي سحرتها فيها أنعام قيثارته ، وكانا يريان في البعد خلف مرابط الأبقار المروج التي شهدت أول عناق لهما ، وكان اللون الذهبي الذى يوشى تلك الصورة صيفاً قد استحال داكناً ، وحالت صبغتها وتوحدت تربتها وبرد نهريها .

ورآهما صاحب الضيعة عبر بوابة ضيعته ، فشئى إليهما وعلى وجهه علائم الجبور التي يرتضيها آل تلبويز وأرباضها لدى عودة عروسين ، ثم برزت من الدار مسز كريك وأخريات من معارفهما القدماء ، وإن لم يظهر لماريان ورقى أثر ، وتحملت تس في بسالة حملاتهم الماكرة ودعاباتهم البريئة ، التي كان لها في نفسها أثر بعيد أشد البمد عما يظنون ، وإذ كان الزوجان قد اتفقا اتفاقاً ضمنيّاً على إسرار أمر انشقاقهما فقد سلكا مسلكاً طبيعياً ، ثم اضطرت تس إلى سماع ما كان من قصة رقى وماريان ، وإن كانت لتؤثر ألا تسمع منها حرفاً ، وكانت رقى قد عادت إلى أهلها ، وذهبت ماريان تبحث عن عمل في مكان آخر ، وكان القوم يخشون عليها سوء المصير .

ولكى تبتد تس سوء أثر تلك القصة المحزنة ، انطلقت إلى بقراتها المزاز تودعها وتربتها ؛ ولما وقفت هى وكلير جنباً لجنب للوداع كأنهما ممتزجان روحاً وجسداً ، كان منظرهما جرد مؤس لمن يعلم حقيقة ما وراءه ، كانا يدوان كأنهما



جسدا روح واحد ، وذراعه تلامس ذراعها ، وثوبها يماس ثوبه ، ووجهاها متجهان في ناحية واحدة على حين قد أتجه الآخرون في الناحية الأخرى ، يقولان في وداعهما : « نحن » وهما مع ذلك أشد تباعداً من القطبين ، ولعل شيئاً من الضيق والحرج كان ملحوظاً في مسلكتهما ، أو شيئاً من العجز في تمثيل دور الاتحاد مخالفاً لما يخامر صفار الأزواج من خجل ، غالماً انصرفا قالت مسز كريك لبعملها : « ما كان أغرب بريق عينيها ، وما كان أشبهما بتمثال شمع وهما واقفان يتحدثان كأنهما في حلم ، ألم تلاحظ ذلك ؟ لقد كانت تس دائماً على شيء من الغرابة ، وهي لا تبدو الآن بمظهر العروس الفخور بزوجها الثرى » .

وعادا إلى العربية وانطلقت بهما إلى (وذري) ، و (ستجفت لين) ، حتى بلغا فندق (لين) حيث صرف كليز العربية وسائقها ، واستراحا برهة وهبطا الوادي وأتجها صوب موطنها في عربة رجل لا يعرف علاقتهما ، وأوقف كليز العربية في مفترق طرق بعد أن جاوزا (ناتلبرى) ، وقال لتس إنها إن كانت تريد العودة إلى أبويها فذلك هو الموضع الذى يفارقها فيه ، وإذا كان من الصعب أن يتحدثنا في حرية في حضور السائق ، طلب إليها أن تسيره خطوات في أحد الدروب الجانبية ، فوافقت وطلبا إلى الرجل أن ينتظرهما دقائق وانطلقا ، وقال كليز في رفق : « فليفهم كل منا صاحبه جلياً : ليس بيننا مناضبة وإن كان بيننا أمر لا أستطيع احتماله الآن ، وسأحاول أن أروض نفسى على احتماله ، إذا كان ذلك مرغوباً فيه أو ممكناً وسأحيطك علماً بما أتعهى إليه حالاً أعلم أنا نفسى ، فإذا رضت نفسى على احتماله ، إذا كان ذلك ممكناً أو مرغوباً فيه ، فسأتيك ، ولكن يجدر بك ألا تأتى إلى حتى آتى إليك » .

أمضت تس قسوة ذلك القرار ، وقد تبين لها رأيها فيها وعلمت أنه لا يستطيع إلا أن يمدّها امرأة غشته غشاً فظيماً ، ولكن أتستحق امرأة كل ذلك ولو كانت قد اقترفت ما اقترفت هى نفسها ؟ على أنها لم تعد تستطيع أن تجادله أكثر مما فعلت ، إنما رددت قوله بعبدة : « لا آتيك حتى تأتى إلى ؟ » قال : « لا » ، قالت :

« فهل لى أن أكتبك ؟ » قال : « نعم إذا كنت علية أو محتاجة إلى شىء ما ، وإن كنت أمل ألا يصيبك شىء من ذلك كى أكون أنا البادىء بالكتابة » ، قالت : « أقبل شرطك يا إنجيل لأنك خير من يعلم ما أستحق من عقاب ، إنما ... إنما لا تزد على حد ما أستطيع ! » .

ذلك كل ما قالت ، ولو كانت تس ما كرهة فأتقنت التصنع وأغشى عليها وبكت بكاء عصبياً فى ذلك الدرب ، لما استطاع مقاومتها رغم غضبة التسامى التى كانت تدفعه إلى رفضها ، ولكن نزعة الاستسلام للآلام التى تمكنت منها سهلت له طريقه وكانت تس نفسها خير عون له على نفسها ، وكانت لكبرياتها أيضاً يد فى رضوخها — ولعل ذلك كان أحد أعراض ذلك الاستسلام للأقدار فى غير مبالاة ، الذى كان أحد سمات آل دريفيلد جميعاً — ومن ثم لم تمس الكثير من الأوتار الحساسة التى كان يمكنها أن تتوسل بها إليه ، واقتصرت بقية حديثهما على الأمور المادية ، ودفع إليها صرة بها قدر من المال وفير قد مسحبه من المصرف لذلك الغرض ، أما الجواهر التى لم يكن لتس حق فيها إلا مدى حياتها — إذا كان كبير قد أصاب فى تفسير الوصية — فقد طلب أن تسمح له أن يستبقها فى مصرف فوافقت على الفور .

فلما فرغا من تلك الشؤون عادا أدراجهما ، وساعدها فى ركوب العربى ونقد السائق أجره وأخبره بالجهة المقصودة ، ثم حمل مظلته وحقيته وهما كل ما استصحب وودعها وافترقا ، وزحفت العربى صاعدة التل ، وراقبها كبير فى صعودها وقد خامره أمل فى أن تظل تس من النافذة وهلة واحدة ، ولكنها لم تفكر فى ذلك ولم تكن لتجرؤ عليه ، وإنما كانت مسترسلة فى غيبوبة هى أقرب إلى الموت ، وهكذا شاهدها قافلة إلى وطنها ، وتمثل وقلبه يتصدع بيت شعر حرفته تحريفاً عجيباً : « ليس الله فى السماء ، كل ما فى الأرض فاسد » ، ولما جاوزت تس قمة الجبل قفل آخذاً سمته ، ولم يكدر يدرك أنه ما يزال يهواها .

٣٨

تقدمت بها العربية في وادى بلا كمور ، وتفتحت أمامها معاهد طفولتها ، فانتبهت من ذهولها وكان أول خاطر عن لها : كيف تواجه أبويها ؟ ووصلت إلى بوابة العوائد التي تعترض الطريق إلى القرية ، ففتحتها رجل لا تعرفه ولم تر الشيخ الذى كان موكلا بتلك البوابة منذ سنين ، فلعله انتقل في رأس العام ، إذ جرت العادة بإجراء تلك التنقلات في ذلك اليوم ، وإذ كانت لم تلتق أخباراً من ذويها منذ حين استوضحت حارس البوابة .

قال : « لا جديد يا آنسة ، وما تزال مارلُت مارلُت كما هي ، وإن مات بعض الناس وهلم جرا ، وقد تزوجت ابنة جون دريفيلد سيدياً مزارعاً في هذا الأسبوع ، ولا ارتفاع رتبة ذلك السيد لم يحضر الزفاف آل جون أنفسهم ، إذ يلوح أن العريس لم يعلم بعد بما كشف حديثاً من انتهاء جون إلى أسرة عريقة ما تزال جماعها في مدافنها إلى اليوم ، وإن تكن قد غُلبت على أملاكها في عهد الرومان ، على أن سير جون — كما نسميه الآن — قد احتفل بالزفاف بما في وسعه ، وأولم ككل أهل الأبرشية ، وأنشدت زوج جون الأناشيد في فندق القطرة الصافية إلى ما بعد الحادية عشرة » .

بلغ من غم تبس لدى سماع ذلك أن أحجمت عن دخول القرية جهاراً في العربية ومعها كل متاعها ، فسألت حارس البوابة أن يستبق أشياءها حيناً فلم يمانع ، فصرفت العربية ومشيت إلى القرية من درب خلقي ، ولما ارتفعت لها مدخنة دار أبيها ساءلت نفسها كيف تستطيع دخول الدار ؟ لقد كان ذووها داخل الدار هادين يحسبونها تجوب قاصى الأرض في رحلة شهر العسل مع عريس ترى سوف يقودها إلى السعادة والرفاهية ، وهامى ذى عديمة النصير تدرج إلى ذلك الباب القديم وحيدة ، وليس لها في العالم مثابة خير من هذه .

ولم تبلغ الدار دون أن يلاحظها أحد ، بل صادقها بجانب وشيع الحديقة فتاة تعرفها ، كانت إحدى زميلتيها أو ثلاث زميلاتهما في المدرسة ، اللواتي كانت بينها وبينهن صلة وثيقة ، فسألت تس عما أتى بها إلى ذلك الموضع ، ثم اندفعت تسأل غافلة عما في قولها من مض : « ولكن أين السيد يا تس ؟ » فردت تس فوراً إنه قد استدعى فجأة لبعض شؤونه ، وجاوزت معترضتها وتسلفت الوشيع ودخلت الدار ، وإنما لتسير في ممشي الحديقة إذ سمعت أمها تترنم بجانب الباب الخلفي ، فلما لاح لها ذلك الباب رأت مسز دريفيلد على العتبة تعصر خرقة ، وانتهت من ذلك دون أن تلاحظ تس ، ودخلت وتبعها ابنتها ، وإذا حوض النسيل قائم في موضعه المهود ، ورمت أمها الخرقة جانباً وهمت أن تمس يديها في الحوض ثانية .

« يا للمعجب ! تس ! ابنتي ! لقد حسبتك تزوجت ! تزوجت حقاً وفعلنا هذه المرة ! لقد أرسلنا الشراب ... » ، قالت تس : « نعم يا أمي لقد تزوجت » ، قالت : « تعنين أنك ستزوجين ؟ » قالت : « لا » ، بل قد تزوجت » ، قالت : « تزوجت ؟ فأين زوجك ؟ » قالت : « لقد ذهب حيناً » ، قالت : « ذهب ؟ متى تزوجتما ؟ في اليوم الذي عينته ؟ » قالت : « نعم ، يوم الثلاثاء يا أم » ، قالت : « واليوم السبت وقد ذهب ؟ » قالت : « نعم ذهب » ، قالت : « ما معنى هذا ؟ ما رأي أحد مثل هؤلاء الأزواج الذين تمترين عليهم ! » .

مشت تس إلى أمها ووضعت وجهها على صدرها وقالت وهي تنتحب : « أماء ! لست أدري كيف أخبرك ، لقد أمرتني قولاً وكتابة ألا أخبره ، ولكنني فعلت ولم يسعني إلا أن أفعل وقد ذهب » ، فانفجرت أمها مبللة نفسها وابنتها في هياحها : « يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! يا إلهي ! لم أكن أحسبني أعيش حتى أقولها ! ولكني أعيدها : يا لك من حمقاء ! » واستغرقت تس في نحيبها وقد خارت قواها بعد عراك الأيام السالفة ، ولفظت خلال شهقاتها : « أنا أعلم ذلك ، أنا أعلمه ، ولكن لم يسعني إلا ذلك يا أم ! لقد كانت كريماً ورأيت من

الخسة أن أحاول أن أعميه عن حقيقة ما كان ! ولو تكرّر الموقف ما فعلت غير ما فعلت ، فليس في وسمى ولا أجرؤ أن آثم في حقه ! » .

قالت أمها : « ولكنك أثمت إنما عظميا بزواجه في بادئ الأمر ! » قالت : « نعم ، نعم ، هذا أصل بليتي ! ولكنني كنت أحسبه يستطيع التخلص مني بالقانون إذا أصر على عدم الصفح ، وليتك تعلمين ، ليتك تشعرين بنصف حبي إياه ومقدار لهفتي إلى الفوز به ، ومبلغ ما كابدت بين هيامي به وحرصى على النزاهة في مسلكي حياله ! » وبلغ من انفعالها أن لم تستطع المضى في المقال ، وانحطت ركائما هائرا في كرسي ، قالت أمها : « لا راد لما كان ، لست أدري لم أرى ذرتي أغبي من ذرية غيري ، حتى تثرى معلنة مثل هذا السر الذي لم يكن الرجل ليقع عليه إلا وقد فات الأوان » ، وراحت تسكب دمعها حزنا على نفسها ، إذ أحست أنها أم جديرة بالراء ، واستطردت : « لست أدري ما أبوك قائل ، فإنه لم يزل يتحدث بأمر الزواج في فندق روليفر والقطرة الصافية ، وبعودة أمرته بفضلك إلى مكانهم الجدير بهم ، واحسرتاه على الأحمق السكين ! وها أنتِ ذى قد أفسدت كل شيء ، فرحماك يا الله ! »

و شاء القدر أن تبلغ الأمور أزمته الكبرى ، إذ سمعت خطي الأب مقترية ، على أنه لم يدخل وقالت مسز دريفيلد إنها ستترقى في إنهاء الخبر إليه هي نفسها على أن تتواري تس حيناً ، وقد بدأت جوان دريفيلد بعد غضبتها الأولى تنظر إلى الأمر نظرتها إلى يوم عطلة أفسده المطر ، أو محصول بطاطس اصطلمته الآفات ، تعد كل ذلك نازلا زل بهم دون أن يستحقوه أو يستهفوا له بمحاقهم ، نازلا عارضا يحتمل ، لا درساً يحفظ ؛ وانسجبت تس صاعدة إلى الطابق العلوى ، ولاحظت في نظرة عابرة أن المضاجع قد غُيرت ورتبت ترتيباً جديداً ، وكان فراشها قد مهد لطفلين صغيرين ولم يعد هناك موضع لها .

وإذ كانت الحجرة السفلى غير ذات سقف ، فقد سمعت تس معظم ما كان يجري فيها من حوار ، وسرعان ما دخل أبوها وكأنه كان يحمل دجاجة ، وكان

قد أنحى يجول على قدميه بعد أن اضطر إلى بيع حصانه الثاني ، وكان يسير وسلمته في ذراعه ، وكان قد طاف بالدجاجة ذلك الصباح كما طاف بها من قبل مراراً ، ليظهر للناس أنه يباشر أعماله ، وإن كان تركها مقيدة تحت منضدة روليفر زهاء ساعة ؛ قال : « لقد كنا نتحدث في أمر ... » ، وفصل لزوجته محاورة دارت في الحان حول رجال الدين ، أثارها العلم بأن بنته تزوجت شاباً من أسرة دينية ، ثم قال معقّباً : « لقد كانوا فيما مضى يلقبون بلقب سير ، شأن آبائي ، أما الآن فهم قس لا أكثر » وقال إنه إجابة لمغربة تس في عدم إذاعة الموضوع لم يذكر شيئاً من التفاصيل ، وإن كان يرجو أن تكف عن ممانعتها عما قريب ، واقترح أن يتخذ العروسان اسم دربرفيل صحيحاً غير مشوه ، فهو خير من اسم أسرة العريس ، وسأل أجباء من تس كتاب ذلك النهار .

فأخبرته أنه لم يأت كتاب وإنما تس نفسها لسوء الحظ قد أتت ، وبعد لآي شرحت له الكارثة ، فداخله غم وقنوط لا يالفهما الرجل ، تغلبا على أثر الكأس المنعشة ، على أن ذلك المصاب الجلل لم يؤثر في نفسه بعض ما كان يؤثر في غيره قال سير جون : « أهذه نهاية الأمر إذن ؟ رغم ما لي من مدافن عريقة تحت سقف كنيسة كنتجزير ، تضاهي سمعتها سعة مخزن سكوايار جولرد ، للخمور ، يرقد فيها آبائي سداس وسباع ، تناصى عظامهم أشرف عظام في التاريخ ! والآن أنا أدري حق الدراية ما سوف يجبهني به رواد روليفر والقطرة الصافية : سوف يتغامزون ويتلامزون قائلين : ( ما أسعد ذلك القران ! نعم تراك تعود إلى رفعة أجدادك في أيام الملك نورمان ! ) هذا أكثر مما أحتمل يا جوان ، أراني سأنتحر جسماً ولقبا ، ليس في طاقتي أن أتجملد لكل هذا ! ولكن أليس من حقها أن تلزمه أن يعود إليها ما دام قد تزوجها ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكنها تأتي أن تفعل » ، قال : « آتخسبنيته تزوجها فعلاً أم هو كسابقه ... ؟ » ، وكانت تس السكينة قد سمعت كل ذلك ، ولم تعد تستطيع احتمال أكثر منه ، وزهدتها في بيت أهلها أن رأت قولها يُرتاب فيه حتى هنا

تحت سقف والديها ؛ ما أشد مفاجأة ضربات القدر ! إذا كان أبوها يرتاب في أمرها قليلا أفلا يرتاب البعداء كثيرا ؟ لن تستطيع البقاء في موطنها طويلا ؛ تبينت ذلك فعولت على ألا تقيم إلا أياما معدودة ، وفي نهاية تلك الأيام أنها كتاب من كليز ينبئها أنه قد رحل إلى شمال إنجلترا يفحص ضيمة هناك .

ولشديد لطفها إلى التمتع ببعولته ، وحرصها على إخفاء خطر قطيعتها عن أبويها ، اتخذت ذلك الكتاب ذريعة للرحيل عنهما مرة أخرى زاعمة أنها ذاهبة للحاق بصاحبها ، ولكي تقي زوجها تهمة القسوة عليها أخذت خمسة وعشرين جنيهًا مما أعطاه كليز ، ودفعتها إلى أمها كأن ذلك بمض ما تستطيعه زوج رجل مثل إينجل كليز ، وقالت إن ذلك اعتذار متواضع عما جلبت عليهما من متاعب ومهانة في سالف السنوات ، وودعتهما بعد أن عززت كرامتها بهذا العمل ؛ وارتجت دار جوان دريغيلد أياما بعد ذهاب تس بالحفلات والأطراب ، بفضل سخاء تس ، وراحت جوان تقول بل تعتقد أن ما كان بين ابنتها وعريسها من جفوة سرعان ما تلاشى ، إذ تبينا استحالة عيش أحدهما بنجوة عن الآخر .

٣٩

بعد الزواج بثلاثة أسابيع كان إينجل كلير يهبط المنحدر المؤدى إلى مقر أبيه المعروف ، ولما تقدم فى انحداره ارتفع له برج الكنيسة فى سماء المساء كأنه يسأله فيم جاء ، ولم يكن يبدو أن حيا يحس به فى تلك البلدة التى يخيم عليها الليل الزاحف ، أو ينتظر قدومه ، وكان يدنو كالشبح يزعمه وقع خطاه هو نفسه .

لقد تغيرت صورة الحياة فى نظره : كان قبل اليوم يعرفها معرفة نظرية ، أما اليوم فهو يحسبه يعرفها معرفة مجرب ، وإن يكن أكبر الظن أنه كان مخطئا ، على أنه لم يعد يمثّل الإنسانية فى تلك الصورة الفنية التأملية الإيطالية ، بل فى تلك الصور الكالحة الفاعرة التى تستقبلك فى أحد معارض ويرتز ، تعلوها بسمّة فاجرة كتلك التى ترسم على صور فان بيرز ؛ وقد كانت حياته فى تلك الأسابيع الثلاثة الأولى مشتتة للغاية ، فبعد أن حاول محاولة آلية أن يمضى فى مشروعاته الزراعية كأن شيئا خارقا لم يكن ، وهى الخطة التى يشير بها الحكماء والمطاء فى كل الدهور ، قرر أن أغلب أولئك المطاء والحكماء لم يخرجوا عن نطاق أنفسهم ليمتحنوا مقدار ما فى موعظهم من إمكان .

يقول الحكيم الوثني : « هذا رأس الحكمة : لا تجزع لشيء » ، وذلك عين رأى كلير ، ولكنه جازع ؛ ويقول المسيح : « لا يدخل القلق قلبك ، ولا يدخله الخوف » ، وعلى ذلك كان كلير يوافق من صميم الفؤاد ، ولكن القلق كان فى قلبه ، وكما ودلو استطاع مواجهة ذنك المفكرين العظميين ، وأن يناشدها مناشدة الإنسان الإنسان أن يدلاه على طريقتيها ! . ثم تحولت حالته إلى عدم مبالاة مقيم حتى توهم أنه ينظر إلى وجوده نظرة الغريب الذى لا شأن له به ، وأمضى أن مرجع كل تلك الكارثة هو انهاؤها إلى آل دربرثيل ، فما باله حين علم بانحدارها من تلك السلالة المنحلة لا من الطبقة الناهضة كما كان يظن بادى ذى



بده ، لم يهجرها متجلدا هجرأ جيلا وفاء لمبادئه ؟ لقد صار إلى ما صار إليه لخياسته تلك المبادئ ، وإنه لأهل لتلك العقاب .

ثم غلبه العياء وتولته الحيرة ، واشتدت حيرته حين توهم أنه لم ينصف تس ، وكلا تصرمت الساعات واستعرض الحوافز التي كانت تحفزه إلى كل ما عمل في الأيام الماضية ، يتجلى له كيف أن فكرة حيازة تس تحفة عزيزة ، كانت مختلطة بكل مشروعاته وأقواله وأفعاله .

حتى لاحظ في بعض مطافه إعلانا أحمر أزرق في بعض الضواحي ، يشيد بما في إمبراطورية البرازيل من متسع للمزارع المخاطر ، وكانت الأرض هناك معروضة في شروط سخية جدا ، ورأى البرازيل فكرة طريفة اجتذبت ، إذ لاح له أن من الممكن أن تلحق به تس هناك ، ولعل التقاليد التي جعلت معاشرته إياها هنا مستحيلة لا تكون بمثل هذه الصرامة في تلك الديار ذات المناظر والأفكار والعادات المتغيرة ، وبالإجمال اشتاق إلى الرحيل إلى البرازيل ، لا سيما وقد كان موسم الذهاب إليها قريبا .

وقد عاد إلى امنستر ، وتلك الفكرة في رأسه يريد مفاتحة أبويه في خطته ، قاصدا أن يعتذر بأوجز لفظ عن عدم استصحابه تس في زيارته ، دون أن يشعرها بحقيقة ما كان ، ولما بلغ باب الدار أضاء وجهه القمر الجديد ، كما كان أضاء القمر القديم في باكورة ذلك اليوم الذي حمل فيه زوجه إلى مدافن الرهبان ، ولكن وجهه كان اليوم أنحل ؛ ولم يكن أخطر أبويه بزورته فأنار وصوله جو دار القس كما يثير الطائر الذي ينغمس في المساء في طلب السمك بركة هادئة ، وكان أبوه وأمه في حجرة الجلوس ولم يكن أخواه هناك ، ودخل لينجل وأقفل الباب من خلفه في سكون وصاحت أمه : « ولكن أين زوجك يا بني ؟ ما أشد متفاجئنا ! » قال : « هي في منزل أمها مؤقتا ، وقد جئت على عجل إذ أتوى الرحيل إلى البرازيل » قالت : « البرازيل ! إن جميع سكانها كاثوليك رومانيون ! » قال : « أحقا ؟ لم أفكر في ذلك » .

على أن مفاجأة الفكرة وتآلم أبويه لرغبته في الذهاب إلى بلد بابوى ، لم يحولا ذهنهما طويلا عن اهتمامهما الطبيعي بزواج ابنهما ، قالت مسز كلير : « لقد وصلتنا رقتك الموجزة منذ ثلاثة أسابيع نخطرنا بإتمام الزواج ، فأرسل إليك أبوك منحة جدتك التي تعلمها ، وبدهى أن حضور أى منا كان غير مرغوب فيه ، لاسيما وقد اخترت أن تزوجها من الضيعة لا من بيت آلها حيثما كان ذلك البيت ، فإن حضورنا كان يجرئك ولا يسرنا ، وقد تأثر أخواك أشد التأثر ، أما الآن وقد قضى الأمر فما بنا أن نشككي لاسيما وهى ملائمة لك فى العمل الذى اخترته وآثرته على خدمة الإنجيل . . على أنى وددت لو رأيته قبل ذلك يا إينجل أو كنت بأمرها أدرى ، فإذا كنا لم نرسل إليها هدية من قبلنا فذاك لأننا لا نعرف أى الأشياء أحب إليها ، ولكن يجب أن تتأكد أنه مجرد تأخير . وثق يا إينجل أنى أنا وأباك لا ننقم عليك ذلك الزواج ، ولكننا آثرنا أن نستبقى حبنا لزوجك حتى نراها ، وها أنت ذالم تستصحبها وهذا غريب فإذا حدث ؟ » .

أجاب أنها قد آتت أن تذهب هى إلى بيت أهلها مؤقتا ويأتى هو إلى هنا ، قال : « ولا أرى ضيرا يا أم أن أخبرك أنى كنت أنوى دائما أن أبقيا بنجوة عن هذه الدار حتى أشعر أن مجيئها يشرفكما ، أما فكرة البرازيل فحديثه ، وإذا قدر أن ذهبت فلن يكون من الحكمة مرافقتها لى ، بل يستحسن أن تبقى مع ذويها حتى أعود » قالت : « أفلا أراها قبل رحيلك ؟ » فأجاب أنه يأسف إذ يظن ذلك متمذرا ، فقد كانت خطته الأولى كما قال أن يمتنع عن إحضارها إلى هناك زمنا ، كيلا يصادم آراءها وشعورها ، وقد اتبع تلك الخطة لأسباب أخرى ، وإذا هو رحل إلى البرازيل توا فيستطيع العودة إلى الوطن فى بحر عام ، وعندها يستطيعان أن يريها قبل أن يماود الرحلة مستصحبيا إياها .

وجهم له عشاء على عجل ، وزاد مشروعه شرحا ، وإن لم تفارق أمه خيبة الأمل التى ساورتها لعدم رؤية العروس ، فقد كان شغف إينجل بتس قد أثار شغف أمه بها عن طريق عطفها الأموى ، حتى انتهت إلى الاعتقاد بأن من

الممكن أن تنجب نازار ، وأن تخرج ضيمة تلبويز امرأة فاتنة ، قالت وهي تراقب ابنها في تناوله طعامه : « ألا تستطيع وصفها ، أنا واثقة يا إينجل أنها جميلة جدا » فأجاب في حماسة تحجب وراءها حرارة : « بدون ريب » قالت : « وهل هي بدون ريب طاهرة فاضلة ؟ » ، قال : « طاهرة فاضلة طبعاً » ، قالت : « إنى أمثلها جلياً . لقد قلت منذ حين إن قوامها رشيق وبنيتها منسجمة ، وإن لها شفتين قانيتين كقوس كوبيد ، وأهداباً وحاجبين سوداء ، وغديرة كثة كبل السفين ، وعينين داكنتين تجمعان بين البنفسج والزرقة والسواد » .

قال : « أجل يا أم » ، قالت : « أمثلها جلياً ، وإذا كانت تحيا في تلك المزة لمر شابا آتيا من العالم الخارجى حتى رأئك » قال : « هو ذاك » قالت : « أنت حبيبها الأول ؟ » ، قال : « طبعاً » قالت : « هؤلاء الفلاحات الساذجات ذوات الثغور الوردية والأعواد المشوقة خير زوجات من سواهن ، لا شك أنى كنت أود . . . طبعاً مادام ابني سيصير مزارعاً فمن الخير أن تكون زوجه متعودة حياة الحقول » .

أما أبوه فكان أقل تساؤلاً ، وحين حل وقت قراءة ذلك الفصل من الإنجيل الذى كان يقرأ دائماً قبل صلاة المساء قال القس لزوجته : « أرى أن الأفق ما دام إينجل قد جاء أن نقرأ الموعظة الحادية والثلاثين ، بدل الفصل الذى يحل دوره اليوم » ، فقالت : « بلا شك ، أقوال الملك لامويل » ، وكانت تعرف الإنجيل فصولاً وفقرات معرفة زوجها ، واستطردت : « لقد آثر والدك يا بني العزيز أن يتلو عابنا فصل المواعظ فى امتداح الزوج الفاضلة ، ولا حاجة إلى تذكيرنا بنسبة تلك الأوصاف إلى صاحبك ، فلتحطها العناية فى كل الأمور ! » واعترضت خلق إينجل غصة .

وأخذ حامل الكتاب المقدس من أحد الأركان إلى وسط المدفأة ، ودخلت الخادمان المجوزان ، وبدأ أبو إينجل يقرأ الفقرة الماثرة من الفصل سالف الذكر : منذ الذى يستطيع الاهتداء إلى امرأة فاضلة ؟ إن قدرها يفوق اليواقيت

تلك التي تنهض والليل ما يزال ساجيا ، وتجهز اللحم لآبناء دارها ، ولا تمنطق إلا بالقوة ، وبالقوة تشد ذراعيها ، وتحرص أن تكون أمتها في حالة جيدة ، ولا تنطق شتمها ليلا ، وتتمهد بيتها ولا تطعم خبز البطالة ، وينهض بنوها فيأركونها وكذلك يفعل بعلمها ومحمدها ، لقد كانت فتيات كثيرات فضليات ، ولكنك برزت الجميع .

ولما انتهت الصلاة قالت أمه : « لقد راعى انطباق ذلك الفصل الذي تلاه أبوك العزيز من بعض وجوهه على الفتاة التي اخترت : فقد كانت المرأة الكاملة كما ترى امرأة عاملة ، لا مكسالا ولا نبيلة النسب بل امرأة تعمل برأسها ويديها وقلبا لخير الآخرين ، فأبناؤها يستيقظون ليأركوها وكذلك يباركها زوجها وبني عليها ، ووددت لو رأيتهما مادامت طاهرة نقية ، فلا بد أنهما من التهذيب بحيث لا أرى غضاضة في مقابلتها » ؛ ولم يمد إنجل بطبق ذلك ، واغرورت عيناه بدموع كأنها قطرات رصاص مذاب ، فحيا زينك الطاهرين البرين اللذين يميزها كل الإعرزاز ، واللذين لا يعرفان الدنيا ولا شهوة الجسد ولا وسوسة الشيطان إلا معرفة مبهمة ، وانسحب إلى مخدعه على عجل .

وتبعته أمه ودقت بابه ، فلما فتح إذا هي واقفة بعينين تتجل فيهما الحيرة وقالت : « ما بالك تأوى مبكراً هكذا ؟ أراك على غير ما أعهد » ، قال : « إخالك محقة يا أم » ، قالت : « أأمرها هي يمينك ؟ لقد ظننت ذاك ! أتفاضلتما في تلك الأسابيع الثلاثة ؟ » قال : « لم تكن بيننا مفاضلة بل اختلاف بسيط » ، قالت : « إنجل : « أهي فتاة صغيرة موثوق بماضيها ؟ » وقد هدتها غريزة الأم إلى السبب الذي يحتمل أن يؤدي إلى ذلك النعم المتمثل في عيني ابنها ، ولكنه أجب : « هي مثال النقاء » ، وقد أصر على أن يفترى تلك الفرية ولو طوحت به إلى الجحيم ، قالت أمه : « إذن لا تجزع لشيء » ، وهيات أن يمر المرء على شيء أتق من عذاري القرى البعيدات عن كل رية ، وسوف يزول كل ما قد يقضى ذوقك المثقف من خشونة في طباعها ، تحت تأثير صحبتك وتهذيبك » .

أحس إينجل بما في هذا القول المصدر عن سمو نفس من سخرية فظيعة ، وإن تكن غير مقصودة ، وذكره ذلك بأنه قد حطم مستقبله بذلك الزواج ، ولم تكن هذه الفكرة قد تبادرت إلى ذهنه مع غيرها عقب مكاشفة تس إياه ، نعم إنه كان لا يزال كثيراً بمصيره ، ولكنه كان يجب أن يكون مصيره مشرفاً لو لديه وأخويه ، أما الآن وهو يحدق في الشمعة ، فقد خيل إليه أن شعلتها تحده في صمت أنها إنما صنعت لتضيء لقوم يفهمون ، وأنها تذكره أن تضيء وجه رجل خائب مغلوب على أمره ، ولما هدا أنفعال نفسه تملكه الحق على زوجه لتسيبها موقفاً يحمله على التقوية على والديه ، حنفاً يكاد يدفعه إلى مخاطبتها كأنها ماثلة أمامه في الحجرة ، حتى ينبعث في الظلام صوتها المتعجب المتوسل المتعجب ، وتغر على جبينه لمسة شفتيها السندسيتين ، وتكاد تلفح وجهه حرارة جها .

وكانت زوجه في تلك الليلة التي يوسعها فيها ذما وإزاء تسبح بحمده وتكبيره ، ولكن كان بينهما حجاب أكثف مما يظن إينجل نفسه ، وهو مقامزه الخلقية : فإن ذلك الشاب المثقف الطيب ، الذي كان مثالا لناشئة الأعوام الخمسة والعشرين السالفة ، كان رغم محاولته الاستقلال في الرأي في كل الأمور ، ما يزال عبداً للعادات والتقاليد ، حين فاجأه هذا الحادث فارتد به إلى التعاليم الأولى التي غرست فيه صغيراً ، ولم يكن نبي قد أخبره — ولا كان هو نبيا فيخبر نفسه — أن تلك الزوج خاصة لم تكن أقل استحقاقاً لثناء الملك مانويل ، من أي امرأة أخرى فطرت على ما فطرت عليه من مقت الرذيلة ، إذ يجب أن تقاس منزلتها من الفضيلة لا بما انتهت إليه بل بما تميل إليه ، هذا إلى أن القرية الدانية تبوء باللوم في مثل هذه الأحوال ، لأن نقصها يلوح للعين عارياً ، على حين تفوز البعيدات بالتمجيد ، إذ يحول البعد وصماتهن محاسن فنية ، وقد راح إينجل يتأمل فيما لم تكنه تس قط ، ناسياً ما كانته فعلا ، وناسياً أن الغلو في النظر إلى العيب ربما جعل العيب الجزئي يغطي على الكل .

## ٤٠

كانت البرازيل موضوع الحديث على مائدة الفطور ، وكان الجميع يحاولون أن يستبشروا خيراً بمشروع إنجيل في تلك الأرض ، رغم الأوصاف المثبطة التي عاد بها بعض الزراع الذين هاجروا إليها فلم يطمئنا البقاء بها أكثر من عام ، وبعد الفطور هبط إنجيل البلدة يصفى بعض أعماله هناك ، وليسحب من المصرف المحلي كل رصيده هناك ، وفي عودته قابل مس ميرسى تشانت واقفة بجانب الكنيسة كأنها جزء بارز من جدارها ، وكانت تحتضن حملاً من الأناجيل لتلميذاتها ، وكانت لتلك الفتاة نظرة إلى الحياة تجعلها تنقسم غبطة لبعض الأحداث التي تنفطر لها قلوب الآخرين ، وربما كانت جديرة أن تحمد على ذلك ، ولكن إنجيل كان يرى أن نظرتها تلك إلى الحياة كانت تضحي بالإنسانية على مذهب التصوف .

وكانت قد علمت أنه ينوى مفادرة انجلترا ، وأعربت عن إعجابها بالمشروع واستبشارها به ، قال : « نعم ، هو مشروع جلي الزايا الاقتصادية ، ولكنه يا عزيزتي ميرسى يجذ الحياة جذاً ، ولعل الحياة في صومعة خير لي منه » ، قالت : « صومعة ! إنجيل كبير ! » قال : « ماذا ؟ » قالت : « إن لفظة الصومعة توحى إلى الدهن لفظة الراهب ، والراهب يذكر بالكاثوليكية الرومانية » ، قال : « والكاثوليكية الرومانية توحى بالخطيئة ، والخطيئة توحى باللعنة ، إنك لفي مرتع وخيم يا إنجيل كبير ! » فأجابت في صرامة : « أما أنا فأفخر بروتستانتيتي » ، وعندها تملك إنجيل — لشدة ما كان يقاسى من آلام — إحدى تلك النزعات الشيطانية التي يسيء فيها المرء بنفسه إلى تعاليمه ، فجنبها وهمس في أذنها بأخبث ما أوحاه إليه الشيطان من آراء معطلة ، ولم يكف عن القهقهة حيال أمارات الجزع التي بدت على وجهها الفضى ، حتى تحول ذلك الجزع إلى تألم له وإشفاق على مصيره ، قال : « معذرة يا عزيزتي ميرسى ، يخيل إلى أنى أجبن » .

وكذلك كان يخيل إليها ؛ وهكذا انتهت المقابلة ودخل كلير دار أبيه ، وكان قد أودع المصرف المحلى الجواهر حتى يجيء زمان أسعد ، وأودع المصرف أيضاً ثلاثين جنياً ترسل إلى تس بعد شهر حسب حاجتها ، وكتب إليها بعنوان والديها فى بلاكمور يخبرها بما فعل ، وكان يؤمل أن يكفى هذا المبلغ — مضافاً إلى المبلغ الذى نقدها وكان يناهز الخمسين جنياً — لحاجتها فى الوقت الحاضر ، لاسيما وقد طلب إليها إذا عنت حاجة حازبة أن تكتب إلى أبيه ، وقد آثر ألا يخبر أبويه بعنوانها لثلاثيها ، وإذ كانا على جهل بالسبب الحقيقى الذى أوقع الجفوة بين الزوجين ، لم يقترح أحدهما عليه أن يترك عنوانها لديهما ، وغادرها فى بحر النهار يريد أن ينجز على عجل ما بقى من أعماله .

ورأى أن أول واجب يجب أن يؤديه قبل مفادرة هذا الجانب من انجلترا ، أن يزور ضيعة ولبردج حيث قضى مع تس الأيام الثلاثة التالية لزواجهما ، وكان لم يدفع بعد إيجارها الضئيلة ولم يسلم مفاتيح الحجرات التى شغلها ، وكانا قد تركا هناك أشياء قليلة فأراد إحضارها ؛ لقد شهدت تلك الدار وقوع أكبر كارثة نشرت ظلها الحالك على حياته ، ولكنه ما كاد يفتح باب حجرة الجلوس وينظر فيها حتى كانت أول ذكرى عاودته ، ذكرى وصولهما السعيد فى عصر يوم كيومه هذا ، وذكرى الشعور اللذيذ بالتشارك لأول مرة فى المسكن ، وذكرى أول أكلة مشتركة ، وحديثهما بجانب النار ويداهما متشابكتان .

وكان صاحب الضيعة وأبناءؤه ساعة وصول إينجل فى الحقول ، فظل فى الحجرات وحده حيناً ، وقد ثارت فى نفسه عواطف لم يستجلبها بعد ، وصعد إلى الطابق العلوى ، إلى مخدعها الذى لم يصبح قط مخدعه ، وكان الفراش ممهّداً كما رتبته بيديها يوم الرحيل ، وغصن الميسلتو معلقاً تحت السكّة كما علقه بيده ، وكان بعد تلك الأسابيع الثلاثة أو الأربعة قد بدأ يحول لونه وتذبل أوراقه وجيوبه ، فانتزع إينجل وسحقه ورماه فى موضع النار ، ووقف برهة وساءل نفسه لأول مرة إن كان قد سلك فى ذلك الأمر كله مسلوكاً حكماً بله كريماً ، ولكن ألم

يَمَوَّةٌ عليه؟ ثم جثا بجوار الفراش مبتل الجفون ، ونفسه تجيش بمتضارب  
المواطف ، وغمغم في مضض : « تس ! لو أنك أخبرتنى قبل ذلك لغفرت لك ! »  
وسمع وقع خطى في أسفل فنهض ومشى إلى رأس السلم ، فإذا في أسفل  
امرأة لم تكد ترفع رأسها حتى تبين وجه (إزهيوت) السوداء العينين ، قالت :  
« مستر كلير : لقد جئت أزورك أنت ومسر كلير ، وأستفهم إن كنتما بخير ،  
وقد حدثت أنكما تعودان إلى هذا المكان » ؛ تلك كانت فتاة قد عرف سرها ولم  
تعرف سره ، فتاة شريفة تحبه ، كان في استطاعتها أن تماثل تس أو تقاربها نفعاً  
له في حياة الفلاحة ، قال : « أنا هنا وحدي ، فنحن لا نعيش هنا الآن » ،  
وأخبرها بسبب مجيئه ثم قال : « أى طريق تسلكين في عودتك ؟ » قالت : « لست  
أقيم في تلبويز الآن يا سيدي » ، قال : « ولم ؟ » فأطردت وقالت : « هجرت  
ذلك المكان بعد أن لم أطق كآبته ، والآن أقيم على كשב من هذا المكان » ،  
وأشارت إلى اتجاه مضاد ، وهو الاتجاه الذى سيأخذه في عودته .

قال : « فهل أنت عائدة الآن ؟ يمكننى أن أحملك إن كنت تريدن الركوب »  
فتوددت بشرتها الزيتونية وقالت : « شكرآ يا مستر كلير » ، وسرعان ما اهتدى  
إلى صاحب الدار وسوى معه أمر الإيجار ، وغيره من الشروط التى وجبت تسويتها  
بسبب مفادته المسكن قبل اليماد المحدد ، وعاد إلى عربته وقفزت إيز بجانبه  
وانطلقا ، وقال لها : « سوف أغادر إنجلترا يا إيز وأذهب إلى البرازيل » ، قالت :  
« وهل توافق مسر كلير على مثل هذه الرحلة ؟ » قال : « لن تذهب معى في الوقت  
الحاضر ، بل تتخلف نحو عام وأذهب أنا أولاً للاستطلاع وتعرف الحياة هناك » .  
وواصلت العربة عدوها بهما شرقاً مسافة ، دون أن تعقب إيز بكلمة ، حتى  
سألها : « وكيف حال الأخريات ؟ كيف رتى ؟ » قالت : « لقد كانت في حالة  
عصبية حين قابلتها للمرة الأخيرة ، نحيلة غائرة الخدين مهيضة القوى ، وهيأت  
أن يصبو إليها أحد بعد اليوم » ، قالت ذلك في شبه غيبوبة ، وقال كلير :  
« وماريان ؟ » خفضت صوتها قائلة : « ماريان تدمن الشراب » ، قال : « أحقا ؟ »



قالت : « أجل ، وقد طردها صاحب الضيعة » ، قال : « وأنت ؟ » قالت : « أنا لا أشرب ، ولا قواى بالمهضة ، ولكن لم أعد أحسن الغناء قبل الفطور » ، قال : « كيف ؟ ألا تدكرين كيف كنت تبيدين هذا الصوت : (قد كان ذلك فى جنات كيوييد) ، وصوت : (سراويلات الخياط) إذ تنشدينهما ساعة حلب الصباح ؟ » قالت : « بلى ، لقد كان ذلك أول قدمك يا سيدى ، لا بعد إقامتك هناك زمناً » ، قال : « فلم نبذت الغناء بعد ذلك ؟ »

فأجابت بأن رفعت إليه عينها السوداءين لحظة ، قال : « إيز ! ما أضعفك ! أثلث نصيبين ؟ » وغاب فى تأمله ثم عاد يقول : « ولنفرض أنى سألتك الزواج ؟ » قالت : « إذا كنت أحببك إليه وكنت تتزوج امرأة تحبك ! » قال : « أحقا ؟ » قالت : « بلا ريب » : قالتها فى حماسة واستطردت : « ألم يخطر لك ذلك قبل اليوم ؟ » وبعد قليل بلغنا طريقاً منشعباً من الطريق العام يؤدى إلى قرية فقالت فجأة : « ينبغى أن أترجل هنا ، فإنى أسكن فى هذه الناحية » ، ولم تكن قد تكلمت منذ صارحته بما صارحته ، فكفكف كلير الحصان وقد بلغ منه الحنق على عثار جده ، وتعلكته النعمة على الأوضاع الاجتماعية التى أقصمته مقعها لا يرى لنفسه منه مخرجاً مشروعا ، فلم لا يثار من المجتمع بأن يخطط لنفسه حياة زوجية إباحية ، بدل أن يقبل كف التقاليد التى خدعته تلك الخدعة ؟

قال : « إيز : أنا ذاهب إلى البرازيل وحدى ، وقد اختلفت مع زوجى لأسباب شخصية ، لا بسبب الرحلة ، وقد لا أعاشرها بعد اليوم ، وربما لم أستطع أن أحبك ، ولكن هل لك فى المجئ مئى بدلا عنها ؟ » قالت : « أتريدنى حقا أن أجيئ ؟ » قال : « نعم ، وقد قاسيت من التحيف ما يدفعنى إلى طلب العزاء ، وأنت على الأقل تحملين لى حبا مبرءآ » ، فصمتت برهة ثم قالت : « نعم ، أجيئ » ، قال : « تفعلين ؟ أتدريين مغزى ذلك ؟ » قالت : « مغزاه أن أعاشرك ما أقمت هناك ، وفى هذا كفاية لى » ، قال : « تذكرى أنك لن تستطيعي الآن الاعتماد على مكارم أخلاقى ، وينبغى على أن أذكرك أن المدينة ستعد هذا بغيًا ، أعنى مدينة

الغرب » ، قالت : « لا أبالي هذا ولا تباليه امرأة برح بها الوجد ولم تجد حولاً »  
قال : « لا تترجلى إذن وابقى مكانك » .

وواصل طريقه بعد ملتقى الطرق قاطعاً ميلاً فيلاً دون أن يظهر بمظهر ودى ،  
ثم سألها فجأة : « أحببيني جداً يا إيز ؟ » قالت : « نعم ، وقد أخبرتك بذلك  
وقد أحببتك طول مقامنا بالضيعة » ، قال : « أكثر من تس ؟ » فهزت رأسها  
وغغممت : « لا ، لن يعلو حبي على حبها » ، قال : « كيف ؟ » قالت : « لن  
يستطيع أحد أن يحبك فوق حب تس إياك ، فقد كانت لا تتردد في تضحية  
نفسها في سبيلك ، ولن أستطيع أن أفعل شيئاً يفوق ذلك » ، ولربما ودت إيز في  
موقفها ذاك لو نكبت عن قول الصدق كما فعل نبي اليهود على رأس بيثور ،  
ولكن افتتان طبعها الساذج بنفس تس المهذبة أجبرها على أن تشهد بالفضل .

وصمت كبير وقد خفق قلبه لدى سماع تلك الكلمات الصريحة من حكم زيه ،  
واعترض حلقه معترض كأنه زفرة تحجرت ، وتردد في أذنيه قولها : « كانت  
لا تتردد في أن تضحي بنفسها في سبيلك ، ولن أستطيع أن أفعل شيئاً يفوق  
ذلك » ؛ وأخيراً حول عنان الحصان وقال : « إنسي ما كان بيننا من هراء ، فإنني  
لم أدر ما كنت أهرف به ، وأنا عائد بك إلى رأس الطريق المؤدية إلى قريتك » ،  
قالت : « أهذا جزاء صراحتي في جوابك ؟ كيف أحتمل هذا ؟ كيف ؟ »  
وانخرطت باكية لا طمة جبينها إذ تبينت سوء ما صنعت ، قال : « أنتدمين على  
إنصاف ضئيل جدت به على امرأة غائبة ؟ لا تفسديه يا إيز بالندم ! » واستعادت  
جأشها رويداً رويداً ، قالت : « حسن يا سيدي ، لعل أنا أيضاً لم أك أدري ما  
أهرف به حين وافقت على الذهاب ، وإني لأود . . . مالا سبيل إليه ! » قال :  
« لأن لي زوجاً محبة دونك ! » قالت : « نعم ، نعم » .

وبلغا منشعب الطريق الذي جاوزاه منذ نصف ساعة ، وقفزت هابطة وصاح  
بها : « إيز ! ناشدتك إلا ما تناسيت فجورى المارض ! ما كان أسفه وأقبحه ! »  
قالت : « أتناساه ؟ هيئات هيئات ! لم يكن ذلك فجوراً في نظري ! » ، وشعر

كلير بشدة استحقاقه لما كانت صيحتها المتفجعة تحمل في طياتها من تقريع ، ووثب هابطا ، والحزن ينهب نفسه وأخذ يدها قائلا : « إيز ! لنفترق صديقين على كل حال ! أنت لا تعلمين مقدار ما قاسيت ! » ، وكانت في الحق فتاة كريمة الطبع ، فلم تفسد وداعهما بالإصرار على التماذى في السخط ، قالت : « أنا غافرة لك يا سيدى » .

قال وهو واقف بجانبها يحمل نفسه قسراً على ارتداء مسوح الناصح المشير ، وإن لم يشعر في صميم نفسه بذلك قط : « والآآن أريدك يا إيز أن تنصحى ماريان متى رأيتهما أن تستقيم ولا تنقاد للحاقة ، عدينى بذلك ، وأخبرى رنى أن فى الدنيا رجلا هم أفضل منى ، وأن عليها إن أرادت إرضائى أن تسلك مسلك الحكمة والسداد ، تذكرى ذلك جيداً : فلتسلك مسلك الحكمة والسداد إرضاءً لى ، إنى أبعث إليها بهذه الرسالة كما يبعث رجل هالك إلى هلكى ، فإنى لن أراها بعد اليوم ، وأنت يا إيز : لقد أنقذتنى — بكلماتك الزهية عن زوجى — من زعة طائشة نحو الحق والخيانة ، وربما رأيت من النساء فاجرات ولكنهن لا يبارين الرجال فجوراً فى هذا الباب ! ولن أنسى لك هذا الصنيع أبداً ، وتابى حياة النقاء والنزاهة التى حيثها حتى اليوم ، واذكرينى حبيباً لا خير فيه ، ولكن صديقاً يعتمد عليه » .

فوعدت قائلة : « رعاك الإله وباركك يا سيدى ، وداعا » ، وانطلق ، ولكن لم تكدر إيز تمنطف فى الطريق ويغيب عن بصرها ، حتى ارتمت على قارعة الطريق فى نوبة من الألم تمزق أحشاءها ، وفى مساء ذلك اليوم دخلت منزل أمها بوجه شاحب هزيل فى ساعة متأخرة ، ولم يدر أحد قط كيف قضت إيز تلك الساعات السوداء بين انصراف إينجل كلير ووصولها إلى دار أمها ؛ أما كلير فكان الحزن بعد ذهابها ينهب نفسه ويرعد شفثيه ، ولكنه لم يكن حزناً على إيز ، ولم يكن بينه إلا قيد شعرة وبين تحويل اتجاهه إلى أقرب محطة ، واجتياز ذلك الفقار العظمى الممتد فى ظهر وسكس الجنوبية ، والذى يفصل بينه وبين موطن صاحبه

تس ، ولم يصدده عن ذلك احتقار لعلبها ولا ظنه بما كانت يحالها إذ ذاك من شعور .

إنما صده شعوره بأن الحقائق لم تتغير ، رغم أكيد حبها الذي أكدته اعتراف إيز ، وإذا كان على حق في بادئ الأمر ، فما يزال على حق ، وكان السبيل الذي اختاره من الخطورة بحيث كان مدفوعا إلى الاستطراد فيه إلا أن تحوله قوة أعظم وأطول أمداً من تلك القوة التي أثرت في شعوره في ذلك اليوم ، وحدث نفسه بأنه مستطيع متى شاء أن يؤوب إليها سريعا ، واستقل القطار تلك الليلة إلى لندن ، وبعد خمسة أيام صافح أخويه مصافحة الوداع على ميناء الإبحار .

٤١

فلندع حوادث الشتاء سالفة الذكر ، إلى يوم من أيام أكتوبر ، بعد افتراق  
كثير عن تس بزهاء ثمانية أشهر ، فإذا الأخيرة في ظروف جديدة : نراها بدل  
أن تكون عروساً مثقلة بالصناديق والحقائب يحملها لها الجمالون ، امرأة شريفة  
ذات سلة وميثرة تحملهما بنفسها ، كما رأيناها من قبل حين لم تكن عروساً بعد ،  
ونراها بدل أن تتمتع بالدخل المعتدل الذى تبرع به زوجها لراحته خلال فترة  
محنها ، لا تملك إلا كيس نقود هزيل .

وكانت بعد أن غادرت مسقط رأسها مارلت مرة أخرى ، قد قضت الربيع  
والصيف دون أن يجهد بدنها كثيراً ، إذ كانت معظم ذلك الوقت تخدم خدمة  
خفيفة غير منتظمة في ضيعة ألبان قرب (پورت بريدى) غربى وادى بلاكور ،  
على بعد من موطنها ومن تلبويز جيماً ، وكانت تفضل ذلك على العيش ممارتب  
لها ، وقد ظل فكرها فى أسن تام ، وزادها ذلك العمل الرتيب الآلى أسنا ،  
وكان كل تفكيرها متجهاً إلى تلك الضيعة الأخرى وذلك الفصل الآخر ، فى  
صحبة ذلك المحب المرامى الذى عرفته هناك ، ذاك الذى لم تكذب تضع يدها عليه  
للاستئثار به ، حتى غاب كأنه طيف فى رؤيا .

ولم يستمر العمل فى الضيعة إلا ريثما بدأ اللبن يشح ، فإنها لم تكن قد وفقت  
إلى عمل دائم كما فعلت فى تلبويز ، بل كانت إنما تؤدي أعمالاً إضافية ، على أن فصل  
الحصاد كان قد بدأ ، فلم يكن عليها إلا أن تنتقل من المرج إلى الحقل لتجد مجالا  
جديداً للعمل إلى آخر الفصل ، ولم تكن قد صرفت بعد إلا القليل من الجنيهات  
الخمسة والعشرين التى بقيت معها من هبة كبير ، بعد أن أعطت النصف الآخر  
لقومها تمويضاً عما ألحقت بهم من مهانة وكبتهم من نفقة ؛ ولكن الأمطار  
هطلت أياما اضطرت أثناءها إلى الإنفاق من جنيهاً ، وكانت تكره أن تدعها

تذهب وهي التي وضعها إينجل في يدها ، بعد أن أتى بها جديدة براقعة من المصرف لأجلها خاصة ، وكانت تحس أن لسه تلك الجنيئات قد أحلها إلى تذكارا منه وكأن تلك الجنيئات لم يكن لها ماض سوى تداولها بين إينجل وبينها ، وكانت تحس أن إنفاقها أشبه بالتفريط في التحف ، ولكنها اضطرت إلى صرفها وخرجت الدنانير من يدها واحداً فواحداً .

وكانت بالضرورة ترسل عنوانها إلى أمها من وقت إلى آخر ، ولكنها كتمت عنها ضيق ذات يدها ، حتى أنها كتبت من أمها وقد أوشكت صباة مالها أن تنفذ تخبرها بأنهم في عسر شديد ، وأن أمطار الخريف قد نفذت من قش السقف الذي كان في أمس حاجة إلى الترميم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ترميمه لأنهم لم يدفعوا ثمن تسقيف الدار من قبل ، وأنهم في حاجة إلى إصلاح السقف الأعلى وجوانبه المنحدرة ، وتبلغ نفقات كل ذلك عشرين جنيهاً ، وتسألها أمها أن تستطيع أن تقدم بذلك المبلغ ، حيث أن زوجها موسر ولا بد أنه قد عاد ؛ وكانت تس رقب وصول ثلاثين جنيهاً من مصرف إينجل ، فلم تكذب تسألها حتى أرسلت العشرين المطلوبة ، إذ تجلى لها سوء حالة أهلها ، وأنفقت بعض ما بقي بيدها في شراء ثياب للشتاء ، ولم تستبق إلا قدراً لا يذكر تدخره لفصل البرد المقبل .

ولما أفلت من يدها آخر جنيته تذكرت قول إينجل إن لها أن تلجأ إلى أبيه إذا احتاجت إلى مزيد ، ولكنها كانت كلما فكرت في تلك الخطوة كلما زادت إحجاماً عنها ، وأبت لها رقة شعورها أو كبرياؤها أو خجلها الأحمق أو سمه ماشئت أن تبوح لأبوي كليبر بحاجتها إلى المال بعد ما ترك لها زوجها من مال وفير ، كما أبي لها خجلها وكبرياؤها من قبل أن تكشف أبويها باتصال الجفوة بينها وبين زوجها وكانت ترجح أن أبوي كليبر يحتقرانها من بادي الأمر ، فكيف بها إذا أتتهما مستجدية ؟ ومن ثم لم تستغ قط أن تكشف القس بحللتها .

وحديثها نفسها بأن نفورها من مراسلة والدي زوجها ربما تناقص بمرور الزمن ، أما نفورها من مراسلة والديها فلم يزد إلا شدة ، وكان والداها يوم

غادرت بيتها بعد زيارتها القصيرة عقب زواجها يتوهان أنها ذاهبة للحاق بزوجها ولم تكن منذ ذلك الوقت قد حاولت زعزعة اعتقادها بأنها تنتظر في أتم راحة يوم عودته ، وكانت تتعلق بالأمانى راجية ألا تطول زيارته للبرازيل ثم يعود لاستلحاقها أو أن يكتب إليها أن تلحق به ، وبالجملة كانت ترجو أن يظهرها عما قريب متحدى الشمل أمام أمرتيهما وأمام العالم ، كانت تنشب بذلك الأمل وتستكثر على نفسها أن تصارح أبويها بأنها — وقد كشفت غمتهما — تعيش زوجاً مهجورة تقتات من كد يديها ، بعد خيبة ذلك الزواج الذى قدراً له أن يحو أثر العثرة الأولى ؛ وتذكرت الجواهر ، ولم تكن تعلم أين أودعها كليز ، ولم يكن يهمها أن تعلم ما دامت لا تملك حق بيعها ، وحتى لو كانت تملكها مطلق الملكية ، كانت تأنف أن تستغل امتلاكها إياها امتلاكاً قانونياً ، على حين لم تكن تلك الجواهر فى حقيقة الأمر جواهرها .

ولم يكن زوجها فى نفس الوقت بنجوة من عنت الخطوب : وإنما كان طريق الفراش يقاسى آلام الحمى فى تلك الأراضى الطمسية قرب ( كوريتيبا ) فى البرازيل بعد أن نال منه البلل فى بعض الزوابع المرعدة ، وامتحنته مشاق أخرى ، وكان شأنه فى ذلك شأن جميع الفلاحين والعمال الإنجليز ، الذين استدرجهم فى ذلك العهد وعود حكومة البرازيل ، وغرر بهم القول الكاذب بأن تلك الأجسام التى مارست الحرث والزرع على مرتفعات انجلترا ، متجلة لتقلبات الجو الذى ولدت فيه ، تستطيع أن تقاوم بنفس الجلد كل ما تفاجئها به سهول البرازيل من جواء . ولنعد إلى تس : فإنها حين أنفقت آخر جنياتها لم يمددها أحد بغيرها ، وكان من المسير أن تحصل على عمل فى ذلك الفصل المطير ، وأحجمت عن طلب عمل منزلى لجهلها بندرة الذكاء والنشاط والصحة والرغبة فى العمل فى أى فرع من فروع الحياة ، ولرهبته المدن والبيوتات الكبيرة وذوى اليسار وآداب العلية وعادات غير بنى الأرياف ، فقد حاق بها بلاؤها الأسود من جانب أولئك العلية ؛ وربما كان المجتمع خيراً مما علمتها تجربتها المحدودة ، ولكن لم يكن لديها على ذلك

( ١٩ — تس )

برهان ، وكانت غريزتها في تلك الظروف تدفعها إلى تحاشي تلك المخاطر .  
واستغنت عنها الصياع الصغار فيما وراء (بورت بريدى) ، التي عملت فيها  
حالة إضافية ، وكان الأرجح أن يقبلها صاحب ضيعة تلبويز شفقة بها إن لم تكن  
به حاجة إليها ، ولكنها لم تكن تطيق العودة إليها رغم ارتياحها مدة إقامتها بها ،  
إذ لم يكن بها جلد على تحمل الفرق الهائل بين العهدين ، كما أن عودتها ربما جرت  
على زوجها ملامة اللائمين ، هذا إلى أنها لم تكن لتطيق رثاء الآخرين لها وهما مسهم  
بشأن حالتها الشاذة ، وإن لم يههما كثيرا أن يعلم بقصتها كل فرد هناك على حدة ،  
مادامت تلك القصة تبقى منعزلة في كل ذهن بمفرده ، أما تبادل الأحاديث في شأنها  
فكان يعضها مضضا شديدا ، وكانت تس لا تعرف تعليلا لتفريقها ذاك بين الأمرين  
إنما كانت تعلم أنها تفرق بينهما وكفى .

وكانت الآن في طريقها إلى مزرعة فوق مرتفع من الأرض وسط الإقليم ،  
زكمت لها ماريان في كتاب شروود جاءها منها ، وكانت ماريان قد علمت بطريق ما  
أن تس انفصلت عن زوجها ، ولعل إيزهيويت هي التي أخبرتها ، فلم تتوان الفتاة  
الطيبة في إخبارها أنها هي نفسها كانت قد ذهبت إلى ذلك المرتفع بعد مفارقتها  
تلبويز ، وأنها تود رؤيتها هناك حيث يحتاج العمل إلى أيد جديدة ، إذا كان صحيحا  
أنها عادت إلى العمل .

ولما تقاصر طول الأيام بدأ أمل تس في صفح زوجها يزايها ، وراحت  
تضرب في الأرض كأنها وحش هائم على غير هدى ، كلما تقدمت خطوة تقلصت  
علاقتها بماضيها الحافل وطعمت شخصيتها ، لاتبالي أن يعرض من الحوادث  
والصدف ما يكشف عن مقرها لمن يههما أمرهم من أجل سعادتها ، وإن لم تههم  
هي في سعادتهم ، وكان من أكبر الصعوبات التي تعترضها في موقفها ذاك ما يثيره  
حضورها من انتباه ، لما يرسم عليها من هيئة امتياز اقتبسها من كليل وأضاقها  
إلى جاذيتها الطبيعية ، ولم تكن نظرات الاهتمام تلك تكرمها طالما بقيت عليها  
ثياب الزفاف ، حتى اضطرت إلى استبدال شملة العاملة بتلك الثياب ، فسمعت



مراراً قبيح الخطاب ، ولكن لم يحدث ما يخيفها على نفسها حتى كان عصر أحد أيام نوفمبر .

كانت قد آثرت الإقليم الممتد غربى نهر (بريت) على المرتفع الذى هى شاخصة إليه الآن لأنه كان أقرب إلى مسكن أبى زوجها ، وكان يسرها أن تحوم حول ذلك الحلى غير معروفة ، وفى نفسها أنها ربما زارت مسكن القس يوما ، أما الآن وقد عولت على أن تبقي المرتفعات الجافة ، فقد ارتدت شرقاً سيراً على قدميها صوب قرية (تشوك نيوتن) ، حيث كانت تعترم قضاء الليلة ، وكانت الطريق طويلة متشابهة ، ولسرعة تقاصر الأيام دهها المساء من حيث لا تشعر ، وقد بلغت قلة تل تنحدر عنه الطريق متعرجة كالثعبان لأشحاً منها لمحات على بعد ، وإذا هى تسمع خطى على أثرها ثم لحق بها رجل حازها وقال : « عمى مساء يا حسناًى » ، فأجابته فى أدب .

وكان الضوء التخلف فى السماء يثير وجهها وإن غشى الظلام وجه الأرض ، والتفت الرجل يحدق فيها ثم قال : « يا لله ! هذه هى الساحرة الصغيرة التى كانت تقيم زمناً فى ترترديج ، هذه صاحبة الشاب النبيل دربرفيل ، لقد كنت مقبلاً هناك إذ ذاك ، وإن كنت لا أقيم هناك اليوم » ، وعرفت فيه تس ذلك الجلف البادى اليسار الذى صرعه إينجل يباب النزل لتوقعه عليها ، ولم تجب فعاد يقول : « كوفى صريحة وأقرى أن ماقلته فى ذلك اليوم كان صدقاً وإن أثار ثائرة صاحبك ، تكلمى أيتها الخبيثة ، واعتذرى لى عن تلك اللطمة التى نالتى بها » ، ولزمت تس صمتها ، ولم تر لنفسها المطاردة إلا مهرباً واحداً فأطلقت ساقها للريح فجاء ، ومضت لا تلوى حتى بلغت بوابة تؤدى إلى أجمة فاندفعت فيها بلا تردد ، ولم تتوقف حتى تغلغت فى سوادها ، فصارت بمأمن من الناظرين .

وكانت الأوراق جافة تحت قدميها ، وكانت شجيرات دأمة الاخضرار نامية خلال الأشجار التى سقطت أوراقها ، فحجبت عنها تيار الهواء ، وجمعت تس الأوراق حتى جعلتها كوما كبيراً فى وسطه عش قبعته فيه ، ونامت غراراً ،

وكان يخيل إليها أنها تسمع أصواتا غريبة ، ولكنها كانت تقنع نفسها بأنها خفيف النسيم ، وتصورت زوجها في إقليم حار على الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، بينما هي هنا في القر ، وتساءلت أفي الدنيا بائسة مثلها ! وتأملت حياتها المضيعة ، ففهممت : « كل ذلك غرور » . وظلت تردد تلك الكلمات ترديدا آليا حتى بدا لها أن تلك الفكرة التي تعبر عنها الكلمات الثلاث لم تعد تصلح للعصر الحديث ، فإذا كان سليمان قد ارتأى ذلك منذ أئني عام ، فإنها هي وإن لم تكن في مصاف المفكرين قد ذهبت أبعد من مذهبه ، فلو كان كل شيء غرورا فأنذا الذي كان يحفل به ؟ إن كل شيء للأسف شر من الغرور ، هو ظلم وصرامة وإرهاق وموت . وأمرت زوج اينجل كليد يدها على جبينها متحسسة عرج حاجبها وجانبى محجرها بغشيمها جلدها الناعم وعن لها وهي تفعل ذلك أن تلك العظمة ستعمرى يوما ما ، وقالت : « وددت لو أنها الساعة عارية ! » ، وبينما هي في هذه الأوهام المشردة سمعت صوتا غريبا في الأوراق ، فقالت : « لعلها الريح » ولكن الريح كانت ساكنة ، وكانت الصوت يخفق حيننا وحيننا يرفرف وأنا يحكي اللهث أو الحشرة ، وسرعان ما أيقنت أن الأصوات آتية من بعض الحيوان ، وازداد يقينها حين أعقب انبعاث الأصوات من الأغصان سقوط جسم ثقيل على الأرض ولو كانت تس آوية إلى ذلك المكان وادعة مسرورة لمرأها الخوف ، ولكنها في حالتها تلك المنبوذة من الإنسانية لم ترع .

وأخيرا لاح الصباح في السماء ، وبعد أن ساد النهار خارج الغابة برهة دخل الغابة ذاتها ، ولما سطع الضوء عائدا بالطمأنينة مؤذنا بالعمل ، داعيا إلى حقائق الحياة المتحجرة ، خرجت تس من فراش الأوراق ، وأجالت طرفها فيما حولها في اطمئنان ، وعندها عرفت حقيقة ما سمعت : فقد كانت الأجمة تتضاءل في ذلك الطرف وتبلغ نهايتها ، وتليها من تلك الجهة أراض زراعية ، ورأت تس تحت الأشجار عدد من الدراج مخضبا ريشها الزاهى بدمائها ، وبعضها ميت وبعض يخفق بجناحه خفقا ضعيفا ، وبعضها مشدودة الأطراف إلى السماء ، وبعضها يرف

رفيفا متداركا ، وبعض متقلص الجسم وغيرها ممد ، وكلها تنزى ألسا عدا تلك التي استراحت بانتهاء آلامها ، حين بلغت الطبيعة غاية ما تحتمل .

وحسنت تس توا ما وراء ذلك ، وأدركت أن تلك الطيور قد ألجأها إلى ذلك الركن جمع من الصيادين في اليوم السابق ، وجميع منها ما أصاب الرصاص وما مات قبل هبوط الظلام ، على حين أفلتت أخرى مثخنة بالجراح ، واختفت أو تحاملت إلى الغصون الكثيفة ، حيث ظلت عالقة حتى خارت قواها بنزيف دما أثناء الليل ، فتساقطت تباعا على نحو ما سمعت تس .

وكثيرا ما لمحت تس أولئك الصيادين في طفولتها ، يرسلون نظراتهم من فوق الأشعة أو من خلال الشجيرات ، ويسددون بنادقهم وهم في ثياب غريبة تبرز عيونهم ظمأ إلى السماء ، وقيل لها إذ ذاك إنهم رغم منظرهم ذلك الخشن الوحشي لم يكونوا كذلك طول العام ، إنما كانوا قوما مهذبين إلا أسابيع من الخريف والشتاء يستمرئون فيها فتك الهمج ، ويولعون بإعدام الأحياء ، فيفرون بتلك الطيور البريئة التي يؤتى بها إلى الحياة بوسائل مصطنعة لمجرد إرضاء تلك النوازع البعيدة عن التهذيب ، بعدها عن مكارم الأخلاق ، التي ينزع إليها القوم في معاملة أشقائهم في أسرة الطبيعة ذات العدد العديد .

وكانت لتس نفس ترحم زميلاتها في الشقاء كما ترحم نفسها ، فاندفعت ترمح الطيور التي ما زالت على قيد الحياة من تباريحها ، فوجأت يديها ما استطاعت العثور عليه منها ، وتركها حيث وجدتها حتى يعود حراس طيور الصيد ليعثوا عنها مرة أخرى على عاداتهم ؛ وقالت ودمعها يجري على خديها وهي تقتل الطيور في رفق : « وارحمته لكن ! أعد نفسي أنس مخلوقة في العالم وأنن حيالي ؟ ! مع أني لا أشعر بأى ألم جنائي ولست بالثخنة ولا الدامية ، ولي يدان أكتسب بهما قوتي ولباسي ! » ، وخجلت من القنوط الذي استولى عليها أثناء الليل ، استولى عليها لغير سبب محسوس إلا شعورها بالظلم تحت قانون اجتماعي غاشم لا وجود له في الطبيعة .

## ٤٢

متع النهار وتابعت تس رحلتها خارجة إلى الطريق في حذر ، ولكن لم تكن بها حاجة إلى الحذر إذ لم يكن هناك غلوق ، وواصلت سيرها وقد نزلت السكينة على قلبها ، بعد أن تبجلى لها من آلام الطيور الصامتة أن أسباب الشقاء تتقارب ، وأن أتراحها أخف وطأة من غيرها ، إذا هي استشعرت من الشجاعة ما تحتقر به آراء الآخرين ، على أنها لم تكن تستطيع أن تحتقر رأى كليز .

وبلغت ( تشوك نيوتن ) وأفطرت في فندق ، حيث ضايقتها بمض الشبان بإطراء محاسنها ، على أن ذلك أثار أملها من جديد : إذ عن لها أن زوجها ربما عاد يقول لها مثل مقالهم ، وقد دفعها ذلك إلى الحرص على نفسها واجتناب أولئك النازلين ، ولذلك الغرض عولت على ألا تسمح بعد اليوم لطلعتها بإقحامها في المخاطر ، فلم تكذب تنادر القرية حتى دلفت في دغل واستخرجت من سلتها جلبابا من جلايب الحقل ، عتيقا جدا لم تلبسه حتى في تلبوثير ، ولم تستخرجه منذ كانت تعمل في الحصاد في مارلت ، وخطرت لها خاطرة موقفة فأخذت مندبلا من ميثرتها ربطته حول وجهها دون قلنسوتها ، ففطت ذقنها ونصف خديها وعارضها ، كأنها تمنى ألما في أسنانها ، ونظرت في مرآة جيب صغيرة وقصت حاجبيها بلا رحمة بقمص صغير ، وهكذا حمت نفسها إعجاب النواظر بها ، ومضت في طريقها الوعرة .

وقابلها رجلان فقال أحدهما للثاني : « ويحها من فتاة كأنها المومياء ! » فاعترضت عيناها رحمة لنفسها ولكنها قالت في نفسها : « لست أبالي ! لست أبالي وسوف أظل دميعة ما دام إنجيل غائبا وليس حولي من يرعاني ، لقد ذهب زوجي ولن يعود إلى هواي ، ولكنني أهواه على كل حالة ، وأمقت من عداه من الرجال وأحب أن يزدروني ! » وهكذا واصلت تس سيرها وهي جزء من المنظر المحيط

بها ، تبدو عاملة فلاحه ساذجة في ثياب الشتاء ، عليها قلنسوة غليظة النسيج داكنة ، وفي عنقها منديل صوفى أحمر ، وعلى جسمها ثوب خشن تغطيه شملة رمادية فاتحة ، وفي يديها قفازان من جلد صفيق ، وقد شحب ورق كل خيط في تلك الثياب العتيقة تحت شآبيب المطر وشواظ الشمس وعصف الرياح .

لم تعد عليها أمانة تدل على روح شباب خفوق ، بل « كان فم الفتاة بارداً ورأسها ملفعاً بالقلائل » ، ولكن كان تحت ذلك المظهر الذى تجول عليه العين كما تجول على شيء لا يكاد يحس أو يرى ، صفحة حياة خائفة تعلمت حق التعلم — على صغر سنها — شوائب الحياة وغرور الدنيا وقسوة الشهوة وتقلب الحب ، وكان اليوم التالى مطيراً ولكنها واصلت ضربها فى الأرض لا تكاد تحفل بمعداء العناصر لها أعداء صريحاً ماضياً لا يحاوى ؛ ولم يكن لديها من الوقت ما تضعه وهي تشد عملاً تعمله فى الشتاء ومسكناً يؤويها ، وقد خبرت من الأعمال القصيرة الآاماد ما زهدا فيها .

وهكذا مشت تجاوز مزرعة بعد مزرعة ، فى الاتجاه الذى أشارت إليه ماريان فى رسالتها ، وكانت تنوى أن تتخذ من عملها الجديد خطوة إلى آخرأ أكثر مزايا ، وكانت تبدأ بالسؤال عن أعمال خفيفة ، فإذا يئست من أن تحصل على أى ضرب منها طلبت أعمالاً أخرى أشق : فكانت تبدأ بأعمال الألبان والدواجن التى تؤثرها ، وتنتهى إلى العمل الجاف الذى لا تميل إليه فى الحقول ، وبلغ بها السير فى مساء اليوم الثانى الهضبة الطباشيرية الموجة السطح المغطاة بكتبان قوسية الشكل كأنما (سيبلى) ذات الهود مستلقية عليها ، وكانت تلك الهضبة ممتدة بين الوادى الذى شهد ميلادها والوادى الذى شهد غرامها .

وكان الهواء هنا جافاً بارداً ، وكانت طرق المربات الطويلة سرعان ما تغطيتها الرياح بالبياض والغبار بعد المطر بساعات ، ولم يكد يكون هناك شجر ، فقد كان الفلاحون أعداء الأشجار والشجيرات والأدغال ، لا يعملون الأشجار التى تنجم فى الأسبجة إلا ربناً يحنون أعوادها ويربطونها بسلخات من النبات الشوكى

ليزداد الوشيع سمكا ؛ وكانت تس ترى في وسط النظر الممتد أمامها تلال (بلبارو) و (تلكوم توت) وكأنها ترحب بمقدمها ، وكانت تبدو من تلك الدروة منخفضة متضعة وإن بدت لها في طفولتها — إذ كانت تنظر إليها من بلاكور في الجانب الآخر — كأنها بروج في السماء ، وكانت تلمح في الجانب الجنوبي على أميال وراء التلال والحزون الممتدة حبال الشاطئ ، سطحا كأنه الفولاذ المصقول ، وكان ذلك هو القنال الإنجليزي في نقطة متطرفة متجهة إلى فرنسا .

ورأت أمامها في منخفض صغير بقايا قرية ، وكانت قد وصلت إلى (فلنتكوم آش) مقر ماريان ، وأيقنت أن لا مفر من المجيء إلى هذه البقعة أخيراً ، وتبينت من التربة الصلبة المحيطة بها أن العمل المطلوب في هذه الجهة من أشق الأعمال ، ولكنها كانت في حاجة إلى الاستراحة من نصب البحث ، فعولت على التعرّيج ولا سيما وقد هطل المطر ، وكان عند مدخل القرية كوخ ينحدر سقفه صوب الطريق ، فلاذت بظله قبل أن تتقدم للسؤال عن عمل ، ووقفت رقب زحف المساء ، وقالت في نفسها : « من يظن أني مسز إينجل كلير ؟ » ، وأحست بدفء الحائط في ظهرها وكتفها وأدركت أن وراءه مدفأة تنفذ حرارتها من الطوب ، وراحت تدفئ يديها عليه ، ثم ألصقت بسطحه المريح خدها المحمر البلبل بالراذ ، وخيل إليها أن ذلك الحائط هو صديقها الوحيد ، وكانت تكره أن تفارقه وتود لو قضت بجانبه الليل كله .

وكانت تسمع أهل الكوخ وهم مجتمعون عقب عملهم اليومي ، يتطارحون الحديث وتسمع لفظ أطباقهم ، ولكنها لم تكن رأت في طريق القرية أحداً بعد حتى قطع جبل تلك الوحشة طلوع شخص امرأة ترتدى ثياب الصيف الخفيفة رغم برد المساء ، وهدت تس غريزتها إلى أن القادمة ماريان ، فلما قربت حتى بان معارفها تأكدت أنها هي ، وكانت بلا شك أرث ملبساً من ذي قبل ، ولم تكن تس لتميل في أي فترة من فترات حياتها الماضية إلى تجديد معرفتها في ظروف كهذه ، ولكن وحشتها كانت بالغة منهاها ، فارتاحت إلى إجابة تحية ماريان .

والتزمت ماريان الأدب في أسئلتها ، ولكن ظهر عليها التألم لاستمرار تس  
في حياة الكدح القديمة ، وإن تكن قد سمعت نبأ غير مستيقن عن أمر انفصالها  
عن زوجها ، قالت : « تس ! مسز كلير ! زوجة العزيز العزيزة ! أبلغ بك الأمر  
هذا المدى يا صاحبتى ؟ ما بال وجهك الوسيم ملثما هكذا ؟ أضربك أحد ؟ أرجو  
ألا يكون هو ! » . قالت : « لا ، لا ، لا ، إنما صنعت هذا بنفسى لأنجو من  
مضايقات المعجيين » ، وزعت في اثمئزاز ذلك الرباط الذى أوحى بتلك الظنون  
البشعة ، قالت ماريان : « ولا أرى عليك بنية » ، وكانت تس تلبس بنية بيضاء  
صغيرة أيام تلبويز ، قالت : « أنا أعلم ذلك يا ماريان » ، قالت : « أفقدتها في  
الطريق ؟ » . قالت : « لا ، الحق أنى لم أعد أحفل بهيئتى ، ومن ثم لم ألبسها » .  
قالت ماريان : « ولا تلبسين خاتم الزواج ؟ » . قالت : « بلى ولكنى لا ألبسه  
أمام الناس ، إنما هو مربوط فى عنقي بشريط ، إذ لا أحب أن يعلم الناس من  
زوجى ولا أن يعلموا أنى متزوجة أصلا ، فإن فى ذلك حرجا على ما دمت أحياء على  
هذا النحو » ، وصمتت ماريان برهة ثم عادت تقول : « ولكنك فعلا زوج سيد  
ثرى ، وليس من الإنصاف أن تحبى هكذا ! » . قالت : « بل هو من الإنصاف  
وإن كنت ألقى من أمرى عسرا » ، قالت : « مرحى ، مرحى ! فزت به هو ثم  
أنت من أمرك فى عسر ! » . قالت من الأزواج من يشقين وهن الملوهمات  
لا بمولتهن » . قالت : « لا أراك ملومة يا عزيزتى ، ولا أراه ملوما ، ولا بد أنه  
أمر خارج عن إرادتيك » .

قالت تس : « عزيزتى ماريان : هل لك فى اصطناع يد عندى دون إلحاف  
بالأسئلة ؟ لقد سافر زوجى إلى الخارج وقد نقد ما رتبته لى لسبب ما ، ومن ثم أنا  
مضطرة أن أعود إلى العمل ردها من الزمن ، فلا تدعيني مسز كلير بل تس كما  
كنت تفعلين من قبل ، أحتاج أحد إلى يد عاملة هنا ؟ » . قالت : « أجل ، هم  
يقبلون أية عاملة تتقدم إليهم ، إذ قلما يتجشم أحد مؤونة القدوم إلى هنا ، فهذه  
بقعة شحيحة لا ينمو فيها إلا القمح واللفت ، وإنى وإن كنت أعمل هنا ليحز

فى نفسى أن أراك تأنين» ، قالت تس : « ولكنك كنت عاملة ألبان لا تقلين عنى دراية » ، قالت : « أجل ولكنى تدهورت منذ أدمت الشراب ، وأأسفا ! لقد صار هذا عزائى الوحيد ، وأنت إذا انضممت إلينا عهد إليك حصد اللقت ، وهو ما أعمل الآن ، وإن كنت لا أخالك تستطيعين ذلك » .

قالت تس : « سأعمل أى شىء فهل لك أن تفأجهم فى أمرى ؟ » ، قالت : « بل تحسبن صنعا بمفأجتهم بنفسك » ، قالت : « حسن . والآن يا ماريان لا تذكري شيئا من أمره إذا أنا التحقت بالعمل ، فإنى لا أحب أن ألوث اسمه » ، وكانت ماريان وإن أعوزتها رقة تس فتاة وفية ، فوعدت صاحبها بكل ما أرادت ، ثم قالت : « هذه ليلة صرف الأجور فإذا جئت مى علمت فوراً ، إنى ليحزننى أن تشقى ، ولكنى أعلم أن السبب أنه على سفر ، ولم تكونى لتشقى لو كان حاضراً حتى ولو لم يمددك بمال ، ولو أخذك أمة فى داره » ، قالت : « صدقت ! » .

وسارتا سويا وسرعان ما بلغت بيت صاحب الضيعة ، وكانت تخيم عليه الوحشة ، لا ترى من حوله شجرة واحدة ، ولم يكن مرج فى ذلك الفصل أخضر ، وليس هناك إلا الأرض البوار واللفت يغطى مساحات مترامية ، تقسمها الأوشعة منحنية النباتات منكسة الهامات ؛ وانتظرت تس بالباب حتى قبض العمال أعطياتهم ، ثم قدمتها ماريان ، ولم يكن صاحب الضيعة نفسه هناك ، ولكن زوجه التى كانت تمثله فى ذلك المساء لم تمنع فى استلحاق تس ، بعد أن وعدت هذه بالبقاء إلى يوم العذراء القديم ، وكانت العاملات نادرات فى ذلك الوقت ، وكان استخدامهن أرخص من استخدام الرجال فى الأعمال التى يتقنها إتقان الرجال .

وبعد أن أمضت العقد لم يبق أمامها إلا الحصول على مأوى ، وقد اهدت إليه فى الكوخ الذى استدفأت بجوار حائطه ، وما حصلت إلا على عمل زهيد ولكنه كان يقوم بأودها ذلك الشتاء ، وفى تلك الليلة كتبت تخبر أبويها بعنوانها الجديد ليحول إليها أى كتاب يرسله زوجها إلى مارت ، ولكنها لم تبج لهما بما هى فيه من ضيق ، فتجر عليه لومة لائم .



### ٤٣

لم تغل ماريان حين وصفت (فلتلكوم آش) بالشح ؛ فلم يكن بتلك المزرعة شيء  
سمين سوى ماريان نفسها ، وهي كانت شيئا عجوليا ، وإذا كانت القرى على أنواع  
ثلاثة : تلك التي يرعاها صاحبها ، وتلك التي ترعى نفسها ، وتلك التي لا ترعى  
نفسها ولا يرعاها صاحب ، أو بعبارة أخرى : تلك التي يملكها عين يقيم بها ،  
والأخرى التي يملكها مزارعون ، والثالثة التي يقيم صاحبها بعيدا عنها ويؤجرها  
هي والأرض المحيطة بها — فإن فلتلكوم آش كانت من الضرب الثالث .

ولكن تس أقبلت على العمل ، وقد أصبح الصبر من أكبر مميزات مسز  
إينجل ، والصبر هو ذلك المزيج من الشجاعة الأدبية والجبن الجسدى ، وكان لها  
خير معوان ، وكان حقل اللفت الذى عهد إليها وإلى صاحبها حصده مساحة  
تتمد مائة فدان ، على أعلى جانب من المدرسة ، وكان ذلك الجانب قائما على جذوع  
صخرية متكونة من تجمع عروق من الصوان فى بنية الطباشير ، مكونة من آلاف  
قطع الزلط ذات الأشكال البيضاوية والمديية والمستطيلة ، وكان النصف الأعلى من  
كل لفنة قد أكلته الماشية ، وكان على الفتاتين أن تنبشا النصف الأسفل من الجذر  
بشوكة معقوفة تدعى المنبشة ، كي يؤكل هذا النصف أيضا ، وإذا كانت كل أوراق  
النبات قد أكلت كان منظر الحقل كله كالحا كثيبا ، كان لونه غير ذى معالم ،  
كأن وجهها يلوح — من الدقن إلى الخاجب — صفحة من اللحم غير ذات معارف ،  
وكانت السماء تشابه الحقل كلحا ، وإن خالفها لونا ، فكانت فراغا عديم المعالم ،  
وكان هذان الوجهان الأعلى منهما والأسفل يتقابلان طول النهار ، يطل مبيضهما  
على أسمرهما ، ويتطلع الأسمر إلى الببيض ، ولا يقوم بينهما إلا الفتاتان ترحفان على  
سطح الأول كأنهما ذبايتان .

ولم يدانهما أحد ، وكاتتا تتحركان فى نظام آلى ، وشخصاهما قائمان ملتفان

بشملتين من الخيش مربوطتين من الخلف لتحفظا جلبابيهما من عصف الريح ، بلوح من تحتهما زيق صغير من جلبابيهما ، ومن تحت ذاك أحذية ترتفع إلى الركب ، وفي أيديهما قفازات من جلد الغنم تغطي زنودهما ، وعلى رأسيهما قلنسوتان ذاتا حافات تبدوان فيها وهما مطرقتان كأنهما في تفكير عميق ، فكانتا تذكران من يراها يعض الصور التي صورها أوائل مصورى الطليان للمريين .

واستمرت في العمل ساعة بعد ساعة ، غير منتهيتين للنظر الكئيب المحيط بهما ، غير مفكرتين في ظلم قسمتهما أو عدلها ، فإن الحياة في حلم ممكنة حتى في حالتها ، وعاد المطر يهطل بعد الظهر ، وقالت ماريان إنهما غير مرغمتين على مواصلة العمل ، ولكنهما إذا انقطعتا لم تنقدا أجرا ، ومن ثم آثرتا المضى في العمل وكان ذلك الحقل من الارتفاع بحيث لم تكن الأمطار تنزل هابطة بل تندفع أفقية على متن أرياح العاوية ، وتضربهما كأنها شظايا الزجاج ، حتى بلغ البلل منهما ، ولم تكن تس إلى الآن تعلم معنى ذلك ، فللطوبة درجات ونحن نتكلم عن أخف الدرجات في الحديث العادي بقولنا بلغ من فلان البلل ، ولكن من يقوم بعمل على مهل في حقل وهو يحس بتحدر المطر على ساقيه وعطفيه أولا ، ثم على شفتيه ورأسه ، ثم على الظهر فالصدر فالجانبين ، ثم هو يعضى في العمل ، حتى يتلاشى الضوء القاتم فيدل بتلاشيه على أن الشمس قد غربت — لا بد أن يكون على حظ عظيم من الجلد والبسالة .

على أنهما لم تشعرا بالبلل بقدر ما قد يظن : فقد كانتا كلتاها صبيتين وكانتا يتحدثان بالمهد الذي كانتا تقيان فيه معا ومجبان معا في تلبويز ، تلك البقعة المربعة السميدة حيث كان الصيف سخى العطايا ، عطاياها المادية للجميع وعطاياها الروحية لهاتين ، وكانت هي تؤثر ألا تحدث ماريان في الرجل الذي كان زوجها شرعا وإن لم يكنه فعلا ، ولكن سحر الموضوع أغراها بالجواب على ملاحظات صاحبها ، ومن ثم قضتا عصر ذلك اليوم إلى مساءه في ذكريات تلبويز الخضراء المشمسة الساحرة ، رغم ضرب حافات قلنسوتيها المبتلتين على وجهيهما ضربا عنيفا ،

والنصاق شلتيهما بيدنيهما التصاقا مضيقا ؛ قالت ماريان : « حين يصحو الجو  
تستطيعين أن ترى من هذا المكان هامة تل متوج بالضياء ، واقع على مدى أميال  
من وادى فروم » ، قالت تس ونبتها هذه الميزة الجديدة لقرها هذا : « آه !  
أحقا ؟ » .

هكذا كانت تعمل هنا القوتان المهودتان كما تعملان في غير هذا الوضع :  
الرغبة الكامنة في التمتع ، ومعارضة الأقدار لذلك التمتع ، وكانت ماريان لا يرضاء  
تلك الرغبة تخرج من جيبها من حين إلى آخر كلما تصرمت ساعات النهار قارورة  
مسدودة بخرقة بيضاء ، تعرض على تس جرعة منها ، وكانت تس ترفض أن تنال  
أكثر من رشفة صغيرة ، لأن قدرتها على الاستسلام للأمان والأحلام كانت في  
غير حاجة إلى معين ، وعندها كانت ماريان تعب من الشراب مليا وتقول : « لقد  
تعودته ولم أعد أستطيع الإقلاع عنه ، فهو سلوى الوحيدة ؛ لقد خسرت أنا  
وربحة أنت ، فلعلك في غنى عن الشراب » ، وكانت تس ترى أن خسارتها  
لا تقل عن خسارة ماريان ، ولكنها لا اعتدادها ببعولة إينجل — ولو لم ترد على  
كونها بعولة لفظية — كانت توافق على تفريق ماريان بين حالهما .

ظلت تس تكدح فوق هذا الأديم وسط جليلد الصباح وأمطار المساء ، بين  
نبش للفت وتنظيف له بالمخارط تمهيدا لخزن الجذور لاستعمالها في المستقبل ؛  
وكانت الفتاتان حين تشتغلان بالتنظيف تستطيعان الاستئثار من الأمطار تحت  
قفص كبير مغطى بالقش ، ولكن إذا كان الجليلد منتشرا عجزت قفازاتهما  
الجلدية ذاتها ، عن حماية أيديهما من وخزات تلك الكتل الجلدية التي كانتا  
تعاملانها ، ولكن الأمل لم يفارق تس ، بل ظلت تعتقد أن روح إينجل العظيمة  
التي كانت تعدها أكبر ميزاته ، ستدفعه عاجلا أو آجلا إلى معاودتها .

وربما استخفت ماريان نشوة حبور حين تمر بالزلط الغريب الأشكال  
سالف الذكر ، وتغرب في الضحك على حين تبقى تس في وجوم تام ، وكثيراً  
ما أرسلتا البصر فوق السهول إلى حيث كان يخيل إليهما أن نهر فروم يجري ،

وإن لم تستبيناه ، وإنما كان حسبهما أن تشدا عيونهما إلى الضباب الأغيش الخيم وتمثلا الأيام العززة التي قضتها هناك ، قالت ماريان : « كم أعنى لو تلحق بنا واحدة أو اثنتان أخريان من أترابنا ، إذن كنا نمثل تلبويز هنا كل يوم في الحقول ، وتحدث عنه ، وعن طيب الأيام التي قضيناها هناك ، وجميع الأشياء القديمة التي كنا نعدها ، ونبحث كل ذلك بحثاً جديداً ! » وبانت الرقة في عينيها والتهديج في صوتها حين اعتمتها تلك الرؤى ، وقالت : « سأكتب إلى إيزهيو ، فأفهمها مقيمة في دارها بلا عمل ، وسأخبرها أننا هنا وأطلب إليها الحضور ، ولعل رتى أيضاً قد تماثلت للشفاء » ، ولم تر تس بأساً بذلك الاقتراح الذي يرى إلى جلب أفراس تلبويز ، وبعد أيام ثلاثة حدثها ماريان بأن إيز أجابت واعدة بالحضور إذا أمكنها .

كان هذا الشتاء فريداً لم يغبر له نظير منذ سنين : جاء متسللاً متأنياً في خطوات كأنها نقلات لاعب الشطرنج ، وبدأت الأشجار القلائل المفردة ونبات الأوشعة الشوكي ذات صباح كأنها قد استبدلت بلحائها جلد حيوان ، إذ كان كل غصن مغطى ببياض كأنه الزغب أو الفراء قد نجم من باطن القشرة ، فازداد سمكه أربعة أضعاف ، بحيث بدا هيكل كل شجيرة خطوطاً بيضاء على صفحة السماء الداجنة ، وبدأت أنسجة العناكب على العرائش والجدران ، ولم يكن أحد يرى شيئاً منها قبل ذلك حتى أظهرها تبلور الجو ، فإذا هي معلقة كأنها شلات من صوف أبيض على ذبابات الجواسق والعمدان والبوابات .

وبعد هذا الفصل الرطب المتجمد أقبلت فترة صقيع جاف ، تواترت فيه غرائب الأطيار مقبلة في صمت من خلف القطب الشمالى إلى هضبة فلنتكوم آس ، وكانت مخلوقات عجافاً كأنها الأشباح كثيفة العيون ، قد شارفت عيونها من قبل مشاهد من الهول الذريع في أقطار القطب المترامية ترامياً لم يتصوره إنسى ، في أجواء تجمد الدم ولا يحتملها بشر ، وشاهدت تحطم جبال الجليد الطافية وانهيار تلال الثلوج في أشعة الفجر القطبي المرسل ، وكاد يعميها تدويم الزعازع الهائلة ، وتقلبات اليابس والماء .

وقد احتفظت تلك الطيور بالسياء التي رسمتها عليها تلك المناظر ، ودنت كل الدنو من تس وماريان ولكنهما لم تفصح أدنى إفصاح عما شاهدت من مرئيات لن تقع عليها عين إنسان ، فلم يكن يساور تلك الطيور ما يساور كل آيب من سفر من رغبة في وصف ما رأى ، وإنما طردت من تخيلها في صمت واستسلام تلك التجارب التي مرت بها دون أن تستطيعها ، وأقبلت بانتباهها على ماهو حاضر أمامها من شؤون هذه الهضبة المأهولة ، من حركات الفتاتين الآلية وهما تزيحان القُلاع بمبشيتيهما ، كي تكشفوا شيئاً يعده هؤلاء الأضياف طعاماً مريثاً .

ثم سادت جو هذا الإقليم العالي حالة عجيبة ذات يوم ، إذ عمه بلل لم ينجم عن المطر ، وبرد لم ينشأ من الصقيع ، حتى تجمدت أحداق الفتاتين واقشعر جبيناهما ونفذ البرد في عظامهما ، حتى بلغ من هيكل جسميهما ما لم يبلغ من جلديهما ، فأدركنا أن الثلج قادم ، وقدم الثلج ليلاً ، وكانت تس مازال تسكن الكوخ الدافئ ذا السقف المثلث ، التي يرتاح بجواره كل عابر سبيل مجهد ، وقد انتهت ليلاً على أصوات فوق السقف تدل على أنه قد استحال إلى ملعب لأشتات أنواع الرياح ، ولا أشعلت شمعتها صباحاً ساعة هبوبها من الفراش وجدت أن الثلج قد نفذ من ثغرة في النافذة ، مكوناً في الداخل مخروطاً أبيض من مسحوق دقيق جداً وقد نفذ أيضاً من الدخنة وانتشر على أرض الحجرة بعلو الكعب ، وتركت فيه نعلها أترأ حين وطنته ، وفي خارج الحجرة رأت تس أن العاصفة كانت من العنف بحيث أثارَت في المطبخ ضباباً من الثلج ، أما في الخلاء فكان الظلام ما يزال شاملاً لاتستبين العين فيه شيئاً .

وأدركت تس أن من المحال متابعة العمل في محصول اللفت ، ولم تكد تفرغ من فطورها بجانب المصباح الصغير الوحيد حتى جاءت ماريان تخبرها أن عليهما أن تنضما إلى النسوة الأخريات اللاتي يقمن بضم عيذان القمح في البيدر ، حتى يعتدل الجو ، ومن ثم أطفأنا المصباح حالما استحال لون شملة الظلام المنشورة في الخارج من سواد حالك إلى مزيج مشوش من الألوان السنجابية ، والتفتت بأسلك

مآزرهما ووضعتا شاليهما الصوفين حول عنقيهما وفوق صدريهما ، وانطلقتا إلى البيدر .

كان الثلج قد تبع الطيور من مقره القطبي في سحابة بيضاء كأنها العمود ، تحوم حولها قزعات مشتتة ، وكان يستروح من الزوبعة أنها قادمة من جبال الثلج الطافية ، ومن البحار القطبية مواطن الحيتان والديدة البيضاء ، تحمل ثلجاً تعلق به وجه البلاد دون أن يتراكم عليه ؛ وتقدمت الفتاتان مجتهدتين وجسداهما عنيان مجتازان الحقول للساء تحتيمان ما استطاعتا بأسيجتهما التي لم تكن إلا مصافٍ لا أستارا ، وثارَت في الجو تلك الأفواج البيضاء الغازية ، فردته شاحباً حائلا ، وراح يبعث بها طيا ولها وغزلا ، فكانت بحاجة حائلة الألوان ، ولكن كلتا الفتاتين كانتا على حظ من الانسراح ، فليس مثل هذا الجو على هضبة جافة بالسبب الذي يقذف القنوط في النفوس .

قالت ماريان : « ها ! ها ! لقد كانت الطيور الشمالية الماكرة تعلم أن هذا آت ! ثقي أنها ستظل طائرة في مقدمة هذا الهبوب طول الطريق بدءاً من النجم القطبي ، ولست أشك أن زوجك يصلي الآن جوا محرراً ، يا لله ! ليته يستطيع أن يرى زوجه الجميلة هذه الساعة ! على أن هذا الجو لا يضير جمالك قليلا . كلا بل هو يزيد بهاء » ، قالت تس في غضب : « لا تخاطبيني فيه يا ماريان » ، قالت : « ولكنك تخمينه ، أليس كذلك ؟ » وكان جواب تس الوحيد أن اتجهت وعيناها مغرورتان ونفسها جائشة ، صوب الجهة التي خيل إليها أنها جهة أمريكا الجنوبية ورفعت شفتيها مرسله قبله حارة على جناح الرياح المحملة بالثلج .

قالت ماريان : « ما خلجني شك في أنك تخمينه ، ولكن ما أنعمها حياة لزوجين ! كفى ! لن أزيد ! أما الجو فلن يضيرنا في بيدر القمح ، ولكن ضم العيدان مجهد أشق من نبش اللفت ، إن لي جلداً عليه لأنى بدينة ، أما أنت فأنحف منى ، ولست أدري لماذا ألحقك الرئيس بهذا العمل » ، وبلغتا البيدر ودخلتا ، وكان جانب منه مملوءاً قحاً ، وكان ضم العيدان يجري في الوسط ،

وكان قد وضع في ضاغطة الميدان في الليلة السابقة عدد من حزم عيدان القمح يكفي النساء طوال اليوم ، وقالت ماريان فجأة : « وا عجبا ! هذه إيز ! » وكانت هي هي إيز ، وكانت قد قطعت المسافة من دار أمها على قدميها عصر اليوم السابق وأدركها الليل في الطريق إذ لم تكن تتوقع أن المسافة تكون بهذا الطول ، على أنها وصلت قبل نزول الثلج وقضت الليلة في فندق ، وكان صاحب الضيعة قد اتفق مع أمها في السوق على قبولها إذا جاءت اليوم ، وقد خشيت أن تسوء إن تأخرت .

وكان هناك بجانب تس وماريان وإيز شقيقتان قد جاءتا من قرية مجاورة ، عظيما الجرم ، اعترت تس رجفة إذ تبينت في معارفهما وجهي (كار) السمراء ملكة الفؤوس ، وشقيقتها الصغرى ملكة اللباس اللتين همتا بها ليلة الشجار في ترتدج ، ولم يبد عليهما أنهما عرفتاها ، ولملهما لم تعرفاها إذ كانتا في تلك الساعة ثملتين ، ولم تكونا مقيمتين بهذه الضيعة مؤقتا كما كانتا في ترتدج ، وكانتا تؤثران القيام بأعمال الرجال وفيها حفر الآبار وإصلاح أوشعة الحقول والحفر وقنوات المطر على جوانب الطريق ولا تبديان كلالا ، وكانتا معروفتين كذلك بمحذمهما ضم الميدان ، وقد حدثتا الثلاث الأخريات بنظرة ترفع .

لبس الجميع قفازاتهن وأقبلن على العمل واقفات صفا أمام الضاغطة ، وكانت هذه آلة مكوّنة من عمودين يصلهما عمود مقاطع وقد وضعت تحتها الحزم التي ستسحب منها الميدان ، وسنابلها منكسة ، وكان العمود المقاطع يعتمد على مشاجب في العمودين القائمين ، ويهبط كلما تناقصت الحزم ، واتضح ضوء النهار رويدا رويدا ، وكان يدخل من أبواب البيدر صاعداً من الثلج لا هابطاً من السماء ، وجعل النسوة يجتذبن ملء أحضانهن من الضاغطة تباعاً ، على أن ماريان وإيز لم تستطعا أن تخوضا في أحاديث الماضي كما تشاءان لحضور الرأتين الأخريين اللتين كانتا يتحدثان بالنديات .

وسرعان ما سمع الجميع وقع حوافر حصان ، وترجل صاحب المزرعة بالباب ثم

دنا من تس ووقف يتأمل صفحة وجهها ، ولم تلتفت هي إليه أول الأمر ، حتى اضطرها إيمانه فيها إلى الالتفات ، فإذا رئيسها اليوم هو صاحبها في ترتدج الذي لاذت منه بالفرار في طريقها لإشارته إلى ماضيها ، وانتظر هو حتى حملت الحزم المضمومة إلى الكوم القائم في الخارج ، وعندها قال : « أنت إذن التي رددت على ملاطفتي ذلك الرد القبيح ! قبحنى الله إن لم أكن قد حظرت ذلك حالما علمت بانضمامك إلى العمل ! لقد خيل إليك أنك غلبتني في المرة الأولى في النزول وأنت مع فتاك التيم ، وفي الثانية على الطريق حين لنت بالفرار ، أما اليوم فأخالي أنا الفائز » قال ذلك وضحك وضحكة جافة .

ألفت تس نفسها بين المرأتين الضخمتين وبين صاحب المزرعة كطائر قد علق بين شقي فخ ، فلم تجب واستمرت في جر العيدان ، وهدتها فراستها في تلك الساعة إلى أن الرجل لن يعود إلى مضايقتها ، وأيقنت أن مسلكه مسلك تحرش راجع إلى الإهانة التي ألحقها به كبير ، لا مسلك مغازلة ، ولم تر في ذلك ضيراً ، قال الرجل : « أخيل إليك أنى علقتك ؟ فن النساء من يحسن لمحاقن أن كل نظرة تحمل وراها صباية ، ولكن قضاء شتاء واحد في الحقول كاف لإخراج تلك المحاقات من رؤوس الكواعب الخبيثات ، وقد تعهدت بالبقاء إلى يوم العذراء القديم ، والآن هل تعتذرين إلى ؟ »

قالت تس : « أولى أن تعتذرت أنت إلى » ، قال : « حسن ، كما تشائين ، ولكننا سنرى من السيد هنا ، أهذه كل الحزم التي فرغت منها اليوم ؟ » قالت : « نعم » ، قال : « جهد ضئيل ، انظري ماذا صنعت هاتان » ، وأشار إلى المرأتين الكبيرتين ، ثم قال : « والأخريان أيضاً قد بزناك » ، قالت : « لقد مارسن جميعاً هذا العمل من قبل دوني ، وقد ظننت أنك لا تهتم بالكمية إذ نحن لا نتقاضى إلا ثمن ما نتجز » ، قال : « بل أهم كل الاهتمام فأني أريد البيدر أن ينظف » ، قالت : « سأواصل العمل طول اليوم فلا أنقطع في الساعة الثانية مع الباقيات » فحدها متجهماً ومضى .



ورأت تس أنها وقعت على أسوأ مكان كان يمكن أن تقع عليه ، ولكنها كانت تتحمل كل ما عدا الملاحظات والمنازلات ؛ ولما كانت الساعة الثانية ألفت العاملتان المحترفتان في جوفيهما آخر ثمالة قارورتيهما ، ووضعتا منجليهما وربطتا حزمهما وانصرفتا ، وكانت ماريان وإيز تودان أن تصنعا صنيعهما ، ولكنهما حين علمتا أن تس تنوى الاستمرار لتعوض قلة مرانها بطول ساعات عملها ، لم تشاء أن تتركها ؛ ونظرت ماريان إلى الثلج الذي كان ما يزال يهافت في الخارج وقالت : « الآن قد خلا لنا المكان » وتحول الحديث ينهن أخيراً إلى أيام تلبويز ولا سيما حوادث هيامهن بإينجل طبعاً .

قالت مسز إينجل كليل في كبرياء تدعو إلى الرثاء حقاً ، إذا تذكرنا قلة ما كانت تتمتع به من مزايا الزوجية : « يا إيز ويا ماريان : لن أستطيع اليوم كما كنت أستطيع فيما مضى أن أشارككما في التحدث عن مستر كليل ، ولا ريب أنكما تريان السبب جلياً ، فهو زوجي وإن فارقتي فراقاً مؤقتاً » ، وكانت إيز بطبعها أشد الفتيات الأربع اللاتي شغفن بإينجل توقعاً وهماً ، قالت : « لقد كان حبيباً ممتازاً بلا شك ، ولكني لا أراه زوجاً حدياً إذ فارقك بهذه السرعة » ، قالت تس في لهجة المدافع : « لقد اضطر إلى الذهاب ، لقد كان عليه أن يذهب ليختبر الأرض هناك » ، قالت صاحبها : « كان يجدر به أن يمهّد لك أسباب الراحة في هذا الشتاء » ، قالت تس مغرورة الجفون : « لقد عرض عارض وحدث سوء تفاهم ، ولعل له عذراً وجيهاً ! وهو لم يعض عني كما يفعل بعض الأزواج دون أن يخبرني ، وفي مقدوري أن أعلم وقت أشاء أين مقروء »

وبعد هذا سبحت الفتيات في عالم الخيال زمنناً ، وهن يقبضن على سنابل القمح ويجذبن العيدان ، ويجمعن تحت أذرعهن ويقطعن السنابل بمنجلهن ، وليس يسمع في البيدر إلا حفيف العيدان ووقع المناجل ؛ ثم خارت قوى تس فجاء وخرت على كوم السنابل القائم دون قدميها ، فصاحت ماريان : « لقد كنت أعلم أنك لن تتحملي هذا العمل ، فهو يحتاج إلى جلد أصلب من جلدك » ،

ودخل صاحب المزرعة في تلك اللحظة وقال لئس : « أهكذا تعملين في غيابي ؟ »  
قالت متوسلة : « ولكن الخسارة خسارتى لا خسارتك » ، فأجاب في غلظة :  
« أريد أن ينتهى العمل » ، واجتاز البيدر وخرج من الباب الآخر . قالت ماريان  
« لا تباليه يا عزيزتى ، لقد عملت هنا من قبل وأنا أدري به ، والآن ارقدى  
هناك ، وسنكمل أنا وإيز عملك » ، قالت : « لا أحب أن أدعكما تعملان عملى  
وأنا أطول منكما »

ولكن الإعياء كان قد بلغ منها فلم يسمها إلا الموافقة على الاستراحة قليلاً ،  
فتمددت على كوم من القش ملقى في الجانب البعيد من البيدر ، وكان انهيار قواها  
راجماً إلى ما عراها من اضطراب لماودتها الحديث في أمر انفصالها عن زوجها  
مثلاً كان ذلك راجماً إلى مشقة العمل ؛ واستلقت في مكانها ترى وتحس  
ولا تستطيع حراكاً ولا إرادة ، وكان حفيف القش وصوت قضب السنابل يقع  
عليها كأنه يلمس جسدها ، وكانت تسمع في ركنها بجانب تلك الأصوات همهمة  
من صوتى صاحبتها ، وأيقنت أنهما تواصلان الحديث الذى فتح من قبل ، ولكن  
لانخفاض صوتيهما لم تستبكن كلماتهما ، ثم تزايد توقها إلى معرفة ما تقولان ،  
فأقنعت نفسها بأنهما قد استعادت قواها ، فهضت وعاودت العمل .

ومرعان ما خارت قوى إيزهيو ، وكانت قد سارت زهاء اثنى عشر ميلاً  
في المساء السابق ، ولم تأو إلى الفراش إلا في منتصف الليل ، ثم عادت فهضت  
في الخامسة صباحاً ، ولم تستطع إلا ماريان — بفضل قارورة الشراب وامتلأ  
بنيتهما — أن نهض بمعب العمل المضنى للظهر والذراعين دون أن تتوجع ؛  
وألحت تس على إيز في الانصراف ، متطوعة وقد استعادت نشاطها أن تواصل  
العمل بدونها ، وأن تقاسم ماريان الحزم الباقية ، فوافقت إيز ممنونة واختفت من  
الباب الأكبر وغابت في الثلج ميممة مسكنها ؛ وبدأت ماريان تسبح في عالم عاطفى  
دأبها في هذه الساعة كل يوم ، حين يدب فيها ديب الشراب ، قالت في لهجة  
حالة : « ما كنت لأصدق هذا الأمر عنه قط ! مع أنى كم أحبيته ! أنا لم أنقم  
اختياره إياك ، أما شأنه مع إيز فقطع ! » .

جفلت تس لدى سماع تلك الكلمات ، وكادت تخرط أصبعها بالمنجل ، وقالت متلعثمة : « أزوجى تعنين ؟ » ، قالت : « نعم ، لقد طلبت إلى إيز ألا أخبرك ، ولكنى لا أستطيع كتمان الأمر عنك ، لقد أراد إيز أن ترافقه إلى البرازيل ، فامتقع وجه تس حتى شابه بياض المنظر الخارجى الطبيعى ، واستقامت تعاريجه وقالت : « وهل رفضت إيز الذهاب ؟ » ، قالت ماريان : « لا أدرى ، وعلى كل حال قد عدل عن قصده » ، قالت : « ها ! إذن لم يمن ما قال ، ولم يكن الأمر إلا أفكوهة من أفاكيه الرجال ! » ، قالت : « بل كان جادا ، فقد حملها فى عربته مسافة طويلة فى اتجاه المحطة » ، قالت : « ولكنه لم يأخذها ! » .

وواصلتا العمل فى صمت حتى انفجرت تس بلا إنذار بأكية ، فقالت ماريان : « يا لله ! الآن أود لو لم أخبرك ! » قالت تس : « لا ، بل أحسنت صنعا بإخبارى لقد كنت أحييا حياة انقباض وتشاؤم لا أدرى ما تؤدى إليه ، وكان أحجى أن أكثر الكتابة إليه ، لقد أبى على اللحاق به ولكنه لم يأت أن أكتبه كلما شئت لن أتركك بعد اليوم ! لقد كنت مخطئة مهمة أشد الخطأ والإهمال بتركى كل شئ إليه ! » .

وتخافت الضوء الضئيل فى البيدر ولم تعودا تستطيعان العمل ؛ ولما بلغت تس مسكنها ذلك المساء ، واختلت فى حجرتها الصغيرة المبيضة الحوائط ، اندفعت تكتب إلى كلير ، ولكن عاودتها شكوك صحتها عن إتمام الكتاب ، وبعد ذلك أخذت الخاتم من الشريط الذى كانت تعلقه فيه فوق قلبها ، واستبقته على إصبعها طول الليل ، كأنها تظلمن نفسها أنها حقا زوج ذلك الحب السريع التحول ، الذى يستسبح بعد مفارقتها بقليل أن يقترح على إيز مرافقته إلى الخارج ، وتساءلت أثنى لها وقد علمت ذلك أن تعاود الكتابة إليه متزلفة ، أو تطلعه على أنها تهواه .

## ٤٤

تحولت أفكار تس بعد هذا النبأ إلى الجهة التى طالما تحولت إليها من قبل : إلى مقر القس البعيد فى امنستر ، فقد كان زوجها أمرها إذا شاءت أن تكتبه أن تكتب إليه عن طريق أبويه ، وأن تكتب إليهما رأساً إذا حز بها حازب ، ولكن شعورها بسقوط كل حق لها أدبى عنه كان يصددها عن الكتابة ، ومن ثم ظلت بالنسبة إلى أبوى زوجها فى حيز العدم ، كما كانت بالنسبة إلى أبويها منذ الزواج ، وكان إنكارها ذاتها فى الجهتين على هذا النحو ملائماً تمام الملاءمة خلق الاستقلال الكائن فى طبيعتها ، الذى يأتى لها أن تتقبل عطفاً أو رثاء لا تستحقهما فى شرعة الإنصاف ، وقد عولت على أن تعتمد على استحقاقها وحده ، فإما نهوض وإما سقوط ، وأن تنحى كل شبه حق لها على أسرة غريبة ، نشأ من مجرد أن أحد أبناء تلك الأسرة وضع اسمه فى ساعة نزوة على سجل الكنيسة إزاء اسمها .

ولكن قدرتها على التخلي عن الحقوق خارت حين لدعتها قصة إيز ، ووسَّمت لها ، وتساءلت لِمَ لم يكتب إليها وقد وعد بكل جلاء أن يحيطها علماً بالبقعة التى رحل إليها ، ولكنه لم يرسل سطراً واحداً يدل على عنوانه ، فهل هو حقاً زاهد فيها ؟ أم هل هو مريض ؟ أين خلق بها هى أن تتقدم إليه ؟ الحق أن قلقها جدير أن يمنحها الشجاعة المطلوبة لزيارة القس والإفشاء إليه بحزنها لصمت زوجها ، فإذا كان أبو إينجل ذلك الرجل الطيب الذى وصف لها فسيطلع على موقف اللفة والحرمان الذى تفقه ، أما ضيق ذات يدها فيمكنها أن تخفيه عنه .

ولم يكن فى مقدورها أن تنيب عن المزرعة فى غير أيام الأحاد ، ولم تكن لها غير يوم العطلة الأسبوعية فرصة ، وكان عليها أن تقطع المسافة سيرا على قدميها ، إذ كانت فلتنكروم آش واقعة وسط الهضبة الطباشيرية التى لم تصعد إليها سكة حديد بعد ، وإذا كانت المسافة خمسة عشر ميلاً ذهاباً ومثلها إياباً ، كان عليها أن تمنح

نفسها يوما طويلا بالتبكير في النهوض ، فلما انحسرت هجمة الثلج بعد أسبوعين وتلها هجمة من صقيع صلب اسودت لها حواشي الجو ، انتهزت الحالة التي كانت عليها الطرق لمحاولة بئيتها ، فهبطت من مخدعها صباحا في الرابعة وخرجت إلى ضوء النجوم ، وكان الجو مازال ملأما ، والأرض ترن تحت قدميها رنين السندان .

وقد اهتمت ماريان وإيز لرحلتها هذه اهتماما عظيما ، لعلهما أنها من أجل زوجها ، وكانتا تقيان في كوخ على مدى من كوخها في ذلك الطريق ، ولكنها جاءتا تساعدان تس في منطلقها ، واقترحتا أن تظهر في أحسن بزتها لتأسر قلبي محبوبها ، أما هي فكانت خبيرة بميول مستر كلير الكلفنية الصارمة ، فلم تحفل بذلك بل كانت في شك من أمرها ؛ وكان الحول قد حال منذ زواجهما المثير الجذ ، ولكنها كانت قد استبقت من ثيابها التي كانت تملأ صوانها يوم الزفاف ما يكفي لإظهارها في زى فتاة ريفية فاتنة لا تماشى الأزياء الحديثة ، وكانت تلك جلبابا صوفيا ناعما رماديا ذا أفواف بيضاء تدور حول بشرة وجهها وجيدها القرنفلية ، ومغطفا من القطيفة أسود ، وقيمة كذلك .

قالت إيز هيوت وهي تنظر إلى تس واقفة على العتبة ، بين ضوء النجوم الصليبي في الخارج وضوء الشمعة الأصفر في الداخل : « واحسرتاه ألا يستطيع زوجك أن يراك الآن فما أملحك ! » قالتها في تأثر بالموقف وإيثار لتس مصدر عن إخلاص ، ولم تكن هي ولا أية امرأة غيرها لها قليل من الكرم لتستطيع أن تعادى تس في حضرتها ، إذ كانت تس تبث في بنات جنسها أثرا حارا قويا غير مألوف ، يتقلب على دفي صفات الأنوثة من حقد ومنافسة ؛ وبعد أن هيأتها أحسن تهينة أرسلتها ، وسرعان ما غابت في الجوابا كرو ، جو السحر ، وسمعتا وقع خطاها على الطريق الصلد وهي ممعنة في الذهاب ، وتمنت إيز نفسها لها النجاح ، وسرها أنها لم تسيء إلى صاحبها يوم أغراها كلير ذلك الإغراء القصير الأمد ، وإن لم تمز الفضل في ذلك إلى كرم نفسها .

كان كلير قد تزوج تس منذ عام لا ينقص إلا يوما ، وغاب عنها منذ عام

لا ينقص إلا أياماً ، ومع ذلك لم يثبط من همة تس أن تبدأ رحلة سريعة في مثل ذلك الغرض الذى خرجت من أجله ، في صباح شات جاف صاح ، وسط هواء تلك الحرّات الوعرة المخلخل ، وكانت بلا شك تحلم عند انطلاقها بكسب عطف حماها ومكاشفتها بكل تاريخها ، واستمالها إلى جانبها والاستمانة بها على استعادة ذلك الشارد .

وبعد حين بلغت حافة الهضبة التى من دونها يمتد وادى بلا كور الخصب ، وكان إذ ذاك ساكناً غائماً في الفجر ، وكان الجو في ذلك المنخفض أزرق غامقاً بعكس هواء المرتفعات عديم اللون ، وقد خلقت وراءها تلك المزرعة المترامية في مئات الفدادين التى تعودت العمل بها ، ورأت أمامها حقولاً صغيرة لا يزيد أحدها على اثني عشر فدانا ، تبدو من ذلك المرتفع لكثرة عددها كأنها عيون شبكة ؛ كان أديم الأرض في الهضبة أبيض مشرباً بالسمرة ، أما في المنخفض فهو دائماً أخضر خضرة وادى فروم ، ومع ذلك فقد شهد ذلك الوادى مولد أشجانها ، ففى لذلك لا تحبه كما كانت تحبه قدما ، فقد كانت لا ترى الجمال في شيء من الأشياء ، بل تراه — كما يراه كل ذى شعور — فيما يرمز إليه ذلك الشيء .

استطردت في استقامة صوب الغرب ، جاعلة الوادى عن يمينها ، عابرة مرتفعات (هنتوكس) ، مجتازة في اتجاه رأسى الطريق العام من (شرتن آبس) ، إلى كستر برديج ، مارة (بدوجيرى هل) و (هاى ستوى) ، وبينهما الوهدة المسماة مطبخ الشيطان ؛ وتابعت الطريق المرتفعة حتى بلغت (كروس إن هاند) ، حيث يقوم عمود حجرى صامت رهيب ، يدل على مكان معجزة كانت أو مصرع قتل أو كليهما ، وبعد ثلاثة أميال اجتازت الطريق الرومانى المستقيم المهجور ،سمى (لونيغ آش لين) ، فلم تكد تخلص إلى منتهاء حتى هبطت تلا سالكة دربا مقاطعاً للأول ، أذاها إلى بلدة أو قرية تدعى (إفرشيد) ، وبذلك فرغت من نصف المسافة ، فخرجت وتناولت فطوراً ثانياً بشبهة جيدة لا فى حان (سنوآند آكورن) — فقد كانت تتجنب الحانات — بل فى كوخ بجوار الكنيسة .

وكان النصف الثاني من رحلتها مروراً وسط إقليم أسهل أديما ، سلكته فيه درب ( بنقيل ) ، ولكن تس غدت كلما تناقص عدد الأميال بينها وبين محجها تناقصت ثقها وهالها تصور هذه الرحلة ، فتجسم لها غرضها وتنجبر أمامها ، على حين تضائل المنظر الطبيعي أمامها حتى كادت تفضل طريقها ، على أنها بلغت خوالى الظهر بوابة على حافة السقى الذى تقع فيه امنستر ومسكن القس ، وهناك تمهلت وبدا لها البرج الربيع مفرزا ، وكانت تعلم أن القس وجماعة المصلين جلوس تحته فى تلك الساعة ، وتمنت لو أنها تحايلت فى المجدى فى غير يوم الأحد ، فربما تغير قلب رجل ورع كهذا على امرأة اختارت يوم الأحد ، وهو غافل عن الضرورة الحازبة المحيطة بها ، ولكن كان لزاما عليها الآن أن تمضى فى طريقها غفلت الحذاء الضخم الذى لبسته طول الطريق ، ولبست حذاءها الجليل الرقيق المصنوع من الجلد الصقيل ، ودست الأول فى الوشيع الحاذى للبوابة الخارجية ، حيث يمكنها الحصول عليه إذا عادت فى طلبه ، وهبطت النحدر ونضرة وجهها التى اكتسبتها من الهواء البارد تزايلها بالرغم منها ، كلما اقتربت من دار القس .

وكانت تس تأمل أن يمرض حادث يزكى قضيتها فلم يعن حادث ، وكانت الشجيرات النامية حول مسكن القس تحف حفيفاً مزججاً فى الهواء الصاقع ، ولم تكن مهما أرخت العنان لخيالها تتصور — رغم تمام زينتها فى ذلك اليوم — أن ذلك البيت مقر أقرباء لها أدنين ، على أنه لم يكن بينها وبين الساكنيه فرق جوهرى فى الطباع واليول ، بل كانت قريبتهن فى الآلام والمسرآت ، والميلاد والمات وما بعد المات ؛ وأخيراً تجلجت ودخلت البوابة للتحركة ودقت جرس الباب ، وهكذا قضى الأمر ولم يعد سبيل للنكوص ، ولكن لا : لم يقض الأمر بعد فإنها لم يجبها بحجب ، فمادت قلشجعت ودقت ثانية ، واضطربت لهذا العمل ، وكانت قواها متهافنة بعد مسيرة الأميال الخمسة عشر ، فاعتمدت على كشحها يدها وهى تنتظر وكوعها على حائط المدخل .

وكانت الريح من القرس بحيث أذبلت أوراق اللبلاب وأحالت لونها ، وقد

ظلت كل ورقة تفرع أختها قرعا درا كافي حركة ترعج أعصاب تس . وكان قرطاس ملوث بالدم قد تطاير من قمامة حانوت جزار ووقع خارج البوابة ، فهو يضرب على الطريق صموذا وهبوطا ، تأتي له رقته أن يقر ، ويحول ثقله دون أن يطير ، وكانت تخفق حوله أشنات أعواد ؛ وكانت دقة تس الثانية أعلى صوتا من سابقتها ولكن لم يجبها أحد ، نخرجت من مدخل الدار وفتحت البوابة ومشت إلى الطريق ، ومع أنها صعدت البصر في واجهة الدار كأنها تميل إلى العودة ، فإنها أغلقت البوابة متنفسة الصعداء ارتياحا ، وقام بنفسها أنها ربما كانت قد عُرِفَتْ — وإن لم تدر كيف — فخيل بينها وبين الدخول .

سارت إلى المتطف ، وقد فعلت كل ما كانت تستطيع ، ولكنها كانت مصممة على ألا تفر من اضطرابها الحاضر فرارا يكلفها الآلام في المستقبل ، فعادت فرت بالدار مصعدة البصر إلى جميع النوافذ ، وعن لها فجأة أن السر راجع إلى وجود الجميع في الكنيسة ، وتذكرت أن إينجل أخبرها أن والده يصير على ذهاب جميع أهل الدار وفيهم الخدم لأداء فريضة الصباح ، وأن ذلك كان يضطرم إلى تناول طعامهم باردا عند العودة ، فكان لزاما أن تنتظر حتى تقضى الصلاة ، ولم تكن لتلفت الأنظار إلى شخصيتها بالبقاء هناك ، فعدت عن الكنيسة إلى الدرب ، ولكنها لم تتجاوز باب الكنيسة حتى تدفق المصلون خارجين ووجدت نفسها في غمارهم .

ولم ينظر إليها القوم إلا نظرة أبناء بلدة صغيرة آيين على مهل من صلاتهم ، حين يرون امرأة بارزة الطلعة غريبة عنهم ، فحثت خطاها وركبت الطريق الذي أتت منه ، لتحتضى بأشجاره حتى تنغدى أسرة القس ويتأق لهم استقبالها ، وسرعان ما سبقت المصلين ، إلا شاين كانا يقدان السير خلفها وذراعاها متشابكتان ، ولما قارباها سمعت صوتيهما وهما عتدان في الحوار ، وهدهتها زكاة المرأة التي تكون في مثل حالتها تلك ، إلى مشابهة نغمت صوتيهما لرنات صوت زوجها ، ولم يكن السائران إلا شقيقه ، ونسيت تس كل خطتها ولم تعد تحشى



إلا أن يدركاها تلك الساعة في حالها المشته تلك ولم تستعد لمواجهتهما ، فإنها وإن اطمانت إلى أنهما لا يعرفان من هي ، قد خدمت بفريرتها أنهما سيجعلان فيها البصر ، فكانت كلما حثا الخطى حثت خطاها ، وانضج لها أنهما يريدان رياضة الأقدام برهة قبل العودة إلى الدار للغداء ، ليعيدا الحرارة إلى أوصال أبردها طول الجلوس للصلاة .

ولم يسبق تس إلى رأس التل إلا فرد واحد ، هو فتاة بادية الرق تجتذب الأعين وإن بان عليها التحذلق والتكلف ، وكانت تس قد أوشكت أن تدركها حين داناها هي نفسها شقيقا زوجها المعنان حتى سمعت كل كلمة من كلامهما ، على أنهما لم يقولوا شيئا يسترعى اهتمامها حتى لحظا الفتاة السابقة ، فقال أحدهما : « تلك ميرسي تشانت ، فلنلحق بها » ، وكانت تس تعرف الاسم وأن صاحبته هي الفتاة التي قدر لها والدا إينجل ووالداها أن تكون شريكة حياته ، والتي كان لعله يتزوجها لولا تطفلها هي نفسها على حياته ، ولو كانت تجهل هذا لعلته بعد قليل ، إذ أنشأ أحد الشقيقتين يقول : « يا للمسكين إينجل ! إن حسرتي لتضاعف — كلما رأيت هذه الفتاة — على تعجله بالارتقاء في حضن عاملة ألبان ، أو لست أدري ما هي ، إن أمره وإياها لعجيب ، ولست أدري إن كانت لحقت به أو لم تلحق به بعد ، ولكنها لم تكن قد لحقت به منذ شهرين حين كتب إلى » .

قال الآخر : « لست أدري ، هو لا يكاتبني بشيء هذه الأيام ، وأكبر ظني أن زواجه الأهوج قد أتم تلك الجفوة التي بدأت بيننا لشذوذ آرائه » ، وزادت تس في سرعتها صاعدة المنحدر ، ولكن لم تكن تستطيع أن تسبقهما دون أن تسترعى الانتباه بإسراعها ، وأخيرا تقدماهما وخلفاهما وراءها ، وسمعت الفتاة المتقدمة وقع خطاها والتفتت ، وتبع ذلك تحية ومصافحة ومضى الثلاثة معاً ، وسرعان ما بلغوا قمة التل ، وكان من الجلي أنهم ينوون الانتهاء عندها ، فأبطأوا السير واتجهوا إلى البوابة التي استراحت عندها تس منذ ساعة ، لتعرف البلدة قبل المهبوط إليها ، وإنهم لفي حديثهم إذ دفع أحد الشقيقتين مظلته في الوشيع

يسره جيداً ، وجذب منه إلى النور شيئاً .

قال : « هذا حذاء قديم إخال أفاقاً قد نبذه هنا » ، قالت مس تشانت : « أو نبذه محتال أراد هبوط البلدة حافياً ليستدر رحمتنا ، أجل ، لا بد أن الأمر كما أقول فإن هذا حذاء سير جيد لم يخلق بعد ، ما أخبت ذلك الفعل ! سأخذ هذا الحذاء ممي أنصدق به على فقير » ، وكان كثبرت كثير هو الذي عثر على الحذاء ، فرفعه بمقبض عصاه ، وهكذا استولى على حذاء نس ، وسمعت هي كل ما قيل فرت مسترة بلثامها الصوفى ، ثم نظرت خلفها بعد قليل فإذا الثلاثة المصلون قد قفلوا هابطين التل ومعهم الحذاء ، وعندها تابعت بطلتنا سيرها ، وقد أعشت الدموع عينها وفحدرت على خديها .

كانت تعلم حق العلم أن من الضعف والحق أن نأسى كثيراً لهذا الحادث ، ونعمده إساءة موجهة إليها ، ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تغالب أساهها ، وأن تقاوم بشخصها الضعيف منفرداً كل تلك الرميات الآتية من غير رام ، ولم تستطع أن تفكر في العودة إلى مسكن القس ، فقد شعرت زوج إنجيل كأنما ذينك القسين اللذين يدوان لها مثال الرقى ، قد دفعاها أمامهما إلى رأس التل دفعا في ازدراء ؛ لقد ألحقت بها إهانة عن غير قصد ، ولكن كان من سوء الحظ حقاً أن تلقى الابنتين دون أبيهما الذى كان أقل منهما ترمناً وجفاء ، رغم ضيق عقليته ، وكان عجا للخير جبا صميا ؛ وعادت تفكر في حداثها الضخم المنبر ، فكادت ترى لما أصابه من تهكم وتقريع ، وشعرت بسوء منقلب صاحبته .

قالت وهي تنهد رثاء لنفسها : « غاب عن القوم أنى إنما لبست ذلك الحذاء على ذلك الجانب الوعر من الطريق صوتاً لهذا الحذاء الجليل الذى اشتراه هو لى ، غاب ذلك عنهم وغاب عنهم أنه هو الذى انتقى لون جلبابى الأنيق ، وأنى لهم أن يعلموا ؟ ولعلمهم لو علموا ما حفلوا ، لأنهم لا يحبونه نفسى فداء ! » . وراحت ترى للرجل الذى قذفت بها آراؤه الرجعية فى كل هذا العناء الأخير ، ومضت فى طريقها ولم تدرك أن أكبر مصاب فى حياتها هو فقدتها الشجاعة على هذا النحو

النسوى في الساعة الأخيرة الدقيقة ، حين حكمت على حمها بابنيه ، مع أن حالتها الراهنة حالة تستدر عطف مستر كلير ومسر كلير : فقد كان قلبها يطفران رحمة لمن هو في مثل شقائها المبرح ، على حين لا يحفلان بالآلام النفس الخفية بمانها من هو أقل من تس سوء منقلب ، كانا في حرصهما على استصلاح التدين في حماة الآثام ينسيان أن عليهما أن يواسيا ذوى المتاعب النفسية ، وكان ذلك النقص في خلقهما جدرا أن يظهر لهما كنههما بمظهر ناعسة خليقة بحبهما .

وهكذا انطلقت تضرب في الطريق الذي جاءت منه ، ولم تفقد الأمل كله ، ولكنها كانت موقنة أن ساعة من حياتها خطيرة العقبي مقبلة لا ريب فيها ، وكأنها لم تحس أن ساعة من حياتها خطيرة العقبي قد عبرت بها في ذلك الموقف ولم يعد أمامها ما تصنع إلا أن تواصل الكدح على تلك المزرعة الشحيحة ، حتى تستجمع شجاعتها مرة أخرى لتواجه مسكن القس ثانية ، على أنها اهتمت بهيتها في أوتبتها حتى أماطت للثام عن وجهها ، كأنها تريد أن تعلن للعالم أن في مقدورها أن تميظ عن وجهه لا تميظ عنه ميرسى تشانت ، على أنها هزت رأسها أسفاً وهي تفعل ذلك ، قالت : « ليس له شأن ولا اعتبار ! وليس من الناس من يهيم به ولا منهم من يراه ! منذ الذي يآبه لجمال منبوذة مثلتي ؟ » .

وكانت رحلتها في الإياب أشبه بالتسكع منها بالسير : قد عدت رحلتها النشاط والفرض المنشود ، ولم يبق منها إلا الاتجاه ، وبدأت تحس بالتعب في درب بنشيل الطويل الممل ، فراحت تستريح بجانب البوابات وتعتمد على علامات الأميال ولم تلج داراً حتى ذرعت أميالا سبعة أو ثمانية ، وهبطت التل الطويل المنحدر الواقعة في سفحه بلدة إفرشد ، حيث كانت أفطرت ونفسها ممتلئة أملا ما أشد افئقارها إليه الآن ، وكان الكوخ المجاور للكنيسة والذي جلست فيه للمرة الثانية ، أول كوخل على وجه التقريب في ذلك الطرف من القرية ، وأرسلت تس بصرها في الشارع حين ذهبت ربة السكان تحضر لها طعاماً ، فإذا الشارع يكاد يكون مقفراً .

قالت تس : « هل ذهب الناس لأداء فريضة المساء ؟ » فأجابت المعجوز : « كلا يا عزيزتى ، لم يمن ميقات الصلاة بعد ولم تدق النواقيس ، لقد ذهبوا لسماع خطبة الوعظ فى ذلك البيدر ، فإن واعظاً يخطب هناك بين مواقيت الفرائض ، ويقولون إنه مسيحى متحمس قدير ، ولكنى والحق يقال لا أستمع إلى خطبه ، ففما يقال فى خطب الصلاة العادية ما يكفينى » ، ومرعان ما انطلقت تس فى القرية ىرن صدى خطاها على جدران الدور ، كأن ذلك وادى أموات ، فلما قاربت وسط القرية وغل على صدى قدميها أصداء أخرى ، وإذ كانت ترى البيدر على كشب فقد حظرت أن تلك كلمات الخطيب .

وازداد صوته اتضاحاً فى هواء المساء الساكن ، حتى استطاعت أن تستبين كلماته وإن كانت تسير على الجانب الخلقى من البيدر ، وكانت الخطبة كما ينتظر بالغة غاية التطرف فى القول بأن العمل الصالح ليس شرطاً أساسياً للخلاص ، وبأن الإيمان وحده كاف للنجاة كما قال القديس پول ؛ كان ذلك الواعظ المتطرف يدافع عن تلك الفكرة المتمكنة من نفسه دفاعاً حاراً ، فى ألفاظ ذات طنين وجمجمة ، إذ كان جلياً أنه لا حظ له من المنطق قط ؛ ومع أن تس لم تسمع بدء الخطبة فقد عرفت النص الذى تدور حوله الخطبة ، لكثرة رجوع الخطيب إليه وهو : « يا آل غاليسيا الجاهلين ! منذ الذى فتنكم حتى صدتكم عن الحق ، يا من أخذ يسوع المسيح وأنتم تنظرون ، وصلب بين أظهركم ؟ » .

وازداد اهتمام تس وهى واقفة فى الخلف تنصت ، إذ تبين لها أن عقيدة الخطيب إن هى إلا صورة من آراء والد إنجيل ، وبلغ اهتمامها النفاة حين بدأ الخطيب يفصل تجاربه الروحية التى أدت به إلى اعتناق هذه الآراء ، فقال إنه كان أ فجر الفجار لا يصاحب إلا الأوغاد المتبذلين ، حتى أشرق عليه يوم انتبه فيه من غيه ، وقد تم ذلك على يد قس كان له فى نفسه أبعد تأثير ، وإن يكن قد جبهه فى بادى الأمر بقبائح القول ، ولكن كلمات القس التى قالها فى منصرفه نفذت إلى صميم قلبه حيث استقرت ، حتى شاء لها الله أن تبدله ذلك التبديل ، وتحوله إلى ما يرى سامعوه .

ولكن تس لم تدهش للعقيدة دهشها لذلك الصوت الذى كان صوت ألك  
درب رقيق بعينه ، وإن بدا ذلك مستحيلا ، فجمد وجهها انقباضاً ودارت حتى مرت  
أمام واجهة البيدر ، وكانت شمس الشتاء المنخفضة تنعكس رأساً على المدخل  
الضخم ذى البابين على هذا الجانب ، وكان أحد البابين مفتوحاً بحيث امتدت  
الأشعة على أرض البيدر ، حتى بلغت الواعظ وسامعه ، وكانوا جميعاً فى حرز حرير  
من ربح الشمال ، وكان جميع الحاضرين قرويين ، وكان بينهم الرجل الذى رآته تس  
يحمل كوز الدهان الأحمر فى مناسبة سابقة لا تنساها ، ولكن اتبناها كان  
منصرفاً إلى الشخص الرئيسى الواقف على غرائر القمح مواجهاً الناس والباب ،  
وكانت شمس الساعة الثالثة مرتعية عليه رأساً ، وأخيراً تحقق لدى تس ذلك  
الاعتقاد الغريب الذى أثار اضطرابها ، والذى تمكن من نفسها منذ سمعت كلماته  
واضحة ، اعتقادها أنها حيال مغربها القديم



المهتدى





## ٤٥

لم تكن تس منذ غادرت ترتدج قد رأيت دربر قيل أو تلتقت منه كتاباً ، وقد لقيته الآن في ساعة ثقلت قلبها فيها الهموم فلم يصدمها ذلك اللقاء بقدر ما كان يصدمها لو كانت أخطى بالا ، ورغم أنها كانت تراه رأى العين امراً ثائلاً مهتدياً يستغفر عن ماضيه الآثم ، فإن الذكرى تأتي الانقياد للمنطق ، ومن ثم اعترى تس خوف شل حركتها ، فلم تتقدم ولم تتراجع .

ما أشد الفارق بين ما كان ينبعث من تلك السحنة حين رآها للمرة الأولى وبينها الآن ! لم تزل تلك الطلعة الوسيمة البغيضة كما كانت ، ولكنه قد أرسل شعر عارضيه وأزال ذلك الشارب الفاحم وارتدى نصف ثياب القسس ، وقد بدل هذا التحوير من سيئاته حتى زابت معارفه مخايل التمتع والرفاهية القديمة ، وحتى ترددت تس وهلة لا تكاد تجزم بأنه هو ؛ وشعرت بادى ذى بدء بشذوذ كريبه وتناقض ممقوت ، لانبعاث تلك الآيات المحكمات من ذلك الفم ، فإن نبرات ذلك الصوت المألوف أشد الألفة كانت تحمل إلى أذنها منذ أقل من أربع سنين مشاعر مناقضة لهذه المعاني ، وقد أدخل هذا التناقض الساحر على نفسها غما شديداً

لم يكن ما عراه صلاحاً بقدر ما كان تحولاً : فتحوّل تلك القسبات الشهوانية قسبات تقوى وورع ، وغدت تعاريج الشفتين التي كانت تنم على الإغواء تدل اليوم على التضرع ، وكانت وضاعة ذلك الخلد بالأمس تنطق بالاستهتار ، فاكست اليوم قداسة وورعاً وجهاداً في الدين ، واستحالت الحيوانية غلوا في الدين ، والزندقة تشبهاً بالعقيدة ، وغدت تلك العين البراقة الجريئة التي طالما جالت في شخص تس جولة المسيطر ، تلمع بحماسة التدين التطرف ، وباتت تلك السحنة المقلوبة المربدة التي كان يكتسيها وجهه فيما مضى إذا حيل بينه وبين لباته ، تشترك اليوم في تصويره لساميه صورة الآثم الصابي المتعذر إصلاحه ، الذي يصر على العودة إلى التمرغ في حماه .

وكانت معارفه تبدو كأنها تتألم مما حملت فقد قسرت على التحول عن مغازيها الوراثية ، لتتنطق بمشاعر لم تهيئ لها طبيعتها ، وكان من العجيب أن تسامها ذلك كان سوء استخدام لها ، وأن ارتفاعها كان تزييفاً لحقيقتها ، ومع ذلك فهل كل ما تتخيل حق ؟ أبت تس أن تتأدى في هذه الأفكار القاسية ، فإن دربر قيل ليس بأول أثيم أقلع لينجي روحه على قيد الحياة ، فلماذا تمد ذلك غير طبيسي في حالته هو وحده ؟ إنما حملها على ذلك ما صدم أفكارها وذكراياتها من سماع هذه الكلمات الطيبة الجديدة ، في تلك النبرات الأثيمة القديمة ، ولكن المثل يقول : كلما عظمت حوبة الآثم ، جلت توبة القديس ، وليس يحتاج إثبات هذه الحقيقة إلى طول النصوص في تاريخ المسيحية .

طافت تلك الأفكار بذهنها مبهمة مختلطة ، وحالها انحسرت عنها الدهشة التي سلبتها قيادها وقدرتها على الحركة ، كان أول ما دفعها إليه إرادتها أن تواصل سيرها وتخرج من متناول بصره ، وكان جلياً أنه لم يعرفها في موقفها ذاك وهي مستدبرة الشمس ، ولكنها لم تكذب تماود الحركة حتى عرفها ، فكان تأثيرها فيه كالكهرباء ، لا يُذكر بجانبه تأثير مشهده هو في نفسها ، فكانما زایلته نار حماسه وهدير بلاغته ، وراحت شفته تحتلج وتجاهد تحت عبء الكلمات التي تحملها ، وهي عاجزة عن أن تؤديها ما دامت تس بمرأى منه ، وزاغت عيناه مضطربتين في كل ناحية عدا ناحيتها بمد أن لحظتها لأول مرة ، ولكنها كانتا ترتدان في جهد عنيف من وهلة إلى أخرى ، على أن هذا الشلل لم يدم إلا هنيهة ، وعاودت نشاطها وقد نخذ نشاطه ، فأغذت سيرها إغذاً ، وجاوزت البيدر وواصلت طريقها .

وحالها عاودتها القدرة على التفكير هالما هذا التبدل في موقفهما : أنماز هو وهو الذي نكها تلك النكبة إلى صف الفضيلة ، وظلت هي مضية ، وها قد كانت النتيجة — كما حدث في بعض الأساطير — أن ظهر جمال تماثلها فجأة على مذبحه فكاد يطنق " نار الكاهن " ؛ واستطردت في طريقها لا تلوى ،

وكان ظهرها قد وهب قدرة على الشعور بأشعة الأحداق ، بل كأن ثيابها نفسها لها هذه القدرة ، لشدة إحساسها بنظرة موهومة محمقة فيها آتية من خارج البيدر . كان قلبها في المسافة الماضية من الطريق غاصا بحزن صامت ، والآن تغير نوع حزنها : فخل محل ذلك التلهف المكبوح إلى عطف العاطفين ، إحساس يكاد يكون بدنيا بماض يطوقها ولا يمحي ، واشتد إحساسها بخطيئتها حتى أشقى بها على اليأس ، وبدا لها أن ذلك الانقطاع الذي كانت تحمل به بين ماضى وجودها وحاضره قد استحال ، وأن ما فات لن يموت حقا حتى تموت هي ؛ وواصلت سيرها موزعة البال هكذا حتى عبرت الجانب الشمالى من درب (لونيغ آش) للمرة الثانية ، وسرعا ما رأت أمامها الطريق الأبيض الصاعد إلى الهضبة ، التي تمتد حول حافتها ما بقي من رحلتها ، وكان سطح تلك الهضبة الجاف الحائل يترامى موحشا لا يعترض وحشته شخصٌ إنسى أو عربية أو يبين فيه معلم ، إلا روث بعض الخليل رماديا مبعثراً على سطحها البارد المجذب .

وإنها لتجهد في الصمود إذ أحست بخطى ورائها ، فالتفتت فرأت ذلك الشخص الذى تعرفه جيداً ، قد بدا غريب المنظر فى مسوح القسس ، ذلك الشخص الوحيد فى العالم الذى لا تود أن تقابله منفردة ؛ على أنه لم يكن لديها متسع للتفكير أو الروغان ، فاستسلمت بأهدأ ما استطاعت لما لا بد منه ، من لحاقه بها ، ورأته بادی الاضطراب ، لا لسرعة مشيه ولكن للشعور الذى يخالجه ، قال : « تس ! » فأبطأت سيرها دون أن تلتفت فعاد يقول : « تس ! أنا ألك دربرثيل » ، فأجابت فى فتور : « أراك إياه » ، قال : « أهذا كل ما هنالك ؟ » ثم أضاف فى ضحكة خفيفة : « على أنى لا أستحق غير ذلك ! قد يبدو لك مضحكا أن تربنى على هذه الهيئة ، ولكن لا بد لى من احتمال سخريتك ، لقد سمعت أنك رحلت إلى حيث لا يعلم أحد ، تس : أتعجبين من سبب تبئى إياك ؟ »

قالت : « أجل ، ووددت من صميم قلبي لو لم تفعل » ، فأجاب مقتطبا وهما يتقدمان سويا وهى تنقل خطاها على كره : « نعم خليك بك أن تقولى ذلك ،

ولكن لا تسيئي الظن بقصدي ، لملك لحظت كيف فت ظهورك هناك في أعصابي فظننت بي الظنون ، ولكن ذلك لم يكن إلا هفوة لحظة ، ولم يكن إلا أمراً طبيعياً إذا تذكرنا مكاتتك القديمة مني ، ولكن إرادتي تغلبت في النهاية — وإن خيل إليك أنني أناق إذ أقول ذلك — وسرعان ما شعرت أن المرأة التي أسأت إليها تلك الإساءة البالغة ، هي أحق الناس أن تؤدي نحوها واجبي وأعمل على تخليصها من عذاب الآخرة ، ولك أن تسمى سخرأ مما أقول ، ولكني لم آت إلا لهذا الغرض وحده »

قالت وفي صوتها رنة سخرية : « هل خلصت نفسك ؟ إنهم يقولون إذا رمت الخير فابدأ بنفسك » ، قال في هدوء : « أنا لم أصنع شيئاً ، إنما صنعت العناية كل شيء ، كما كنت أقول للجمهوري ، ومهما صيبت على من احتقارك يا تاس فلن تبني مقدار ما صيبت على نفسي وعلى شخصي الغابر ، إنها لقصة عجبية لك أن تصديقها ولك أن ترفضها ، ولكن في مقدوري أن أشرح لك كيف اهتديت إلى الصراط المستقيم ، ولعل لك من الاهتمام ما يكافئك مؤونة الإصغاء ، هل سمعت قط باسم قس إمنستر كبير الشيخ ؟ إنه لمن أشد رجال مدرسته تمسكاً بمذهبه ، وأحد المجتهدين القلائل الذين بقوا في الكنيسة ، ليس يغلو غلو الجناح المتطرف من المؤمنين المسيحيين الذين انحشرت في زمرةهم ، ولكنه نادر المثال بين سواد رجال الدين الذين بدأ محدثوهم يفسدون بالفسطة عقائدهم الأصيلة ، حتى لم يبق منها إلا ظلمها ، ولست أخالفه إلا في مسألة الكنيسة والدولة ، وشرح النص الذي يقول : ( اخرج من بينهم وكن وحدك ) ، وإني لوائق وطيد الثقة أن ذلك الرجل قد نجح في تواضعه ، عدداً من الخلق لم ينج مثله أحد في هذا الإقليم ، أسمعت به ؟ »

قالت : « سمعت » قال : « لقد وفد إلى ترنترديج من سنتين أو ثلاث واعظاً باسم جمعية تبشيرية ، وكان من سوء أدبي أن أهنته إذ ذاك ، حين دفعه حب الخير والإيثار إلى مجادلتني وهدايتي ، فلم يحفظه سوء مسلكي بل قال إنه يؤمل

أن ينزل الله على قلبي هدايته يوماً ، وأردف متمثلاً بقول جولدسميث : (إن كثيراً ممن يقصدون الكنيسة للرجوع ، كثيراً ما يكتفون فيها للعبادة) ، وكان لكلماته سحر غريب فنفذت إلى قلبي ، ولكن فقد أرى كان أبعد أثرًا ، وبدأت شيئًا فشيئًا أرى وضع النهار ، وصار همي الأكبر منذ ذلك الحين أن أهدى الآخرين إلى جادة الحق ، وهذا ما كنت أحاول اليوم ، وإن لم أبدأ الوعظ في هذه الأصقاع إلا حديثًا ، فقد صرفت الأشهر الأولى من خدمتي للكنيسة في شمال إنجلترا ، بين أناس لا يعرفونني آثرت أن أحاول بينهم محاولاتي الأولى العاجزة ، لأستجمع شجاعتي قبل أن يُمتحن إخلاصى أقصى امتحان ، بخطاب من عرفوني وكانوا رفقاءى في عهد الظلام ، ولو أدركت يا تس لذة إنحاء المرء على نفسه فأنى واثق ... »

صاحت به في حق وهي تنفقت عنه مزورة إلى مرتقى على جانب الطريق اعتمدت عليه : « كف ! أنا لا أؤمن بمثل هذه النزعات العجائية ، وإنى لآبى عليك أن تخاطبني بهذا الكلام وأنت تدري ... وأنت تدري أى ضرر أزلت بي ! إنك أنت وأضربك تنالون كفايتكم من التمتع على قيد الحياة بإلقاء مثيلاتي في وهدات المهوم والفصص والدياجى ، ثم يروكم وقد بشتم أن تحتجبوا حظكم من نعيم الآخرة بالتوبة ؛ بعداً لك ولأمثالك ، أنا لا أصدقك ، أنا أمقتك ! »

قال : « تس ! لا تتكلمى هكذا ، لقد عرض لى هذا الأمر وأنا به منتبظ هانى »

وها أنت ذى لا تصدقننى ، فأى شيء لا تصدقين ؟ » قالت : « توبتك وحسن عقيدتك » ، قال : « لم ؟ » قالت وخفضت صوتها : « لأن رجلاً خيراً منك لا يصدق كل هذا » ، قال : « ما أشبه هذا بمنطق النساء ! ومن ذاك الذى هو خير منى ؟ » قالت : « لا أحب أن أخبرك به . »

أجاب وفي نبراته غيظ يتحفر للوثبة فى أية لحظة : « يابى الله أن أقول إنى امرؤ فاضل ، وأنت تملين أنى لا أدعى ذلك فأنى حديث العهد بالصلاح ، ولكن الحديث العهد بالشئ بعيد النظر أحياناً » ، أجابت فى أسف : « نعم ، ولكنى لا أعتقد أنك قد زعرت منزعاً جديداً ، وأخشى يا ألك أن أمثال هذه النزوة التى

اعترتك لا تدوم ! » قالت ذلك وهي تلتفت إليه من حيث كانت مشيخة عنه ، فوقعت عيناه على محياها المهود وقوامها المألوف فظل يتأملها ؛ لقد سكن جانبها الأسوأ في باطنه ولكنه لم ينتزع ولم يخضع تمام الخضوع ؛ وانتهرتة تس : « لا تنظر إلى هكذا ! » .

قالت ذلك عفواً دون أن تنبئه إلى سياء الغضب التي جابهته بها ، ثم عادت فاسترجعت تلك النظرة المتجهممة المتقحمة واحمر وجهها خجلاً وتمت : « معذرة » وعادوها ذلك الشعور للنحوس الذي طالما ساورها من قبل : شعورها بأنها بارتدائها تلك المحاسن الجسدية التي حبها بها الطبيعة ، تبادى الناظرين بالإساءة ؛ قال : « لا ، لا ، لا تسأليني معذرة ، ولكن ما دمت تلبسين لثاماً لا إخفاء محاسنك فلم لا تسدلينه ؟ » فأسدلته وقالت في عجلة : « إنما لبسته اتقاء للريح » ، قال : « ربما كان من النافذة أن أملى عليك هكذا ، ولكن الأجدر ألا أطيل إليك النظر ، فربما جر ذاك وبالا » ، قالت : « صه ! » قال : « الحق أن وجوه النساء طالما غلبتني على أمرى ، فيحق لى أن أخشاها ، وليس بين التقى والورع وبين وجوه الغواني من سبب ، والنظر إلى هذه الفاتن يذكرنى آيى السالفة التي أحب أن أنساها » .

وعند هذا الحد انصرف حديثهما إلى توافه الأشياء ، واستطردا في طريقيهما وتس تسائل نفسيهما من آن إلى آخر إلى أى مدى هو ملازمها ، وهي تكره أن تأمره بالرجوع أمراً ، وكانا يجاوزان بوابات الحقول ومراقى الطرق فيريان كثيراً منها قد نقش عليه بالطلاء الأحمر أو الأزرق آيات من الإنجيل ، فسألته إن كان يدري من الذى تكبد عناء نقش تلك الإرشادات ، فأخبرها أنه هو وقوما آخرين يماونونه في ذلك الإقليم استأجروا رجلاً لكتابة هذه المواعظ ، حرصاً منهم على استخدام كل وسيلة لا يقاظ ضيأ هذا الجبل العاصي .

وأخيراً أداها الطريق إلى البقعة السماة ( كروس إن هاند ) وهي أوحش بقعة على تلك الهضبة المقفرة الجرداء ، وكانت على تقيض تلك الناظر الفاتنة التي

ينشدها المصورون وعشاق الطبيعة ، حتى لقد اكتست ضرباً من الجمال جديداً  
جمالاً سلبياً ذا وقع مؤس ، وكانت قد سميت باسمها ذاك لقيام عمود حجرى مصمت  
غريب ساذج الصنع هناك ، مبنى من طبقة من أحجار الأرض لا نظير لها فى كل  
محاجر تلك المقاطعة ، قد نقشت عليه يد آدمية نقشاً غير محكم ، وكانت تروى  
روايات متناقضة عن تاريخ ذلك العمود ومغزاه : فمن قائل إن صليبا ذا غرض  
دينى كان يقوم هناك فلم يبق منه إلا جذعه ذاك ، ومن قائل إن ذاك الجذع هو  
كل البناء لم يفقد شيئاً ، وإنما أقيم هناك تحديداً للتخوم أو تعييناً لموضع اجتماع ،  
وأيا كان منشأ ذلك الأثر فإن النظر المحيط به كان يبدو حيناً عظيماً وحيناً رهيباً ،  
حسب ما يساور العابر من خوالج ، ويؤثر فى نفس من رآه مهما بلغ من الغفلة .  
قال وهما يبدآن تلك البقعة : « لا بد أن أدعك الآن ، فإن على أن أعط  
فى (أبوتس كرنل) فى السادسة من هذا المساء ، وطريقى يجتاز هذا السهل  
ثم تميل يميناً ، ثم إنك يا عزيزتى تهيجينى على نحو لا أدريه ولن أحاول  
تعليله ، فلا بد لي من مفارقتك واستعادة قواى ، أتى لك اليوم ياتس هذه الدلالة  
فى الحديث ، ومنذا الذى لقنك هذه الانجليزية النقية ؟ قالت تتجنب الرد الصريح  
« لقد تعلمت أشياء فى محلى » ، قال : « ما محلى ؟ » فأخبرته بأولها وهى المحنة  
الوحيدة التى تمت إليه ، فأخفم ثم عاد متمماً : « لم أعلم هذا قبل اليوم ! هلا كتبت  
إلى حين أحسست بدنو محنتك ؟ »

فلم تجب ، وقطع الصمت بقوله : « سنلتاقى ثانية » قالت : « لا . لن  
تدنو منى ثانية ! » قال : « سأتدبر ، ولكن قبل أن نفترق تعالى هنا » ، ومشى  
إلى العمود واستطرد : « لقد كان هذا فيما مضى صليبا مقدساً ، وأنا لا أومن  
بالآثار ولكنى أخشاك أحياناً ، أكثر جداً مما يجدر أن تخشيني الآن ، ولكى  
تخفضى جزعى أريدك أن تضعى يدك على تلك اليد المنقوشة وتحلفى أنك لن تنزفنى  
بمفانتك أو بمسلكك أبداً » ، قالت : « يا إلهى ! فيم تسألنى ما لا حاجة إليه قط  
وهو أبعد الأمور عن ذهنى ؟ » قال : « لتقسمن » ، وأفزعها إلحافه واستلمت

الحجر ، وأقسمت واستطرد : « يحزننى أنك غير مؤمنة وأن ملحدًا قد سيطر عليك وأزاع عقيدتك ، ولكن حسبي هذا الآن ، وفى وسى أن أصلى لك فى دارى ، ومنذا الذى يدرى ما يكون ؟ والآن وداعا » .

والتفت إلى بوابة حقل يستخدمها الصائدون ، ووثب عليها دون أن يرجع البصر إلى تس ، وراح يضرب وسط الحشيش يقصد (أبوتس كرنل) ، وكانت خطواته تدل على تبلبل خاطره ، وصرعان ما أخرج من جيبه كتيبًا وكأنه ينفذ فكرة كانت تساوره من مدة ، وأخرج من بين صفحات الكتيب رسالة مطوية رثة مبتلة ، كأنه كان دائب القراءة لها ، ونشرها وكان عليها تاريخ يعود إلى ما قبل أشهر وعليها إمضاء القس كبير ، وكانت مستهلة بارتياح القس العميق إلى توبة دربرفيل ، وشكره إياه على مكاتبته إياه فى الأمر ، وبعد ذلك يؤكد القس أنه يعفو مخلصًا عما أسلف إليه دربرفيل ، ويتمنى للشاب التوفيق فى خططه المستقبلية ، ويقول إنه كان يود لو رأى دربرفيل ينضوى إلى الكنيسة التى كرس السنين الطوال لخدمتها ، وإنه كان مستعدا لإدخاله كلية من كليات اللاهوت لهذا الغرض ، ولكن ما دام الشاب لم يرد ذلك لأن سبيله طويلة بطيئة ، فإنه لا يلحف عليه ، فإن لكل إنسان أن يعمل على الوجه الذى يلائمه ، وعلى النحو الذى يحس أن الخالق يدفعه إليه .

تلا دربرفيل الرسالة وأعاد التلاوة مرارًا ، وبدأ عليه كأنه ينحى على نفسه بالتقريع ، وقرأ كذلك بعض المذكرات وهو فى طريقه ، حتى شاع الهدوء فى وجهه ولم تعد صورة تس تقلق باله ؟ أما هى فكانت قد تابعت حافة التل سالكة أقرب سبيل إلى مسكنها ، ولم تك تدسّر ميلا حتى قابلها راع وحيد فسألته : « ما مغزى ذلك الحجر القديم الذى جاوزته ؟ أأكن صليبا مقدسا فيما مضى ؟ » قال : « صليبا ؟ كلا ، لم يكن يوما صليبا ، وإنما هى بنية منحوسة أقامها قديما أقرباء رجل شرير عذب هناك بتسمير يده إلى عمود وشنقه بعد ذلك ، وعظامه تحت الأثر ، ويقال إنه باع الشيطان روحه ، وإنه يدب أحيانا حيا ساعيا »



أجفلت تس لسماع هذا النبأ الفظيع ، وخلفت الرجل وراءها ، ودانت  
فلتتكموم آش والليل يرخى سدوله ؛ وصادفت في الدرب الممتد عند مدخل القرية  
فتاة وعاشقها لم يحسّا باقترابها منهما ، ولم يكونا يتسارّان ، وكان صوت الفتاة  
خالصاً صريحاً في ردها على صاحبها الذي كان صوته أشد تهديجاً ، وكان الصوتان  
يسريان في جو المساء البارد الساكن الغامض ، فكانا هما الصوتين المأنوسين  
الوحيدين هناك ، فشرحا صدر تس لحظة ، حتى انطلق فكرها من عقاله ، فبدا  
لها أن هذا اللقاء بين العاشقين إنما ساق إليه افتتان أحدهما بالآخر كافتتانها  
الذي جرعها هذه الغصص ، وحين دنت منهما التفتت الفتاة تنظر من القادم ،  
وعرفت تس ومضى الرجل عنها مرتبكاً .

وكانت الفتاة هي إيز هيوت التي سرعان ما طغى اهتمامها برحلة تس على شغلها  
بشؤونها الخاصة ، ولم تشرح تس نتيجة الرحلة في وضوح ، وراحت إيز — وكانت  
فتاة أريية — تتحدث في قصتها الصغيرة التي رأت تس فصلاً منها ، قالت : « ذاك  
(أمبي سيدلنج) الذي كان يعمل أحياناً في تلبوثيز ، وقد أطل سؤاله عني حتى علم  
بمقدي إلى هذا القر ، فتبعني ، وهو يقول إنه مقيم بي منذ سنين ، ولكني  
لم أكده أجيبه بشيء » .

## ٤٦

مضت أيام على رحلة تس المخفقة ؛ وقامت ذات يوم في الحقل ، وكانت ريح الشتاء الجافة ما تزال تهب ، ولكنها كانت تحتوى من عصفها بأقفاص معروشة بالقش ، قد قامت على الجانب المحمى منها آلة تخرط اللفت ذات لون أزرق لامع يكاد ينطق في ذلك المنظر الكابى ، أمامها كوم طويل من التراب قد حُفَظت فيه جذور اللفت منذ أوائل الشتاء ؛ وكانت تس واقفة عند الطرف الذى كشف فيه عن اللفت ، تميظ بسكين في يدها ألياف الجذور وترابها ، وتلقى بها فى الآلة ، وكان رجل يدير الآلة فتخرج من فجوة فيها الجذور المخروطة صفراء تنبعث منها رائحة منمشة ، يصحبها لفظ الريح وصليل النصال التى تخرط الجذور ، ووقع المديّة التى فى يد تس ذات القفاز .

وكانت تلك المساحة المترامية من الأرض الزراعية الداكنة التى ظهرت للعين حيث اقتلع اللفت ، قد بدأت تُشق خطوطاً أشد دكنة تتحول رويداً رويداً شرائط عريضة ، وكان يزحف على حافة كل شريط منها شيء ذو عشرة سيقان لا يسرع ولا يتوانى ، يذرع الحقل ذهاباً وإياباً ، وكانت ذلك الشيء حصانين ورجلا يتحرك بينهما محراث يشق الأرض تمهيداً لزراعة الربيع ، واستمرت الأمور على هذه الوتيرة المملة ساعات دون أن يجدد جديد .

ثم بدت نقطة سوداء على مدى بعيد وراء الخيول الحارثة ، بزغت من ثغرة فى وشيع وراحت تصعد المنحدر تقصد خارطى اللفت ، وتزايد حجمها من نقطة مجردة إلى حجم الكرة ، وسرعان ما لاح أنها رجل يرتدى السواد آت من صوب فلنتكوم آش ، وإذ كان الرجل الذى يدير الآلة لا يدري ما يصنع بعينه فقد سددها إلى القادم ، أما تس التى كانت مشغولة فلم تره حتى وجّه رقيقها انتباهها إلى اقترابه ولم يكن القادم هو المزارع (جروبي) مستخدمها الغليظ ، بل كان رجلاً فى نصف

ثياب القسوس ، وهو المظهر الذى آض يظهر به ألك دربرفيل ذلك المترف القديم وإذ لم يكن فى موقف الخطابة والاحتدام إذ ذاك فقد كان ساكن الهيئة ، وقد ربكه وجود العامل على ما يظهر .

امتعت تس غما ، وزادت قبعتها ذات الخافة إرخاءً على وجهها ، ومشى إليها دربرفيل وقال فى هدوء : « أريد أن أحادثك يا تس » ، قالت : « أيت على آخر ما طلبت منك ، طلبت منك أن تظل عني بعيداً ! » قال : « نعم ، ولكن لسبب وجيه » ، قالت « أخبرني به » ، قال : « الأمر أهم مما تظنين » ، وأجال بصره حوله ليرى أيسمع حديثه أحد ، فرأى أنهما على مدى من الرجل الذى يدير الآلة ، وأن صوت الآلة يحول دون وصول كلماته إلى آذان الآخرين ، وأولى العامل دبره ليحجب عنه تس ، واستطرد ممعناً فى الإعراب عن تأنيب ضميره إياه وقال : « الأمر الذى أتى بي هو أنى كنت فى شغل بأمر روحى وروحك عندما تلاقينا للمرة الأخيرة ، فأهملت الخوض فى حالتك المعيشية ، وقد كنت حسنة البزة فلم أفكر فى الأمر ، ولكنى أرى الآن أنك تشقى ، وأن شقاءك أشد مما كان يوم ... يوم عرفتك ، أشد مما تستحقين ، ولعل أكبر الذنب فى ذلك عائد إلى ! » لم تجب تس وراح يتأملها متسائلاً ، وهى تعاود تشذيب اللفت مخنية الرأس مخفية الوجه تحت قلنسوتها تمام الاختفاء ، وقد أحست أن الانهماك فى عملها يقدرها على مقاومة زائرهما واستباده عن عواطفها ، واستطرد مشهداً أسفاً : « إن حالتك أسوأ ما عرفت ، ولم أكن أعلم بالنتيجة حتى أخبرتنى ، ما كان الأمنى وغداً إذ دنست هذه الحياة البريئة ! إن الذنب كله ذنبى ، وكل ما كان من علاقتنا الشاذة فى ترندريج فلوميه عائد إلى ، إنى أقول جاداً كل الجدد إن من العار على الآباء أن ينشئوا بناتهم جاهلات ذلك الجهل الخطر بالفخاخ والأحاييل التى ينصبها لمن الأشرار ، سواء أكان الآباء يصعدون فى ذلك عن قصد حسن أم عن إهمال » .

لم ترد تس على الاستماع وهى ترى بجفء مستدير وتتناول غيره فى حركة آلية

منتظمة ، وليست عليها إلا سياء عاملة فلاحه ساجدة في أحلامها ، واستطرد :  
 « ولكنى لم آت لأقول هذا ، إن ظروفى الحالية هى هذه : لقد فقدت أسمى بعد  
 منادرتك ترتدج وآل المنزل إلى ، ولكنى أعزم بيمه ووقف حياتى على التبشير  
 فى أفريقيا ، ولا شك أنى سأكون من أعجز الماجزين فى هذا العمل ، ولكنى  
 على كل حال أريد أن أطلب منك شيئاً ، فهل لك فى مساعدتى على أداء واجبى ،  
 والتكفير بالطريق الوحيد المستطاع عن اختداعى إياك ؟ هل لك أن تكونى زوجى  
 وتصاحبينى ؟ لقد حصلت على هذه الوثيقة النفيسة ، وقد كانت هى أمنية أسمى فى  
 احتضارها » ، وتحسس فى جيبيه فى ارتباك ثم استخرج رقاً .

قالت تس : « ما هذا ؟ » قال : « وثيقة زواج » ، فأجابت على عجل متفهمة :  
 « لا ياسيدى ، لا ! » قال : « لا تريدن ؟ لم ؟ » وارتسمت على وجهه إمارات  
 خيبة ظن ليست كلها خيبة ظن من حيل بينه وبين واجبه ، بل بدا جلياً أن  
 بعض صباهته القديمة بتس قد انتبهت ، وقد اصطلحت الرغبة والواجب فى نفسه ،  
 وعاد يقول فى لهفة : « ولكن ... » ، ثم التفت جهة العامل الذى يدير الآلة ،  
 وأحست معه تس أن ذلك الحديث لا يمكن أن يُفرغ منه فى موقفهما ذاك ،  
 فأخبرت العامل أن سيداً جاء لزيارتها وأنها تود مسيرته قليلاً ، وتركته ومشت  
 مع دربرفيل يجتازان الحقل المخطط كحمار الوحش ، فلما بلغا أول قسم حديث  
 الحراثة مديده يساعدها ، ولكنها تقدمت قافزة على رؤوس القُلاع كأنها لا تراه .  
 ولم يكاد يجتازان الأتلام حتى عاد يقول : « ألا تزوجينى يا تس وتجميلين  
 منى رجلاً يحترم نفسه ؟ » قالت : « لا أستطيع » ، قال : « لم ؟ » قالت :  
 « إنك لتعلم أنى لا أحمل لك حياً » ، قال : « ولكنك ستجيبينى بمرور الزمن ،  
 وربما أحببتى حالاً تستطيعين العفو عني » ، قالت : « لن أحبك أبداً ! » قال :  
 « لم هذا الوثوق ؟ » قالت : « لأنى أحب سواك » ، فبدت عليه الدهشة وقال :  
 « تحبين سواى ؟ ولكن ألا تقيمين اعتباراً لما يرضاه الخلقُ القويم واللياقة ؟ »  
 قالت : « مه ! كف ! لا تقل هذا ! » قال : « على كل حال ربما كان حبك

لذلك الرجل الآخر شعوراً عابراً ستغلبين عليه .. » .

فقاطعته : « لا ، لا » ، فأجاب : « أجل ، أجل ! لم لا ؟ » قالت : « لا أستطيع أن أخبرك » ، قال : « يحتم عليك الشرف أن تجربيني » ، قالت : « إذن لقد تزوجته ! » قال : « آه ! » ووجع محملاً فيها ، وقالت في لهجة توسل « لم أكن أريد أن أخبرك ، إن الأمر هنا سر أو هو على الأقل لا يُعرف إلا لاسما ، فهل لك أن تكف عن مساءلتي ؟ يجب أن تذكر أننا الآن غريبان أحدهما عن الآخر » ، قال : « غريبان ؟ أحقا ؟ غريبان ! » ومرت بذهنه لمحة من لمحات تهكمه القديم ولكنه تماسك حتى بددها ، وقال في لهجة آلية مشيراً إلى العامل الذي يدير الآلة : « أذلك الرجل زوجك ؟ » قالت في إباء : « ذلك الرجل ! ليس هناك ! » قال : « فن هو ؟ » قالت : « لا تسألني فيما لا أحب أن أفصي إليك به ! » ورفعت إليه وجهها متوسلة مرسله أهدابها .

ساور دربرثيل التشوف فقال في حدة : « إنما لمصلحتك أسألك ! يا الله ! إني أقسم إني ما أتيت هنا إلا لنفمك ؛ لا تنظري إلى هكذا يا تس ، أنا لا أستطيع مقاومة محاسنك ! فثل هاتين المينين لم تخلقا قط قبل المسيحية ولا بعدها ! كفى ، لن أنهور ، وليس لي أن أتجاوز حدى ، إني أعترف أن رؤيتك قد أثارت كمين حبي لك ، وكنت اعتقدت أنه مات كما مات غيره ، ولكنني حسبت أن في الزواج معصاً لكيئنا وقلت لنفسي : إن الزوج المارق تقيمه الزوجة ، والمرأة المارقة يقومها البعل ، ولكن خطتي قد أفسدت على ، وعلى أن أحمل هذه الخلية ! » .

وأطرق يفكر في قنوط ، وعاد يقول في هدوء وهو يمزق الوثيقة اثنتين ويضعها في جيبه : « متروجة ! متروجة ! حسن ، ما دام الأمر كذلك ، وما دام قد حيل بيني وبين ذاك ، فإني أحب أن أحسن إليك أنت وزوجك أيأ كان ، وثمة أسئلة كثيرة أود أن أسألهأ ، ولكنني طبعاً لن أفعل نزولاً على إرادتك ، وإن كنت أستطيع أن أنفمك أنت وزوجك لو عرفته ؛ أهو يعمل في هذه المزرعة ؟ » قالت : « لا ، بل هو نازح » ، قال : « نازح ؟ نازح عنك ؟

أى ضرب من الأزواج ذاك؟» قالت: «لا تنله بمذمة، لقد كان الذنب ذنبك: لقد عرف...» قال: «أهكذا؟ هذا مؤلم يا تس؟» قالت: «نعم»، قال: «ولكن أينزح ويدعك تكدحين على هذا النحو؟».

فأقبلت تدافع عن الغائب بكل حماسها، قالت: «لم يدعني أكدح! هو لا يعلم أنى أشتغل، إنما أشتغل بمحض مشيئتي»، قال: «فهل يكتب إليك؟» قالت: «لا أستطيع أن أخبرك، من الأشياء ما هو خاص بنا»، قال: «معنى هذا طبعاً أنه لا يكتب، أنت زوج مهجورة يا حسناً تس؟» وزرت بنفسه نزوة فال يريد أن يأخذ كفها، وكان قفاز العمل عليها فلم يقبض إلا على الأصابع الجلدية الخشنة التي لا تعبر عن الحياة والشكل اللذين يحتويهما القفاز، وصاحت في فزع: «إليك عني!» وسحبت يدها من القفاز كما تسحبها من حبيب وتركته في قبضته، واستطردت: «أؤوسل إليك أن تذهب — من أجلي أنا وزوجي، اذهب باسم مسيحتك!» قال في اقتضاب: «نعم، نعم، اذهب»، ورمى القفاز إليها ودار بيني المضي، ولكنه عاد فالتفت إليها قائلاً: «تس: أقسم بالله العلام ما قصدت سوءاً بتناول يدك!».

ووقفت خلفهما خطوات حصان لم يكونا قد انتبها إلى وقعها على التربة، لشغلها بما هما فيه، وسمعت تس صوتاً يقول: «عجياً! ماذا تصنعين بعيداً عن عمالك في هذا الوقت من النهار؟» وكان المزارع (جروبي) قد لاحظ شخصيهما من بعد فاجتاز الحقل إليهما مستظلاً ليرى ما يفعلان في حقله، قال دربرثيل وقد تبجح وجهه غضباً لأمر غير المسيحية في هذه المرة: «لا تخاطبها هذا الخطاب»، قال الرجل: «عجياً يا سيدى! وأى علاقة لها بغلاة القسس؟» فالتفت دربرثيل إلى تس قائلاً: «من هذا؟» فشت إليه قائلة: «اذهب، أؤوسل إليك أن تذهب»، قال: «كيف؟ أأتركك وهذا الجاهل! إني لأرى من سيأته أى وغد هو»، قالت: «ليس على بأس منه، هو غير مفتون بى، ولى أن أتركه في يوم المذراء القديم»، قال: «لا إخالنى أستطيع إلا الإذعان لمشيئتكم ولكن... وداعاً»

ولما مضى المدافع عنها كارهاً — وكانت أشدّ خشية له منها للمهاجم — استطرد المزارع في تقريرها ، فتقبلت تقريره في أتم هدوء ، إذ كان هجومه بريئاً من الصفة الجنسية ، وكانت تكاد تشمر بالراحة بعد مجاربتها الماضية ، حين ترى لها رئيساً غليظاً لم يكن ليتوانى عن لطمها لو جرؤ ، وعادت في صمت إلى رأس الربوة مقر عملها ، وكان فكرها من الاستغراق في زورة ذلك الزائر ، بحيث لم تكد تنتبه إلى أن أنف حصان جروبي يكاد يلامس كتفها ، وزجر الرجل قائلاً : « مادمت قد اتفقت على العمل عندى إلى يوم العذراء القديم ، فسأعرف كيف أنفذ الاتفاق ، يا لكن من شقيات ! تردن اليوم أمراً وسواء غداً ، ولكنى لن أسمح بهذا بعد اليوم ! » .

وإذ كانت تس تعلم حق العلم أن الرجل يرهقها إرهاقاً لا يرهقه الأخريات بسبب تلك الضربة التى طرحتة أرضاً ، لم يسمعها إلا أن تتخيل وهلة واحدة ما عسى كانت تكون النتيجة ، لو كان فى مقدورها أن تقبل ما عُرض عليها من أن تكون زوجاً غنية لألك دربرفيل ؛ إن ذلك يستنقذها دفعة واحدة من رضوخها لا لمستخدمها الغليظ فقط ، بل لما لم يأكله يلوح كأنه يزدريها ، قالت وهى تلهث : « ولكن لا ، لا ، لا ، لم أكن لأرضى بالاقتران به ، إنه لبغيض إلى أى بغض ! » .

وفى تلك الليلة بعينها شرعت فى كتابة رسالة توصل إلى كبير ، أخفت عنه فيها خصاصة حالها وأكدت له حبها الذى لا ينقضى ، ولو كان فى استطاعة أحد أن يقرأ بين سطورها ، لاستطاع أن يتبين وراء حبها العظيم خوفاً عظيماً يقارب اليأس ، خوفاً من أمور مقبلة عليها بصورها لم تبسح بها ، على أنها فى هذه المرة أيضاً لم تكمل إفراغ عواطفها : لقد طلب من إيز أن ترافقه ، ولعله لم يعد يحمل لها هى أدنى حب ؛ ووضعت الرسالة فى صندوقها ، وساءلت نفسها إن كانت ستقع تلك الرسالة فى يد إينجل يوماً .

واستغرقت فى أعمالها اليومية التى تكاثرت ، حتى كان اليوم الذى يهتم له

الزارعون أجل اهتمام ، يوم سوق ( كندلاس ) ، وفيه يذهب إلى البلدة التي تقوم فيها السوق كل مشتغل بالزراعة يريد أن ينتقل متى انتهى أجل عقده إلى غير الزرعة التي يعمل بها ، وكان جل عمال مزرعة فلتنكوم آش ينوون الإباق منها ، فلم يبرغ النهار حتى خرجت زمرهم قاصدة البلدة ، وكانت على مسافة عشرة أميال أو اثني عشر ميلا في طريق وعرة ، ومع أن تس أيضاً كانت تنوى أن تنتقل عند انتهاء عقدها ، فإنها كانت ضمن القلائل الذين لم يخرجوا إلى السوق ، إذ كان يساورها أمل مبهم في أن أمراً سيعرض فيجعل من غير الضروري اللجوء إلى العمل من جديد .

كان اليوم يوماً هادئاً من أيام فبراير نادر المثال لطفاً في ذلك الفصل ، حتى ليخيل للمرء أن الشتاء انصرم ؛ ولم تكد تس تفرغ من غداؤها حتى تمرض شبح دربر قيل بنافذة الكوخ الذي كانت تقيم به والذي كان خاوياً عليها في ذلك النهار ، فوثبت قاعة ، ولكن زائرها كان قد دق الباب ولم يعد من المستطاع أو المقول أن تهرب ، وأجست فرقاً لا يوصف كنهه بين دق دربر قيل ومشيته إلى الباب ، وبين هيئته حين رآه لآخر مرة ، وهمت أن ترفض أن تفتح ، ولكنها لم تر هذا أيضاً معقولا ، فهضت ورفعت المزلاج ثم تراجعت عجلي ، ودخل فراها وارتمى في مقعد قبل أن يقول شيئاً .

ثم أنشأ يقول في لهجة يائسة وهو يمسح وجهه المحرور وكان متوهجاً بادی الانفعال : « تس ! لم يسعني إلا الهجاء ! لقد بدا لي أن أجيء لأرى على الأقل كيف حالك ؛ أؤكد لك أنني لم أفكر فيك قط حتى رأيتك عصر ذلك الأحد ، والآن لا أستطيع الفرار من خيالك مهما حاولت ! إن من المؤلم أن تضرب امرأة صالحة برجل طالح ، ولكن هذه هي الحقيقة ؛ ليتك تصلين من أجلي يا تس ! » وكان ألمه الذي يقال به يكاد يستثير الرثاء ، ولكن تس لم ترث له ، قالت : « كيف أصلي من أجلك على حين يُحرم على أن أعتقد أن القوة العظمى التي تحرك العالم تغير خططها من أجلي ؟ » .



قال : « أحقاً تعتقدين ذلك ؟ » قالت : « نعم ، لقد عولجت من ادعاء أنى أعتقد غيره » ، قال : « عولجت ؟ من عالجك ؟ » قالت : « زوجى ، إن كان لا بد أن أخبرك » ، قال : « آه ! زوجك ! زوجك ! ما أغرب هذا ! أذكر أنك أشرت إلى الأمر فى حديثنا السالف ؟ ما حقيقة عقيدتك فى هذه المسائل يا تس ؟ يخيل إلى أنك لا تدينين بدين ، ولعلى أنا المولوم » ، قالت : « بل لى دينى وإن لم أدن بالخوارق » ، فرمقها رمقة جزع وقال : « أتظنين إذن أن النهج الذى أنتهجه خطأ كله ؟ » قالت : « جانب كبير منه » ، قال فى قلق : « ومع ذلك فقد كنت وطيد الإيمان به » ، قالت : « أنا أؤمن بروح خطبة المسيح على جبل الزيتون ، وكذلك زوجى العزيز يؤمن بها ... ولكنى أرفض أن أؤمن ... » ، وسردت ما ترفض .

قال دربرثيل فى جفاء : « الحقيقة أنك تقبلين كل ما يؤمن به زوجك العزيز ، وترفضين كل ما يرفض ، دون بحث منك ولا تعليل ، وهذا شبيه بكن معشر النساء ، وعقلك مستعبد لعقله » ، قالت وعليها سياء ظفر ساذج وإيمان باينجل كبير لا يكاد يستحقه أكمل الرجال بله زوجها : « نعم ، لأنه يعرف كل شئ ! » قال : « نعم ، ولكن لا يجدو بك أن تتلقى الآراء الراضية جملة على هذا النحو من شخص آخر ؛ لا بد أنه رجل لبق إذ بث هذا الشك فى نفسك ! » قالت : ما فرض على رأياً قط ، ولا أراد مناقشتى فى تلك المسائل يوماً ! ولكنى كنت أنظر إلى الأمور من هذه الناحية : إن ما يؤمن به هو بمد فحص عميق للمذاهب أخرى أن يكون صحيحاً مما قد أعتقد أنا ولم أنظر فى المذاهب قط ! » قال : « ماذا كان يقول ؟ لا بد أنه قال شيئاً ! » .

فكرت تس ثم استحضرت بذات كرتها الواعية التى كانت تستوعب ألفاظ كبير نفسها بله معانها ، قضية جدلية صارمة سمعته يستخدمها مرة ، حين اندفع يتحدث وهى بجانبه كمن يفكر علناً ، وأدلت بها ممثلة لهجة كبير وأدائه تمثيل إخلاص وإجلال ، وأنصت إليها دربرثيل فى أتم انتباه ثم قال : « ألدبك غير

هذا ؟ » قالت : « قال مرة أخرى ما معناه ... » وحكت قضية أخرى ربما وجد القارى لها ضريباً فى تلك السلسلة من الكتب التى تبدأ (بالقاموس الفلسفى) وتنتهى (بمقالات هكسلى) ، قال : « آه ... ها ! أنى لك تذكر كل هذا ؟ »

قالت : « كنت أحب أن أعتقد ما يمتد ، وإن لم يُرد هو ذاك ، وما زلت أتحايل لديه حتى أفضى إلى بعض أفكاره ، ولا أدعى أنى أفهمها حق الفهم ولكنى واثقة من صحتها » ، قال : « عجباً ! إنك لتعلمينى مالا تعلمين أنت نفسك ! » واستغرق فى التفكير واستطردت تقول : « وهكذا جعلتُ حظى الروحى حظه ، ولم أُرِد أن يختلف الحظان ، فما يصلح له يصلح لى » ، قال : « أيعلم أنك شريكته فى المروق ؟ » قالت : « كلا ، لم أخبره قط ، إن كنت مارقة حقاً » ، قال : « إنك خير منى حالا اليوم يا تس ! فأنت لاتعتقدين أن واجبك أن تبشرى بعقيدتى ومن ثم لا تعصين ضميرك بامتناعك عن التبشير ، أما أنا فأعتقد أن واجبى التبشير ، ولكنى كالآباسة أومن وأرتعد ، فأنا أنبذ التبشير أحياناً وأستسلم لهيامى بك »

قالت : « كيف ؟ » قال فى جفاء : « كيف ؟ لقد زرعت كل هذا الطريق الطويل إليك اليوم ! ولكنى بدأت رحلتى قاصداً سوق كستر بر دج حيث كنت تعهدتُ بالتبشير بالإنجيل من عربة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، وحيث ينتظرنى جمع الإخوان هذه الساعة ، وهاك الإعلان » ، وأخرج من صدره إعلاناً مكتوباً عليه يوم الاجتماع وساعته ومكانه حيث يقوم بالتبشير ، فنظرت تس إلى الساعة وقالت : « ولكن كيف تستطيع الذهاب إلى هناك ؟ » قال : « لا أستطيع الذهاب إلى هناك ، لقد جئت إلى هنا ! » قالت : « ماذا ؟ أبعد أن تعهدت بالخطابة ... ؟ »

قال : « تعهدت بالخطابة ولن أذهب ، لا لسبب إلا لهُفتى إلى رؤية امرأة كنت فيما مضى أحقرها ! حاشا ! قسماً بشرفى ما احتقرتك يوماً يا تس ، ولو فعلت لما أجببتك اليوم ! وسبب عدم احتقارى إياك أنك لم تدنسنى رغم كل شيء ، بل أصررت على الافتتال عني مسرعة حين عرفت الموقف ، ولم تظلى طوع

هواى ، فكان فى الدنيا أنى لم أحقرها وهى أنت ، ولكن لك أنت أن تحتقرنى الآن ! فقد حسبته أتعب على الجبل إذا أنا مستعبد فى القياض ! هاها ! « قالت : « ألك دربرفيل ! ما معنى هذا ؟ ماذا كان منى ؟ » قال فى سخر مرير : « ماذا كان منك ؟ لم يكن منك شئ عن عمد ، ولكنك كنت الوسيلة ، الوسيلة البريئة لصُبوئى ؛ إنى لأسأل نفسى أنا حقاً أحد عبيد الإثم الذين يعودون بعد فرارهم من أوضاع الحياة فيتورطون فيها ويغلبون على أمرهم ، وتكون نهايتهم الثانية شرّاً من بدئهم ؟ »

ووضع يده على كتفها واستطرد وهو يهزها هزة تدليل كأنها طفلة : « تس ! بنتى ! لقد كنت فى طريقى إلى التطهر الاجتماعى على الأقل حتى عدت إلى لقائك ! فلم أغريتنى ؟ لقد كنت كأثبت ما يكون الرجل إيماناً ، حتى رأيت تينك العينين وذاك الفم من جديد ، هيات أن يكون قد خلق فم أفق من هذا منذ حواء ! » وخفت صوته وتطارت من عينيه السوداوين نظرة شهوة عارمة ، وعاد يقول : « أيتها المغرية العزيزة تس ! أنت أيتها الساحرة البالية ! لم أستطع مقاومتك حالاً رأيته ثانية ! »

قالت وهى تتراجع : « أنا لم أقصد أن ترانى ثانية ! » قال : « أنا أعلم ذاك ، وأكرر أنى لا ألومك ، وحين رأيته تلقين سوء المعاملة ذلك اليوم فى المزرعة ، كدت أجن لعدم امتلاكى الحق الشرعى للدفاع عنك ، وعدم إمكانى الحصول على ذلك الحق ، على حين يهلك من يملكه إهمالاً يلوح لى تماماً ! » قالت وقد بلغ منها الاضطراب : « لا تسى إليه إنه غائب ! إرع غيبته فإنه لم يسى إليك ! ودع زوجه وشأنها قبل أن تشيع مقالة سوء تدنس اسمه الكريم ! » قال كمن ينتبه من حلم لذيذ : « سأفعل ، سأفعل ، لقد حثت بوعدى بالخطابة فى أولئك الحقى السكارى فى السوق ، وهذه أول مرة أمارس فيها هذه النكتة العملية ، ولو تصورت مثل هذا العمل منذ شهرين لهالنى ، سأذهب أقسم أنى ... ولكن أيمكننى ؟ »

ثم عاد يقول : « ضمة واحدة يا تسي ! بحق الصداقة القديمة ! » قالت : « أنا عزلاء يا ألك ، وشرف رجل كريم في صيانتى ، تذكر وارعو ! » قال متأففاً : « إخالك على صواب » ، وزم شفتيه حنقاً على نفسه لضعفه ، وقد غاب عن ناظره الإيمان بالدين والدنيا معاً ، ولاحث جثث تلك الشهوات المتنزية القديمة ، التى ظلت عديمة الحراك على أسارىه منذ توبته ، كأنها تماود الحياة ، وتلتئم كأنما بمشئ ، وخرج متردداً .

صرح دربر قيل بأن حشته بوعده ذلك النهار كان راجعاً إلى وده ، ولكن كلمات تس التى رددت صداها عن إينجل كبير قد أثرت فى نفسه تأثيراً عميقاً ، وظلت تعمل عملها بعد ذهابه ؛ ومشى صامتاً كأنما خدرت نشاطه الفكرة التى لم تطراً له من قبل : فكرة إمكان أن تكون عقيدة على غير شيء ، فإن توبته الطائشة لم تقم على شيء من المنطق ، ولعلها لم تكن إلا نزوة رجل مستهتر ينشد لذة جديدة ، وقد ثبت موت أمه تلك النزوة تثبيتاً مؤقتاً ، والآن كانت قطرات المنطق التى صبها تس فى بحر حماسه ، كافية لإبراد حرارته ، حتى جددت ، وقال فى نفسه وهو يتدبر مرة بعد أخرى تلك الجمل المركزة المعنى ، التى ألقها إليه : « غاب عن ذلك الفتى البارع أنه بإخبارها بتلك الأمور إنما يمهّد لى سبيل العودة إليها ! »

## ٤٧

اليوم تدرس آخر عرمة من عرم القمح في مزرعة فلتسكوم آتش ، وكان يوماً من مارس طلع فجره غائب العالم لا يعرف أين مشرقه ، وكانت تلوح وسط الفسق قمة العرمة ذات الشكل الشبيه بالمتحرف ، وكانت العرمة قد قامت في موضعها هذا منذ حين ، واختلفت عليها الأنواء تفلسها حرّة وتحيل لونها أخرى ولما وصلت تس وإيز إلى ممرح العمل لم تبيّنا إلا لساعهما حركة ذات حفيف أن غيرهما قد سبقتهما ، ولما تبين الضوء لاح بجانب النسوة شبعا رجلين على القمة ، منهمكين في إزالة سقف العرمة قبل البدء في رى الحزم ؛ وفي أثناء ذلك وقفت تس وإيز والعاملات الأخريات في شملاتهن البيضاء الضاربة إلى الدكنة ، ينتظرن في ارتعاد ، وكان المزارع جروبي قد أصر على وجودهن هناك في تلك الساعة المبكرة ، رغبة منه في إنهاء العمل قبل انصرام اليوم .

وكان يقوم دوين العرمة ذلك الطاغية الأحمر الذي جاء النساء لخدمته ، والذي كان لا يظهر منه بعد إلا شكله العام ، وهو هيكल ذو إطار خشبي وسيور وعجلات ؛ تلك هي آلة الدرس التي كانت إذا دارت أعياء عضلات النساء وأعصابهن سد مطالبها الملحاح ؛ وكان على مدى منها شبح آخر مبهم أسود ، له أزيز يني عن قوة عظيمة مدخرة ، وكانت مدخته الطويلة المرتفعة بجانب شجرة الدردار ، والحرارة المتشعة من تلك البقعة ، تفصحان دون حاجة إلى وضع النهار بأن تلك هي الآلة المحركة التي ستقوم بدور الدافع الأول في هذا العالم الصغير ؛ وكان يقوم بجوارها كائن أسود عديم الحراك ، هو رجل طوال ملوث بالدخان والقنّام سارح في غيبوبة ، وبجواره كوم من القمح ، ذاك هو مدير الآلة ؛ وكان اختلاف لونه واعتزاله ما حوله يكسبانه منظر مخلوق هارب من الجحيم إلى هذا الإقليم الشفاف المبرأ من الدخان ، ذى الحب الأصفر والتربة الشهباء ، الذي لا يجمعه به سبب ،

قد أتى يدهش أهليه ويفجأهم بالغريب .  
 وكان يشعر في نفسه بما يدل عليه منظره : كان قائماً في عالم الزراعة ولكنه لم يكن يمت إليه ، كان يدين للنار والدخان بينما يدين أبناء الحقل هؤلاء للنبات والجو والصقيع والشمس ؛ وكان يحول بآلته من مزرعة إلى مزرعة ، ومن مقاطعة إلى مقاطعة ، إذ كانت آلة الدرس البخارية ما تزال متنقلة في هذا الجانب من وسكس ، وكان الرجل يتكلم بلهجة شمالية غربية ، وكانت أفكاره محولة إلى داخل نفسه ، وعيناه مسدوتين إلى الهيكل الحديدي المنوط به ، وهو لا يكاد يرى المنظر المحيط به أو يحفل له ، ولا يخاطب أهل المزرعة إلا ندرأ فيما لزم ، كأن قضاء محتوما قد حكم عليه بالإتيان إلى هذه البقاع على كره منه في خدمة سيده الجهنمي آنف الذكر ؛ وكان السير الجلدى الطويل المعتد من محلة الإدارة في آلته إلى آلة الدرس الحمراء دوين العرمة ، هو الصلة الوحيدة بين الزراعة وبينه .  
 كان واقفاً والقوم يكشفون عن الحزم ، مزوراً بجانب مستودع القوة التحرك الذى يملكه ، والذى كان هواء الصباح يخفق حول جرمه الأسود الحامى ، ولم يكن له شأن بالعمل التمهيدى ، إنما كانت ناره تنتظر متوهجة وبخاره شديد الضغط ، وفي مقدوره في بضع ثوان أن يجعل السير الجلدى الطويل يتحرك بسرعة تحطف البصر ، ولم يكن يهمه ما خرج عن نطاق آلته سواء أكان قمحاً أم قشاً أم ياباً ، فإذا سأله أحد الفارغين من أهل الجهة ما صناعته أجاب موجزاً أنه مهندس .

كشفت العرمة وقد وضع النهار ، وعندها احتل الرجال أماكنهم وركب النساء وابتدأ العمل ، وكان المزارع جروبي أو « هو » كما يسمونه قد وصل ، وأمر فجعلت تس على إفريز الآلة بجوار الرجل الذى ينفذها ، وكان عملها أن تحل كل حزمة من القمح تسلمها إليها إيز هيوت التى كانت بجذائها ، ولكن كانت واقفة على العرمة لا على الآلة ، بحيث يستطيع مغذى الآلة أن يتناول الحزمة ، وينشرها على القرص الذى يلف فينثر كل الجبوب في لمح البصر ، وسرعان

ما حى العمل بعد خطأ أو خطئين في البدء أنلجا صدور من يمتقون الآلات .  
وسار العمل حديثاً حتى موعد الفطور ، فأوقفت آلة الدرس نصف ساعة ،  
ولما عاودوا العمل حشر جميع العمال الآخرين في المزرعة لينبؤا عرمة جديدة من  
الميدان ، بدأت ترتفع بجانب عرمة القمح ؛ وتناول القوم بعض الطعام نحي وهم  
قيام لم يبرحوا مواضعهم ، ولم تمر ساعتان بعد ذلك حتى حان موعد الغداء ،  
والعجلات التي لا يدركها الكلال لا تنى عن الدوران ، وطنين آلة الدرس النفاذ  
يهز كل من كان على مقربة من القفص السلكي ، هزاً يبلغ النخاع .

وكان المسنون من الرجال على عرمة الميدان المتصاعدة يتحدثون بالأيام الماضية ،  
حين كانوا يدرسون بالمذقات على أرض البيدر البلوطية ، حين كان كل شيء حتى  
التذرية يُعمل باليد ، وكانوا يعدون عمل اليد أجود وإن كان أبطأ من عمل الآلات ،  
وكان القائمون على عرمة القمح أيضاً يتجاذبون أطراف الحديث ، أما المتصييون  
عرفاً حول الآلة وفيهم تس فلم يكن في مقدورهم أن يخفوا عبء عملهم ببادل  
الحديث والإسهاب فيه ، ولم يجهد تس مثل استمرار العمل بلا انقطاع حتى بدأت  
تمنى لو لم تأت قط إلى فلنتكوم آش .

كانت النساء القائمات على عرمة القمح ولا سيما ماريان يستطعن أن يتمهلن  
من آن إلى آخر ، حتى يشربن الجمعة أو الشاي البارد من زجاجة ، أو يتبادلن  
بعض الثروات وهن يمسحن وجوههن أو يمسحن شظايا القش والحسك عن أثوابهن ،  
أما تس فلم تكن تستطيع تمهلاً : فإنه لما كان القرص لا يقف أبداً فإن الرجل  
الموكل بتنظيفه لم يكن يستطيع التريث ، ولم يكن يسعها هي وهي التي تمد ذلك  
الرجل بالحزم المحولة أن تكف ، إلا أن تبادلها ماريان مكانها ، وكانت ماريان  
تفعل مدى نصف ساعة أحياناً ، رغم اعتراض جروبي بأن ماريان أبطأ يبدأ من  
أن تسعف مغذي الآلة .

وكانت تختار امرأة لهذا العمل عادة لسبب اقتصادي على الأرجح ، وقد عزى  
جروبي اختياره تس إلى أنها تجمع جمعاً طيباً بين القوة والسرعة في الحل ، وبين

هانين وبين الجلد ، ولمله كان صادقاً ؛ وكان طنين آلة الدرس الذى يحول دون الكلام يرتفع إلى صخب إذا قلت كمية القمح عن معتادها ، وإذا كانت تس والمغذى لا يستطيعان أن يلتفتا ، لم تدرك تس أن شخصاً دلف من البوابة إلى الحقل قبيل ساعة الغداء ، وكان إذذاك واقفاً بجوار عرمة أخرى يراقب المنظر ولا سيما تس ، وكان يرتدى حلة خشنة للمس ولكنها حديثة الزى ، ويميل في يده عصا .

قالت إيزماريان : « من ذاك ؟ » وكانت قد وجهت سؤالها إلى تس فلم تسمع ، قالت ماريان : « عشيق بعض النساء على ما أظن » ، قالت : « أراهن بجنيه إنه يطلب تس » قالت : « إن ذاك الذى يتعقبها في هذه الأيام قس واعظ لا شاب كهذا » ، قالت إيز : « إنه هو هو » ، قالت : « هو هو الراءع ؟ ولكنه يختلف عنه ! » قالت : « لقد خلع سترته السوداء ومنديل رقبته الأبيض ، وقص شعر عارضيه ، ولكنه رغم كل ذلك هو نفس الرجل » ، قالت ماريان : « أظنن ذلك ؟ إذن أخبرها » ، قالت : « لا ، نشدتك ، ستراه هي عما قليل » ، قالت ماريان : « ما يبنى له أن يقرن إلى وعظه منازلة امرأة ذات بعل ، ولو كان بعلها نازحاً وكانت أرملة من بعض الوجوه » ، قالت إيز في جفاف : « لن يستطيع لها ضرراً ، فلن يستطيع تحويل ذهنها عن ذلك الموطن الوحيد الذى يقيم فيه ، إلا إذا أمكن رفع عربة ضخمة من حفرة استقرت فيها ، رعاك الله لن يجدى الغزل ولا الوعظ ولا رعود السماوات السبع في تحويل قلب المرأة حين يكون الخير لها في التحول »

وحل وقت الغداء وسكن الدوى ، وعندها غادرت تس موقفها وركبتها ترتمدان ارتعاداً شديداً من جراء اهتزاز الآلة ، حتى لم تكدر تستطيع السير ، قالت ماريان : « يبنى لك أن تجرعى كأساً من الشراب كما فعلت فيراك هذا الشحوب ، فإن وجهك والله ل يبدو كأنك ناهضة من تحت كابوس » ، وخطر لاماريان الطيبة أن اكتشف تس لوجود زائرها وهي على تلك الحالة من المياء ربما أثر فيها أثرًا سيئاً ، فسلبها قمهيتها ، وإنها لتفكر في إقناع تس بهبوط سلم إلى



جانب آخر من العرمة ، إذا بالشاب يدنو زافماً بصره ، فصاحت تس فجأة : « أوه ! » وبعد هنيهة قالت على عجل : « سأتناول طعامي هنا على العرمة » .

وكان المال أحياناً يفعلون ذلك إذا كانوا على بعد من مساكنهم ، ولكن الريح كانت قارسة فهبطت ماريان والأخريات وجلسن في كتف عرمة العيدان ، ولم يكن القادم إلا ألك دربرفيل القس بالأمس رغم تغير ملبسه وهيبته ، وكان يبدو لأول وهلة أن الفاجر القديم قد عاد ، وأنه قد استعاد — بقدر ما يستطيع ذلك — امرؤ زاد عمره ثلاث سنين أو أربعاً — مظهر المرأة والزهو الذي عرفت به تس أول ما عرفت عاشقها وابن عمها الموهوم ؛ وإذ عولت تس على البقاء حيث هي فقد جلست بين مياثرها بحيث لا ترى من على الأرض وشرعت في طعامها ، حتى شعرت بعد حين بجحى على السلم وظهر ألك على العرمة ، وكانت العرمة قد ارتدت نشزاً مستطيلاً مسطحاً من الحزم ، نخطأ إليها حثيثاً وجلس بجوارها دون كلمة .

واستمرت تس في تناول غدائها المتواضع ، وهو قطعة من الفطير المقدد الغليظ أحضرتها معها ، وكان جميع المال الآخرين قد اجتمعوا تحت العرمة حيث كانت الأعواد البارزة وقاء لهم وملجأ مريحاً ، قال دربرفيل : « أنا هنا ثانية كما تزين » ، فصاحت والفضب يتطاير من أطراف أصابعها : « لم تضايقني هكذا ؟ » قال : « أنا أضايقتك ؟ هل لى أنت أسألك لم تضايقيني أنت ؟ » قالت : « أنا لم أضايقتك قط ! » قال : « بلى وترهقيني ، وتأنك المينان اللتان سدتهما إلى منذ لحظة في نظرة حائقة تعتاماني كما أظهرتهما في تلك اللحظة ، ليل نهار يا تس ! إن مشاعري منذ أخبرتني بابتنا ذاك كأنما تحولت من مجرى الورد المتدفق الذى كانت تنصب فيه ، إلى مجرى وجدته فجأة مؤدياً إليك فاندفعت فيه ، وقد ترك المجرى الدينى منذ ذلك الوقت جافاً ، وأنت التى فعلت ذلك ! » .

فخلعت فيه فى سكون ثم سأته : « ماذا ؟ أهجرت وعظك هجراً تاماً ؟ » وكانت تعلت من كليل الشك العلمى الحديث ، الذى يجعلها ترتاب فى مظاهرها

الحماسة الفجائية ، على أنها وهى امرأة قد ريعت لهذا الأمر ، ومضى دربرفيل يقول فى صرامة مصطنعة : « هجراً تاماً ! وقد فسخت كل وعد بالخطابة منذ ذلك اليوم الذى كنت أنوى فيه أن أخطب جمع السكارى فى سوق كستر برديج ، وليس يعلم إلا الشيطان ما رأى الإخوان فى اليوم ، ها ها ! الإخوان ! لاشك أنهم يصلون الآن من أجلى ويكون من أجلى فهم قوم كرام فى طرازهم ، ولكن ماذا يهمنى ؟ أنى لى أن أنابر على هذا الأمر وقد بطل إيمانى به ؟ إن ذلك يكون نفاقاً من أخط ضروب النفاق ! » .

واستطرد : « ما أنعم انتقامك منى يا تس ! لقد وجدتكَ بريئة فخذعتك ، وبعد سنين أربع وجدتني مسيحياً متحمساً ففعلت بى أفاعيلك وأشفيت بى على الهلاك ! ولكن تس يا ابنة عمى كما كنت أدعوك ، إن هذه إلا طريقي فى الكلام ، ولا ينبغي أن ترناى كل هذا الارتياح ، فالحق أنك لم تفعل شيئاً ولم تزيد على أن احتفظت بجمال حياك ورشاقة قوامك ، لقد رأيت قوامك على العرمة قبل أن ترى ، وذلك المبدع يظهره فى أبهى منظر ، وتلك القلنسوة ! لا ينبغي لكن معاشر الفلاحات أن ترتدين تلك القلنسوات إذا شئتن البقاء بعيدات عن نطاق الخطر ! » .

وجعل يتأملها فى صمت ثم ضحك ضحكة سخرية قصيرة وقال : « يقينى أن الرسول المتبذل الذى كنت أحسبني مبعوثه ، لو كان أغراء وجه فاتن كهذا لهجر من أجله ما كان فيه كما فعلت » ، وحاولت تس أن تعترض ولكن طلاقة لسانها فارقتها فى تلك الساعة ، ولم يصغ إليها بل مضى يقول : « لعل هذا الفردوس الذى تمهدين لا يقل عن أى فردوس آخر ، ولكن إذا رمت جد القول » ، وعندها نهض ودنا منها واضطجع على الحزم معتمداً على كوعه واستطرد : « لم أزل منذ رأيته آخر مرة أتفكر فيما قلت إنه هو قاله ، وقد قرأت على أن تلك العقائد البالية ينقصها حقاً كثير من المنطق ، ولست أدري كيف سرت فى نفسى حماسة القس المسكين كلير ، وكيف اندفعت إلى العمل ذلك الاندفاع الجنونى فى

حرارة تكاد تفوق حرارته ، أما ما قلت في المرة السابقة اعتماداً على ذكاء زوجك البارع الذى لم تشأ أن تخبرينى باسمه بعد ، فيما يتعلق بالذهب الخلقى المنزه عن العقائد المتوارثة ، فلست أستطيع الإيمان به قط .

قالت : « كيف ؟ فى استطاعتك على الأقل أن تؤمن بدين العطف والإخاء والطهارة ، إن لم تؤمن بـ .... ماذا تسميها ! العقائد المتوارثة » ، قال . « كلا ، أنا رجل من هذه الجبلية ، فإذا لم يكن هناك من يقول : ( افعل هذا بنفك فى آخرتك ، ولا تفعل ذاك فإنه مضر ) ، فإنى لأحفل للأمر ، ولن أعد نفسى مسؤولاً عن أعمالى وميولى إن لم يكن هناك أحد أسأل أمامه ، ولو كنت فى مكانك يا عزيزتى لفعلت مثل ذلك ! » .

وحاولت أن تجادل وتفهمه أنه قد خلط فى رأسه النبى أمرين هما الكهنوت والأخلاق ، اللذان كانا فى فجر تاريخ الإنسان متميزين تمام التميز ، ولكنها لتحفظ إينجل كلير فى أحاديثه معها وحاجتها الشديدة إلى مران على الجدل ، وكونها وعاء من العواطف أكثر مما هى مجماً للآراء ، لم تستطع أن تمضى فى المجادلة واستطرد هو : « دعينا من هذا ، وها أنذا اليوم يا حبيبتي كما كنت من قبل ! » قالت : « كلا ، ليست الحال اليوم كما كانت من قبل ، هيهات ! وأنا لم أحس من جهتي أدنى حرارة يوماً ما ! لم تستبق إيمانك إذا كان فقده هو الذى أذاك إلى مخاطبتى على هذا النحو ؟ » .

قال : « لأنك بددت إيماني ووزر ذلك على رأسك الجميل ! وما درى زوجك أن تعاليمه ستعود عليه بالضررة ، ها ها ! إني مع ذلك لمرتاح إلى أنى صبات على يدك ! إني لمسحور بك يا تس أشد افتتاناً مما كنت يوماً ، وإني لأرثى لك إذ أرى رغم شديد تكتمك أنك فى عسر من أمرك ، قد أهلك من يبنى له أن يسعدك » ، وعندها لم تستطع تس أن تردد لقمتها وجفت شفتاها وكادت تحتنق ، وكانت أصوات العمال وضحكاتهم وهم يأكلون ويشربون فى أسفل

تصل إليها كأنها آتية من ربيع ميل ، قالت : « ما أقساك ! كيف تجدني بهذا إن كنت تحبني أقل الحب ؟ » .

قال وأجفل قليلا : « صدقت ، صدقت ، أنا لم آت لأقرعك على منبة أفعالي إنما جئت يا تس لأقول إني لا أحب لك أن تكدي على هذا النحو ، جئت من أجلك ، أنت تقولين إن لك زوجا سواي ، وربما كان هذا صحيحا ، ولكني لم أره قط ولا سميت لي ، ويلوح لي شخصية خرافية للغاية ، على أننا إذا فرضنا أن لك زوجا ، فإني أنا أدنى إليك منه ، وأنا على الأقل أحاول أن آخذ بيدك من متاعبك ، أما هو بورك عياه المحجوب فلا يحاول ذاك ، إن كلمات نبي اليهود حوزيا التي كنت أتلوها تعاودني ، ألا تعرفني يا تس ؟ ( سوف تتبع جيبها فلا تالحق به ، وستبحث عنه فلا تهتدي إليه ، وعندها ستقول لأرجعن إلى زوجي الأول ، فقد كنت خيرا مما أنا اليوم ! ) عزيزتي تس ! إن عربتني في الانتظار دون التل ، لا عربتك طبعاً ، وأنت أدري بالبقية ! » .

وكان وجهها وهو يتكلم يزداد احمراراً كاليا ولكنها لم تجب ، واستطرد وهو يبسط ذراعه ناحية خصرها : « لقد كنت سبب صبوى ، فيجب أن تشاطريني إياه وتدعى ذلك البغل الذي تدعيته زوجاً لك إلى الأبد » ، وكان أحد قفازيها اللذين خلعتهما لتناول طعامها في حجرها ، فقدت به في وجهه في حلق دون إنذار ، وكان قفازاً غليظاً ثقيلًا كقفازات المحاربين ، وقد أصاب فيه ، وربما تخيل المرء في عملها هذا رجعة إلى صنيع كان يحذقه أسلافها ، ووثب ألك من ضجته مهتاجاً وانبثق الدم قرصياً من موضع ضربتها ، وسرعان ما تقاطر من فيه على القش ، ولكنه عاد فلك زمام نفسه وأخرج منديلاً من جيبه في هدوء ، ومسح شفتيه الداميتين .

وكانت هي أيضاً قد انتفضت قائمة ، ولكنها انحطت ثانية ورفعت إليه عينها في تحد يائس كأنها عصفور ينظر قبل أن يكسر قانصه عنقه ، وقالت : « الآن اقتص مني ! اضربي بمصاك ! اسحقني ولا تبال أولئك القوم في أسفل العرمة !

لن أستغيث ، لقد كنت فريسة مرة وسأظل فريسة أبداً وهذا ناموس الحياة !  
قال في تودد : « لا ! لا ياتس : إني لأعذرُك حق المذرة ، ولكنك تظلمين أشد  
الظلم حين تنسين أمراً : إني كنت مستعداً للاقتران بك لو لم تحولى بيني وبين  
ذلك ؛ ألم أطلب يدك طلباً صريحاً ؟ هه ؟ أجيبيني ! » ، قالت : « بلى » ، قال :  
« وليس في مقدورك أن تقبلي طلبى ، ولكن تذكرى شيئاً واحداً ! » .

وغلظ صوته حين غلبه الغيظ لما تذكر إخلاصه في طلب يدها ، وججودها  
الحاضر ، ومشى إلى جانبها وأمسك بكتفها فارتعدت في قبضته وقال : « تذكرى  
يا فتاة أنى كنت سيدك يوماً وسأعود سيدك مرة أخرى ، وإذا كنت زوجاً لـإنسان  
فإنما أنت زوج لى ! » وبدأ العمال يضطربون في أسفل ، فأرسلها قائلاً : « فلنكف  
عن الشجار ، ولأتركك على أن أعود عصرأ لأسمع جوابك ، أنت لا تعرفينى  
بعد أما أنا فأعرفك ! » .

ولم تعاود الكلام ، وإنما قرت كالشدهوة ، وعاد دربر قيل أدراجه ماشياً على  
الحزم وهبط السلم ، وكان العمال في أسفل يتناهضون ويتمطون ، ويستمرثون  
طعم البيرة التى شربوها ، وعادت آلة الدرس إلى عملها ، وعادت تس وسط حفيف  
القش المتجمد إلى موضعها بجانب القرص الذى يثر ، وكأنها فى حلم ، تحل حزمة  
فى إثر حزمة بلا انتهاء .

## ٤٨

أعلن صاحب المزرعة عصراً ألا بد من إنهاء العرمة ليلاً ، إذ كان القمر ساطعاً  
يمكن العمل في ضوءه ، وكان صاحب الآلة المحركة مستأجراً في مزرعة أخرى في  
الغد ! ومن ثم استمر الرنين والطنين والأزيز في اطراد أشد من ذي قبل ، ولم  
ترفع تس رأسها إلا في الساعة الثالثة ، وأدارت بصرها فيما حولها ، ولم يدهشها  
أن ترى ألك دربر قيل قد عاد وأن تراه واقفاً في ظل الوشيع بجوار البوابة ، ورآها  
ترفع رأسها فلوح لها بيده في أناقة وطير إليها قبلة ، وكان مغزى ذلك أن شجارها  
قد غبر ، وعادت تس إلى الإطراق وتباحثت النظر إلى تلك الجهة .

وهكذا تقدم الوقت في خطى وثيدة ، والعرمة تتقاصر وكوم الميدان يتناول  
والعربات تحمل غرائر القمح ، ولم تحن السادسة حتى كانت عرمة القمح على  
ارتفاع كتف الإنسان ، ولكن الحزم التي كانت بها لم تمس بعد ، كانت ما تزال  
لا يدركها المد ، رغم تلك الأعداد الهائلة التي التهمت الآلة التي لا تشبع ، والتي  
يغذيها الرجل وتغذيها تس ، وفي يدي تس الصغيرتين مرت معظم الحزم ، وبدا  
كوم القش الذي لم يكن في الصباح شيئاً ، كأنه الفضلات التي تفرزها تلك الآلة  
الحمرء الهمة الصخبي ؛ وكانت قد انبثق على الأفق الغربي بعد ذلك اليوم  
النائم شعاع أحمر حمرة الغضب ، هو كل ما يستطيع أن يجوده مارس العاصف  
من ضياء الشمس ، وقاض ذلك الشعاع على وجوه الدارسين المتعبة اللزجة ،  
فصيفها بلون نحاسي ، وصبغ كذلك ثياب النساء الهفافة الملتصقة بأجسادهن  
كأنها شعل جامدة .

وانبث صوت بلهث ويتألم ، وكان الرجل الذي يغذي الآلة مجهداً ، وكانت  
تس ترى قفاه المحمر بالشعاع مغطى بالقذر والتبن ، وكانت ما تزال واقفة في موضعها  
ووجهها الأحمر المتصبب عرقاً مغطى بتراب القمح ، وقلنسوتها البيضاء متوجة به ،

وكانت هي المرأة الوحيدة الواقفة على الآلة بحيث كان دوران الآلة يهز جسمها ، وكان تناقص العرمة قد فصل بينها وبين ماريان وإيز ، وحال دون مبادلتها إياها العمل ، وقد قذف بها الاهتزاز المتواصل الذي ترتد له كل وشائج جسمها ، في حلم شارد راحت ذراعاها تعملان فيه مستقلتين عن وعيها ، وكادت لا تدرى أين هي ، ولم تسمع إيز هبوت حين أخبرتها من أسفل أن شعرها يتهدل .

وبدا أنشط من في الجميع يهمدون رويدا رويدا وتريف أحداقهم ، وكلما رفعت تس رأسها لمحت عرمة الميدان الكبيرة المتصاعدة ، عليها الرجال مشمورى السواعد ، وخلفها الأفق الشبالي الداجن ، وأمامها المصعد الطويل الأحمر ، كأنه السلم الذي رآه يعقوب في حلمه ناهضاً إلى السماء ، يصعد عليه بلا انقطاع مجرى من الميدان المدروسة ، كأنها نهر أصفر يرتق ربوة ويفيض على القمة .

وكانت تعلم أن ألك دربرقيل ما يزال بمشهد يراقبها من بعض الجهات ، وإن لم تدر في أى جهة هو ، وكان له عذر في الانتظار : إذ أنه بعد حين تقارب عرمة القمع نهايتها ، وكان الرجال يقومون بتقشير الجرذان المختبئة في قراها ، ومنهم من يأتون من الخارج للمشاركة في ذلك طلباً للرياضة والفكاهة ، ومنهم الأثرياء ذوو الكلاب والبيات الدالة على المرح والدعابة ، ومنهم الغوغاء يحملون عصيم وأحجارهم ، ولكن كان ما يزال دون بلوغ طبقة الجرذان ساعة من العمل ، وتضائل ضوء المساء المنبعث من صوب (تل الجبار) بجوار (أبو تس كرئل) ، وتساعد قمر ذلك الفصل شاحبا من الأفق الممتد تلقاء (مدلتن أبى) و(شوتسفور) على الجانب الآخر .

وكانت ماريان قد قلقت على تس في الساعة أو الساعتين الأخيرتين ، ولم تكن تستطيع مداناتها لمحدثها ، وكانت النساء الأخريات يستمن بالجمعة على استبقاء جلدهن ، على حين كانت تس تتجنبها لخوف ورائى تحمله لها منذ رأت سوء أثرها في بيت أبيها منذ نعومتها ، ولكن تس كانت تواصل العمل رغم ذلك لأنها إذا عجزت طردت ، وقد أصبح هذا الاحتمال الذي كانت تنظر إليه منذ شهر أو شهرين

بعدم مبالاة بل بارتياح — أصبح بلاء مستطيراً منذ بدأ دربرثيل يحوم حولها .

وكان مستخرجو الحزم ومنذو الآلة قد هبطوا بالعرمة حتى صار في مقدور الواقفين على الأرض مبادلتهم الحديث ، وما راع تس إلا أن طلع المزارع جروبي على الآلة ، وأخبرها أنها إذا كانت تود اللحاق بصديقها فإنه لا يصير على استمرارها في العمل ، بل يرسل من تحمل محلها . وقد علمت أن (الصديق) إن هو إلا دربرثيل وأن المزارع يتبرع لها بتلك الإجازة إجابة لطلب ذلك الصديق أو الغريم ، فهزت رأسها وتابعت العمل .

حتى حل أخيراً وقت اقتناص الجرذان وبدأ الطراد ، وكانت تلك المخلوقات قد هبطت زحفاً بتناقص العرمة حتى صارت جميعها في القرار ، فلما كشف عنها آخر غطاء يغطيها انطلقت تستبق في الحقل في كل ناحية ، وانبعثت من ماريان التي كانت إذ ذاك ثمة صرخة عالية ، أنبأت رفاقها أن أحد الجرذان قد هاجم شخصها ، وهو خطب اقتته غيرها من النساء بقنون من ربط أسافل أثوابهن ، والارتفاع عن سطح الأرض ، وأخيراً أخرج الجرذ من مخبئه ، وحلت تس آخر حزمة بين نباح الكلاب وصيحات الرجال وصرخات النساء ، واللعنات ووطء الأقدام وفوضى كفوضى مجمع من الشياطين ، وتباطأ القرص وتخافت الأزيز ، وهبطت تس من الآلة إلى الأرض .

وسرعان ما كان عاشقها يجانبها ، ولم يكن قد شارك في طراد الحشرات إلا بالنظر ، فغممت : « ماذا ؟ أبعد تلك الصفعة المهينة ؟ » وكانت من العياء والتخاذل بحيث لم تستطع أن ترفع صوتها بالقال ، وأجاب في الصوت المغرى الذي كانت تمهده في ترترديج : « إني لأحق الحق إذا استأت لعمل تملينه أو قول تقولينه ، ما أشد ارتعاد تلك الأعضاء الصغيرة ! إنك لضعيفة ضعف عجل قد استُدِّمِي ، وما كانت بك أدنى حاجة منذ وصولي إلى عمل ، فقيم كل هذا العناد ؟ على أنى قد أخبرت المزارع ألا حق له في استخدام النساء في الدرس البخارى ،



فليس هذا بعملهن ، وهو يعلم حق العلم أن ذلك قد أبطل في جميع المزارع الراقية والآن فلأرايقتك إلى دارك .

قالت وهي تترنخ في مشيتها : « نعم رافقتي إن شئت ! إني أعلم جيداً أنك جئت تطلب يدي قبل أن تعلم حالي ، ولعلك خير وأكرم مما كنت أعتقد فيك ، وكل ما تفعل لوجه الكرم فأني أشكره لك ، أما ما تقصده به غير ذلك فيفضبني ، وأنا أحرار في مقاصدك أحياناً » ، قال : « أنا إن لم أستطع أن أمنح علاقتنا الماضية صبغة شرعية ، ففي وسعي على الأقل أن أساعدك ، وسأساعدك مراعيًا شعورك أكثر جداً مما كنت أراعيه فيما مضى ؛ لقد غبر ذلك المس الديني أوسميه ما شئت ولكني أأمل أن أكون ما زلت محتفظاً ببعض طيب العنصر ، فتقي بي يا تس ناشدتك كل ما يربط الرجل بالمرأة من علاقة قوية أو رقيقة ! إن لدى ما يكفي ويزيد على الكفاية لاعفائك من الشقاء لأجل نفسك وذويك ، وفي وسعي أن أمهد لهم جميعاً سبل الراحة إذا أبديت بعض الثقة بي » .

سألته مسرعة : « أرايتهم منذ قريب ؟ » . قال : « نعم ، وهم لا يعلمون مقرك ، ولم أهد إليك هنا إلا صدفه » ، وكان القمر البارد يطل في ميل على وجه تس المجهد من خلال غصون سور الحديقة ، حين وقفت بباب الكوخ الذي تعيش فيه ووقف دربرثيل بجوارها ، قالت : « لا تذكر أشقاء الصغار ولا تسلبني صباية قواي ! وإذا كنت تبني معونتهم — ويعلم الله أنهم لني حاجة إلى المعونة — فافعل دون إخباري ، ولكن لا ! لا ! لن أقبل منك شيئاً لهم ولا لي ! » . ولم يرافقها في الدخول إذ كانت تساكن غيرها ولم يكن سكنها خاصاً بها ، ولم تسكد تدخل وتغتسل في جفنة اغتسال وتشاطر القوم المشاء ، حتى غرقت في التفكير ثم مشت إلى المنضدة القائمة بجوار الحائط ، وشرعت تكتب في ضوء مصباحها الصغير ، وقد تملكها الماطفة الحارة :

« زوجي الأثير : دعني أدعوك كذلك ، إذ لا بد لي من ذلك ، وإن أغضبك أن تذكر أن لك زوجاً مثلي غير جديرة بك ، يجب أن أفزع إليك في بلائي ،

فليس لي سواك مَفْزَع ! إن الغواية محدقة بي يا إنجيل ! إني أخشى أن أذكر اسم الشخص وأكره أن أفصل الأمر ، ولكنني ألوذ بك على حال لا تتصورها ألا تستطيع موافاتي حالا قبل أن يحدث حادث فظيع ؟ إني لأعلم أنك لا تستطيع لأنك في بلد نازح ، ويخيل إلي أني لا بد هالكة إذا لم تأتني على عجل ، أو تطلب إلي موافاتك ، إني أستحق العقاب الذي فرضته علي ، أنا أعلم ذلك حق العلم وأنت محق عادل في غضبك علي ، ولكنني أتوسل إليك يا إنجيل ألا تصر علي العدل ، وأن تستشعر الرحمة بي وإن لم أستحقها ، وأن تأتني إلي ! إذا استطعت المجيء فسوف يطيب لي الموت في ذراعيك ! سوف أرتاح إلى ذلك إذا اطمانت إلي أنك غفرت لي !

« إنجيل ! إني أحيا لك خاصة ، إن حيي إياك يحول دون عدلي إياك علي الرحيل ، وأعلم جيداً أنك كنت مضطراً إلى البحث عن مزرعة ؛ لا تخفني سأذكر كلمة واحدة قارصة أو مريرة ، كل ما أريد أن تعود إلي ، إني أشعر بشر وحشة بدونك يا عزيزي ! ليس يكرهني الاضطراب إلى العمل ، ولكنك إذا كتبت إلي سطرًا واحدًا صغيراً فقلت : أنا قادم سريعاً ، فسأناظر في أوفر سعادة يا إنجيل . »

« لقد صار ديني لي راسخاً منذ زواجنا أن أخلص لك في كل فكرة وكل نظرة ، حتى لأشعر إذا أطرائني رجل قبل أن أحيي ما يقول أنه أساء إليك ؛ هل شعرت منذ ذلك الوقت بجزء ضئيل مما كنت تشعر به أيام كنا في ضيعة الألبان ؟ فإذا كنت فعلت فكيف استطعت البقاء بعيداً عني هكذا ؟ إني أنا عين المرأة التي تيمتلك يا إنجيل ، نعم أنا هي ولست بتلك المرأة التي كرهتها ولم ترها قط ، ماذا أصبح الماضي في نظري حالاً رأيته ؟ لقد آض شيئاً ميتاً ، لقد غدوت امرأة أخرى تفيض حياة جديدة استمدتها منك ، كيف كان يمكن أن أظل عين المرأة الأولى ؟ كيف لا ترى هذا ؟ ليتك تستطيع أن تدخل علي نفسك بعض الغرور ، فتدرك أنك كنت من القوة بحيث غيرتني ذلك التغيير ، فربما نرعت عند ذلك إلى معاودة زوجك المسكينة . »

« ما كان أغباني في سعادتي حين ظننت أني أستطيع أن أثق بدوام حبك !  
كان يجب على أن أدرك أن مثل ذلك الأمر لن يكون من حظي أنا المسكينة ،  
ولكني موجعة القلب لا آسى على الماضي وحده بل على الحاضر أيضاً ، تصور كم  
يوجع قلبي ألا أراك أبداً أبداً ، آه لو أستطيع أن أجعل قلبك العزيز بآلم وهلة  
قصيرة كل يوم ، كما يآلم قلبي كل يوم بطوله ، إذن لاحتسّل أن يدفعك ذلك إلى  
إبداء العطف على محبتك الوحيدة .

« ما زال الناس يرونني جميلة ، ولعلمهم صادقون ، ولكنني لا أفرح لحسن  
طلعتي ولا آبه لها إلا لأنها ملك لك أيها العزيز ، ولكي يكون في شيء واحد  
يستأهل أن نحوزه ، وقد بلغ من شعوري بذلك أني كنت إذا سببت لي وسامتي  
مضايقة تثلثت انقاء للعيون المحمجة ، لست أذكر ذلك يا اينجل غروراً كما تدرى  
جيداً ، ولكنه استدعاء لك إلى !

« وإذا كنت حقاً لا تستطيع موافاتي فهل لي أن أوافيك ؟ إنني لمرهقة  
مدفوعة إلى عمل ما لأود ، وليس معنى ذلك أني سأخضع قيد أغلة ، ولكنني في  
فزع شديد مما قد يحدث فيغير مجرى الأمور ، وأنا لسالف خطئي عديمة الدفاع  
ولست أستطيع في هذا الصدد أن أزيد ، فإن هذا الأمر يدخل على أشد النغم ،  
ولكنني إذا خافني جلدي ووقعت في أحبولة مريمة ، فستكون آخرتي شرأ من  
أولاي ، يا إلهي ! أنا لا أستطيع أن أفكر في ذلك ! دعني أقبل إليك توا ،  
وإلا فأقبل إلى بلا توان !

« إنني ليرضياني بل يهنئني أن أعيش معك خادماً إذا لم يكن لي أن أعيش معك  
زوجاً ، كي أحظى بقربك وأفوز بالنظر إليك وأعدك أنك لي ، فلم يعد وضع  
النهار ينير لي شيئاً منذ غبت ، ولست أحب أن أرى أطياف الحقول لأنني آسى  
أشد الأسى لفراقك وقد كنت تراها وإياي ، ولا أشتاق في السماء أو على النبراء  
أو تحت الترى إلا شيئاً واحداً ، وذلك لقاءك يا حبيبي العزيز ! تعال إلى ! تعال  
إلى وأتقذني مما يهددني ! محبتك المغفودة : تس .

٤٩

وجدت تلك الرسالة المستفيضة طريقها في الوقت المناسب إلى مائدة الفطور في مسكن القس الهادى ، الواقع غرباً في ذلك الوادى ذى الهواء الرخيم والتربة الخصيبة ، حيث لا تحتاج الزراعة إلا إلى مساعدة ضئيلة إذا قيست بما يحتاج إليه فلتكوم آس من عرق ، وحيث كان العالم الإنسانى يلوح لئس مختلفاً جداً ، وإن كان في الحق شديد الشبه بعالمها ؛ ولم يكن إينجل قد طلب إليها أن ترأسه بعنوان أيه إلا حرصاً على وصول رسالاتها إليه ، وكان قد أبقى والده في أغلب الأحوال على بيئة من عنوانه المتنقل ، في الإقليم الذى نزع إليه وقلبه مشتمل بالأشجان يبنى فيه مرتزقاً .

قال كلير الشيخ لزوجته حين قرأ الفلاف : « إذا كان إينجل ينوى مغادرة (ريو) ليعود إلينا في نهاية الشهر القادم كما أخبرنا ، فلعل هذا سيدفعه إلى التعميل فإني إخاله آتياً من زوجه » ، وتنفس الصعداء حين التفت ذهنه إليها ، وعنون الرسالة من جديد ليرسلها توأ إلى إينجل .

غمضت مسز كلير : « يا للشباب العزيز ، أرجو أن يصل إلينا سالماً ، سأظل إلى يوم أحين أعتقد أنه مهضوم ، كان ينبغي أن ترسله إلى كبردج رغم زيف عقيدته وتمنحه ما منح أخواه من فرصة ، فقد كان من المرجح أن يستقيم تحت الأثر الطيب ، وربما التحق بالكنيسة في النهاية ، وسواء التحق بها أو بغيرها فقد كان ذلك أقرب إلى إنصافه » ، وكانت تلك هى النعمة الحزينة الوحيدة التى تكدر بها مسز كلير صفاء زوجها فيما يتعلق بترية أبنائهما ، ولم تكن كثيرة الضرب عليها ، فقد كانت على حظ من حسن الإدراك يضاهى حفظها من الورع ، وكانت تدرك أن زوجها هو أيضاً قلق الضمير من جراء تصرفه في ذلك الأمر ، وكم سمعته ليلاً ساهداً في فراشه ، يقطع زفراته من أجل إينجل بالصلاة له .

ولكن ذلك التقى الصارم المتشدد ، لم يكن يمتدح حتى الآن أنه كان ينبغي له أن يمنح ابنه الزائع العقيدة مزاي التعليم الجامعي الذي منحه الآخرين ، على حين كان من المحتمل أو المرجح أن تستعمل تلك المزاي في مهاجمة العقائد التي كان نشرها رسالته في حياته ، ورسالة ابنه الملتحقين بالكنيسة ، وكان يرى أن من مناقضة عقائده ووظيفته وآماله ، أن يرفع بيده الأخوين المؤمنين إلى مكان عال ، وأن يعلى الثالث الجاحد بنفس الوسائل إلى نفس المكان ، على أنه كان يجب ابنه الذي أخطأ إذ سماه إينجل — ومعناه الملاك — وكان يأسى أسمى صامتاً على صنعه به ، كما لعل إبراهيم قد كان يأسى على إسحاق السائر إلى حتفه ، وهما يصعدان الربوة فكان ندمه اللدني الصامت أمر من كل تقريع تعلته زوجته .

وكان الوالدان يلومان نفسيهما على ذلك الزواج غير الموفق : إذ لو أن إينجل لم يبتغ الزراعة مهنة لما خالط القرويات ، ولم يكونا على بينة من سبب انفصال الزوجين ولا من يوم وقوع الجفوة ، وكانا في بادئ الأمر يظنانهما جفوة خطيرة ، حتى عاد إينجل في رسائله الأخيرة يشير إلى اعتزامه العودة لاستلحاقها ، فاستنبط من ذلك أن القطيعة لم تكن راجعة إلى سبب لا يتلاقى ، وكان قد أخبرها بأنها مقيمة مع والديها ، وإذ كانا على غير بينة من الأمر ، فقد آثرا ألا يتدخلوا في حالة لا يعرفان كيف يتداركانهما .

وكانت العينان اللتان أرادتاهما تس أن تتلوا رسالتها تجولان في ذلك الوقت في مساحة مترامية من الريف ، على ظهر بقل يقل زوجها من داخل القارة إلى الساحل ، وكان عهده في هذه الأرض الغريبة عهداً تاعساً ، ولم يكن قد برأ تماماً من المرض الذي أصابه عقب وصوله ، وكان قد انتهى بمسألة إلى التمويل على نبد فكرة مزاوله الزراعة هنا ، وإن يكن قد أبقى هذا المدول سراً مكتوماً عن والديه ، طالما بقي لديه أدنى احتمال للاستمرار .

وكانت زرافات المال الفلاحين الذين أتوا إلى هذا الإقليم في أثره ، وقد بهرهم ما زُيّن لهم من أسباب الحياة المستقلة الهينة هنا ، قد قاسوا وماتوا وانقرضوا ، وكم

رأى من نساء آتيات من ريف إنجلترا ، يضربن في الأرض وأطفالهن يبن  
أذرعهن ، وإذا الطفل يصاب بالحصى ويذهب بها ، فتقف أمه ريثما تشق في تلك  
الأرض حفرة بيديها ، وتودعها الطفل بنفس تينك الآلتين الطبعيتين للدفن  
وتذرف دمعة واحدة وتواصل السير .

ولم تكن نية إنجيل الأولى هي الهجرة إلى البرازيل ، بل إلى مزرعة في شمال  
وطنه أو شرقه ، وإنما أتى إلى هذه البقاع في نوبة قنوط حين وافقت حركة الهجرة  
إلى البرازيل التي فشت بين زراع إنجلترا ، عهد رغبته في الفرار من وجوده الماضي  
وقد كبر في غيبته هذه كبراً عقلياً قدره اثنتا عشرة سنة ، وأصبح أشد تقديراً  
لما في الحياة من مناح العبرة ، منه لما فيها من مجالى الجمال ، وكان قد نبذ منذ  
زمان آراء المتصوفة ، والآن قد نبذ معايير الأخلاقيين العتيقة ورآها في حاجة إلى  
التجديد ، إذ من الرجل الفاضل ؟ وأجل من هذا خطراً أن نسأل : من المرأة  
الفاضلة ؟ ليس يتوقف جمال الخلق أو قبحه على انتصاراته التي أحرزها فقط ، بل  
على أغراضه ودوافعه أيضاً ، وتاريخه الصحيح ليس تاريخ ما أحدث ، بل تاريخ  
ما أراد أن يحدث .

وما يكون شأن تس إذ ذاك ؟ بدأ ينتظر إليها في هذا الضوء الجديد ؛ فخر في  
نفسه تسرعه في الحكم عليها ، آتراه نبذها نبذا نهائياً أم لا ؟ لم يعد يستطيع أن  
يقول إنه نبذها إلى النهاية ، وعدم القول بذلك معناه قبولها في الوقت الحاضر ،  
وقد وافق نزوعه هذا التزايد إليها وقت مقامها في فلتتكموم آش ، ولكن كان  
ذلك قبل أن تستبجح لنفسها أن تشغله بأمر نفسها ، وتكتب إليه في شأن ظروفها  
أو شعورها ، ومن ثم كان في حيرة شديدة من أمر إمساكها عن الكتابة ، ولم  
يسأل عن السر ، وهكذا أساء فهم سكوتها الراجع إلى ذلتها ومسكنتها ، وما كان  
أعظم دلالة ذلك السكوت لو فهم مغزاه ! مغزاه أنها تخضع خضوعاً مطلقاً لأوامر  
أصدرها ثم نسبها ، وأنها رغم شجاعتها المطبوعة لم تدع لنفسها عليه حقاً ، وعدت  
حكمه عليها عادلاً من جميع الوجوه ، وحنّت رأسها لذلك الحكم .

وكان يركب بجانبه في رحلته السالفة الذكر شخص آخر ، انجليزى مثله ، خارج في مثل قصده وإن جاء من صقع آخر في الجزيرة ، وكانا كلاهما مكتئين ، وكانا يتحدثان في شؤون الوطن ، واستتبعت وثوق أحد الرجلين بصاحبه وثوق الآخر به ، وراح إنينجل يقص على رفيقه حقائق زواجه المؤسفة ، وقد قام في نفسه ذلك الميل الغريب الذى يشعر به الرجال لا سيما في قاصى الأقطار ، الميل إلى اثمان الأغراب على تفاصيل حياتهم التى يضمنون بها على أصدقائهم الأدين ، وكان صاحبه قد طاف في بلاد لم يطف بمثلها إنينجل ، وعرف أقواما لم يعرف مثلهم ، فلم يكن عقله العالمى يُعَدُّ مثل ذلك الحيد عن الجادة الاجتماعية — الذى يهول المقيمين بأرضهم — أجل خطراً من شنوذ الوديان والجبال عن انحناء سطح الأرض في جلته ، وقال إن ما كانت تس من قبل لايهم قليلا إزاء ما ستكون ، وصارح إنينجل بأنه أخطأ في هجرانها .

وفي الغد أصابهما نوء فيه رعد وبرق ، فغم صاحب إنينجل ومات قبل انصرام الأسبوع ، فتمهل كلير ريثما واراها الثرى ثم تابع سيره ، وقد سما موت ذلك الغريب الواسع الذهن الذى لم يعرف عنه إنينجل أكثر من اسم عادى — سما موته بكلماته القلائل سما بعيداً ، وأثر في كلير فوق ما أثرت كل أخلاقيات الفلاسفة وكل منطقياتهم ، وأخجلته موازنة سعة أفق صاحبه بضيق عقليته هو نفسه ، وتوالت إلى ذهنه كل متناقضاته : لقد كان دائماً يرفع الهلينية الوثنية على المسيحية ، ومع ذلك فإن تلك المدنية لم تكن تعد الهفوة غير الشرعية عاراً لا يحى فكان الأجدر به أن يعد ذلك الاستفطاع لفقد المذرة الذى ورثه مع مبادئ التصوف ، أصرأ حرياً على الأقل بإعادة النظر إذا كانت النتيجة راجعة إلى القدر ، وحز في نفسه الندم ، وتذكر كلمات إزهيوت التى لم تخمد قط في باله ، إذ سألتها أتحبه فأجابت نعم ، فسألها أتحبه فوق حب تس فأجابت نقياً ، لأن تس لا تتوانى عن تضحية نفسها فداء له ، وهى نفسها لا تستطيع شيئاً فوق ذلك .

وتخيل تس في هيئتها يوم الزفاف ، فكم كانت عيناها تتأملانه ! كم كانت

تتدبر ألفاظه كأنها ألفاظ إله ! وتذكر الليلة الهائلة حيال الموقد ، حين كشفت روحها الساذجة لروحه ، ما كان أحق وجهها بالثناء بجوار وهج النار ، وهي لا تستطيع أن تصدق أن حبه وحمايته إياها يمكن أن يتقلصا عنها ! وهكذا بعد أن كان كبير منهما لتس أصبح محاميا عنها ، وكان قد حدث نفسه عنها أحاديث ساخرة ولكن ليس في الناس من يستطيع أن يظل ساخرًا ويظل حيا ، وما كان خطور تلك الأحاديث الساخرة في نفسه راجعا إلا إلى تأثيره بالمبادئ العامة ، متفاضيا عن المثال الفرد .

ومست عواطفه الآن مكانة أسرة تس التاريخية ، أسرة دربرفيل العتيقة الذين كان من قبل يزدريهم ويعدهم قوة خمدت ، وعجب كيف غاب عنه الفرق بين قيمة هذه الأشياء السياسية ونفاسها الشعرية ؟ إن انتماء تس إلى آل دربرفيل لجليل الخطر إذا قوّم من الوجهة الثانية ، فإن ذلك النسب إذا كان عديم الشأن في نظر الاقتصاديين فهو عظيم القدر في رأى صاحب الخيال والمعتبر بتقلب الدولات ، وذلك الامتياز الذى تحظى به تس المسكينة فى دمها واسمها وشيك الذهاب ، وسرعان ما ينجيم النسيان على صلتها الوراثية بالآثار الرخامية والهياكل العظمية الراقدة حشو الرصاص فى كنجزير ، وهكذا ينقض الزمن بلا رحمة ما يحولك هو نفسه من قصص المجد ؛ وكان كبير كلما تمثل وجهها تخيل أنه يرى فيه لمحة من العظمة التى لا بد كانت جداتها الكبيرات يتسمن بها ، فيرسل ذلك الخيال فى عروقه تلك النشوة التى طالما استشعرها فى الماضى ، والتى غادرت بعدها شعورا مريرا .

إن ما بقى من امرأة كتنس — رغم ماضيها غير المصون — لأرفع قدرا من نصارة أترابها التى لم تمس ، ألم يأت فى الإنجيل أن التقاط ما بقى من أعصاب (إفرايم) خير من بواكير (أبى عازر) ؟ هكذا كان الحب المنشور يتحدث ، سمهدا الطريق لكتاب تس الفياض بالإخلاص ، الذى كان والده قد أرسله إذذاك إليه وإن كان وصوله إليه فى داخل البلاد سيستغرق زمنا طويلا .



وفي نفس الوقت كانت مرسله الكتاب يتراوح أملها في قدوم إنجيل إجابة  
لطلبها ، بين الزيادة والنقصان : كان يتضاءل أملها حين تتذكر أن حقائق حياتها  
الماضية التي أوقعت الجفوة بينهما لن تتغير أبداً ، وأنه إن لم يكن حضورها بمشهد  
منه قد هون من شأن تلك الحقائق ، فإن غيابها لن يهون منها ، على أنها رغم ذلك  
راحت تفكر في مسألة أثيرة لديها هي ما يمكنها أن تقابله به إذا هوجاء كي تسره ،  
وجعلت تفرع السن ندما على أن لم تستوعب الألحان التي كان يعزفها على نايه ،  
وعلى أن لم تلحف في سؤاله عن أحب الأغاني الشعبية إليه من بين ما يترنم به  
القرويات ، ثم سألت ( أمي سيدلنج ) الذي تبع إيز من تلبوثيز سؤالاً غير صريح  
تخذكر أمي صدفه أن كلير كان يعجبه من بين الأهازيج التي كانوا يترنمون بها  
في المزرعة ، إغراء للأبقار على السخاء بلبنها ، أناشيد ( حديقة كيوييد ) و ( لي  
حدائق ولي كلاب الصيد ) و ( بزوغ النهار ) .

وأصبح أكبرهما إتقان تلك الأغاني ، فكانت تتمرن عليها وحدها في كل  
فرصة سانحة ، ولا سيما ( بزوغ النهار ) : « انهض ، انهض ، انهض ! واقطف  
باقية لمحبوبتك ، فإن جميع الأزهار الأنيقة تنمو في البستان ، والأطيار تعشش في  
كل غصن في آذار المبكر ، عند بزوغ النهار ! » وكان سماعها تنغني بهذه الألحان  
يصدع قلب الصخر ، تترنم بها كلما انفصلت في العمل عن رفيقاتها في هذا الفصل  
البارد الجاف ، والدموع تستبق على خديها خلال ذلك مخافة ألا يعود ليستمع  
إليها ، وبين كلمات الأغاني الساذجة الحمقاء وبين قلب مغنيتها الموجه بون شاسع .  
كانت تس من الاستغراق في أحلامها بحيث لم تكدرى كيف يمضي الفصل  
أو تحس أن الأيام قد تطاولت ، وأن يوم العذراء على كسب وسوف يتبعه عما قريب  
يوم العذراء القديم وهو نهاية عقد عملها ؛ ولكن قبل أن يأتي ذلك اليوم حدث  
ما حول أفسار تس إلى أمور شديدة الاختلاف عن تلك الأحلام : فقد كانت  
في مسكنها كالعادة ذات مساء إذا بطارق بالباب يسأل عن تس ، وقد رأت من  
خلال الباب شخصاً في الضوء للتخافت في طول امرأة وعرض طفلة ، مخلوقة

طويلة رفيعة لها سياء صبية لم تتميزها في ضوء النسق حتى صاحت الصبية : « تس » .  
قالت تس مدهوشة : « ماذا ؟ لا يزالو ! » وكانت قد تركت أختها من زهاء عام  
طفلة فإذا هي قد نمت نمواً خائفاً إلى هذا المنظر الذي لم تكن لو نفسها إلى الآن  
تدرى مفزاه ، وكانت ساقاها الرقيعتان الباديتان من ثوبها الذي كان فيما مضى  
طويلاً فتقاصر حين تطاولت ، وذراعاها ويدها القلقة جميعاً — تدل على حداتها  
وقلة تجربتها ، قالت في اكتئاب لا يمازجه عاطفة : « نعم لقد قضيت اليوم  
أضرب في الأرض أبحث عنك ، وأنا متعبة جداً » ، قالت تس : « ماذا حدث  
في الدار ؟ » قالت : « أمي مريضة جداً ، والطبيب يقول إنها في سياق الموت ،  
وإذ كان أبي غليلاً أيضاً ، ويقول إنه لا يليق برجل شريف المتمدن مثله أن يشق  
في خسيس الأعمال ، فإننا في حيرة من أمرنا »

وقفت تس في غيوبة طويلة قبل أن تفكر في إدخال لا يزالو لتجلس ، فلما  
أجلستها وناولتها فنجان شاي قرأها على قرار : فرأت أن من الحتم أن تذهب  
إلى أهلها ، ولم يكن عقدها ينتهي قبل يوم المذراء القديم وهو السادس من إبريل  
ولكن لما كان الزمن الباقي على ذلك غير طويل عولت على المفامرة بالانطلاق توا ،  
وكان الانطلاق في تلك الليلة يكسبها اثنتي عشرة ساعة ، ولكن أختها كانت  
أشد عياء من أن تذرع الطريق ثانية ، فهرعت تس إلى حيث تقيم ماريان وإيز ،  
وأخبرتهما بما جرى ورجتهما أن تدافعا عنها أمام صاحب المزرعة ، وعادت  
فجهزت لأختها عشاء ، ثم أرقدها في فراشها ، وحملت أكثر ما استطاعت من  
حاجاتها في سلتها ، وانطلقت بعد أن أمرت أختها باللاحاق بها غداة الغد .

انفجرت تس حين دقت الساعة العاشرة في ظلام آذار البارد ، تبدأ مسيرة خمسة عشر ميلا تحت النجوم البيضاء الجامدة ، والليل في الأطراف الموحشة وقاء من الخطر للعابر السبيل في صمت ، لا باعث إلى الخطر ، وكانت تس تعلم ذلك فاتبعت أقرب طريق بين الدروب التي ربما خشيت طروقها في وضوح النهار على أن الطريق كانت خالية من الأشقياء في تلك الساعة ، وقد نفى تفكيرها في أمها الأوهام والمخاوف من ذهنها ، وهكذا قطعت ميلا بعد ميل في ارتفاع وانخفاض حتى بلغت ( بلبارو ) ، وأشرفت حوالى منتصف الليل من ذلك المرتفع إلى الوهدة الملوئة بالظلال المختلطة ، التي كانت كل ما يرى من الوادى الذى ولدت تس في جانبه الأقصى .

وكانت قد زرعت خمسة أميال على الهضبة ، والآن بقى أمامها عشرة أميال أو أحد عشر في الوادى المنخفض ، وكانت لا ترى الطريق المتعرجة المنحدرة إلا بمشقة في ضوء النجوم الخافت ، وسرعان ما وطئت تربة مخالفة للتربة القاعية فوق رأسها ، أحست باختلافها قدمائها وأحسته بشميمها ، تلك تربة بلا كمور الكثيفة حيث لم تمتد بعد الطرق المعبدة ، وعلى هذه التربات الحصينة تعمم الخرافات طويلا ؛ وكان الوادى فيما مضى غابة ، وفي هذا الوقت الداجى اكتسى بعض مظاهره القديمة : اختلط قاصيه بدانيه ، وتراءت أشجاره وأوسعته ضخمة تسد الفضاء ، وكان القوم ما يزالون يتحدثون بالوعول التي طالما اقتنصت هنا ، والساحرات اللواتى أوسعن ضربا بالديابليس وأغرقت في الماء ، وعرائس الغاب المزركشات بالخرز الأخضر اللاتى يداعبن السابلة ، وكان كل أولئك يظهرن في هذه الساعة في زحام خفيف .

وفي ( ريتلبرى ) ، مررت تس بفندق القرية ، وكانت شارته تعسر في الريح مجاوبة تحية قدى تس التي لم يكن يسمعا سواها ، وتخلت تحت سقف الفندق المغطى

بالقش المضغوط ، زودا مسترخية وعضلات مستريحة متعددة في الظلام تحت الأغشية ، مستسلمة لعناق النوم استجابة لعمل الغد المتجدد ، حالما يلوح أول شعاع أحمر على رأس تل (همبلدن) .

وفي الساعة الثالثة انمطفت آخر انعطاف من سلسلة الدروب المتعطفة التي سلكتها ، ودخلت مارلت وعبرت الحقل الذي رأت فيه إينجل كلير لأول مرة ، يوم كانت في زمرة نساء النادى وراقص إينجل سواها ، وما تزال تشمر بحسرة ذلك اليوم ، ورأت في ناحية بيت أمها نورا آتياً من ناحية المخدع ، وكان يتمايد أمامه غصن جملة يبدو كأنه يغامر بها بعينه . وحالما تبينت شكل المنزل العام ، وكان قد سقف بمالها ، تأثر به خيالها نفس تأثره القديم : كان يبدو جزءاً متمماً لجسمها وكيانها ، وكانت نوافذه المستقيمة تحت سقفه المائل المثلث ، وطوب الدخنة المهتمد ، كان كل ذلك مشاركالشخصها وخلقها في الخصائص ، ولاح لها كأن سمات المنزل تلك تبدو حيرى ، كأنها تشير إلى مرض أمها .

وفتحت الباب برفق كي لا ترعج أحداً ، وكانت الغرفة السفلى خالية ، ولكن الجار الذي كان ساهراً بجوار أمها أقبل إلى رأس السلم ، وهمس إليها أن مسز دربرثيل لم تتحسن بعد ، وإن كانت نائمة في تلك الساعة ، وجهزت تس لنفسها فطوراً ، ثم اتخذت مجلس الممرضة في مخدع أمها ، ولما أصبح الصباح ونظرت إلى الصبية إذا هم جميعاً قد امتدت قاماتهم امتداداً عجيباً ، وقد نموا نمواً رائعا ، وإن لم تغب عنهم إلا فويق العام ، وأنساها شؤون نفسها ضرورة تكريس نفسها قلباً وروحاً لحاجاتهم .

وكانت علة أبيها من نفس النوع المبهم الموهود ، وكان يجلس في كرسية كالعادة ولكنه كان معتدل المزاج غداة وصولها اعتدالاً غير مألوف ، وقال إن لديه مشروعا معقولا للحياة ، فلما سألته تس ما هو قال : « أفكر في مكتبة جميع محبي الآثار أسألهم أن يشتركوا في جمع هبة تقوم بحاجتى ، وأنا واثق أنهم سيمدون هذا أمراً فنياً جيداً جديراً بالحفاوة ، فهم يبدلون المال الوفير لحفظ الخرائب القديمة

وكشف هياكل العظام وهلم جرا ، ولا بد أن الآثار الحية أشد إمتاعا لهم من كل ذلك ، إذا هم عرفوا أمرى ، ليت طائفاً يطوف بهم فيخبرهم أى أمرى يحيا بين ظهرانيهم وهم عنه غافلون ! إني لعلى يقين أن القس ترنجم الذى كشفنى لو كان على قيد الحياة لما توانى عن ذلك » .

وأجلت تس بحث هذا المشروع الرفيع حتى تدبر الحاجات الحازبة ، التى لم تكن عطاياها النقدية على ما يظهر قد أصلحتها كثيرا ، فلما دبرت حاجات الدار التفتت إلى الخارج وكان الموسم موسم الفرس والبذار ، وكانت حدائق كثيرة ومزارع صغيرة فى القرية قد عزقت عزقة الربيع ، أما حديقة أسرة دريفيلد ومزرعتهم فكانتا متأخرتين ، وهال تس أن ترى أن ذلك راجع إلى أن القوم قد أكلوا كل البطاطس التى يستخدم فى الزراعة الجديدة وذلك آخر ملجأ للمفرط ، فحصلت على سواء بأسرع ما استطاعت ، وبعد أيام مكنت أباهما صحته من أن يعتمد الحديقة بعد إلحاح تس وتوسلها ، وأخذت هى على عاتقها المزرعة الصغيرة التى كانوا يستأجرونها ، على مدى مائتى ذراع من القرية .

واستطابت العمل فيها بعد احتباسها فى غرفة التمريض ، حيث لم تعد إليها حاجة بعد شفاء أمها ، والحركة المنيفة تخفف وطأة الأفكار ، وكانت المزرعة فى بقعة عالية جافة مكشوفة تحيط بها أربعون أو خمسون مزرعة صغيرة مثلها ، حيث كان العمل يحتدم حين كان العمال المستأجرون فى أثناء النهار ينتهون من عملهم فى المزارع الأخرى ، وكان العزق ينتدى عادة فى الساعة السادسة ، ويمتد إلى غير موعد فى غبش المساء أو فى ضوء القمر ، وكانت أكوام من الأعشاب والفضلات تحترق فى ذلك الوقت فى مزارع شتى ، وكان الجو الجاف ملاءما لاحتراقها .

وفى ذات يوم صاح ظلت تس ولا يزالو تعملان مع جيرانهما حتى امتدت آخر أشعة الشمس أفقية على العصى البيضاء التى تحدد التخوم بين المزارع ، وحالما أعقب الغسق الغروب بدأ لهيب الأعشاب وسوق الكرب يتوهج فى المزارع

توهجا هائلا ، تبدو معالمها وتختفي تحت الدخان الكثيف كيفما مالت به الريح ، وكانت إذا توهجت نار ترتد غمامم الدخان السابحة على وجه الأرض متوهجة ذات لمعة معتمة تحجب العالمتين إحداهما عن الأخرى ، فيفهم رائيه معنى (عمود السحاب) الذى يقال إنه يبدو حائطا بالنهار ونورا بالليل .

ولما تكاثف ظلام المساء انقطع بعض العمال واستمر أغلبهم ليفرغوا من غراسهم ، وكانت تس فى الباقيين وإن أرجعت أختها إلى الدار ، وكانت تعمل بشوكتها الطويلة على أحد الأكوام المحترقة ، وكانت شعب الشوكة ترت إذا قرعت الأحجار والحصى ، وكانت تس تنفب أحيانا غيابا تاما فى دخان النار ، ثم يتمزق عنها فيبدو قوامها يشع عليه وهج الكوم النحاسى اللون ، وكانت فى هذه الليلة تبدو فى ثياب غريبة وهيئة شاذة : كانت مرتدية ثوبا أحال لونه تكرار الغسيل ، عليه سترة قصيرة سوداء ، فكأنهما ثوبا عرس وجناز قد اختلطا ، وكان النساء القامعات خلفها على مدى يرتدين ميادع بيضاء ، ولا يرى فى ذلك الحلك غير تلك الميادع ، وغير وجوههن الشاحبة إذا ما انعكست عليهن لمحات من الذهب . وكانت الأغصان الرقيقة المشرببة من الوشيع الشوكى العارى الأشجار الذى يحد المزرعة ، تنهض حيال الأفق الشاحب القاتم الضوء ، وكان المشتري مطالما من علو كأنه زنبقة كاملة النمو ، لامعا يكاد يرى ظلأ ، وكانت أشنات الكواكب الأخرى مبعثرة هنا وهناك ، وكان كلب ينبج على مدى ، وتنقل على قارعة الطريق الصلب عجلات من آن إلى آخر ؛ واستمر رنين شعب الشوكة لأن الوقت لم يكن متأخرا بعد ، ومع أن الهواء كان باردا رائقا ، فقد كانت تسرى فيه هسات الريع تلج صدور العاملين وتمشهم ، وكان شىء ما فى المكان أو الألوان أو النيران المقعقة أو أشباح الضوء والظلام المبهمة المهولة ، يجعل تس والآخرين يفتبطون بوجودهم هناك ، وهبط الليل مهدئا للنفوس فى ذلك اليوم من آذار ، وهبوط الليل ينفد فى جليد الشتاء كأنه شيطان رجيم ، وفى حرارة الصيف كأنه حبيب آيب .

ولم يكن أحد ينظر إلى زملائه ، بل كانت عيون الجميع إلى التربة ، يستبين سطحها المزوق في توهج النيران ، ومن ثم لم تكدر تس تلاحظ الشخص الذى يعمل على مقربة منها ، وهى منهمكة فى إثارة القلأع المتجمد ، وفى الترنم بأغانها الساذجة ولم يكدر يبقى لديها أمل فى استماع كبير إليها يوماً ؛ وكان ذلك العامل الأدنى إليها من الجميع مردياً ثوباً كثنائياً طويلاً ، وتنهت أخيراً إلى أنه يعمل بشوكتة فى نفس مزرعتها ، فظنت أباهاً أنفذه ليساعد على إنجاز العمل ، وازداد انتباهها إليه حين أدناه منها اتجاهه فى قلب الأرض بشوكتة ، وكان الدخان يحول بينهما أحياناً ثم ينجاب ، فيلوح كل منهما للآخر وهما غتفیان عن الباقيين .

ولم تحدث تس زميلها ولم يحادثها ، ولم تفكر فى أمره إلا قدر ما تذكرت أنه لم يكن هناك فى وضح النهار ، وأنها لم تعرفه قط فى عمال مارلت ، ولم يدهشها ذلك لكثرة غيابها عن مارلت فى السنوات الأخيرة ، وما لبث أن داناه فى عزقه حتى انعكست شعل النار على شعب شوكتة الصلبة ، بنفس الوضوح الذى كانت تنعكس به على شوكتها ، وإنها لسائرة إلى النار تلقى فيها قطعة من ميت الأعشاب إذ صادفته يفعل فعلها على الجانب الآخر ، وتوهجت النار فعرفت وجه دربرثيل . كان لوجوده غير المنتظر ومظهره الشاذ فى ثوب ريفى ذى كسر لا يلبسه فى هذا العهد إلا أشد الشيوخ من الفلاحين محافظة ، أثر هزلى بشع جدت له وتشاءمت من مغزاه ، وضحك دربرثيل ضحكة جافة مستطيلة ، وقال متهمكاً وهو يرمقها مطأطأ الرأس : « لو كنت ميالا إلى الدعاية لقلت : ما أشبه هذا بالفردوس ! » قالت فى تخاذل : « ماذا تقول ؟ » قال : « ربما شبه متفكك هذا الموقف بالفردوس : فأنت حواء وأنا ذلك الشخص الآخر آتياً لإغوائك فى إهاب حيوان آخر خسيس ، لقد كنت بصيراً بذلك النظر فى قصيدة ملقن أيام تقواى ، حيث يقول : (أيتها اللىكة ، إن الطريق ممهودة وغير طويلة ، وراء صف الأأس... فإذا قبلت أن أرشدك صرت بك هناك سريعاً ، قالت حواء : هلم إذن) إلى آخر ما قال الشاعر ، وإنما أسوق إليك هذا يا عزيزتى الحبيبة تس ، مثالا لا

لعلك كنت تفترضين لسوء رأيك في .

قالت : « لم أقل يوماً إنك إبليس ولم يخطر ذلك ببالى ، أنا لا أفكر فيك على هذا النحو أبداً ، إن أفكارى عنك باردة كل البرود إلا حين تهيننى ، والآن أجثت تعزق من أجلى فقط ؟ » قال : « لأجلك لا غير ، لأراك وكفى ، وإنما عنت لى فكرة الثوب الكتانى بعد أن عزمت على المجيء ، حيث رأيته فى الطريق معروضاً للبيع ، فارتديته لأفوت العيون ، وقد جثت لأحتج على كدحك على هذا النحو » ، قالت : « ولكنى أستطيعه ، إنى أعمل من أجل والدى » ، قال : « هل انتهى عقدك فى المكان الآخر ؟ » قالت « نعم » ، قال : « فإلى أين تذهبين بعدها ؟ أتلتحقين بزوجك العزيز ؟ » .

وأفضها هذا التذكير المهين فصاحت فى مرارة : « لست أدرى ، ليس لى زوج ! » قال : « هذا صحيح ، فى المعنى الذى تقصدين ، ولكن لك صديقاً ، وقد عولت على أن ترتاحى بالرغم منك ، فإذا عدت إلى دارك فسترين ما أرسلت إليك » قالت : « ألك ! وددت ألا تهينى شيئاً أبداً ! لا أستطيع أن أقبل منك شيئاً ما ! لست أحب هذا وليس يبنى ! » قال : « بلى يبنى ، لن أسمح لامرأة أحبها مثلما أحبك أن تكدح دون أن أحاول مساعدتها » ، قالت : « ولكنى فى خير حال ! ليس يشقىنى إلا ... ليس يشقىنى أمر رزقى بتاتا ! » .

وأشاحت عنه وعاودت عزقها وقد تملكها القنوط وتحدرت دموعها على مقبض الشوكة وعلى التربة ، قال : « إنما يشقىك أمر الصبية ، أمر إخوتك وأخوانك ، لقد كنت أفكر فى أمرهم » ، وخفق قلب تس إذ رآته يمسحها فى نقطة ضعيفة ، وقد كشف منبع همومها الأكبر ، وقد كانت روحها منذ عودتها إلى دارها قد توفرت على أولئك الصغار بإخلاص حار ، واستطرد : « إذا لم تبرأ أمك وجب أن يعمل إنسان عملاً من أجلهم ، ما دام أبوك لن يستطيع أن يفهم كثيراً على ما أظن » ، قالت : « بلى سيستطيع مع مساعدتى ، يجب عليه أن



يستطيع ! » قال : « ومع مساعدتي أنا أيضاً » ، قالت : « لا ياسيدى ! » فانفجر غيضاً يقول : « يا للحقافة ! إن الرجل يظن أننا أسرة واحدة وسيرضيه هذا الأمر أشد الرضى ! » قالت : « ليس يظن ذلك ، لقد بددت أوهامه ! » قال : « وهذا أدل على حماقتك ! » .

وتراجع عنها دربرفيل حانقاً إلى وشيع المزرعة ، حيث نزع الثوب الرينى الذى كان متسكراً فيه ، وكوّره في يده ورمى به في النار ومضى ، ولم تعد تس لاضطرابها تستطيع مواصلة العمل ، ولم تدر إن كان عاد إلى دار أبيها ، فحملت شوكتها وانقلبت راجعة إلى الدار ، فلما صارت على بعد عشرين ذراعاً من الدار لقيتها إحدى أخواتها فقالت لها : « تس ! ماذا تظنين ؟ ! إن لا يزالو تبكى وفى الدار جمع غفير ، وقد تحسنت صحة أمى كثيراً ، ولكنهم يحسبون أبى قد مات ! » وكانت الطفلة تى ما فى الخبر من خطر وإن لم تع ما فيه من حزن بعد ، ووقفت تنظر إلى تس وعيناها متسعتان شعوراً بأهمية ما قالت ، حتى لحظت ما كان لقولها من أثر فى تس فعادت تقول : « ماذا يا تس ؟ ألن نكلم أبانا بعد اليوم ؟ » قالت تس : « ولكن أبى لم يكن به إلا انحراف بسيط ! » ولحقت بهما إذ ذاك لا يزالو ، فقالت : « لقد سقط الساعة ويقول الطبيب الذى يعود أى ألا أمل فيه لأن قلبه منخوب » .

أجل : كان الزوجان قد تبادلا مكانيهما : فنجت المحتضرة وقضى ذو الانحراف البسيط ، وكان وراء هذا الخبر منزى أكبر مما يبدو لأول وهلة : فقد كانت الحياة أبى تس قيمة فوق أعماله الشخصية ، وإلا لما كان لتلك الحياة كبير قيمة ، فقد كانت تلك الحياة هى الثالثة والأخيرة ، التى كان المنزل وملحقاته مستأجرة خلالها ، وكان المزارع الكبير صاحب الملك ينتظر بفارغ الصبر الحصول على المنزل وملحقاته لايواء عماله الثابرين فيها ، الذين كانوا يعيشون عيشة ضنكة فى أكواخ قليلة وسائل الراحة ، هذا إلى أنف المستأجرين مدى الحياة من أمثال أسرة دريفيلد ، كانوا مرغوباً عنهم فى القرى ، شأنهم فى ذلك شأن صغار المالكين ،

لترفعهم واستقلالهم ، فكان إذا انتهى عقد أحدهم لم يجد .  
وهكذا رأى آل دريفيلد - الذين كانوا قديماً آل دربرفيل - قضاء  
ينصب عليهم هو القضاء الذي لا بد أنهم طالبا صباه - أيام كانوا جبابرة هذا  
الوادي - على رؤوس من لا يملكون أرضاً شأنهم هم اليوم ، ولعلمهم كانوا في  
عهدهم أشد قسوة ، وهكذا يطرد التدافع والتجاذب - وهما نغما التطور في هذا  
الوجود - ويختلفان على كل ما تنزل الزرقاء .

٥١

أخيراً حل المساء السابق ليوم المذراء القديم ، وأمسى عالم الزراعة في رحى حركة لا تكون إلا في ذلك الوقت من العام ، فهو يوم إيفاء تنفذ فيه اليهود التي قطعت في عيد الشموع كندماس للعمل في الحقول في العام التالي ، فينزع المال — أو الفعلة كما كانوا يسمون أنفسهم حتى أنهم الاسم الجديد من العالم الخارجي — إلى مزارع جديدة ، إذا كانوا لا يودون البقاء في مزارعهم القديمة .

وكانت هذه المهاجرات في ازدياد في هذه الربوع ، ففي عهد طفولة أم تس كان أغلب المشتغلين بالزراعة حول مارلت يقضون كل حياتهم على مزرعة واحدة هي التي قضى فيها آبائهم وأجدادهم أعمارهم ، أما في اليهود الحديثة فاشتدت رغبة التنقل ، إذ غدت أسرات الجيل الجديد يرون المتعة في النّقل ويتوقعون من وراء ذلك مزايا ، فكانت المزرعة التي تمدها أسرة مصرّ الفرعونية تمدها أسرة أخرى أرض الميعاد ، إذ تراها من بعد ، حتى تقيم فيها فترتد مصرّاً أخرى في نظرها ، ومن ثم كان القوم في تنقل مستمر .

على أن كل التغيرات التي كانت تلاحظ باطراد في حياة القرية ، لم تكن ترجع كلها إلى مهاجرات الفلاحين ، بل كان عدد السكان نفسه في تناقص ، فقد كانت القرية تحتوى فيما مضى — بجانب عمال المزارع — على طبقة طيبة أوسع مدارك وأعلى منزلة من الطبقة الأولى ، وهي الطبقة التي كان والداس يمتان إليها ، كما يمت إليها نجار القرية والحداد والإسكاف والبائع الجوال ، وجم غفير من ذوى الحرف الخارجة عن فلاحه الأرض ، تلك كانت طبقة من الناس مستقيمة الحياة ثابتة الغرض ، لأنها إما تبأشر ما تستأجر مدى الحياة كوالداس ، أو تراول الالتزام للمالك الكبير ، أو في أحوال نادرة تستأجر مساكنها إلى آمام معلومة ، ولكن أصبحت المساكن للمستأجرة لآمام طويلة إذا ما انتهت مددها

لا تجدد عقودها وتؤجر لأمثال هؤلاء ، بل كانت في أحوال كثيرة تهدم إذا لم يكن المالك الكبير في شديد حاجة إليها لإسكانها عماله .

ذلك بأن سكان القرية الذين لا يعملون في الزراعة مباشرة ، كانوا غير مرغوب فيهم ، وكان نفي بعضهم يكسد تجارة آخرين فيضطرون إلى الرحيل في أثرهم ، فاضطرت تلك الأسرات - التي كانت فيما مضى هي فقار تقاليد القرية - إلى اللجوء إلى المراكز الكبيرة ، وهي حركة يسميها رجال الإحصاء تسمية مضحكة ، يسمونها (ميل أهل الريف إلى المدن الكبيرة) ، وهي في الحقيقة ميل الماء إلى صعود الرابي إذا دفعته الآلات دفعاً .

وإذا أتى المدم على جانب كبير من مساكن مارلت وأكواخها بهذه الصورة ، أصبح كل مسكن باق لازماً للمالك الكبير يؤوى فيه عماله ، ومنذ حدوث الحادثة التي تركت ظلها القائم على حياة تس كانت أسرة دريفيلد - التي لم يكن الناس يصدقون أمر منابها - تعد أسرة يجب ذهابها حالاً ينتهي عقدها ، رعيّاً للفضيلة على الأقل ، والحق أن تلك الأسرة لم تكن مثلاً باهراً للاعتدال أو الوقار أو العفاف : فكثيراً ما سكر الأب بل الأم ، وقلما ذهب الصبية إلى الكنيسة ، والأخت الكبرى كانت لها علاقات محيية ، فكان من الواجب تنقية القرية بوسيلة ما ، ومن ثم لم يحل يوم العذراء القديم هذا ، وهو أول يوم من نوعه يحق فيه طرد أسرة دريفيلد ، حتى احتيج إلى مسكنها الفسيح لإيواء نجار ذى أسرة كبيرة ، ووجب على الأرملة جوان وابنتها تس ولايزالو وإبرهم والصبية الصغار أن ينتفوا عنه متحولاً .

وهبط الظلام وشيكا في الساء السابق ليوم تحولهم ، لأن مطراً مرذاً كان يحجب السماء ، وإذا كانت تلك آخر ليالاتهم في القرية موطنهم ومسقط رؤوسهم ، ذهبت مسز دريفيلد ولايزالو وإبرهم يودعون بمض الأصدقاء ، وبقيت تس في الدار ترقب عودتهم ، وكانت جاثية في مقعد الشباك ووجهها قريب من المصراعين ، حيث كان يجري على لوح الزجاج الداخلي لوح خارجي من المطر ، وقد شدت عيناها

إلى عنكبوت كان على ما يرى محروماً من الطعام ، لأنه استقر خطأ في ركن لا يعتامه الدباب أبداً ، فهو يرتعد في التيار الضئيل المنبعث من بين المصراعين . وكانت تس تفكر في حال ذويها ، وكانت تدرك وخامة تأثيرها هي نفسها في مآلهم : فلو أنها لم تعد إلى دارها لاحتمل أن يسمح لأوها والصفار بالبقاء على أن يكونوا مؤجرين بالأسبوع ، ولكنها عقب عودتها بقليل لاحظها قوم شديدي التحرج والتأثم بعيدو النفوذ ، رأوها تتلصقاً في مدفن الكنيسة ترم بفأس في يدها قبر طفل تهدم ، فأدركوا أنها عادت إلى الإقامة في القرية ، فوبخوا أوها على إيوائها فردت عليهم جوان رداً قبيحاً متبرعة من تلقاء نفسها بالرحيل ، فأخذوها بقولها وكانت النتيجة هي هذه ، قالت تس لنفسها في مرارة : « كان يجب ألا أعود أبداً » .

واستغرقت في أفكارها بحيث لم تكذب بادي ذى بدء تلحظ رجلاً في معطف مطر أبيض راكباً مقبلاً في الطريق ، ولعل قرب وجهها من الزجاج أظهرها له بسرعة ، فحول عنان حصانه إلى ناحية الكوخ حتى كادت حوافره تقع على زيق النبات الممتد بمحذاء الحائط ، ولم تلحظه تس حتى مس الزجاج بصرجه ، وكان المطر قد أقلع أو كاد ، وأشار إليها ففتحت الشباك وقال : « ألم ترينى ؟ » قالت : « لم أنتبه ، ولعلى سمعتك وإن كنت ظننت أنها عربية يجرها حصان ، لقد كنت في شبه حلم » .

قال : « لعلك سمعت عربية دربر قيل ، ألا تعرفين تلك الأسطورة ؟ » قالت : « لا ، لقد هم بعض الناس أن يقصها على ثم أمسك » ، قال : « لا يجدر بي أنا أيضاً أن أخبرك بها إذا كنت حقاً تنتمين إلى آل دربر قيل ، أما أنا فدعني فيهم فلا ضير على ، إنها لقصة مفضلة ، وغواها أن صوت عربية موهومة لا يسمعه إلا بعض سلالة دربر قيل ، ويقال إنه يجلب الشوم على سامعه ، ولكل هذا صلة بجرمة قتل اقترفها بعض أفراد الأسرة منذ قرون » ، قالت : « أما إذ بدأت فأتهم » ، قال : « يزعمون أن بعض أبناء الأسرة اختطف حسناء فحاولت أن

تهرب من العربة التي كانت تقلهما ، وكان عراك انتهى بأن قتلها وأوقنته لا أذكر تلك إحدى الصور التي تقص بها القصة ... أراكم قد حزمتم كل أوعيتكم ودلائكم فهل أنتم مزمعون الرحيل ؟ » .

قالت : « نعم ، غدا ، يوم المذراء القديم » ، قال : « لقد بلغني ذلك ولم أكد أصدق لهفأجأته ، فما السبب ؟ » قالت : « لقد كانت حياة أبي آخر حياة تقضى في السكن ، فلما انقضت لم يعد لنا حق في المقام ، وإن كان من المرجح أن يمكن بقاؤنا على أن نكون مستأجرين أسبوعيين لولاي » قال : « وما شأنك ؟ » قالت : « لست ... امرأة عفيفة » ، فاحمر وجهه دربرفيل وقال في غضب كان من سخرية القدر أن يسمع منه : « واخجلتاه ! تبا للأدعياء المناققين ! أهذا سبب رحيلكم إذن ؟ لأنكم مطرودون ؟ » قالت : « لم نطرد فعلا ، ولكنهم قالوا إن علينا أن نذهب قريبا ، فاستحسننا أن نذهب في وقت الانتقال هذا ، الذي هو أحفل بالفرص » .

قال : « فإلى أين ؟ » قالت : « إلى كنتجزير ، قد استأجرنا بعض الغرف هناك ، إذ أن أي لاعتدادها الأحق بعترة أبي تصر على الذهاب إلى تلك البقعة » قال : « ولكن أسرتكم لا تصلح لها غرف مستأجرة ، لا سيما في بلدة ضيقة حقيرة كتلك ، فلم لا يأتون لتقيموا في بيت الحديقة في ترتدج ؟ لم يكذبى هناك دواجن بعد وفاة أمى ، ولكن البيت كما تمهدين والحديقة ، ومن السهل طلاؤه في يوم ، وفي وسع أمك أن تعيش فيه في راحة ، وسوف أرسل الصبية إلى المدرسة ، الحق أن من واجبي أن أساعدكم ! » .

قالت : « ولكننا قد استأجرنا الغرف في كنتجزير فعلا ، ويمكننا أن نبقى هناك في انتظار ... » ، قال : « في انتظار ماذا ! في انتظار ذلك الزوج البديع ولا شك ، اسمى يا تس : إني أفهم الرجال جيدا ، وإذا تذكرت سبب انفصالكما فاني أجزم بأنه لن يصلحك ، وأنا وإن كنت عدوك فيما مضى فاني صديقك اليوم وإن لم تصدقنى ، فتعالى إلى هذا السكن الذى أعرض عليك نشئ فيه مستعمرة

من الدواجن تعنى بها أمك خير عناية ، ويذهب الصغار إلى المدرسة » فسكتت تس برهة اشتد فيها شهيقها وزفيرها ، وأخيراً قالت : « أتى لى أن أبقى أنك ستفعل كل ذلك ؟ ربما تغير رأيك وعندها نمود نحن ... نمود أى بلا مأوى » ، قال : « لا ، لا ، لا ، إذا شئت تمهدت لك بما أقول كتابة ، تدبرى الأمر » .

هزت تس رأسها ، ولكن دربرفيل ألحف ، ولم تذكر أنها رآته من قبل مصراً كل هذا الإصرار لا يقبل رداً ، قال فى لهجة توكيد : « نشدتك أنت تحبى أمك ، إن الحكم لها لا لك ، سآمر بتنظيف السكن ودهان غداة غد ، وبإيقاد المدافئ فيه ، فلا يأتى المساء إلا وهو جاف ، فيكون فى مقدوركم المجئ إلى هناك رأساً ، اذكرى أتى ساكون فى انتظاركم ، ولكنها عادت فهزت رأسها وحجرتها محتقة بمختلف المواطف ، وهى لا تستطيع أن ترفع إليه الطرف ، فاستطرد : « اذكرى أتى مدين لك يعض الشيء بسبب الماضى ، وأنتك شفيتى من ذلك الجنون ، فيسرني ... » قالت : « ليتك استبقيت ذلك الجنون فتتبع السلك الذى يوافقه ! »

قال : « إني لسعيد بهذه الفرصة التى تتيح لى سداد بعض دينى ، سأنتظر غدا أن أسمع صوت إنزال أمتعتكم من العربات ... أعطينى يدك عهداً بذلك يا تس العزيزة الجميلة ! » وكان قد خفض صوته فى آخر جملة إلى همس ، ودس يده من المصراعين المواريين ، فغذبت تس الشبك فى عجل وعيناها تتقدان ، فأنحشرت يده بين المصراعين وبين عوارض الشباك الحجرية ، فصاح وهو يجذب ذراعه : « أف لهذا ! ما أقساك ! لا ! لا ! أنا وائق أنك لم تقصدى ذلك ، حسن ، سأنتظركم أو أنتظر أمك والصغار على الأقل » قالت : « أما أنا فلن آتى ، فلدى من النفود ما يكفينى » قال : « أين ؟ » قالت : « فى صيانة حمى إذا طلبتها منه » ، قال : « نعم إذا طلبتها ، ولكنك لن تطلبها يا تس ، أنا أدري بك ، لن تطلبها أو تهلكى جوعاً ! » .

قال ذلك ومضى ، وعند منعطف الشارع قابل الرجل صاحب وعاء الطلاء ،

فسأله هذا هل هجر الإخوان فأجاب : « اذهب إلى الشيطان » ؛ وظلت تس  
في موضعها مدة طويلة ، حتى خامرها شعور بالظلم وتمرد عليه ، دفع الدموع إلى  
أجفانها ساخنة امتلأ بها بحجراها ، لقد قسا زوجها إينجل كابر نفسه في معاملتها كما  
قسا غيره ما في ذلك شك ! ولم تكن سمحت لهذه الفكرة من قبل أن تخطر لها ،  
ولكن الواقع أنه كان قاسيا ، إنما لتستطيع أن تقسم مخلصه من صميم فؤادها  
أنها لم ترد يوما إلا الحسنى ، ولكن كان كل حظها هذه النظرة في المعاملة ، وأية  
كانت خطاياها فليست تلك الخطايا بمقصودة ، بل كان مرجعها الغفلة ، فلم تعاقب  
كل هذا العقاب المرهق ؟

ومدت يدها فتناولت ورقة والاضطراب ينهب نفسها ، وسطرت فيها هذه  
الكلمات العجلة : « ليت شعري لم تعاملني هذه المعاملة القبيحة يا إينجل ؟ أنا  
لا أستحقها ، لقد أدرت الأمر على شتى وجوهه ، ولن أصفح عنك أبدا ! أنت  
تعلم أنني لم أقصدك بسوء فلم تسيء إلى هكذا ؟ أنت لعمرى شديد القسوة ، سأحاول  
أن أنساك ، أنا لم أصب على يديك إلا الحيف . ت » ، وانتظرت حتى مر ساعي  
البريد فجرت إليه برسالتها ، ثم عادت إلى مجلسها السادر بجوار زجاج النافذة ،  
وحدثت نفسها أن الكتابة على هذا النحو ليست مشرا من الترفق والتوسل ، فأنى  
له أن يلين لتوسلها ؟ إن الحقائق لم تتغير ولم يجد جديد يغير رأيه .

واحلوك الظلام ووضح ضوء المدفأة في الحجرة ، وكان الأكبران من الصبية  
قد خرجا مع أمهما ، والأربعة الأصغرون المتراوحة أعمارهم بين الثالثة والنصف  
وبين الحادية عشرة متكأ كئيب حول المدفأة في معاطف سود يثرثرون ، ومشت  
إليهم تس ولم توقد شمعة ، وقالت في عجلة : « هذه يا أعزائي آخر ليلة تقضيها في  
هذا المنزل الذي ولدنا به ، أليس يجدر بنا أن نفكر في ذلك ؟ » فصمتوا جميعا ،  
وقد تهاوا — لسهولة تأثرهم — للانخراط في البكاء من أجل صورة الانتهاء المحزنة  
التي صورتها لهم كلماتها ، وإن كانوا قد قضوا اليوم متبطين بفكرة الذهاب إلى  
بيت جديد .



قالت : « غنوني يا أعزائي » ، قالوا : « ماذا نغني ؟ » قالت : « أية أغنية تعرفونها ، لا أبالي » ، فساد صمت مؤقت قطعه أول الأمر صوت صغير يحاول الترنم ، وسرعان ما انضم إليه آخر ثم لحق بهما ثالث فرباع ، يرددون جميعاً ما حفظوا في مدرسة يوم الأحد : « هنا نكابد الحزن والألم ، هنا نتلاقى لنعود فنفترق ، أما في السماء فلا نفترق أبداً » ، ومضوا يتنغمون في استسلام وغفلة فعلاً من فرغ من المشكلة من زمن ، واطمأن إلى صواب رأيه ، واستراح إلى عدم ضرورة متابعة التفكير ، وزموا معارف وجوههم توفراً على حسن إخراج الحروف ، وعيونهم مصوبة إلى وسط النار التهافتة ، ونغمت أصغرهم تطنى على وقفات الآخرين .

وأشاحت عنهم تس وعادت إلى الشباك ، وكان الظلام قد خيم في الخارج ولكنها ألصقت وجهها بالزجاج كأنها تحديق في الظلام ، والحقيقة أنها كانت توارى عبراتها ، وودت لو أنها تؤمن بما يترنم به الصبيان ، فلو أنها كانت واثقة لتغير كل شيء في نظرها ، ولتركهم في طمأنينة إلى العناية وإلى مملكتهم المستقبلية ! أما وقد عازها ذلك الوثوق فقد حق عليها أن تعمل من أجلهم عملاً ، وأن تكون هي تلك العناية ، فقد كانت تس تحس كما يحس ملايين كثيرة من البشر بسخرية بشعة في قول الشاعر : « لسنا نأتي في عرشي تام بل في غلائل هههافة من السعادة » ، كانت هي وأضرابها يعدون الميلاد نفسه إرغماً للفرد مهيناً ليس في نتائجه ما يبرر فرضه عليه بلا اختيار ، وليس في تلك النتائج إذا ما حسنت إلا ما يخفف أثره ، دون أن يزيله تماماً .

وسرعان ما لمحت أمها ولا يزالو بقامتها المديدة وإبرم في غبش الطريق المبتل ، وراح حذاء أمها الخشبي العالي الذي يرفعها عن الوحل ين على الأرض ، حتى بلغوا باب المسكن ففتحت تس وقالت جوان : « أرى آثار حوافر جواد خارج الشباك ، فهل زارنا زائر ؟ » قالت تس : « لا » ، فخدجها الصغار القابضون بجانب الدفء وغنمهم أحدهم : « يلي يا تس ! السيد الراكب ! » قالت تس : « لم يزرنا وإنما

حادثني في مروره » ، قالت أمها : « من ذلك السيد ؟ زوجك ؟ » قالت تس في يأس متحجر : « لا ! زوجي لن يأتي أبداً أبداً ! » قالت أمها : « من إذن ؟ » قالت : « ما بك حاجة إلى تسأل ، لقد رأيته أنت من قبل ورأيته أنا » ، قالت جوان في فضول : « آه ! ماذا قال ؟ » قالت تس : « سأخبرك به كلمة كلمة متى استقر بنا المقام غداً في كنتجزيير » .

لقد قالت تس إن الزائر لم يكن زوجها ، ولكن شعوراً كان يملكها رويداً رويداً ، شعوراً بأن ذلك الرجل هو من الوجهة الجسدية زوجها الوحيد .

٥٢

أحس الساكنون على كشب من الطرق العامة في الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي بضوضاء مجلجلة ، ترعج نومهم بتواصلها من حين إلى آخر ، حتى مطلع الفجر ، وكانت الضوضاء محققة الحدوث في هذا الأسبوع الأول من الشهر خاصة ، كما كان محققاً أن يسمع صوت الوقوق في أسبوعه الثالث ، فتلك مقدمات التنقلات العامة ، منبعثة من مرور العربات الفارغة تجرها الخيول ، لإحضار أمتعة الأسرات المنتقلة ، لأن القاعدة كانت أن الرجل المستأجر ينتقل أمتعته إلى وجهته ، على عربة المزارع المحتاج إلى خدماته ، وكان السر في تعالى تلك الجلبة بعد منتصف الليل راجعاً إلى الرغبة في إنجاز عمل التنقل في مدى اليوم ، إذ كان السائقون يحبون أن يبلغوا باب المنتقل في السادسة صباحاً ، لبدأوا في التحميل فوراً .

أما نس وأسرته فلم يرسل إليهم عربته مزارع تائق إلى قدمهم ، فإن أكبر من في الأسرة نساء لا يعتمد عليهن في العمل الطويل المتواصل ، ولم يكن بأحد شديد رغبة فيهن ، ومن ثم كان على القوم أن يستأجروا عربة على نفقتهم ولما نظرت نس من الشباك في ذلك الصباح ، ارتاحت إذ تبينت أن السماء لم تمطر ، وإن كانت الريح هائجة والجو عبوساً ، فقد كان الانتقال في يوم العذراء القديم تحت تساقط الأمطار بلائاً لا تنساء الأسرات أبداً ، إذ كان يبلل المتاع والفراش والثياب ، ويخلف وراءه شراً كثيراً .

ورأت نس أن العربة قد وصلت ، واستيقظت أمها أيضاً ولا يزالو وإبرهم ، أما الصغار فتركوا في نومهم ، وتناول الأربعة طعامهم في الضوء الخافت وبدأوا في جمع حاجتهم ، وسار العمل في شيء من الجبور ، ومدت بعض الجارات يد المساعدة ، ولما وضعت قطع الأثاث الكبرى في مواضعها من العربة ، صنع عثن

من الفرش لتجلس فيه جوان دريفيلد والأطفال طول الطريق ، ولما انتهى التحميل استغرق إحضار الخيل زمناً طويلاً ، وكانت قد خلعت عنها شكاؤها أثناء العمل ، ولكن انطلق الجميع أخيراً لحانت الساعة الثانية ، انطلقت العربية والحلة تتأرجح من محور عجبتها ، ومسز دريفيلد ورهطها في أعلى ، وفي حجر المرأة رأس ساعة الحائط حرصاً على عُددها ، وكانت الساعة كلما مالت العربية أو اهتزت دقت واحدة أو واحدة ونصفاً في نغم حزين ، وسارت تس وأختها التي تليها سنا بجذاء العربية حتى خرجتا من القرية .

وكانت الأميرة قد زارت صباح اليوم وفي الليلة السابقة بعض الجيران ، وقد جاء بعض أولئك الجيران يودعونهم ويتمنون لهم خيراً ، وإن كانوا في باطن نفوسهم لا يتوقعون خيراً لمثل هذه الأسرة ، وإن كانت أسرة دربرفيل أقل الخلق إيذاء لغير نفسها ؛ وسرعان ما بدأت العربية تصعد أرضاً مرتفعة ، وازداد هبوب الريح بتغير الارتفاع والتربة ، وإذا كان اليوم السادس من إبريل ، فقد قابلت عربية أسرة دريفيلد عربات أخرى كثيرة ، على قممها أحمالها ، وقد ركم المتاع فيها على طريقة متشابهة يمتاز بها العمال الريفيون ، كما تمتاز النحلة بخلاياها السداسية : فكان دولا ب الآنية في أسفل باديًا في المقدمة على ذبول الخيل ، بحاقيصه اللامعة وبصبات الأصابع وآثار الاستعمال ظاهرة عليه ، قائماً في وضعه الطبيعي كأنه فلك المهد الذي كان اليهود يحملونه معهم في أيام التيه .

وكانت بعض الأسرات المهاجرة في مريح وبعضها في عبوس ، وكانت بعضها تعرج بأبواب الحانات ، وقد عرجت أسرة دريفيلد ببعضها حين آن الألوان لإطعام الخيل ولإنعاش المسافرين ، وفي أثناء الانتظار وقعت عينا تس على كوز كبير أزرق يسع أقة ونصفاً من الشراب ، وهو يصعد ويهبط في الهواء من جانب النساء في جماعة مسافرة على قمة أمتعتها ، وقد وقفت تلك الجماعة على مدى من نفس الحان فتابعت تس الكوز بعينها في إحدى رحلاته صعوداً ، فإذا بدان قبطان عليه تعرف تس صاحبتهما حق المعرفة ، فتقدمت إلى العربية وصاحت

بالتأتين : « ماريان وإيز ! » وكاتسا إياها جالستين مع الأمرة المتنقلة التى كاتسا تقيان فى مسكنها .

قالت : « أمنتقلتان أنتما اليوم بجميع الناس ؟ » فأجابتا إبتائاً وقالتا إن الحياة فى فلنتكوم آتش شاقة ، وإنيهما انسلتا دون إخطار المزارع جروبي ، وتركته فى حل من محاولة القبض عليهما ، وأخبرتاه تس بوجهتهما وأخبرتاهما بوجهتهما ، ومالت ماريان على المتاع وقالت وخفضت صوتها : « أندرين أن الشاب الذى كان يتبعك — طبعاً تعلمين من أعنى — قد جاء يسأل عنك فى فلنتكوم آتش بعد ذهابك ؟ ولم نخبره بمكانك علماً بزهادتك فيه » ، فغمغمت تس : « آه ! ولكنه قد أتانى ! لقد اهتدى إلى ! » قالت : « وهل يعلم قصدك ؟ » قالت : « نعم » ، قالت : « وزوجك هل عاد ؟ » قالت : « لا » .

وخرج السائقان من الحان ، فودعت تس صاحبتهما وعاودت العربتان سيرهما فى اتجاهين متضادين ، وكانت العربى التى تجلس عليها إيز وماريان وأسرة المزارع التى انضمتا إليها ، لأمعة الطلاب تجرها ثلاثة أحصنة قوية توشى لجهازينات نحاسية براقه ، أما العربى التى كانت تجلس عليها مسز دريفلد وأمرتها فكانت مضمضعة لا تكاد تحمل ذلك الركام من الأمتعة ، لم تدر ما الطلاب منذ صنعت ولا يجربها إلا حصانان ، فكان الفرق بين العربتين رمزاً للفرق بين الانتقال على نفقة مزارع غنى ، وانتقال المرء على نفقته الخاصة إلى حيث لا يطلبه أحد .

وكانت المسافة طويلة أطول من أن تذرع فى نهار ، ولم يذرعها الحصانان إلا بأشد الشقة ، ومع أن القوم بدأوا رحلتهم مبكرين فقد كان المساء يقترب حين انمطفأوا على جانب ربوة بارزة ، تكون جزءاً من هضبة تدعى (جرينهل) ، ووقف الحصانان يستجبان ويملكان أنفاسهما ، فأجالت تس عينها وكانت بلدة كنجزيير المهدمة تقوم دون الهضبة على مدى منهم ، وفيها يرقد أسلافها الذين تحدث بهم أبوها وتغنى حتى استدر الرثاء ، كنجزيير التى يحق أن تعد دون غيرها من بقاع العالم ديار آل دربرثيل ، إذ بها أقاموا خمسة قرون كاملة .

وكان رجل يرى متقدما من أرباضها نحوهم ، فلما لاحظ نوع أحمال عربتهم  
حث خطاه ، ثم قال لأم تس وكانت قد هبطت لتمشى ما بقى من الطريق : « لعلك  
أنت المرأة التي يدعونها مسز دريفيلد ؟ » ، فهزت رأسها موافقة وقالت : « ولو  
أصررت على حقوقى لقلت إنى أرملة المغفور له سير جون دربرفيل الشريف  
الفقير ، وها أنا ذى عائدة إلى مقر أجداده » ، قال : « أحقا ؟ ليس لى علم بذلك  
ولكن إذا كنت أنت مسز دريفيلد فإنى مرسل إليك لأخبرك أن الحجرات التي  
تريدنها قد أجرت ، ونحن لم نعلم أنك قادمة حتى أنا أنا كتابك هذا الصباح ،  
بعد أن فات الأوان ، ولكن لا ريب أنك تستطيعين الحصول على حجرات  
أخرى فى مكان آخر » .

ولاحظ الرجل وجه تس وقد ارتد شاحبا ممتعكا لدى سماع خبره ، وأسقط  
فى يد أمها وقالت فى حيرة : « ما عسانا صانعون يا تس ؟ هذا ضرب من الترحيب  
بك إلى مقر أسلافك ! على أن فى استطاعتنا أن تم رحلتنا ونبحث » ، وتقدموا  
يبحثون فى القرية جهد استطاعتهم ، وتخلفت تس مع العربية ترعى الصغار ، بينما  
تقدمت أمها ولا يزالو تسألان ، ولما عادت جوان إلى العربية للمرة الأخيرة بعد  
ساعة من الزمان ، وقد أخفق مسماها ، قال السائق إنه لا بد من إنزان الأمتعة  
لأن الحصانين قد أشرفا على الهلاك ، ولأن عليه أن يعود جزءا من الطريق على  
الأقل تلك الليلة ، فقالت جوان فى غير مبالاة : « أنزله هنا وسأجد مأوى فى  
مكان ما » .

وكانت العربية قد وقفت تحت حائط الكنيسة فى بقعة محجوبة عن الأنظار ،  
وسرعان ما ألقى السائق مسرورا ركام الأمتعة المنزلية الحقيمة ، فلما فرغ دفعت  
إليه أجره الذى كاد يستنزف آخر شلن معها ، وانطلق الرجل وتركهم متراحا  
إلى خلاصه من شأن تلك الأسرة ، وكان المساء جافا وقد أيقن ألا ضرر يصيبهم ،  
وحملت تس فى قنوط إلى كومة الأمتعة ، وقد أرسلت شمس ذلك الأصيل الرسمى  
البارد نظرة خبيثة على الأواني والأطباق وحزم الأعشاب المجففة وهى تحففى فى

النسيم ، ومقايض الصوان النحاسية والأرجوحة التي تارجحوا فيها جميعاً في نومتهم ، وعلبة الساعة المجلوة ، وقد لاحت جميع هذه الأدوات التزيينية كأنها تؤنب أصحابها على تمريرهم إيها لتقلبات الحياة الخارجية التي لم تصنع لها ؛ وكانت تحيط بالمنزل تلال ومنحدرات قد عفت عن متزهاتها القديمة ، وقسمت أقساماً ترعاها الخيول ، وتقوم دونها الأسس العشوشية التي تنبئ بإمكان قصر دربرثيل قديماً ، وتمتد مساحته في مروج (اجدن) التي كانت بعض أملاكهم ، وكان جناح الكنيسة المسمى جناح دربرثيل يطل على ذلك المنظر في غير أكثرات .

قالت أم تس وهي عائدة من جولة في الكنيسة ومدفنها : « أليس قبو أسرتكم ملكاً لكم ؟ بلى وفيه نسكر الليلة يا بناتي حتى يهيئ لنا مقر أسلافكن مأوى ! والآن هلموا ساعدوني يا تس ويا ليزالو ويا إرهم ، نصنع عشاءاً لهؤلاء الصبية وبعدها نعاود البحث » ، فأقبلت تس تساعد في قنوط ، وبعد ربع ساعة استخرج الفراش ذو القوائم الأربع من كومة الأمتعة ، وأقيم بجانب حائط الكنيسة الجنوبي ، وهو جانبها المسمى جناح دربرثيل والذي تمتد دونه الأقبية الضخمة ، وكان فوق كلة الفراش شباك مزركش زركشة قوطية بديمة متعددة الألوان ، ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وكان يدعى شباك دربرثيل ، وكانت على أعلاه نقوش شعار كذلك الشعار المنقوش على خاتم دريفيلد وملعته .

وأرخت جوان الستائر حول السرير لتجمل منه فسطاطاً محكاً ، ووضعت فيه الصبية الصغار وقالت : « إذا حدث أسوأ الفروض أمكننا أن ننام فيه نحن أيضاً ليلتنا ، ولكن هيا نبحت أبعد مما ذهبنا ونحضر بعض الطعام لهؤلاء الصغار الأعزاء ! ويحك يا تس ! ما فائدة تلك اللعبة التي تلعبونها ، لعبة زواج السادة الأثرياء ، مادامت لمبتك تركنا في هذه الحال ؟ » ثم كرت مصطحبة ليزالو والغلام فهبطت الدرب الذي يفصل الكنيسة عن البلدة .

وحالاً بلغوا الشارع لحوا رجلاً على حصان يتلفت ، فقال وهو يداينهم : « آه ! إني أبحث عنكم ، هذا العمرى اجتمع أسرى في بقعة تاريخية ! » وكان ذلك

ألك دربرفيل ، ثم سأل : « أين تس ؟ » وكانت جوان في سريرتها لا تحب ألك ، فأرشدته إلى جهة الكنيسة في اقتضاب وواصلت سيرها ، وقال دربرفيل إنه سيرام مرة أخرى ، إذا هم أخفقوا في النهاية في العثور على مسكن ، وكان قد سمع بالأمر ، ولما مضوا اتجه دربرفيل صوب الحان ، ثم خرج منه بعد قليل مترجلا . وكانت تس التي تركت مع الصبية داخل الفراش قد ظلت تحادثهم برهة ، حتى لم يعد ثمة ما تصنع لراحته في تلك الساعة ، فراحت تتمشى في ساحة الكنيسة وقد بدأ بفشاها غبش الظلام ، وكان بابها غير مقفل فدخلتها لأول مرة في حياتها وكانت مقابر الأسرة داخل ذلك الشباك المطل على الفراش ، ترجع توارىخها إلى قرون شتى ، وكانت تملأ بعضها مظلات وبعضها على شكل مذبح وبعضها قبور عادية ، وقد تهدمت نقوشها وطمست ونزع نحامها من حفراته حيث كان طعم في الحجر ، خلفاً حفر المسامير كأشياء أجحار الخطاطيف في الكتبان الرملية . ولم يكن شيء مما صادفته فيما مضى فذكرها بدثور أسرتها ومكاتها الاجتماعية بأعمق أثر من هذا البلى ، ومشت إلى حجر قائم قد رقص عليه باللاتينية : « مدخل مقابر أسرة دربرفيل العريقة » ، ولم تكن تس تقرأ اللاتينية بمذق كرينال ، ولكنها علمت أن هذا باب مدفن أسلافها ، وأن الفرسان الصناديد الذين تغنى بهم أبوها يرقدون وراءه ، والتفتت وهي نهب الأفكار تبغى العودة مارة بجوار مقبرة على شكل المذبح ، وكانت أقدم المقابر جميعاً وعليها تمثال متمدد ، ولم تكن قد لاحظت ذلك التمثال من قبل في غبش الظلام ، ولم تكن لتلاحظه الآن لولا توهمها أنه يتحرك .

وحالاً دنت منه أيقنت أن الشخص آدمى حى ، فأخذتها رجفة عنيفة لشعورها بأنها لم تكن وحدها في ذلك المكان . غارت قواها وانحطت على الأرض وقد كادت تفقد صوابها ، ولكنها تبينت أنه ألك دربرفيل ، ووثب هو عن المقبرة فتلقاها وقال باسمها : « لقد رأيتك تدخلين فارتقيت تلك المقبرة لئلا أكرر عليك تأملك ، هذا اجتماع أسرى ، أليس كذلك ؟ وجميع أولئك الأشياء



من دوننا ! اسمي ! » وَوَلَّتْ وَطَلَّتْ شَدِيداً فَصَعِدَ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ صَدَى أَجُوفٍ وَاسْتَطَرَدَ : « لَقَدْ هَزَمَ هَذَا هَزْماً جِيداً وَلَا شَكَّ ! وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْتِ أَنْ لَسْتَ إِلَّا مِثَالاً حَجَرِيّاً لِأَحَدِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا ، إِنْ نَظَامَ الدُّنْيَا فِي تَغْيِيرِ مَطَرِدٍ ، وَخَنَصِرِ دَرَبْرِئِيلِ الدَّعَى أَقْدَرَ عَلَى نَفْعِكَ مِنْ جَمِيعِ رِجَالِ الْأَمْرَةِ الْعَرِيقَةِ الرَّاقِدَةِ مِنْ دُونِنَا ، وَالْآنَ صَرِيحِي : مَاذَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَصْنَعُ ؟ » فَنَمَغَمْتُ : « اذْهَبِي ! » فَقَالَ فِي جَفَاءٍ : « سَأَذْهَبُ ، سَأَذْهَبُ فِي أَثَرِ أَمْكُ » ، وَلَكِنَّهُ عَادَ فَقَالَ فِي انْطِلَاقِهِ : « أَذْكَرِي أَنَّكَ سَتَكُونِينَ أَرْقَى لِي خُطَاباً فَيَا بَعْدَ ! » وَلَمَّا مَضَى انْحَنَتْ تَسَ عَلَى مَدْخَلِ الْأَقْبِيَةِ وَقَالَتْ : « مَا بَالِي عَلَى غَيْرِ الْجَانِبِ الصَّوَابِ مِنْ هَذَا الْبَابِ ! » .

وَفِي نَفْسِ هَذَا الْوَقْتِ كَانَتْ إِيزُ وَمَارِيَانُ قَدْ وَاصِلَتَا طَرِيقَهُمَا مَعَ أَمْتَعَةِ الْمَزَارِعِ فِي اتِّجَاهِ أَرْضِهِمَا أَرْضِ كَنْعَانَ الْمَنْشُودَةِ ، الَّتِي هِيَ مِصْرُ أَسْرَةِ أُخْرَى لَمْ تَنَادِرْهَا إِلَّا ذَلِكَ الصَّبَاحَ ، وَلَكِنْ الْفَتَاتَيْنِ لَمْ تَطِيلَا التَّفَكُّيرَ فِي مَقْصِدِ رَحْلَتِهِمَا ، وَإِنَّمَا تَحَدَّثَتَا بِإِنْجِلِ كُلِّهِ وَتَسَ وَعَاشِقُ تَسَ الْمَلْحَاحِ ، الَّتِي كَانَتَا قَدْ سَمِعَتَا قَبْلَ الْيَوْمِ بَعْضَ عِلَاقَتِهِ بِنَارِيخِهَا الْمَاضِي ، وَحَزَرَتَا بَعْضَ تِلْكَ الْعِلَاقَةِ حَزْراً ، قَالَتْ مَارِيَانُ : « لَيْسَ الْأَمْرُ الْيَوْمَ كَمَا كَانَ يَكُونُ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلِ ، إِنْ ظَفَرَهُ بِهَا مَرَّةً مِنْ قَبْلِ يَحْدُثُ فَرْقاً كَبِيراً ، وَمِنْ الْمَوْثُومِ حَقّاً أَنْ يَظْفَرُ بِهَا ثَانِيَةً ، نَحْنُ لَنْ يَكُونَ لَنَا فِي مِسْتَرِ كُلِّهِ نَصِيبٌ أَبَداً يَا إِيزُ ، فَلَمْ نَحْسُدْهَا عَلَيْهِ وَلَا نَرَأُبَ هَذَا الصَّدْعَ بَيْنَهُمَا ؟ ، وَلَوْ أَنَّهُ عَرَفَ أَيَّ ضَنْكٍ تَقَاسَى وَأَيَّ خَطَرٍ يَحُومُ حَوْلَهَا ، لَرَجَّحَ أَنْ يَعُودَ إِلَى فِتْنَانِهِ يَحُوطُهَا بِرِعَايَتِهِ » ، قَالَتْ إِيزُ : « أَلَا نَخْبِرُهُ ؟ » .

وَوَظَلَّتَا تَتَفَكَّرَانِ طَوْلَ الطَّرِيقِ ، وَلَكِنْ زَحَّةَ الْاسْتِقْرَارِ فِي الْبُقْعَةِ الْجَدِيدَةِ اسْتَفْرَقَتْ كُلَّ اتِّبَاهِهِمَا ، عَلَى أَنَّهُمَا سَمِعَتَا بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ اسْتِقْرَارِهِمَا بِقَرْبِ عَوْدَةِ إِنْجِلِ كُلِّهِ ، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ شَيْئاً مِنْ أَخْبَارِ تَسَ ، وَعِنْدَهَا رَاجِعُهُمَا هِيَامُهُمَا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَرَايِلَهُمَا إِخْلَاصُهُمَا لَهَا ، فَفَتَحَتْ مَارِيَانُ قَنِينَةَ الْمَدَادِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ شَرَكَةً بَيْنَهُمَا ، وَأَنْشَأَتَا مَعاً بَضْعَةَ أُسْطَرٍ ، قَالَتَا : « أَيُّهَا السَّيِّدُ الْمَبْجَلُ : اتَّبِعْهُ إِلَى زَوْجِكَ إِذَا كُنْتَ تَحِبُّهَا كَمَا تَحِبُّكَ ، فَإِنْ عَدُوا فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ يَشْدُدُ فِي إِدْرَاقِهَا ،

إن يقربها أيها السيد رجلاً ينبغي أن يكون بعيداً عنها ، لا يجب أن تمتحن امرأة فوق وسمها ، وطول السقوط يرى الحجر بل الماس . محبتان لخيرك » .  
وعنوتنا ذلك إلى إينجل كلير بالمكان الوحيد الذي سمعنا أن له به علاقة ، وهو مسكن قس امنستر ، وظللتا في انفعال واغترباط بهذا الكرم النفسى الذى أبديتاه ، دفعهما إلى التغنى بالأغاني في نزعة عصبية ، وإلى البكاء في نفس الوقت .

الخاتمة



٥٣

هبط المساء في امنستر ، وكانت الشمعتان المهودتان مشتملتين تحت مظلتيهما الخضراوين في مكتب القس ، ولكنه لم يكن جالساً هناك ، بل كان يدخل أحياناً فيحرك نار المدفأة الضئيلة ، التي كانت كافية في جو الربيع الزداد دفئاً ، ثم يكر خارجاً ، وكان أحياناً يقف هنيهة بالباب الخارجى ، ثم يذهب إلى حجرة الجلوس ، ثم يعود ثانية إلى الباب ، وكان ذلك الباب يتجه غرباً ، ورغم أن الظلام كان حالكا في الداخل ، كان الضوء في الخارج ما يزال كافياً لإظهار الأشياء في جلاء ، وكانت مسز كلير في حجرة الجلوس فتمت زوجها إلى الباب .

قال القس : « ما يزال بيننا وبينه وقت طويل ، فإنه لا يبلغ (تشوك نيوتن) قبل السادسة ، حتى ولو وصل القطار في ميعاده ، ولن يسهل على حصاننا المكثل أن يذرع في مشيته المهذمة عشرة أميال في طريق زراعى ، ومنها خمسة في درب (كرمر كرك) » ، قالت : « ولكنه قطع السافة بنا مرة في ساعة » ، قال : « كان ذلك منذ ستين » ، وهكذا جملاً يقضيان الدقائق ، وكلاهما يعلم ألا غناء في الكلام وأن ليس عليهما إلا الانتظار .

وأخيراً انبعثت في الدرب ضوضاء ضئيلة ، وظهرت العربّة الصنيرة خارج السور الحديدى ، ورأيا شخصاً يهبط منها ادعيا أنهما يعرفانه ، ولو رأياه صدفة في الطريق لما عرفاه ، لولا أنه هبط من عربتهما في تلك الساعة الملوحة حين كانا يرقبان شخصاً معلوماً ، وهرعت مسز كلير في الطريقة المظلمة وتلاها زوجها على مهل ، ورآهما القادم في دخوله والقلق مرتم على وجهيهما ، وهما واقفان بالمدخل وشعاع المغرب منعكس على منطاريهما ، أما هما فلم يريا إلا شخصه حيال الضياء ، وقالت أمه : « أهلا بنى العزيز بمودتك أخيراً إلى وطنك » ، ولم تكن في تلك الساعة أكثر احتفالاً لشواذب الزينغ التي تشوب عقيدته ، والتي سببت كل ذلك

الفراق ، منها للغبار المتطاير على ثيابه ، وأية امرأة — وإن كانت من أوثق الناس إيماناً بالحق — تؤمن بما فى الكتاب المقدس من وعود ونذر إيمانها بأبنائها ، أو تحجم عن ترك مجادلاتها الدينية أدراج الرياح فداء لسعادتهم ؟ .

ثم عادت تقول وهى تتنحى عن الطريق وقد بلغ منها التأسف : « لا : ما هذا إنجيل ، ما هذا ابني إنجيل الذى ودعته » ، وربع أبوه أيضاً لرؤيته وقد أضوى عوده الهم وسوء المناخ ، الذى هرع إليه دون تريض أيام نفوره من سخرية الأقدار به فى موطنه ، فأصبح تكاد تستشف هيكله العظمى وراءه ، وتلمح شبحة وراء هيكله ، كان يحاكي صورة المسيح التى صورها ( كرىلى ) ، وقد غار بحجراه وعلامها لون بشع ، وغاض بريق عينيه ، وتبوأ غصون وجوه أسلافه الشيوخ وتجمداتها عرشها من وجهه قبل الألوان بعشرين عاماً .

قال : « لقد كنت مريضاً بالبرازيل ، أما الآن فقد عوفيت » ، على أن ساقيه كأنما أرادتا تكذيبه فاختلفتا وارتمى فى كرمى ليتفادى السقوط ، وكانت تلك خلجة ضعف عمرته من جراء رحلة ذلك اليوم المجهدة ، والانفعال الذى صحب وصوله ، ثم سأل : « هل جاء كتاب باسمي حديثاً ؟ لقد أنانى الكتاب الأخير الذى أرسلناه ، وقع فى يدي بمحض الصدفة وبعد تأخير طويل من جراء إقامتي فى الداخل ، ولولا ذاك لمجلى فى المجر » ، قال والداه : « لقد حزننا أنه من زوجك » ، قال : « نعم » ، وأخبراه أن كتاباً واحداً قد وصل حديثاً فلم يرسله إليه علماً بأنه عائد عما قريب .

وفتح الرسالة على عجل ، وأهمه أشد الهم أن يقرأ فى خط تس تلك المشاعر التى خطتها إليه فى استمجال : « ليت شعرى لم تعاملنى هذه العاملة الفظيمة يا إنجيل ؟ أنا لا أستحقها ، لقد أدت الأمر على شتى وجوهه ولن أصفح عنك أبداً ، أنت تدرى أنى لم أقصدك بسوء فلم تسيء إلى هكذا ؟ أنت لعمري شديد القسوة ! سأحاول أن أنساك ، أنا لم أصب على يدك إلا الحيف . ت » .

قال إنجيل وهو يري بالورقة : « صدقت ! أخشى أنها لن ترضى عني بعد

اليوم ! » قالت أمه : « لا تأس إنجيل كل هذا الأمل على ريفية » ، قال : « ريفية ؟ كلنا ريفيون ، وليتها حقاً كذلك بالمعنى الذى تقصدين ، ولكن دعنى أوضح لك الآن ما لم أوضح من قبل : إن أباهما ينتمى فى فرع الذكور إلى بيت من أعرق البيوتات الزمرندية ، شأنه شأن كثيرين من آخرين يحبون حياة خول فى الفلاحة بقرانا ، ويسمون ريفيين » .

ومرغان ما أوى إلى فراشه ، وفى غداة الغد شعر بوطأة العلة ، فبقى فى مخدعه مستغرقاً فى الأفكار : لقد ترك تس فى ظروف تجعل من صعب الأمور عليه أن يهرع إلى أحضانها حالاً يطيب له أن ينفّر لها ، وإن لاح له أن ذلك يسير حين كان على الجانب الجنوبي من خط الاستواء ويوم أناته كتابها فياضاً بالحب ؛ إنها امرأة غزيرة العاطفة ، وأما وكتابها الحاضر يشهد بأن رأيها فيه قد تغير — وهو مقر بأنها لم تتعد الإنصاف فى تغيرها — فقد ساءل نفسه أمن الحزم أن يفجأها بزيارتها فى حضور والديها دون سابق إخطار ، فإذا كان حبها قد تحول جفاء فى الأسابيع الأخيرة حقاً ، فإن لقاء مفاجئاً ربما أدى إلى ألفاظ مريرة .

ومن ثم استحسن إنجيل أن يهيب تس وأسرته للقاءه ، بإخطارهم بعودته وتأميله أنها ما تزال تعيش معهم كما أشار عليها قبل رحيله ، وكتب إليهم فى نفس اليوم . وقبل انتهاء الأسبوع أتته رسالة مقتضبة من مسز دريفيلد لم تنقذه من تخرجه وتهيبه ، فإنها لم تكن تحمل عنواناً ، وإن أدهشه أن يرى أنها غير رسالة من مارلت ، وهذا فخواها : « سيدى : أكتب هذه السطور القليلة لأقول إن ابنتى بعيدة عني فى الوقت الحاضر ، ولست على يقين من عودتها ، ولكنى سأحيطك علماً حالاً تعود ، ولا أرى لى الحق أن أخبرك بمقرها الراهن ، وإنما أقول لى أنا وأسرتى قد غادرنا مارلت من زمن . المخلصة : ج . دريفيلد » .

وبلغ من اغتباط إنجيل حين رأى أن تس على ما يلوح فى حالة جيدة ، أنه لم يقنط كثيراً لشدة تكتم أمها فى أمر مقرها ، فمن الواضح أنهم جميعاً حانقون عليه ، ومن ثم عول على الانتظار حتى يخبره مسز دريفيلد بعودة تس ، التى

استنبط من رسالتها أنها ستكون سريعة ؛ ورأى أنه لا يستحق معاملة خيراً من تلك ، فقد كان حبه كما قال شكسبير حبا يتغير بتغير الأحوال ، على أنه في غيئته الطويلة خالجه مشاعر جديدة ، وأدرك أنه كان قد توم الفجور حيث العفاف كله ، وعجب لم لم يحكم على تس نفسها واستعدادها لا ماضيها وتاريخها ، وعلى نيتها لا على فعلها .

ومر يوم أو يومان وهو في دار أبويه يقرب وصول رسالة جوان دريفيلد الموعودة ، واستعادته بعض قواه ، وقد بدت دلائل تراجع قواه ولكن لم يد دليل واحد على مجي رسالة من جوان ، فقام ينقب حتى عثر على الرسالة القديمة التي آتته في البرازيل مرسله إليه من تس في فلتكوم آس ، فأعاد تلاوتها فأثرت فيه كلماتها تأثيرها لما قرأها لأول مرة حيث تقول :

« ... دعني أفزع إليك في بلائي فليس لي سواك مفرع ! ... أتوسل إليك يا إنجل ألا تصر على العدل وأن تستشعر الرحمة بي ... إذا استطعت المحي فسيطيب لي الموت في ذراعيك ! سوف أرتاح إلى ذلك إذا اطأنت إلى أنك غفرت لي ! إذا كتبت إلى سطرأ واحداً صغيراً فقلت : (إني قادم سريعاً) فسأنابر في أوفر سعادة يا إنجل ! ... تصور كم يوجع قلبي ألا أراك أبداً أبداً ، آه لو أستطيع أن أجعل قلبك العزيز يالم وهلة قصيرة كل يوم ، كما يالم قلبي كل يوم بطوله ، إذن لاحتمل أن يدفمك ذلك إلى إبداء المطف على حبيبتك الوحيدة ... إني لأفزع بل أغتبط لأن أعيش معك خادماً إذا لم يكن لي أن أعيش معك زوجاً ، كي أحظى بقربك وأفوز بالنظر إليك وأعدك أنك لي ... ولا أشتاق في السماء أو على الفبراء أو تحت الثرى إلا شيئاً واحداً ، وذاك لقاؤك يا حبيبي العزيز ! تعال إلي ! تعال إلي ! وأنقذني مما يهددني » .

عول إنجل على ألا يحفل بمرارة رسالتها الأخيرة بعد ذاك ، بل يذهب ليبحث عنها فوراً ، وسأل أباه إن كانت طلبت منه تقوداً في غيابه فأجاب سلباً ، فبدا لإنجل إذ ذاك لأول مرة أن كبرياءها أبي لها وأنها آثرت العسر ، واستنبط



أبواه من أقواله سبب انفصالهما الصحيح ، فدفعتهما عقيدتهما المسيحية — إذ كانا لا يهتمان لأحد اهتمامهما لدوى الخطايا — إلى السخاء على تس فوراً بشفقتهما التي لم يثرها من قبل نسبها العريق ولا سذاجتها وفقرها ، أنارتها الآن خطيئتها .

وفي أثناء حزمه بمض الأشياء على عجل من أجل رحلته المزمعة ، أرسل نظرة خاطفة إلى رسالة متواضعة وصلته حديثاً أيضاً ، تلك هي رسالة إيزهيوث وماريان التي تستهلانها بقولهما : « أيها السيد البجل : انتبه إلى زوجك إن كنت تحبها كما تحبك » ، وتمهرانها بامضاء محبتين خيره .

٥٤

بعد ربع ساعة غادر إينجل الدار ، وراقبت أمه شخصه النحيل يغيب في الطريق ، وكان قد أبى أن يستعير مهرة أبيه المجوز علما بلزومها لحاجتهما ، ومضى إلى الفندق حيث اكرتى عربية وهو لا يكاد يستطيع الصبر حتى تلجم فرسها ، وبعد دقائق قليلة كان يسوق عربته صاعدا التل المرتفع خارج البلد ، والذي ارتقته تس منذ شهور ثلاثة أو أربعة في آمال وطيدة ، وهبطته متعثرة في أذيال الخيبة .

وسرعان ما امتد أمامه سهل بنشيل وقد انتشرت حمرة البراعم أرجوانية في أشجاره وأوسعته ، ولكن كليل كان يفكر في أشياء أخرى ، ولا يعير النظر من اتباهه إلا مقدار ما يمكنه من متابعة الطريق ، وفي أقل من ساعة ونصف دار حول جنوب حقول ( كنجز هتاك ) وهبط نحو ملتقى طرق ( كروس إن هاند ) الموحش المنفر ، حيث العمود الدنس الذي أرغم دربرفيل تس في نزوة تقواه على أن تستلمه وتقسم ذاك القسم الغريب بالألا تقصد إلى إغوائه مرة أخرى ، وكانت الأعشاب الشائكة الدابلة التي اجتلبتها الرياح في العام الماضي ما تزال ممتدة على الشطآن ، وقد نجمت من جذورها أشواك صغيرة خضراء .

ومن ثم انطلق محاذيا حافة الهضبة المطلة على بقية حقول ( هتاك ) ، ثم انعطف في إقليم فلنتكوم آش الطباشيري البليل الهواء ، ومنه كانت تس قد كتبت إليه إحدى رسائليها ، وكان يظن أن هذا هو مقرها المؤقت الذي أشارت إليه أمها ، ولكنه طبعا لم يجدها ، وزاده كآبة أن مسز كليل ، لم يسمع بها قط أحد من القرويين ولا المزارع نفسه ، وإن كان القوم يذكرون تس جيدا باسمها الشخصي . وتبين له أنها لم تستعمل اسمه قط أثناء انفصالها ، وكان ذلك دليلا على سمو نظرهما إلى تمام انفصالهما ، لا يقل مغزى عن الشدائد التي آثرت خوضها - والتي علم

بأمرها الآن لأول مرة — على اللجوء إلى والده في طلب المال .  
وأخبروه أن تس غادرت ذلك المكان ولم تكذب تحظر مستأجرها ، وذهبت  
إلى مسكن والديها في الجانب الآخر من بلاكمور ، فتعين عليه أن يذهب إلى مسر  
دريفيلد وكانت أخبرته أنها نزلت عن مارلت ، ولكنها كتبت عنه عنوانها الحالي  
كتباناغريا ، وكان السبيل الوحيد أن يقصد إلى مارلت ويسأل عنه ، وكان المزارع  
الذي طالما تناول على تس عظيم الملاينة لا ينجل كلير ، وأعاره حصانا ودليلا إلى  
مارلت ، وكان إينجل قد أعاد العربية التي خرج فيها إلى إمنستر ، لأن حصانها لم  
يكن ليقطع أكثر مما قطع من طريق في يومه .

ولم يقبل كلير أن يستمير عربية المزارع إلى أبعد من أرباض الوادي ، وهناك  
أرجعها مع السائق ، وقضى الليلة في فندق ، وفي الغد دخل ماشيا الربوع التي  
شهدت ميلاد عزيزته تس ، وكان الوقت ما يزال مبكرا في ذلك العام ، فلم تكن  
الحدائق والميدان قد ازينت بالألوان ، ولم يكن ما يدعى بالربيع إلا شتاء مغطى  
بطبقة رقيقة من الخضرة ولم يكن كلير توقع غير ذلك .

وكانت الدار التي قضت تس فيها طفولتها قد سكنتها أسرة لم تعرف تس قط  
وكان السكان الجدد في الحديقة مستغرقين في أعمالهم ، كأن الدار لم تنقض شبيبة  
عمرها في ارتباط بتاريخ قوم آخرين ، إذا ووزن تاريخ هؤلاء به لم يكن غير حكاية  
يهذى بها معتوه ، وكانوا يسرون في مماشى الحديقة مفكرين في خواص شؤونهم ،  
وأعمالهم تناقض في كل وهلة الأشباح القاتعة التي تلوح وراءهم ، ويتحدثون كأن  
الوقت الذي قضته تس هناك لم يكن أحفل بالبر من الوقت الحاضر ، وحتى  
طيور الربيع كانت تتغنى فوق رؤوسهم كأنها لا تفتقد أحدا .

وسأل إينجل هؤلاء البررة النافلين ، فإذا هم لا يكادون يذكرون حتى اسم  
الأسرة السالفة ، ولكنه علم منهم أن جون دريفيلد قد مات ، وأن أرملة  
وأبناء غادروا مارلت معلنين أنهم ذاهبون إلى كنجزير ، ولكنهم بدل أن يفعلوا  
ذلك شخصوا إلى جهة أخرى ذكروها ؛ وفي هذه الأثناء امتلأ قلب إينجل بيفض  
الدار لخلوها من تس ، وأسرع مبتعدا عن منظرها البغيض لا يثنى إليها طرفه ،

وكان طريقه على الحقل الذى رآها فيه لأول مرة يوم الرقص ، فكان أنبض إلى قلبه من الدار ، وواصل سيره مجتازا فناء الكنيسة ، حيث رأى بين الألواح التذكارية لوحا أبدع من سواه رقشا كتب عليه : « فى ذكرى جون دريفيلد ، أودربرفيل على الصحيح ، سليل الأسرة صاحبة ذلك الاسم ، التى كانت ذات بأس فيما مضى ، والمنتمى رأسا كإبراعن كابر إلى سيرپاجن دربرفيل أحد فرسان الفاتح ، توفى فى العاشر من مارس سنة — ١٨ ، هكذا يخز الجبارة » .

وكان قد رأى كلير فى وقتته رجل لعله حفار القبور ، فدنا منه قائلا : « هذا يا سيدى رجل لم يرد أن يرقد هنا ، وإنما كان يريد أن يحمل إلى كنجزير حيث يرقد أسلافه » ، قال : « ولم لم يحترموا رغبته ؟ » ، قال : « لإعواز المال ، رعاك الله ، لست أحب أن أقول هذا لكل إنسان ، ولكن الحقيقة أن ذلك اللوح نفسه رغم ما عليه من العظمة المنقوشة لم يسدد ثمنه » ، قال : « فن أقامه ؟ » فأخبره الرجل باسم بناء فى القرية ، فشخص إليه كلير ومنه عرف صدق ما سمع ، فسدد الدين وعم شطر الراحلين .

وكانت المسافة أطول من أن تقطع مشيا ، ولكن لشدة رغبة كلير فى الانفراد بنفسه أبى بادى ذى بدء أن يكترى عربة أو يلجأ إلى خط حديدى دائر ينتهى به إلى المكان . على أنه حين بلغ شاستن أدرك ضرورة الركوب ، ولكن لرداءة الطريق لم يصل إلى مقر جوان إلا فى السابعة مساء بعد أن قطع زهاء عشرين ميلا من مارلت ، وإذ كانت القرية صغيرة لم يلاق كبير صعوبة فى الاهتداء إلى مسكن مسز دريفيلد ، وكان يتنا ذا حديقة مسورة على بعد من الطريق العام ، قد ركنت فيه جوان متاعها القبيح بقدر ما استطاعت .

وكان من الجلى أنها لا ترغب فى زيارة كلير إياها لسبب ما ، وشمر كأنه متطفل وجاءت هى نفسها إلى الباب ، ووقع ضوء المساء على وجهها ، وكانت تلك أول مرة رآها كلير ، ولكنه كان مشغول البال فلم يلاحظ إلا أنها ما تزال امرأة صبيحة فى ثوب أرملة محترمة ، واضطر إلى التصريح بأنه زوج تس ، وبفرضه من

زيارته ، وأضاف وهو في حرج شديد : « أريد أن أراها حالا ، لقد وعدت بمادة الكتانة إلى ولكنك لم تفعل » ، قالت : « لأنها لم تعد بمد » ، قال : « هل تعلمين أنها في صحة طيبة ؟ » ، قالت : « لست أعلم ذلك ولكن كان يخلق بك أنت أن تعلمه » ، قال : « أقر بذلك ، أين تقيم ؟ » .

وكان تخرج جوان من بدء المحادثة يتجلى في إسنادها خدها بيدها ، قالت : « لا ... أدري على وجه اليقين أين تقيم ... كانت تقيم ... ولكن ... » ، قال : « أين كانت تقيم ؟ » قالت : « ولكنها ليست هناك الآن » ، وتعملت ثانية وهي تحاوره ، وكان أصغر صبيتها قد تسلسوا إذ ذاك إلى الباب ووقفوا يتجاذبون فضول جلباب أمهم وقال أصغرهم : « أهذا السيد الذى سيتزوج تس ؟ » فهمست : « بل قد تزوجها ، ادخلوا » ، ولاحظ كليز محاولتها التكم فقال : « أحسبين تس تحب أن أحاول الاهتمام إليها ؟ فإذا كانت لا تحب فإني طبعاً ... » قالت : « لا أحسبها تحب » ، قال : « أوأثقة أنت ؟ » قالت : « كل الثقة » .

ودار على عقبيه منصرفاً ، فتذكر رسالة تس الرقيقة فعاد يقول في حدة : « بل أنا واثق أنها تحب أن أتهدى إليها ! أنا أعرف بها منك » ، قالت : « لعلك مصيب يا سيدى ، فإني لم أفهمها يوماً حق الفهم » ، قال : « ناشدتك الرأفة برجل ناعس وحيد ، إلا ما أخبرتنى بعنوانها يا مسز دريفيلد » ، فعاودها اضطرابها ومسحت خدها بيدها رأسية ، بيد أنها إذ رأت تأله همست إليه : « هى تقيم فى سندبورن » ، قال : « فى أى نواحيها فقد اتسعت سندبورن حديثاً على ما يقولون ، قالت : « ليس عندى من التفاصيل فوق ما أخبرتك ، سندبورن ، أما أنا فلم أر سندبورن أبداً » .

وكان جلياً أن جوان تقول الصدق فى هذه المرة ، فلم يلحف عليها وإنما قال فى رفق : « أحتاجون إلى شيء ما ؟ » ، قالت : « لا يا سيدى ، نحن فى سعة » ، فانصرف كليز ولم يدخل الدار ، وكانت هناك محطة على مدى ثلاثة أميال ، فنقد السائق أجره ومشى إليها ، وبعد قليل انطلق آخر قطار قاصداً إلى سندبورن ، وكان يقل كليز .

٥٥

حجز كليز لنفسه محلا في فندق ، وأبرق إلى والديه توا بعنوانه ، ثم خرج في الحادية عشرة مساء يمشي في شوارع سندبورن ، وكان تأخر الوقت لا يسمح بزيارة أحد أو السؤال عن أحد ، فأجل بفيته إلى الغد ، ولكنه لم يكن لياوى إلى فراشه بعد ؛ وكان ذلك الثغر مصيغاً حديث الطراز ذا محطات في الشرق وفي الغرب ، ومرافق وآجام من شجر الصنوبر ، وطرقات ممتدة بجانب البحر وحدائق ظليلة ، فبدا لا ينجل كليز كأنه أحد وديان السحر ، قد خلقتة عصا ساحرة فجأة ثم نقشاه بعض الغبار ، وكان جناح شرق من أرض (إجدن) البوار المترامية يمتد على كتب ، ولكن هذه المدينة الحديثة الوضاء الحافلة بالمتعات قد اختارت أن تظهر على حافة تلك البطحاء القديمة المغيرة ، فكان كل موضع خارج أرباض المدينة إلى مدى ميل يرجع عهده إلى ما قبل التاريخ ، وكانت كل قناة طريقاً بريطانيا قديماً لم يمس منذ عهد البريطان ، ولم تحرك مدرة من موضعها من عهد قيصرية الرومان ، إلا هذه المدينة نمت نموا فجائيا كنمو يقطينة بني إسرائيل الذي تتحدث عنه بعض الأساطير ، واجتذبت تس .

لبث إينجل حتى منتصف الليل يذرع الطرق المتعطفة في هذه الدنيا الجديدة ، النابتة في أخرى قديمة ، وكان يستطيع أن يلمح من بين الأشجار وأمام النجوم السقوف العالية والمداخن والنابت الزجاجية والأبراج ، شاخصة من المساكن الرشيقة الطراز المكونة منها المدينة ؛ كانت مساكنها الفيحاء المريحة منفصلا بعضها عن بعض شأن مساكن شاطئ بحر الروم ، وإن قامت على شاطئ القنال الإنجليزي ، وقد بدت في الظلام أروع منظرأ حتى منها نهاراً ، وكانت البحر قريباً ولكنه غير متوغل ، وكان يهدر وإن ظنه كليز حفيف الصنوبر ، وكان الصنوبر يحف فيمعث نفس الصوت فيظنه كليز هدير البحر .

أين يمكن أن تكون تس فتاة الكوخ وزوجه الصغيرة من معاهد الثراء والأناقة هذه ؟ كلما فكر كليز في ذلك ازداد تحيراً ، أنها أبقار تحتاج إلى الحلب ؟ أما المحقق فهو أن ليست هناك حقول تمزق ، وأخيراً رجح أنها تقوم ببعض الأعمال في تلك البيوت العظيمة ، واستمر يسبيل متطلماً إلى الشبايك ، وأضواؤها تنطق واحداً بعد الآخر متسائلاً في أيها تعمل تس ، ولم يرفى التخمين فائدة فعاد بميد الثانية عشرة إلى مأواه ، ودلف إلى فراشه ، ولكنه قبل أن يطفى النور أعاد تلاوة رسالة تس الفياضة بالحب ، ولم يغمض له جفن لشدة قربها منها وبعده عنها في نفس الوقت ، فظل يرفع ستارة الشباك وينظر إلى مؤخرات المنازل المقابلة ويتساءل خلف أى هاتيك المصاريع هي راقدة تلك الساعة ، وكان أجدر لو قام الليل كله مهراً .

وفي الصباح نهض في السابعة وخرج بعد قليل ميمماً مكتب البريد الرئيسي ، وعند بابة قابل ساعي بريد ذكياً خارجاً ومعه رسائل لتوزيعها ، فقال : « أتعرف عنوان مسز كليز ؟ » فهز الرجل رأسه ، فتذكر كليز أن من المحتمل أن تكون قد استبقت اسمها العذرى فقال : « أو مس دربرثيل ، أو دريفيلد ؟ » فغاب كل هذا عن الساعي ، قال : « إن الزائر ينقدون ويرحلون كل يوم كما تعلم يا سيدي ، ومن المحال العثور عليهم بغير معرفة عنوان المنزل » . وكان أحد رفاقه مندفعاً إلى الخارج في تلك اللحظة ، فأعاد الاسم على سمعه فقال : « لست أعرف دريفيلد ، ولكن دربرثيل تقيم في الدار المسماة (هيروز) ، فصاح كليز وقد سره أنها عادت إلى التلحق الصحيح للاسم : « ذلك ما أقصد ، أية دار تلك ؟ » قال : « هي مثوى عصرى البناء ، فكل الدور هنا مثاوى تؤجر يا سيدي » .

حصل كليز على المعلومات التي تؤديه إلى الدار ، وأسرع إليها فوصل مع اللبان ، وكانت دار (هيروز) فيلاً عادية ولكنها كانت مستقلة ، ولعلها كانت آخر دار يتوقع المرء أن يجد فيها مثوى يستأجر لشدة عزلتها ، فإذا كانت تس تعمل بها خادماً كما كان كليز يخشى ، فلا بد أنها ستخرج إلى اللبان من الباب

الخلقى ، وهم أن يسير إلى ذلك الباب ، ولكنه عاد فقال إلى الباب الأمامى فطرقة ، وإذا كان الوقت مبكراً فتحت صاحبة الثوى نفسها الباب ، فسألها كابر عن تيريزا دبرثيل أو دريفيلد ، قالت : « مسز دبرثيل ؟ » قال : « نعم » .

تس إذن تعد نفسها امرأة ذات بعل ، وقد سره ذاك وإن لم تتخذ اسمه ، قال : « أتكرمين بإخبارها بأن قريباً لها يود رؤيتها ؟ » قالت : « إن الوقت مبكر فأى اسم تريدنى أن أحمل إليها يا سيدى ؟ » قال : « إينجل » ، قالت : « مستر إينجل ؟ » قال : « لا ، إينجل ، هذا اسمى الأول وسوف تعرفنى به » ، قالت : « سأنظر إن كانت قد نهضت » ، وأدخلته إلى الحجرة الأمامية وهى حجرة الطعام ، وأطل من ستائر الربيع الرقيقة إلى المرجة وما بها من شجيرات ، ولاح له أن حال تس ليست من السوء بحيث خال ، وجال فى خاطره أنها لا بد قد حصلت على الجواهر على نحو ما وباعتها ، ولم يلبها على ذلك طرفة عين .

وسرعان ما سمعت أذناه للمرهفتان خطى على السلم خفق لها قلبه خفقا موجعاً حتى لم يستطع التماسك واقفاً ، وقال : « ويلاه ! ما عساها تقول عني حين ترى تغبرى هذا ؟ » وفتح الباب وبدت تس على العتبة فى غير الهيئة التى توقع أن يراها بها ، بل كانت على عكس توقعه فى حالة تثير الدهش ، وقد أبدى ملبسها جمالها الطبسى الفاتن ، إن لم يزد فتنه : فقد كانت ملتفة فى جلباب نوم كشميرى فضفاض أبيض ضارب إلى الدكنة ، مطرز تطريزاً مشرباً بالسواد ، وفى قدمها كوث من نفس اللون ، وكان جيدها يبرز من أفواف من الرغب ، وقد لفت بعض غديرة شعرها الموهدة الرمادية المشربة بالسواد دون قذالها ، واسترسل بعضها على عطفها ، مما يدل على استعجالها .

وكان كابر قد مديده ، ولكنهما سقطتا ثانية إلى جانبيه ، إذ لم تتقدم بل لزمت مكانها بالباب ، وأحس بشديد الفرق بينهما إذ ذاك ، ولم يبق منه إلا هيكل أصفر ، وظن أن منظره يقرزها ، قال بصوت مبجوح : « تس ! هل تغفرين لى



ذهابي؟ ألا تستطيعين أن تتقدمي إلى؟ أتى لك كل هذا؟ » ، قالت في صوت متحجر وعيناها تبرقان بريقا غريباً : « لقد قضى الأمر ! » . واستطرد في توسله يقول : « أنا لم أنصفك ولم أرك على حقيقتك ! وقد تعلمت أن أرى حقيقتك منذ فراقنا يا عزيزتي الأثيرة تس ! » ، قالت وهي تلوح بيدها تلويح من يخيل إليه تبريح آلامه أن كل دقيقة ساعة : « لقد قضى الأمر ، لقد قضى الأمر ! لا تدن مني يا إينجل فما ينبغي لك ، ابق بعيداً » .

قال : « أفلا تحبينني يا زوجي العزيزة لأن المرض قد أذواني على هذا النحو ؟ لا إخال قلبك قلباً هكذا ! لقد أتيت من أجلك خاصة ، وسوف يحسن أبي وأمي استقبالك الآن ! » ، قالت : « أجل ، أجل ، أجل ! ولكنني ما زلت أقول : لقد قضى الأمر » ، وبدت كأنها هارب في حلم يحاول العدو فلا يستطيع ، واستطردت : « أأنت تعلم كل شيء ؟ أأنت تعلم ؟ كيف اهتمدت إلى مكاني إن لم تكن تعلم ؟ » ، قال : « ما زلت أسأل حتى اهتمدت » ، قالت وقد استعادت نبراتها رنتها ذات الحنان القديمة : « لقد انتظرتك ثم انتظرتك ، ولكنك لم تأت ! وكتبت إليك ولكنك لم تأت ! وكان دائماً يقول إنك لن تأتي أبداً وإني خرقاء ، لقد أحسن إليّ كثيراً وإلى أمي وإلينا جميعاً بعد موت أبي و . . . » قال كليز : « لست أفهم » ، قالت : « لقد استرجعني » .

حدد كليز إليها النظر حتى استوعب ما تقول ، ثم ارتدى كفن عراه مس وغارت عيناه ، ووقع بصره على يديها اللتين كانتا فيما مضى ورديتين فأصبحتا يعضاوين أرق من ذي قبل ، واستطردت : « هو في الطابق العلوي ، أنا الآن أمقته لأنه كذبني حين قال إنك لن تأتي ؛ هذه الثياب هي ما كسائي ، لم أعد أبالي ما يصنع بي ! ولكن . . . هل لك في الذهاب يا إينجل وعدم معاودتي أبداً ؟ » ، ووقف جامدين وقلباهما المغلويان على أمرهما ينظران من أعينهما في سهوم يشير الشفقة ، وكان كليهما يتوسلان إلى شيء ما أن يحجبهما عن الحقيقة .

قال كليز : « آه ! الذنب ذنبي ! » ، ولكنه لم يستطع أن يزيد ، فقد كان

الكلام قاصرا عن الإبانة قصور الصمت ، ولكنه كان يحس إحساساً مهماً بشيء واحد ، وإن لم يتضح في ذهنه إلا فيما بعد : كان يحس أن روح تس التي كان يمهدها قد نبذت الجسد الذي كان يراه أمامه ، وغادرته يذهب كل مذهب غير مختار كأنه جثة في تيار ؛ ومضت ثوان وتبين أن تس قد غابت ووقف يفكر بكل ذهنه في موقفه ذاك حتى ازداد وجهه بردا وانكشاشا ، وبعد دقيقة أو اثنتين وجد نفسه في الشارع يسير إلى حيث لا يدري .

٥٦

لم تكن مسز بروكس صاحبة مشوى (هيرونز) ومالكة أئانه الفاخر امرأة طُلَعَة كثيرة الفضول ، بل كانت المسكينة في شغل بالمادة وعناء منذ استمبدها شيطان الريح والخسارة ، فلم تكن تشغف بالاستطلاع حبا للاستطلاع في ذاته ، إلا أن يفيدها الاستطلاع خبرة بجيوب من ترجو أن يستأجروا مثواها ، ولكن زيارة إينجل كليز للساكنين السخين مسز ومستر دربرفيل — كما كانت تظنهما — كانت غريبة في وقتها وشكلها ، حتى أثارَت كامن الغريزة النسوية التي كانت كبتت منذ زمن وعدت عديمة الجدوى ، إلا أن تغنى بعض الفناء في تجارة تأجير المساكن . كانت تس حادِث زوجها وهي بالبَاب لم تلج حجرة الطعام ، فكان في وسع مسز بروكس — التي وقفت داخل باب حجرة جلوسها في ظهر الطريقة وكان بابها موارباً — أن تلتقط شذوراً من الحديث — إذا صح أن يدعى حديثاً — الذى دار بين تينك الروحين التاعستين ، ثم سمعت تس تصعد الدرج ثانية إلى الطابق الأول ، وأحست بذهاب إينجل واصطفاق الباب الخارجى وراءه ، ثم أقفل باب الحجرة العليا وعلمت مسز بروكس أن تس قد دخلت مسكنها ، وإذا لم تكن الفتاة مستكملة ثيابها أيقنت ربة الدار أنها لن تعود إلى الخروج إلا بعد حين .

ومن ثم صعدت الدرج في تَوَدَة ووقفت بباب الحجرة الأمامية ، وهي حجرة جلوس مفضية إلى حجرة النوم بينهما باب ذو مصاريع تتكسر على الجانبين كما كان شائعاً إذ ذاك ، وكان الساكنان قد استأجرا ذلك الطابق وهو خير ما فى المثوى استئجاراً أسبوعياً ، وكان الصمت مخيماً على الحجرة الخلفية ، ولكن كانت فى حجرة الجلوس أصوات كان كل ما تبينته منها فى بادئ الأمر مقطعاً واحداً يتكرر فى أنين خافت ، كأن مرسله روح مرهوبة فى عجلة (أكسيون) النارية

التي كانت تدور به في الفضاء إلى ما لا نهاية : « أوه ، أوه ، أوه ، ! » ثم ساد سكون ثم تصعدت زفرة عميقة ثم : « أوه ، أوه ، أوه ، ! » .

ونظرت من ثقب الفتاح فلم تر إلا مساحة ضيقة من داخل الحجرة ، ولكن كان في حيز تلك المساحة ركن من مائدة الفطور التي كانت قد أعدت للطعام ، وبجانبه كرسي ، وكان وجه تس مكبا على مقعد الكرسي وهي جاثية أمامه ويدها مشبوكتان على رأسها ، وأذبال جلايينها المطرزة مهدلة على الأرض وراءها ، وقد برزت قدمها من خلفها على البساط عاريتين قد سقط عنهما الكوث ، وكانت هي التي تتأوه ذلك التأوه البائس .

ثم تبع ذلك صوت رجل يقول من الحجرة المجاورة : « ما بالكَ ؟ » فلم تجب بل استطردت في لهجة هي أدنى إلى مخاطبة النفس منها إلى إبداء التعجب ، وهي رثاء للنفس قبل أن تكون مخاطبة لها : « إذن زوجي الحبيب العزيز قد عاد إلى الوطن من أجلى ... ولم أعلم بذلك ! ... وقد أرهقتني أنت يا لحافك القاسى ... لم تكف عن إرهاقى ... لا ، لم تكف ... أخواتي وإخوتي الصغار وأبى وحاجتهم ... تلك هي الحجج التي أثرت بها في نفسى ... وقلت إن زوجي لن يعود أبدا ، وسخرت منى وعددتني حقاء إذ أتوقع إياها ... وأخيرا صدقتك واستسلمت ! ... ثم ها هو ذا يعود ! والآن قد مضى ! مضى للمرة الثانية وفقدته إلى الأبد ! ولن يجبني ثانية أدنى محبة بل سيمقتنى ... ! أجل ، أجل ، فقدته بسبك للمرة الثانية ! »

وكانت تتلوى ووجهها على الكرسي ، ثم أدارته صوب الباب فرأت فيه مسز بروكس علائم الألم ، ورأت شفقتها تدميان من عضها إياها ، وأن أهدابها الطويلة مرسلة من عينيها المغمضتين تبلل خديها ، واستطردت : « وهو في سياق الموت ! يبدو عليه أنه في سياق الموت ! ... وسوف تقتله خطيئتي ولما تقتلنى ! ... أوه ، لقد مزقت حياتي شذر مذر ! ... وصيرتني إلى ما توصلت إليك ألا تصيرني إليه مرة أخرى ! وزوجى الصحيح لن ... يا إلهى ! لا يمكننى أن أحتمل هذا ! لا يمكن ! » .

وابتمت من الرجل أقوال أخرى أشد اجتداداً ، ثم كان حفيف سريع ، إذ انتفضت تس واقفة ، وخافت مسز بروكس أن يندفع التكلم إلى الباب ، فهبطت الدّرج على عجل ، وما كانت بها حاجة إلى ذلك ، فإن باب حجرة الجلوس لم يفتح ، ولكن مسز بروكس رأت من الخطر أن تعاود التجسس من بسطة السلم ، ودخلت حجرة جلوسها في أسفل ، ولم تكن تستطيع أن تسمع شيئاً من خلال السقف ، وإن تكن أنصتت أشد إنصات ، فشت إلى المطبخ تم فطورها الذي أزعجت عنه .

ثم عادت إلى الحجرة الأمامية ، وشرعت تخطط وهي تنتظر أن يدق الساكنان الجرس ، لتصعد فترفع صحاف الفطور ، وكانت تنوى أن تصعد بنفسها لا أن ترسل خادمتها ، كي تكشف سر ما هنالك إذا استطاعت ، وكانت في جلستها تلك تستطيع أن تسمع ألواح السقف تصر من فوق رأسها كأن أحداً يدب في الحجرة ، وسرعان ما أكد لها ذلك حفيف ملابس بالدربزين وافتتاح الباب الخارجى واصطفاقه ، وشخص تس تمشي إلى البوابة ، وكانت مرتدية كامل ثيابها تبدو في هيئة سيدة ثرية ، كما كانت يوم قدومها ، لم يزد عليها إلا قناع مسبل على قبعها وريشها الأسود .

ولم تكن مسز بروكس قد سمعت كلة وداع مؤقت أو غير مؤقت يتبادلها الساكنان عند باب مسكنهما ، فجال بظنها أنهما تفاضبا ، أو أن مسترد برقيـل لم يزل نائماً ، فإنه لم يكن يكر في النهوض ، ودخلت الحجرة الخلفية التي كانت أخص حجراتها ، وتابعت الخياطة ، ولم تمد الساكنة ولا دق صاحبها الجرس ، فمجبت مسز بروكس من تأخره ، وساءلت نفسها ما علاقتهما بالزائر الذي أتى مبكراً ، وأسندت ظهرها إلى كرسيها مسترسلة في أفكارها .

وإنها لكذلك تجول عيناها في أتحاء السقف على غير هدى ، إذ استوقفت بصرها بقعة وسط سطحه الأبيض لم تلاحظها من قبل ، وكانت في حجر البرشامة حين رأتها لأول وهلة ، ولكنها سرعان ما اتسمت حتى غدت في حجم راحتها ،

وعندها تبينت أنها حراء ، فبدا السقف المستطيل الأبيض وتلك البقعة القانية في وسطه كأنه ورقة القلب الواحد من أوراق اللب ، فارمعت المرأة وتوجست خوفاً ، فقامت واقفة على المائدة ولمست البقعة بأناملها فإذا هي رطبة ، وخيل إليها أنها بقعة دم .

فزلت عن المائدة وخرجت من حجرتها وصعدت السلم ، تبني دخول الحجره العليا وهي حجرة النوم القائمة وراء حجرة الجلوس ، ومع أن غريزة الاستطلاع النسوية كانت قد تنبهت بنفسها الآن إلى الغاية ، فإنها لم تجرؤ على معالجة الزلاج ، فأنصتت فإذا السكوت الخيم في الداخل لا يقطعه إلا توقيع منتظم : درپ ، درپ ، درپ ، فهبطت مسرعة وخرجت إلى الشارع ، وكان رجل تعرفه ويعمل في قبلا مجاورة مارا فرجته أن يدخل ويصعد معها ، لأنها تخشى أن يكون بعض سكانها قد أصابه سوء .

وفتحت باب حجرة الجلوس وتأخرت ليدخل ثم تبتمه ، وكانت الحجره خالية وطعام الفطور — وهو كمية وفيرة من البيض والقهوة وشرائح نخذ الخنزير الباردة — منشور على المائدة لم يمس كما صعدت به ، إلا أن سكين اللحم كانت غائبة ، فطلبت من الرجل أن يدخل حجرة النوم ففتح الباب ذا المصاريع العديدة وتقدم خطوة أو خطوتين ، ثم ارتد من فوره متقلص الوجه صائحاً : « يا إلهي ! إن السيد الذي في الفراش ميت ! إخاله قد طمن بالسكين ، فقد سال دم منه غزير على الأرض ! »

وأعلن الخبر سريعاً ، وماج البيت الذي كان منذ قليل ساكناً هادئاً بخفق الأقدام المتكاثرة ومنها قدما الجراح ، وقد وجد الجرح صغيراً ولكن النصل قد بلغ قلب القتيل ، الذي كان مستلقياً على ظهره أصفر جامداً هامداً كأنه لم يتحرك بعد الطعنة ، وما هو إلا ربع ساعة حتى شاع في كل شوارع المصيف وثيلانه ، أن سيداً مقيماً في البلدة إقامة زيارة ، قد قتل في فراشه طمينا .

٥٧

وفي نفس ذلك الوقت كان إينجل كبير قد انطلق سائراً على غير هدى في الطريق الذي أتى منه ، فلما دخل الفندق جلس إلى فطوره مَحْمَلًا في الفراغ ، ثم انهمك في الطعام والشراب بنير وعى ، ثم طلب بفتة كشف حسابها ودفعه وحمل حقيبة ثيابه وهي كل ما استصحب واندفع خارجاً ، وفي ساعة انطلاقه وصل تلغراف دفع إليه ، فإذا هي كلمات قلائل من أمه تعرب عن سرورها وسرور زوجها بمعرفة عنوانه ، وتجبره أن أخاه كثرت طلب يد ميرسى تشانت فقبلت . فهشم إينجل الورقة في قبضته وأخذ ستمته إلى المحطة ، فلما بلغها علم أن القطار لا يبرحها قبل زهاء ساعة ، فجلس فانتظر ربع ساعة ثم أحس أنه لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، ولم يكن هناك ما يستدعى تعجله ، وهو ذلك المهيض القلب ، ولكنه كان يريد الخروج من بلدة شهدت تلك المحنة ، فشى بيني أول محطة على الطريق ليدركه القطار بها ، وكان الطريق العام الذي ركبهُ مكشوفاً ينحدر بعد مسافة في وادٍ يجتازه من حافة إلى حافة .

وبعد أن عبر معظم تلك الوهدة وصعد في المرتفع الغربي ، وقف يستجمع أنفاسه والتفت خلفه في غير قصد وإنما أحس كأن شيئاً يدفعه إلى الالتفات ، وكان الطريق ممتداً خلفه كالشريط متضائلاً إلى مدى إبصاره ، وإنه ليتقصَّى النظر إذْ ظهرت على بياض الطريق الخالي نقطة متحركة ، ولم تكن إلا شخصاً آدمياً يعدو ، فانتظر كبير وقد داخله شعور مبهم بأن إنساناً يحاول اللحاق به ، وكان الشخص الهابط المنحدر شخص امرأة ، ولكن ذهنه كان من البعد عن تصور أن زوجه تتبعه بحيث لم يميزها ، حتى حين دنت منه وهي في تلك الثياب المختلفة تمام الاختلاف عما يعمد ، ولم يصدق حتى صارت على كُثْبٍ منه أنها تس .

قالت وهي تلهث : « رأيتك ... تمضي عن المحطة ... قبل أن أصل إليها ...

وقد تبعتك كل هذه المسافة ! » وكانت شاحبة لاهثة ترتجف أصغر وشيخة في جسمها ، فلم يسألها أى سؤال ، وإنما أخذها بيده وجذبها في نطاق ذراعه ومشى بها ، ولكي يتحاشى مقابلة أحد تحول عن الطريق العام ومال إلى ممشى في ظلال أشجار الشربين ، فلما غابا في الأغصان المتناوذة وقف ونظر إليها كالسائل ، فقالت وكأنها كانت تنتظر منه ذلك : « إنجيل : أنتدى لم جئت أعدو وراءك ؟ لكي أخبرك أنى قتلته ! » وكانت تضى وجهها وهى تتكلم بسمعة شاحبة تستثير الإشفاق .

قال : « ماذا ؟ » وخيل إليه لغرابة حالها أن بها مسا ، فاستطردت : « لقد فعلتها . . . . لست أدري كيف ، ولكن ذلك كان دينا على لك ولنفسى ، لقد خشيت منذ زمن يوم ضربته بقفازى ، أنى سأفعل يوما ما فعلت قصاصا لما أوقعنى فيه من أحاييله في صغرى أيام جهلى ، ولا إساءة إليك عن طريق ، لقد دخل بيننا ودمر حياتنا ، والآن لن يستطيع أن يعيد الكرة ، أنا ما أحبته قط يا إنجيل كما أحببتك ، أنت تعلم ذلك ، ألسن تعلمه ؟ ألا تصدقنى ؟ أنا حين لم تعد إلى اضطرت إلى الذهاب إليه ، لم ذهبت عنى ؟ لم وقد أحببتك كل ذلك الحب ؟ لست أدري لم ، ولكنى لا ألومك ، ولكن أتغفر لى إساءتى إليك بعد أن قتلته ؟ لقد كنت واثقة وأنا أجرى إليك أنك ستغفر لى مادمت قد قتلته ، لقد أشرقت على فكرة أنى أعود فأكتسبك إذا أنا قتلته ، ولم أعد أستطيع احتمال أن أخسررك ، ولن تصور كيف استمصى على أن أحتمل عدم محبتك لى ! فقل لى الآن إنك تحببى أيها الزوج المحبوب ! قل إنك تحببى مادمت قتلته ! » .

قال وهو يشدد ضمها إلى جانبه فى هيام : « أجل ، أجل ، أنا أحببك يا تس لقد عاودنى حبك كاملا ! ولكن ماذا تقولين ؟ أقتلته ؟ » قالت مغممة كأنها فى غيبوبة : « نعم ، لقد فعلت » ، قال : « ماذا ؟ قتلا جثانا ؟ أمات ؟ » قالت : « نعم ، سممى أبكى من أجلك فأوسعنى سخرأ ونبذك باسم بذى ، وعندها قتلته فإن قلبى لم يطق صبرا ، وطالما تهكم بى من أجلك من قبل ، وبعد ذلك ارتديت ثيابى وخرجت فى أثرك » .



ومال كبير رويدا رويدا إلى الاعتقاد بأنها قد حاولت على الأقل محاولة واهنة أن تفعل ما تزعم أنها فعلت ، واختلط ارتياحه من نزعتها تلك بدّهشهِ لقوة حبها إياه ، وغرابة ذلك الحب الذى يلوح أنه محال شعور لها بالفضيلة محوا تاما ، وكان يبدو عليها أنها قد وجدت الراحة أخيراً ، ولم تكن تدرك خطر ما أقدمت عليه ، ونظر إليها وهى مسندة الرأس على كتفه تبكي من فرط السعادة ، وعجب أية نزعة من نزعات آل دربرفيل المتوارثة قد أدت بها إلى هذه البدوة ، إذا كانت حقاً بدوة ، ولوح فى ذهنه كليم البرق أن أسطورة عربية دربرفيل والجريمة ، إنما نشأت لاشتهار أفراد الأسرة بتلك البدوات ، وعنّ له بقدر ما كانت أفكاره المشردة المحتلطة تستطيع أن تمى ، أن عقلها فى ساعة ألمها الجنونى الذى وصفته ، فقد توازنه وقذف بها فى تلك الهوة .

لقد كان ذلك أمراً فظيماً جداً إذا صدق ، وأمراً محزناً إذا كان وسواساً عابراً وأياً كان فما هى ذى زوجه المهجورة ، هذه المرأة الحارة المواطف ، متعلقة به لا تشك وهلة فى أنه حامياها ، ولا تتصور قط أنه يتخلى عنها ، وتقبلت الشفقة على كبير وملكت زمامه ، فجعل يقبلها بشفتيه الدابلتين تقبيلاً حاراً متواصلاً ، وأخذ يدها قائلاً : « لن أهجرك ، سأحميك ما استطعت إلى حمايتك سيلاً ، أيتها الحبيبة العزيزة ، أيا كان ما فعلت أو لم تفعل » .

وتابعا السير تحت الأشجار ، ونس تلتفت من آن لآخر تنظر إليه ، وكان جليلاً رغم هزاله وذهاب نضارته أنها لا ترى فى منظره عيباً ، بل ما يزال كما كان من قبل مثلاً أعلى فى نظرها جسماً وعقلاً ، بل كان فى نظرها إله الجلال أبولو نفسه ، وكان وجهه الليل جميلاً اليوم فى نظرتها المفرمة جماله يوم رآته لأول مرة ، ألم يكن وجه الرجل الوحيد على ظهر البسيطة الذى أحبها حباً نقياً ، واعتقد أنها نقية ؟

ولم يقصد إلى أول محطة خارج البلدة كما كان ينوى ، أخذاً بالحيلة ، وأمعن فى السير تحت ظلال الشربين ، وكانت تمتد أميالاً ، وهكذا سارا على الأرض

المفروشة بجفاف أشواك تلك الأشجار ، وكل منهما يطوق خصر صاحبه ، وهما  
ساحبان في جو من النشوة لشموورهما باجتماعهما ثمانية لا يحول بينهما إنسان ،  
وقد تناسيا أن بينهما جثة إنسان ، وواصل السير أميالا عديدة حتى نفضت تس.  
عنها ذهولها وتلفتت حوالها وقالت في تردد : « أذاهبان نحن إلى جهة ممينة ؟ »  
قال : « لا أدري يا عزيزتي . لم ؟ » قالت : « لست أدري » ، قال : « أرى أن.  
تتابع السير أميالا أخرى فإذا كان المساء أوينا إلى بعض المساكن ، وقد نختار  
كوخا منمزلا ، آتمنين السير يا تس ؟ » ، قالت : « أجل ، أجل ، أستطيع  
السير إلى الأبد وذراعك تطوقني » .

واستحسننا ما اقترح فحنا خطاهما وجانبنا الطرق العامة ، وسلكا طرائق جانبية.  
مهجورة تتجه في الأغلب نحو الشمال ، ولكنهما ظلا يضربان سراة اليوم في غيابة  
من الغموض ، دون أن يفكر أى منهما في طريقة فعالة للهرب أو التنكر  
أو الاختفاء الطويل ، بل كانا لا يفكران إلا في العاجل الحاضر ولا يعمدان النظر ،  
فكان خططهما خطط صبيين ؛ ومالا عند الظهر إلى فندق على قارعة الطريق ،  
وأرادت تس أن تدخل معه لتناول الطعام ، ولكنه أقنعها بالبقاء وسط الأشجار  
والشجيرات في تلك الأجمة العشبة حتى يعود ، إذ كانت ثيابها على أحدث طراز ،  
وحتى المظلة ذات اللقبض العاجي كانت ذات شكل غير مألوف في البقعة الغمورة ..  
التي بلغناها الآن ، وكان منظر مثل هذه الأشياء يثير الانتباه في أى فندق .

وسرعان ما عاد بطعام يكفي ستة أشخاص وزجاجتي نبيذ ، وكان ذلك كافيا  
لحاجتهما يوما أو زهاء يوم إذا طرأ طارئ ، وجلسا على بعض الأغصان الجافة  
وأكلا سويا ، وبين الأولى والثانية حزما ما بقى وعاولا السير ، قالت : « بي من.  
القوة ما يمكنني من السير إلى غير نهاية » ، قال : « يجدر بنا أن نتوغل في الإقليم  
حيث نستطيع الاختفاء حيننا ، ولا يشتد علينا الطلب كما يشتد قرب الساحل ،  
وبعد زمن حين ينسونا ننشخص إلى بعض الموانئ » .

ولم تجب على ذلك بنير تشديد قبضتها عليه ، ويمام صوب داخل الإقليم

مصممين ، وكان الجو صافيا أى صفاء رغم أن الشهر كان مايو ، وكان دافئا بعد الظهر ، وأفضى بهما الطريق الضيق إلى (النابة الجديدة) ، ثم انطفأ عن بعض الدروب مساء فرأيا خلف جدول ماء وجسر لوحا كبيرا نقش عليه بحروف بيضاء : « هذا القصر البديع معروض بأثائه للإيجار » ، ومن دون ذلك كتبت تفصيلات وإرشاد إلى مغارة بعض الوكلاء فى لندن ، وصرا من البوابة فلاح لهما القصر الريفي ، وهو بناء قديم من الآجر مستقيم التخطيط رحب الجوانب ، قال كليز : « أنا أعرفه : هذا قصر (برامز هرست) ، ويلوح أنه مهجور إذ قد نما العشب فى ممشاء » ، قالت : « ولكن بعض نوافذه مفتوحة » ، قال : « لتنقية الهواء على ما أظن » قالت : « أكل هذه القاعات خالية ولا يغطى رأسنا سقف ! » ، قال : لقد نال منك العياء يا تس وستقف عما قريب .

وقبل فاها الحزين وتابع سيره وإياها ، وكان هو أيضاً قد بلغ منه التعب ، فقد قطعاً بين اثني عشر وخمسة عشر ميلا ، وصار لزاما عليهما أن يفكرا فيما هما صانمان طلبا للراحة ، وجملا يرمقان من بعد بعض الأكوخ المنعزلة والفنادق ، وهما أن يفشيا فندقا فخما تخافهما قلباهما وصدفا عنه ، وأخيراً تعطلت أقدامهما تماما ووقفا بلا حراك ، قالت : « ألا ننام تحت الأشجار ؟ » ولكنه رأى أن الفصل لا يسمح بذلك بعد ، قال : « لقد كنت أفكر فى ذلك القصر الريفي الخاوى الذى مررنا به ، هيا بنا نعد إليه » ، وكرا راجعين أدراجهما ، ولكن مضى نصف ساعة قبل أن يقفا أمام البوابة الخارجية موقفهما الأول ، وعندها طلب إليها أن تبقى مكانها حتى يدخل ليرى من هناك .

جلست بين الشجيرات داخل البوابة ودلف كليز إلى المسكن ، وغاب ردحا من الزمن ، ولم يعد إلا وقد لجأ بتس بلبالها إشفاقا عليه لا على نفسها ، وقد علم من صبي أن ليس هناك إلا عجوز تتمهد المسكن ، وأنها لا تجي إليه إلا فى الأيام الصاحية ، تأتى من الكوخ المجاور لتفتح النوافذ وتلقها ، وأنها آتية لإغلاقها عند الغروب ، قال : « يمكننا الدخول من أحد الشبايك السفلى والبقاء هناك »

وسارت في حماه متمبة إلى المدخل الرئيسي الذي كانت شبائيكه ذات المصاريع تلوح كأنها أحداق ونواظر لا تبصر ولكن تجعلهما في حرز من الرقباء ، وصعدا بضع درجات فبلغا الباب ، وكان أحد الشبايك المجاورة له مفتوحا ، فتحامل كليهما حتى دخل منه واجتذب تس وراءه .

وكانت جميع الحجرات إلا الردهة مظلمة ، وصعد السلم ، وكانت المصاريع في الطابق العلوى أيضاً محكمة الإقفال ، ولم ينق الهواء في الداخل إلا تنقية معجلة في ذلك اليوم على الأقل ، بفتح نافذة البهو في الصدر و نافذة أخرى قبالها ، وفتح كليهما باب غرفة واسعة واجتازها متحسناً طريقه ، وفرج المصاريع بوصتين أو ثلاثاً فاندفع في الحجرة عمود من ضوء الشمس الوهاج ، فظهر أثاث ثقيل عتيق الطراز وستائر دمشقية قانية وفراش ضخمة ذو قوائم أربع ، قد رسمت على رأسه أشخاص تعدو لعلها صور سباق (أناثا) العداء ، التي أعلنت لخاطبيها أنها لن تتزوج إلا من يسبقها في العدو .

قال وهو يضع حقيبته وربطة المأكولات : « الراحة أخيراً ! » وظلا في سكون تام حتى تجيء المجوز لإغلاق النوافذ ، وأخذاً بالحيلة أسدلا على نفسيهما الظلام المطبق بإيصاد المصاريع كما كانت من قبل ، مخافة أن تفتح المجوز باب حجرتهما لأى سبب عارض ، وجاءت المرأة بين السادسة والسابعة ولكنها لم تقارب الجناح الذى كانا فيه ، وسمعاها تغلق الشبايك وتقفلها بالزليج وتقفل الباب بالقفل وتنصرف ، وعندها عاد كليهما فاسترق قسماً من ضوء الشمس من النافذة ، واقتما أكلة أخرى ، وخيمت عليهما ظلال الليل شيئاً فشيئاً ، ولم تكن لدهما شمعة تبديد ظلاله .

## ٥٨

كان الليل ساكنا كئيبا على حالة غريبة ، وهمست إليه في السحر بكل قصة حملة إياها في نومه على ذراعيه عابرا نهر فروم معرضا حياتهما للهلاك ، ووضع إياها في التابوت الحجري في الكنيسة ، ولم يكن قد علم بذلك من قبل ، قال : « لم لم تخبريني غداً لعل ذلك كان يحول دون شقاء طويل وشقاق ؟ » ، قالت : « لا تفكر فيما مضى ! أنا لا أفكر فيما عدا الآن ، ولم نفكر فيما عداه ؟ من يدري ماذا يدخر القدر ؟ » .

ولكن القدر على ما يظهر لم يكن يدخر لها شراً : كان الصباح مطيراً غائماً ، وإذا كان كليل يعلم أن العجوز لا تأتي لفتح الشبابيك إلا في الأيام المشمسة ، تجرأ ودلف يرتاد أنحاء المسكن تاركاً تس ناعمة ، ولم يجد به طعاماً ولكن كان به ماء ، واستغل كليل الضباب ، وخرج من القصر فابتاع شاياً وزبداً وخبزاً من دكان على بعد ميلين ، كما ابتاع إبريق شاي وموقد كحول رغبة في الحصول على نار بلا دخان ، وأيقظها دخوله عائداً ، وتناولوا فطورهما مما أحضر .

وكانا راغبين عن الظهور في الخارج ، ومر اليوم والليل واليوم التالي ، حتى تعصرت خمسة أيام وهما في عزلة تامة لا يكادان يشعران ، لا يعكر سلامهما منظر آدمى ولا صوته ، ولم يتوال أمامهما من الحوادث إلا تقلبات الجو ، أو يؤنسهما إلا طيور ( الغابة الجديدة ) ، واصطلحا دون اتفاق على ألا يخوضا فيما حدث بعد انفصالهما ، وكانما أحى فراقهما المظلم وبدنه عهدهما الحاضر ، وكان كلما اقترحا أن يبرحا ملجأهما ويتقدما إلى سوئبختن أو لندن ، أظهرت كراهية شديدة للانتقال .

قالت : « لم ننهي عهد الهناء والغبطة هذا ؟ إن ما هو آت آت » ، ثم نظرت من فرجة مصراع الشباك وقالت : « كل ما في الخارج هناك عناء ، وفي الداخل هنا الدعة » ، ومد بصره هو أيضاً فشعر بصدق ما تقول : ففي الداخل الحب

والتواصل والنفوذ عن الحوبة ، وفي الخارج ما لا يغالَب ، قالت وهي تضغط خدها على خده : « و... و... أخشى أن رأيك الحاضر فيّ يتغير ، ولست أحب أن أحيأ بمد ذهاب شعورك الحالي نحوى ، وأوثر أن أكون ميتة ملحدة متى حل الوقت الذى فيه تردى ، فلا أعلم أبدا أنك ازدرىتنى » ، قال : « لا أستطيع أن أزدرىك أبدا » ، قالت : « ذلك غاية مرادى ، ولكنى إذا تدبرت حياى لم أعجب لرجل يزدرىنى إن عاجلا وإن آجلا . . . ما كان أجنى وآمنى ، على أنى فى ماضى لم أكن أحتمل أن أؤذى ذباة أو دودة ، وكثيرا ما أبكافى منظر طائر فى قفص . »

ومكثا يوما آخر ، وتقسمت غيوم السماء المربدة ليلا ، وكانت النتيجة أن صحت المعجوز التى تتمهد القصر مبكرة وملأها الشروق الرائع بنشاط مفاجئ ، وعولت على فتح القصر وتنقية هوائه أتم تنقية فى ذلك اليوم الصافى ، فجاءت قبل السادسة وفتحت الحجرات السفلى وصعدت إلى المخادع ، وهمت أن تعالج مزلاج الخدع الذى كانا به ، وعندها توهمت أنها تسمع تنفس أشخاص فى داخله ، وكان لين نملها وكبر سنها قد جملا سيرها غير مسموع إلى هذا الحد ، وانكفأت راجعة ، ثم جال بظنها أن حسها ربما يكون قد خدعها فعمادت إلى الباب وعالجت مزلاجه بلطف وكان قفل الباب فاسداً ، ولكن كبير كان قد عرض قطعة من الأثاث وراه فلم يفتح إلا بوسة أو بوسيتين ، وكان خيط من ضوء الصباح يسقط من فرجة الشباك على وجهى النائمين ، وهما مستغرقان فى سبات عميق ، وشفتا تس منفرجتان قرب خد صاحبا كأنهما زهرة متفتحة نصف تفتح ، وراع المرأة طهارة منظرهما وأناقة جلباب تس المعلق على كرسى وجواربها الحريرية بجانبه والمظلة الرشيقة ، وبقية ملابسها التى أتت بها لأنها لم تكن تملك سواها ، فتلاشى غضبها الذى تبادر إليها أول الأمر ، حين ظنهما طريدين أفاقين وقحين ، وحل محله عطف على هذين الحبيين الراقيين المماريين ، فأغلقت الباب وتراجعت كما جاءت ، وانطلقت لتشااور جارأتها فى هذا الكشف الغريب .

ولم تمض على ذهابها دقيقة حتى صحت تس وبمدها كبير ، وشعر كلاهما أن شيئاً قد أزعجهما وإن لم يعلما كنهه وغازطهما ذلك ، وحالاً ارتدى ثيابه أرسل بصره من فرجة الشباك يفحص المرجة ، قال : « أرى أن ننطلق توأفاً اليوم صاح ونحيل إلى أن إنساناً يمتام المنزل ، ومن الحق على كل حال أن العجوز آتية » ، فوافقت تس في استسلام وربتها الحجر ، وحملتا أشياءهما القليلة وانطلقا في صمت ، ولما صارا في الغابة التفتت تجيل في القصر نظرة أخيرة وقالت : « يالك من قصر سعيد ودعا ! ليست حياتي إلا هامة اليوم أو غد ، فلم أبق هناك ؟ » ، قال : « لا تقولى ذلك يا تس ! سنبارح هذه المقاطعة جميعاً عما قريب ، وسنتم طريقنا كما بدأناه ونواصل السير شمالاً ، وهناك لن يفكر أحد في طلبنا ، إنما سيطلبونا عند موانئ وسكس إذا هم طلبونا بتاتا ، ومتى صرنا في الشمال قصدنا إلى مرفأ فأبحرنا » .

ولما تم له إقناعها استطرذا في خطتهما وواصلتا اتباع خط مستقيم تجاه الشمال ، وكانت استراحتهما الطويلة في القصر الريفي قد منحتهما قدرة على المشي ولما دنا الظهر إذاهما يقاربان مدينة (ملشستر) ذات البروج الكنسية وكانت في طريقهما ، وعول على الاستراحة هنا في بعض الآجام إلى ما بعد الظهر ثم الانطلاق تحت ستار الليل ، وفي الفسق اشترى طعاماً كما فعل من قبل وبدأ رحلتهما الليلية ، فاجتازا الحدود بين وسكس العليا والوسطى حوالى الساعة الثامنة ولم يكن جديداً على تس المشي في الريف بنجوة عن الطرق العامة ، وقد أبدت في ذلك مقدرتها القديمة ، وكان عليهما أن يخرقا ملشستر تلك البلدة القديمة ليعبرا على جسرهما نهراً عظيماً يعترضهما ، وسارا قراب منتصف الليل يجتازان طرقهما الخاوية التي لا تضئها إلا مصابيح خافتة متباعدة ، وكانا يتحاشيان السير على الرصيفين لئلا يرددا صدئ خطواتهما ، وكان بناء الكتدرائية الفخم الرشيق قائماً مبهم الصورة عن يمينهما ، ولكنهما لم يكونا يميزان جمالها انتباهاً ، ولما خرجا من البلدة ركبا الطريق العام الذى انغمر بعد بضعة أميال في سهل مكشوف .

ورغم أن السماء كانت ملبدة بالغيوم ، فإن شمعاً من هلال كان قد أثار طريقهما إلى هذا الحد ، ثم غاب ولاحت السحب كأنما تستقر على سمت رأسيهما واحولك الظلام كأنما ارتد الليل كهفاً ، على أنهما استطاعا أن يتابعا طريقهما مجتهدين أن يظلا على العشب سائرين كيلا تسمع خطاهما ، وكان ذلك ميسوراً : إذ لم يكن يعترض سبيلهما سياج ولا بوابة ، وكانت الوحدة الضاربة أطنابها والوحشة القاعة تحيطان بهما ، إلا نسيما قاراً يسرى .

وبعد أن تحسسا طريقهما على هذا النحو مدى ميلين أو ثلاثة ، أحس كليز فجأة أن بناء ضخماً قائماً حياله صاعدا رأساً من العشب وقد كادا يندفعا فيه ، قال : « ما هذا البناء الفظيع ؟ » : قالت : « إن به أزياء ، أنصت ! » ، فأنصت فإذا الريح في تلعبها في جوف البناء تخرج ضوضاء كأنها إرنان ناي هائل ذي وتر واحد ، ولم يكن ينبعث من المكان صوت آخر ، فرفع كليز يده وتقدم خطوة أو خطوتين فأحس بسطح البناء الرأسي ، وبدا أنه مبني من الحجر المصمت لا يتخلله لحام ولا ملاط ، فعبث بأصابعه فأدرك أن ما كان صادفه عمود مربع الأضلاع ، ومد يسراه فأحس بآخر مجاور ، وكان شيء على ارتفاع غير محدود فوق رأسه يجعل السماء السوداء أشد سواداً ، وكان يبدو كأنه بناء مترام يجمع أطراف الأعمدة العليا جمعا أفقياً .

ودخلا وجلسا في حذر ، ورددت السطوح حفيفهما الخافت ، ولكنهما أحسا أنهما ما يزالان في الخارج ، فقد كان المكان غير مسقف ، وطفقت تس تنفس في خوف ، وتخير كليز وقال : « ما عساه يكون ؟ » وتحسسا عن جانبيهما فقابلت أيديهما عموداً آخر كالبرج مربعا مصمتاً كالأول ، ومن وراءه ثالث رابع ، كان المكان كله أبواباً وأعمدة متصلاً بعضها من أعلى بموارض ، قال : « هذا هيكل الرياح بمنيه » ، وكان العمود التالي منزلاً ، وكانت أعمدة أخرى تؤلف بوابة ذات عمودين قائمين وثالث معترض على قمتيهما ، وكانت سواها مجندلة على الأرض تستطيع أن تمر عربة على أحدها لاتساعه ، وسرعان ما لاح أنها



أجعة من الأعمدة الضخمة متجمعة على السهل المشب ، وتقدم الزوجان في فسطاط الليل هذا حتى أوفيا على وسطه .

قال كبير : « هذا (ستونهج) » قالت : « تعني الهيكل الوثني ؟ » قال : « نعم وهو أقدم من القرون ، وأغرق من آل دربرفيل ! والآن ما عسانا صانعا يا عزيزتى ؟ لعلنا إذا واصلنا السير وجدنا ملاذا » ، ولكن تس كان قد نال منها الغياء ، فارتعت على نشز بجانبها يحميه من الريح أحد الأعمدة ، وكان ذلك النشز ساخنا من أثر شمس النهار جافا مريحا ، بعكس العشب الخشن القار المحيط به والذي بلل أذيالها ونعلها ، قالت وهي تمد يدها نحو يد إينجل : « لا أريد متابعة السير يا إينجل ، ألا نبقى هنا ؟ » ، قال : « لا أرى ذلك فإن هذه البقعة مكشوفة من مدى أميال أثناء النهار ، وإن لم تبد كذلك الآن » ، قالت : « لقد تذكرت أن أحد أقرباء أمى كان راعيا في هذه الأصقاع ، وأنت كنت تقول في تلبويز إنى وثنية ، فأنا الآن فى موطنى » .

وركع بجانب جسمها الممدد ، ووضع شفتيه على شفتيها وقال : « أياغالبك الناس يا عزيزتى ؟ كأنك مضطجعة على مذبح » ، فغمضت : « يطربنى كثيرا أن أكون هنا : فهذا مكان موحش ساكن يملؤنى غبطة لا يملو وجهى فيه إلا السماء ، ويخيل إلى أن ليس فى الدنيا بشر سوانا ، ووددت لو لم يكن هناك أحد سوى لايزالو » ، ورأى كبير أن الأولى لها أن تستريح هنا حتى يبين الضوء قليلا ، وبسط معطفه الكبير عليها وجلس بجوارها ، واستمعا مليا إلى عصف الريح فى الأعمدة ثم قالت : « إينجل : إذا حدث لى حادث فهل لك أن تتعهد لايزالو إكراما لى ؟ » ، قال : « أفعل » ، قالت : « ما أشد طيبتها وغازاتها ونقاءها ، وليتك إينجل تزوجها إذا فقدتني وأنت فاقدى عما قريب » ، قال : « إذا فقدتك فقدت كل إنسان ، وإن هى إلا أخت زوجتى » .

قالت : « ليس فى ذلك بأس يا عزيزى ، فأهل مارلت وأرباضها يتزوجون أخوات الزوجات ، ولايزالو وديعة لطيفة تزداد كل يوم جمالا ، وكم يسرنى مقى

ارتدنا أرواحا أن أشاطرها إليك ! ليتك تمهدنا بالتدريب والتهذيب وتنشئنا لك خاصة ، إنها تردان بخير ما في وتنزه عن شر ما في ، فإذا صارت لك فكأن الموت لم يفرق بيننا ، لقد قلنا ولن أعود إليها .

وصمتت واستغرق في التفكير ، وكان يستطيع أن يرى في الأفق الشمالى الشرق قبسا من الضوء من بين الأعمدة ، وكانت السحابة المصمتة المقعرة السوداء الشاملة للسماء ترتفع بجاعها كأنها غطاء آنية ، تاركة اليوم المقبل يستهل على طرف الأرض البعيد ، فيبدو فيه سواد الأعمدة الضخمة الشاهقة فرادى وجماعات ، قالت تس : « أكانوا يضحون لله هنا ؟ » قال : « لا » ، قالت : « فلن إذن ؟ » قال : « للشمس على ما أظن ، فذلك العمود المتساق وحيدا متجه في اتجاه الشمس التي ستشرق وراءه عما قليل » ، قالت : « هذا يذكرني بشيء يا عزيزي ، أتذكر أنك أبيت التعرض لمعتقداتي قبل زواجنا ؟ لقد كنت أعلم ما في ضميرك رغم ذلك ، وكنت أعتقد ما تعتقد ، لا لأسباب لدى بل لأنك تعتقد ذلك ، والآن خبرني يا إنجيل : أتحسبنا مجتمعين بعد المات ؟ أريد أن أعرف » .

فقبلها ليتفادى الرد في هذا الظرف ، فقالت وهي تغالب النحيب : « أوه ، يا إنجيل : أخشى أن يكون معنى ذلك لا ، وكلم كنت أحب أن ألقاك ثانية ! ماذا ؟ ألا تتلاقى حتى نحن ، أنت وأنا ، ونحن يجب كل منا الآخر كل هذا الحب ؟ » ، فلم يجب على هذا السؤال الخطير كما لم يجب من هو أعظم منه من قبل ، وساد الصمت بينهما ثانية ، وبعد دقيقة أو اثنتين انتظم تنفسها واسترخت كفها من كفه ونامت ، وغدت الأضواء الفضية الشاحبة على الأفق الشرق تبدى أقصى أرجاء السهل العظيم كأنها دانية مظلمة ، ولاح النظر المتراعى في هيئة التحفظ والتردد الموهودة قبل طلوع النهار ، وبدت الأعمدة الشرقية وعوارضها سوداء حيال حجر الشمس المنحوت على شكل الشعلة القائم وراءها ، وحجر التضحية القائم بين هذا وتلك ، وسرعان ما خمدت ريح الليل ، وسكنت البرك الصغيرة المترققة في تجويفات الصخور ، المستديرة فيها كأنها الفناجين .

وفي نفس الوقت لاح كأن شيئاً لا يجاوز حجم النقطة يتحرك على حافة الوهدة الشرقية ، وكانت تلك رأس رجل يدانيهما من الهوة الواقعة خلف حجر الشمس ، وود كبير لوأنهما كانا تابعا السرى ، أما الآن فقد عول على البقاء في موضعه هادئاً ، وتقدم الرجل مصمماً ميماً دائرة الأعمدة التي كانا داخلها ، وسمع كبير وراءه خفيف أقدام فالتفت فإذا رجل آخر على الأعمدة المجندلة ، وقبل أن يبي إذا آخر دان عن يمينه تحت بوابة من الأعمدة ، وسواء عن يساره ، وارتدى ضوء الفجر على مقدم الرجل القائم جهة الغرب ، فتبين كبير أنه رجل طويل يسير سير المدرّب ، وتجمعوا جميعاً كأنهم يقصدون هدفاً ؛ لقد كانت قصتها إذن صحيحة !

ووثب واقفا والتفت يبحث عن سلاح أو مدر أو منفذ للهرب ، ولكن أقرب الرجال إليه كان إذ ذاك قائماً على رأسه يقول : « لا جدوى في ذلك ياسيدي فنحن ستة عشر على السهل وقد قطع خط الرجعة » ، وتكأ كالباقون فهمس إليهم كبير : « دعوها تكمل نومها ! » ، ولما فطنوا إلى مرقدتها ، ولم يكونوا فطنوا إليه من قبل لم يمارضوا ، ووقفوا يراقبونها جامدين جود الأعمدة المحيطة ، ومشى كبير إلى مرقدتها وانحنى فوقها وأمسك إحدى يدي الناعمة المسكينة ، وكان تنفسها قد ارتد سريعاً قصيراً كأنه تنفس مخلوق دون المرأة ، وظل الجميع منتظرين في الضوء المتزايد ، وكأنما قد فضضت وجوههم وأيديهم وبقية أجسادهم سوداء ، والأحجار تبرىق شهباء مشربة بالخضرة ، وما يزال السهل قطعة من الظلال .

وسرعان ما اشتد الضوء ، وأثار شعاع جسمها النافي وأطل من دون أجفانها فأيقظها ، فقالت بحفلة : « ما هذا يا إينجل ؟ هل جاءوا في طلبي ؟ » قال : « أجل يا عزيزتي لقد جاءوا » ، فغممتم : « هذا ما ينبغي أن يكون ، إينجل : كم أنا جذلي ! أجل ، جذلي ! لم يكن من الممكن أن تدوم هذه السعادة ، فقد كانت أكثر مما ينبغي ، لقد نلت منها كفايتي والآن لن أعيش حتى تزدريني ! » واعتدلت قائمة ، ونفضت نفسها وتقدمت دون أن يتحرك أحد الرجلين ، وقالت في هدوء : « أنا مستعدة ! » .

٥٩

كانت مدينه (وتنسنستر) القديمة الجميلة ، التى كانت فيما مضى قصبة وسكس ، تقوم وسط وهادها ونجادهها فى صباح حار متوهج من أصباح يوليه ، وكانت الدور المحدودة السقوف المبنية من الآجر والقرميد والأحجار قد جف ما عليها من طحلب ، وقد انخفض الماء فى جداول المروج وبدأ فى الشارع الرئيسى المنحدر من البوابة الغربية إلى صليب العصر الوسيط ، ومن هذا إلى الجسر — ذلك الكنس والتنظيف الذى يجرى على مهل وبنى بقدم يوم سوق من أسواق الطراز العتيق .

وكان الطريق من البوابة الغربية سالفة الذكر يصعد كما يعلم كل أبناء وتنسنستر منحدرًا طويلًا منتظمًا ذرعه ميل تام ، خلفا المنازل وراءه شيئًا فشيئًا ، وكان شخصان يسيران صاعدين هذا الطريق من أرباض المدينة وكأنهما لا يحفلان فتيلًا بجهد الصعود ، لا يحفلان به لانشغال بهما لا لجورهما ، وكانا قد برزا على هذا الطريق من بوابة صغيرة فى حائط عال فى أسفل المنحدر ، وكانا كأنهما يريدان الاعتماد عن المنازل وعن الناس ، وكان هذا الطريق أمامهما أقرب الطرق إلى ذلك ، ومع أنهما كانا صغيرين فإنهما كانا يسيران مطرقين ، وقد ابتسمت الشمس على مشيتهما تلك فى غير اكتراث .

كان أحد هذين إينجل كبير ، والآخر مخلوقة طويلة متفتحة بين الطفلة والمرأة ، هى صورة روحية لتس ، أضال منها بنية ولكن لها عيناها الجليتان : تلك لايزالو أخت زوج كبير ؛ وكان وجههما الشاحبان يدوان كأنهما قد تقلصا إلى نصف حجمهما العادى ، وكانا يسيران مشتبكى اليدين لا ينطقان ، وكان إطراق رأسيهما شبيها بإطراق (الرسولين) فى صورة (جيوتو) .

ولما أوشكا أن يلغاة التل الغربى العظيم دقت ساعات المدينة ثمانى ، فأجفل

كلأها لسماع دقاتها ، وتابعا السير خطوات فبلنا أول حجر من أحجار الأميال ، يقوم أبيض فى خضرة إطار العشب المحيط ، ووراء المروج ، وكانت هنا متصلة بالطريق ، فمرجا فيها ، وكأن قوة تغلب إرادتهما أوقفتها فجأة ، والتفتنا وانتظرا جامدين بجانب الحجر .

وكان المنظر الذى ىرى من هذه القمة لا يكاد يحد : كانت المدينة التى غادراها قاعة وسط السهل دونهما ، تبدو مبانيها كأنها فى رسم مجسم لا يجرى على قواعد المنظور فى علم الرسم ، ومن بينها برج الكتدرائية العريض ونوافذها الزمرندية وممشاها وصحنها الهائلان ، وقم كنيسة القديس توماس وبرج الكلية المدبب ، يقوم إلى يمين ذلك جميعاً أبراج وسقوف محدوبة من المضيئة القديمة العهد التى ما يزال عابر السبيل اليوم يستطيع أن ينال فيها نصيبه من الخبز والجمعة وكانت تدور حول المدينة هضبة تل القديسة كترين التارزة ، ووراءها السهول يتلو بعضها بعضاً ، حتى يغيب الأفق فى ضوء الشمس المظلة عليه

وكان ينهض أمام هذه المناظر الريفية المترامية ، وحيال مباني للمدينة الأخرى بناء من الآجر الأحمر ذو سقوف مسطحة شبيهة ، وصفوف من النوافذ القميئة ذات الحواجز الحديدية التى تنطق بالأسر ، فكان بين ذلك البناء الرتيب الطراز وبين المباني القوطية ذات الشذوذ والاختلاف فرق رائع ، وكان يخفيه بعض الإخفاء عن السار فى الطريق أشجار من الصفصاف والبلوط داعة الاخضرار ، أما من تلك القمة فكان ىرى ظاهراً جلياً ، وكانت البوابة التى برز منها الاثنان قاعة فى جدار هذا البناء .

وكان ينهض من وسط البناء برج قبيح المنظر مسطح القمة مضمن الأضلاع بلوح حيال الأفق الشرقى ، يبدو لمن يراه من هذه القمة جانبه المظلل غير المضىء فكأنه البقعة السوداء الوحيدة على جمال تلك المدينة ، بيد أن الناظرين كانا مشغولين بهذه البقعة عن جمال المدينة ، وكانت على أفواف البرج سارية طويلة مثبتة قد تركز بصراها عليها ، وبعد دق الساعة بدقائق تعالى على السارية شىء

بطيء ثم انتشر في النسيم ، وكان ذلك علما أسود .  
لقد نفذ (العدل) ، وفرغ كبير الآلهة كما يقول أسكليس من تلاعبه بتس ،  
وتابع نبلاء دربر فيل ونبيلاتهم رقاهم في قبورهم غافلين ؛ وركع الناظران الصامتان  
على الأرض كأنهما يصليان ، وظلا كذلك زمنا طويلا ساكنين بلا حراك ،  
واستمر العلم في خفوقه الصامت ، ولما عاودتهما قواهما نهضا وشبكاً يديهما  
ثانية وواصل السير .



Bibliotheca Alexandrina



0398994